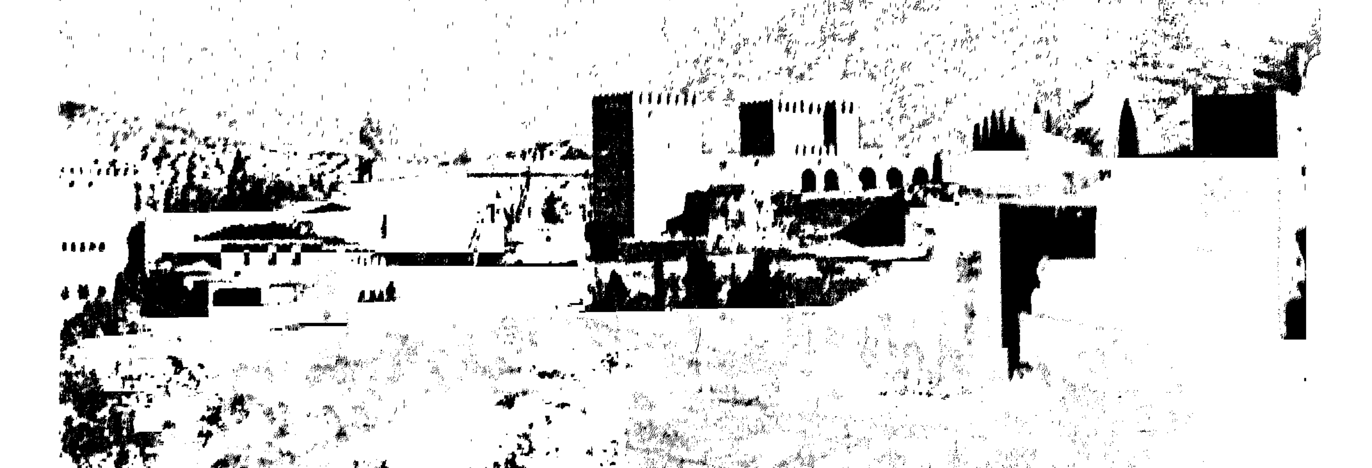


فصول فى تاريخ الأندلس

بداية النهاية

ترجمة: دكتور عبد الفتاح عوض





فصول فى تاريخ الأندلس

ترجمة
دكتور عبد الفتاح عوض
رئيس قسم اللغة الإسبانية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى
٢٠٠١



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
ᶜEIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:ĔIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديـم

الأندلس حالة فريدة فى تاريخ الإسلام ، لأنها الحالة الوحيدة التى تُمثل قيام حضارة متميزة : فهى مزيج من ثقافة الإسلام ، والثقافة الوطنية التقليدية الأصيلة . وقد ازدهرت تلك الحضارة ازدهاراً هائلاً تركت بفضله بصماتها ليس على التاريخ الإسلامى كله فحسب، ولكن على التاريخ العالمى كذلك .

كما مرت بضعف فذبول فتدهور فتراجع فاندثار ، وإن تركت وراءها بعض « الرواسب » أو « البقايا » و « المخلفات الثقافية » - حسب التعبير الأنثروبولوجى فى المجتمع الأسبانى حتى الوقت الحاضر .

والمادة العلمية الخام التى تسجل تفاصيل الأحداث والوقائع التاريخية التى لابست قيام الأندلس وازدهارها ثم ضعفها وتدهورها واندثارها متوفرة ، وتمتلىء بها كتب التاريخ . كذلك فإن هناك ذخيرة ضخمة وهائلة وثمينة من المعلومات المتعلقة بانجازات هذه الحضارة فى مختلف العلوم . ولكن هذه المادة العلمية الضخمة لاتزال فى حاجة إلى أن تعالج من وجهات نظر جديدة ، وفى ضوء مواقف محددة ، وباستخدام مناهج تختلف عن مناهج الوصف والسرد المتبع فى معظم الكتابات ، كما أنها لاتزال فى حاجة إلى أن تؤخذ بوصفها وحدة متكاملة ، فيتم تحليلها بالإشارة إلى نظرية محددة تعين على تعرف العلاقات القوية ، والتأثيرات المتبادلة ، والتساند الوظيفى بين مختلف النظم ، وعناصر الثقافة ، ومظاهر الحضارة الأندلسية وانجازاتها المختلفة .

الأمر يحتاج إذن إلى إعادة النظر فى مناهج دراسة حضارة الأندلس ، والاستعانة بمناهج العلوم الاجتماعية ، والأنثروبولوجية والسيكولوجية وغيرها ، فى تحليل المادة العلمية الوفيرة، وذلك ضمن نظرة شاملة للحضارة العربية الإسلامية ككل ، أو حتى فى ضوء مسار

الإنسانية بعامة ، والحضارات الأخرى التى قامت ، ثم انزوت ، ومرت بنفس المراحل ، التى مرت بها حضارة الأندلس ، رغم اختلاف العناصر الثقافية المكونة لكل منها .

لقد استقلت الأندلس بخلافتها رسميًا عن المشرق ، وتوسعت الدولة ، وتطلعت بطموحها السياسى إلى ما وراء الجزيرة الأيبيرية ، وتوطدت دعائم الحكم ، على يد ثلاثة من كبار رجالات السلطة العظام ، هم : الناصر والمستنصر والمنصور .

لقد بلغ العمران ذروة عنفوانه وشموخه فى القرن السابع الهجرى - الثالث عشر الميلادى - ففيه توسع النشاط العلمى ، وظهرت بوادر نضجه ، وأصبح يتطلع إلى تكوين نوع من السمات الشخصية التى تميزه عن كل نشاط علمى فى البلدان الأخرى .

ومنذ بداية ذلك القرن ، حين أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة ، واضعًا بذلك إطاراً سياسيًا فاصلاً لبلاده عن التبعية للمشرق ، كانت هنالك نوايا حقيقية أخرى للإمعان فى هذا الاستقلال وإبرازه فى مختلف صوره . وبعبارة أخرى ، كان الناصر يعمل جاهداً لخلق كيان حضارى يطبع الأندلس بطابع خاص ، ويجعلها فى الميدان العمرانى والثقافى على نحو ما هى عليه من الناحية السياسية والعسكرية ؛ قوية ، ومستقلة ، وموحدة ، ومنافسة لعواصم الشرق الكبرى ولاسيما بغداد العباسية التى أصبح نفوذها وسلطانها يتقلصان يومًا بعد يوم . فكان على الأندلس الأموية أن تهيىء نفسها لتلعب الدور التاريخى الذى لعبته ، وكان عليها أن تتألق وتتأنق حتى تجتذب الأنظار وتصبح حاملة لواء الحضارة الإسلامية فى هذا الجناح من العالم الإسلامى .

ولكن الأندلس عاشت سلسلة من المآسى والنكبات ، كان لها أسوأ الأثر على وجودها المادى والحضارى ، وعانت بسببها احتضاراً رهيبًا ، امتد فى الزمان إلى خمسة قرون كاملة ، بحيث لم يكن يظهر فى أفقها بوارق الأمل فى النجاة والحياة ، حتى تختفى وراء حجب كثيفة من الظلام واليأس .

لقد كانت نكبة مدينة قرطبة فى فجر القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى - بداية لهذه السلطة من المحن ، وأول منعطف خطير فى تاريخ هذه الحضارة الشهيرة . ففيها كتب أول فصل من فصول الفاجعة . ومنذ هذا التاريخ ، بدأت علامة استفهام عملاقة ، تظهر فى قطرب ووجوم أمام مصير الأندلس ، معلنة بداية لنهاية مظلمة .

والواقع أن ما حدث فى مطلع القرن الهجرى الخامس - الحادى عشر الميلادى - ، من انهيار دولة الخلافة ، ونشوب فتن داخلية ، أدت إلى خراب حضارة شامخة ، لم يكن بعيداً

عن حتمية التاريخ ، وعما قدره المؤرخ العربي الكبير « ابن خلدون » فى أن " الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص "(١) فمتى توفرت أسباب موضوعية للانهيار فى دولة ما ، وأصبح أهلها غير قادرين على حمايتها ، وضمان سير حياتها ، سارع الخراب إلى تلك الدولة، وحلت ساعة نهايتها .

لم تكن المأساة إذن إلا مأساة لمعالم وطنية تنحدر ببطء إلي الضياع والنهاية ، ومأساة لمعالم دينية ، تتلاشى يومًا بعد يوم ، ومأساة للإنسان الذى يشاهد كل يوم ، جانبًا من جوانب حضارته يتحطم وينهار ، وصرحًا من صروح المجد يتحول إلى خراب ودمار . إن للنكبة هنا مفهومها الخاص ، فهى لا تعنى تلك النوائب والمحن التى تمر بالناس فى ظروف حياتهم العادية ، وإنما نعنى بها هنا ، تلك المأساة التى عاشتها الأندلس فى تلك الفترات التاريخية الطويلة المظلمة ، وفقدت فيها خصائص حياتها ومميزات معالمها الوطنية والدينية والفكرية والحضارية .

والنكبة بهذا المفهوم تبتدىء من القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى - ؛ أى منذ أخذت بعض مدائن الأندلس تسقط فى يد الملوك الكاثوليك « فرناندو وإيزابيل » ، مثل مدينة « ببشتر وطليطلة » فى أيام ملوك الطوائف ، ثم تمتد لتشمل بعض المدائن الأخرى ، التى سقطت فى عصر المرابطين مثل مدينتى « سرقسطة وبلنسية » . ثم تمتد بعد ذلك لتشمل أغلب المناطق والحصون والمدن فى القرن الهجرى السابع - الثالث عشر الميلادى - على أيدى الموحدين ؛ أى فى الوقت الذى اشتدت فيه حملات الملوك الكاثوليك على الأندلسيين . ثم تأتى المرحلة الأخيرة فى هذه المسيرة المأساوية ، حين انهارت غرناطة آخر المدن الأندلسية .

وأمام هذه المحن والنكبات ، رأينا أن نترجم إلى لغتنا العربية مجموعة من الدراسات الأندلسية ، كتبها نخبة من الباحثين ، باللغة الإسبانية ، عن تاريخ الوجود العربى الإسلامى فى الأندلس وأفوله .

وتدور إحدى هذه الترجمات ، حول حقيقة سقوط غرناطة ، والرسائل المتبادلة بين الأمير أبو عبد الله ، والملوك الكاثوليك . وهى للباحثة « ماريا دل كارمن بيسكادور دل أويو » ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، الفصل الرابع عشر ، ص ٣٠٤ .

وبخصوص هذه الرسائل فقد التزمنا نقلها للعربية كما وردت فى الإسبانية ، وترجمة عن رحيل أبى عبد الله مع أسرته وكبار أتباعه من الأندلس للباحث " مانويل جاسبار رميرو " .

وتدور الترجمات الأخرى عن فترة بدأية الانشقاقات لابن مروان الجليقى ، ومملكة المنذر ، وتطور حركة الثورة فى الأندلس ، وانهيار السلطة الملكية تحت حكم الأمير عبد الله ، وأمارة ابن الحجاج ، والموقف فى الثغور خلال تلك الفترة العصيبة فى تاريخ الأندلس . للباحثين «ليفى بروفنسال » و « رامون مينينديث بيدال » وعرض « إميليو جارثيا جوميث » ؛ وكذا تمرد عمر بن حفصون ، من خلال الدراسة الجغرافية المتأنية لقلعة بيشتر ، للباحث « خوا كين بالبيه » و « لويس سورايث فرنانديث » و « بدرو شالميتا » .

ونقول إن دراسات الباحثين فى تاريخ إسبانيا الإسلامية عامة ، وحضارة الأندلس خاصة ، المسطرة باللغة الإسبانية ، تتطلب جهداً جماعيًا من المشتغلين بالدراسات الأندلسية والإسبانية، لنقل رؤية هؤلاء الباحثين ، ومقارنتها بما كتبه مؤرخونا ، إحقاقًا للحق ، ولبيان فضل تلك الحضارة تاريخيًا وسياسيًا وفكريًا .

لقد مست النكبة كل شيء : مست الأرض التى درج عليها قوم كانوا قد حرروها من الظلم والاستعباد والوحشية والتأخر والقهر . الأرض التى أحبها الأندلسيون حتى الأعماق ، وامتزجت ظلالها وأنهارها وأشجارها ، وكل شيء فيها بأرواحهم ودمائهم عبر ذلك التاريخ الطويل – تسقط الآن تحت أقدام خيل الملوك الكاثوليك فى غير رحمة ، وتتقلص ظلالها يومًا بعد يوم ، إلى أن تصبح قطعة صغيرة تضم بقايا حضارة ، تستعد للسقوط النهائى .

ومست الدين فى معالمه الكثيرة . فى مساجده ، ومآذنه ، ومحاريبه ، وفى كل قيمه ومثله. ومست معاهد النور والعلم ، التى كانت مصدر إشعاع الفكر وينبوع الروح والحضارة. ثم تحولت إلى رسوم وأطلال ، تعبث بها الرياح والعواصف .

ومست الإنسان الأندلسى . من خلال تلك المذابح والمجازر التى كان يقيمها قادة محاكم التفتيش للشيوخ والعجزة والأطفال والنساء ، فى مناظر تتقزز منها النفس الإنسانية لبشاعتها ووحشيتها .

هذه بعض عناصر مأساة الأندلس فى تلك الفترات التاريخية الطويلة المظلمة الرهيبة . وقد عبر عنها الشعر الأندلسى ،وخلدها فى ثروة ضخمة من المشاعر الحزينة والدموع الغزيرة ، وهى ثروة نفيسة تحكى بصدق ، وفى عاطفة مشبوبة قصة قوم أضنتهم النكبات ومزقتهم المحن والمآسى .

لقد كان لسقوط طليطلة أثر عميق فى نفوس الأندلسيين ، عبّر عنه الشعراء فى غضب وبكاء ، على المدينة العظيمة التى فقدت أمة الإسلام بنكبتها ركنًا من أركانها ، وحصنًا من حصونها .

يقول شاعر مجهول فى نكبة هذه المدينة[١] مشيراً إلى خطة ملوك الطوائف المتواطئة :

وقيل تجمعوا لفراق ثكلى　　طليطلة تملكها الكفور
فقل فى خطة فيها صغار　　يشيب لكربها الطفل الصغير
لقد صُمَّ السميع فلم يعوّل　　على نبأ كما عمى البصير

ولنستمع إلى نونية صالح بن شريف المعروف بأبى البقاء الرندى ، التى يبكى فيها المدن الأندلسية التى سقطت فى قبضة الملوك الكاثوليك ، منتقداً فيها أولئك الراتعين وراء البحر فى دعة[٢] قائلاً:

لكل شىء إذا ما تم نقصان　　فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول　　من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد　　ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتمًا كل سابغة　　إذا نبت مشرفيات وخرصان
وينتضى كل سيف للفناء ولو　　كان ابن ذى يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن　　وأين منهم أكاليل وتيجان
أين ما شاده شداد فى ارم　　وأين ماساسه فى الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب　　وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكل أمر لا مرد له　　حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك　　كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله　　وأم كسرى فما آواه إيوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب　　يومًا ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر أنواع منوّعة　　وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها　　وما لما حل بالإسلام سلوان

(١) نفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٤ . أزهار الرياض جـ ١ ، ص ٤٧ .

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحُد وانهد ثهلان

أصابها العين فى الإسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان

فسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيّان

وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كنّ أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان

تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان

على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ

حيث المساجد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان

يا غافلاً وله فى الدهر موعظة ... إن كنت فى سنة فالدهر يقظان

وماشيًا مرحًا يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغرّ المرء أوطان

تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيان

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها فى مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها فى ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر فى دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان

ألا نفوس أبيات لهم همم ... أما على الخير أنصار وأعوان

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم كفر وطغيان

بالأمس كانوا ملوكًا فى منازلهم ... واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرّق أرواح وأبدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذا طلعت ... كأنما هى ياقوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان فى القلب إسلام وإيمان

وأخيراً عندما سقطت غرناطة آخر معقل للإسلام والعرب فى الأندلس ، لم يبق الشعر يشير إلي الأخطار المحدقة بالأندلسيين فحسب ، ولكنه يشير إلى الأخطار التى تحدق بالأمة الإسلامية كلها ؛ من ذلك قصيدة الفقيه ابن الدقون التى بكى فيها غرناطة[١] بقوله :

هذا النذير جهاراً جاء ينذرنا ... والأذن فى صمم عن قيل أو قال

ونحن فى غفلة عما يراد بنا ... نمشى على مهلة من طول إمهال

إننا نجد النغم الحزين فى شعر الأندلسيين ، الذين بكوا الأندلس بعد سقوط غرناطة ؛ إذ شعروا فى أعماق نفوسهم بالهزيمة واليأس الشامل ، وأدركوا فى يقين أن آخر شمعة كانت لهم فى تلك الديار قد انطفأت ، وأنه لم يبق لهم إلا هذا الظلام الكثيف ، وهذا اليأس القاتل ، ومن ثم عبروا بصدق عن تلك الإحساسات التى كانت تنتابهم بين الحين والآخر ، ونظموا شعراً تتجلى فيه هذه الروح اليائسة ، وهذا الألحان الحزينة ، ويكفى هنا أن نشير إلى ما نظمه ابن عبد الله العربى العقيلى على لسان أبى عبد الله آخر ملوك الأندلس معتذراً ، طالبًا العفو والغفران ، ومتوسلاً إلى سلطان فاس الشيخ الوطاس ، راجيًا ألا يأخذه بأقوال الوشاة ، ولا يعاتبه على أشياء قدرّت ، وأن ينزله فى جواره المنزلة اللائقة [٢]:

إيه حنانيك يا ابن الأكرمين على ... ضيف ألم بفاس غير محتشم

فأنت أنت ، ولولا أنت ما نهضت ... بنا إليها خطى الوخاذة الرسم

مولى الملوك ، ملوك العرب والعجم ... رعيًا لما مثله يرعى من الذمم

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم

حتى غدا ملكه بالرغم مستلبًا ... وأفظع الحظ ما يأتى على الرغم

فهذا الانكسار ، وهذا الضعف فى الروح ، وهذا البكاء الغزير والاستسلام للأيام والخطوب فى قصيدة العقيلى كانت نتيجة من نتائج انهيار الأندلس الشامل .

ومن مراثى الأندلس هذه المرثية لأبى جعفر بن خاتمة التى نظمها سنة ٩٠٤ أو ٩٠٥ هـ ، أى فى أثناء سقوط غرناطة وكانت رنده قد سقطت من قبل .

---

(١) أزهار الرياض جـ ١ ، ص ١٠٤ ومابعدها .

(٢) نفح الطيب جـ ٦ ، ص ٢٨٠ ؛ أزهار الرياض جـ ١ ، ص ٧٢ .

أحــقًّـا خــبـا مـن جــوّ رُندة نـورها ... وقـد كـسـفت بعـد الشـمـوس بدورها

وقــد أظـلمـت أرجــاؤها وتزلـزلت ... منـازلهـا ذات العـلا وقـصـورها

أحــقًّــا خليلى أن رندة أقــفــرت ... وأزعج عنهـا أهلهـا وعـشـيـرها

وهدت مـبـانيـهـا وثُلّت عـروشـهـا ... ودارت على قطب التـفـرق دورها

مـنـازل آبـائـى الـكـرام ومـنـشـأى ... وأول أوطان غــذانى خـيـرها

فـمـالقـة الحـسناء ثكلى أسـيـفـة ... قد استفرغت ذبحًا وقتلاً حجورها

وجـزت نـواصـيـهـا وشلت يمينهـا ... وبدل بـالـويـل المـبـين سـرورها

وقـد كـانت الغـربيـة الجنان التى ... تقيهـا فـأضحى جنة الحرب سورها

وبـلـش[1] قطّت رجلهـا بيـمـينهـا ... ومـن سـريـان الـداء بان فـطورها

وضـحت على تلك الثنيـات حـجـرها ... فـأقـفـر مـغناها وطاشت حـجـورها

وبالله إن جـئـت المنكّب[2] فـاعـتـبـر ... فـقـد خف ناديهـا وجف نضـيـرها

وقـد رجـفـت وادي الأشى[3] فـبقـاعـهـا ... سكارى ومـا استـاكت بـخـمر ثغـورها

وبـسـطـة[4] ذات الـبـسط مـا شعـرت بما ... دهاها وأنّى يـسـتـقـيم شـعـورها

ومــا أنس لا أنس المرية[5] أنهــا ... قـتـيـلة ادجــال ازيل عـذيرها

ألا ولتـقـف ركب الأسى بمعـالم ... قـد ارتج باديهـا وضج حـضـورها

بدار العلى حـيث الصـفـات كـأنهـا ... من الخلد والمأوى غـدت تستطيـرها

مـحل قـرار الملك غـرناطة التى ... هى الحضـرة العليـا زهتـهـا زهورها

ترى للأسى أعـلامـهـا وهى خـشع ... ومنبـرها مـسـتـعـبـر وسـريرها

---

(١) بلش مالقة وكانت من أمصار الأندلس .

(٢) المنكب على البحر أقرب مرفأ إلى غرناطة

(٣) أو وادى الأساة .

(٤) من مدن مملكة غرناطة إلى الشمال الشرقى منها .

(٥) المرية كانت من أعظم ثغور الأندلس .

ومأمومها ساهي الحجى وأمامها | وزائرها في مأتم ومزورها
وجاءت إلي استئصال شأفة ديننا | جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات أخذ ما لنا قبل بها | جنايات أخذ قد جناها مثيرها
فلا تنمحي إلا بمحو أصولها | ولا تنجلي حتى تحط أصورها
معاشر أهل الدين هبّوا لصعقة | وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهدّ ركنه | وزعزع من أكنافها مستطيرها
إلا واستعدوا للجهاد عزائمًا | يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأسد على جرد من الخيل سبّق | يدعُ الأعادى سبقها وزئيرها
بأنفسٍ صدق موقنات بأنها | إلى الله من تحت السيوف مصيرها
فواحسرتاه كم من مساجد حولت | وكانت إلى البيت الحرام سطورها
ووا أسفا كم من صوامع أوحشت | وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى | وآياتها تشكو الفراق وصورها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة | إذا أسفرت يسبى العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا | وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة | وقد هتكت بالرغم منها ستورها

وصف صاحب هذه القصيدة سقوط مملكة بني الأحمر مدينة بعد مدينة وكانت صُبابة كأس الأندلس ، فذكر رندة ثم مالقة وبلش ثم المنكب ثم وادى آش ثم بسطة ثم المرِّية ، وختم ابن خاتمة مناحته بذكر غرناطة أم البلاد .

إننا نأمل أن تحقق هذه الدراسات التى قمنا بترجمتها من اللغة الإسبانية إلى لغتنا العربية، الهدف المرجو منها .

ومن الله نستمد الهداية والتوفيق

عبد الفتاح عوض



(١)

التمرد والثورة فى الأندلس

بداية الانشقاقات لابن مروان الجليقى فى إقليم ماردة

(بقلم : ليفى بروفنسال ، رامون مينينديث بيدال ، إميليو جارثيا جوميث)

انتظرت ماردة ، عاصمة الثغر الأدنى ، وقتًا أطول من طليطلة لتتمرد من جديد ضد السلطات الأموية . ومن المحتمل ألا يكون لهذا التمرد - الذى قمعه الأمير محمد الأول على الفور - أصداء خطيرة ؛ إذ لم يظهر الباعث الرئيسى لابن مروان الجليقى على الساحة السياسية إلا بعد سبع سنوات ، حين أعلن نفسه بطلاً للاستقلال فى غرب الأندلس .

وعلى حين استمرت مملكته ، استطاع محمد الأول أن يجعل جهوده على الحياد ، ولكن الذين خلفوا الأمير محمداً فى عرش قرطبة لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا ضد ابن مروان ، ولا منعوه من تعضيد السلطة التى ادعاها لنفسه فى إمارته ، التى لم تستعدها الحكومة الإسبانية الأموية ، حتى فترة زمنية طويلة فى عام ٩٣٠ م (٢١٨هـ) .

أما اسم ابن مروان[١] فإنه : عبد الرحمن بن مروان بن يونس ، ولكنه كان يعرف على وجه الخصوص باسم ابن الجليقى ؛ إذ كان ينتسب لأسرة من المولدين ، منبتها شمال البرتغال ، واستقرت منذ وقت طويل فى ماردة . وأما والده ، مروان ، فإنه كان يشغل منصب حاكم هذه المدينة ، لحساب الأمير عبد الرحمن الثانى ، وقد قام موظفوه باغتياله فى عام ٨٢٨م (٢١٣هـ) .

ولم يبد الابن أية مظاهر للوفاء ، واستطاع أن ينفض ، مع بعض المولدين المرتدين ، أو المستعربين ، نير وعبودية الأمويين فى عام ٨٦٨ م (٢٥٤هـ) .

وجاء رد الفعل فوريًا من جانب محمد الأول ؛ إذ رحل لمحاصرة ماردة على الرغم من إقناع من حوله ، بأنه كان ذاهبًا إلى طليطلة . وبعد عدة أيام من الحصار طلب أهالى ماردة ، الذين لم يكونوا على استعداد للمقاومة ، الاستسلام . وتم دعوة قادة التمرد ، وخاصة عبد الرحمن الجليقى ، للإقامة فى قرطبة مع عائلاتهم والعمل لدى الجيش . وتم هدم أسوار ماردة ، والإبقاء على القصبة فقط ، لتكون مقراً للحاكم سعيد بن العباس القراشى وللفرقة النظامية .

وظل ابن مروان ، الذى اعتاد أن يلقبه المؤرخون بابن الجليقى ، على هذا الحال فى قرطبة حتى عام ٨٧٥م (٢٦١هـ) أى إلى أن وقع خلاف بينه والوزير هاشم بن عبد العزيز ، الذى أهانه بفظاظة لدرجة الاعتداء عليه بالضرب . الأمر الذى أثار حمية هذا المولد ، أمام هذه الإهانة البالغة ، فقام فى الحال بمغادرة قرطبة ، والتوجه من جديد إلى غرب شبه الجزيرة .

ولما كان غير متمكن من الدخول إلى مدينته ، لجأ إلى التمركز فى بعض الحصون ، مع بعض مريديه ، الذين تبعوه فى هروبه فى قلعة الحنش[٢] الواقعة على بعد عشرين كيلو متراً من جنوب شرق ماردة .

وهناك توجه الأمير محمد الأول لمحاصرته ، على مدار شهور ثلاثة . ونظراً لنقص الموارد المائية ، وقيامهم بذبح خيولهم للطعام منها ، فقد كان لزامًا على المحاصرين أن يطلبوا عقد هدنة . ومع ذلك لم يتوجه ابن مروان إلى قرطبة ، ولكن سمح له بالإقامة فى بطليوس ، التى كانت قرية متواضعة بوادى آنه ، شريطة أن يترك حفيده رهينة فى قرطبة .

ولم يكن هذا الاحتياط من جانب الأمير ، بذى فائدة ؛ إذ عاود ابن مروان بعد عدة شهور عملية التمرد ، واهتم بتحصين بطليوس ، لتكون فى ظروف تتحمل الحصار .

ولكن الأمير محمد الأول لم يمهله وقتًا كافيًا ؛ إذ توجهت فى الصيف التالى فى عام ٨٧٦م (٢٦٢هـ) عدة فرق لإخضاعه ، أرسلها القائد هاشم بن عبد العزيز ، الذى قام بنفسه بالمواجهة مع ابن مروان .

وخلال هذه الأثناء استطاع ابن مروان ، أن يحصل على مساعدة من أحد الثائرين المولدين، وهو سعدون السرنباقى ، الذى انتفض بقلعة منت شلوط [٣]. وحين علم عبد الرحمن بن مروان

بوصول الجيش الأموى ، قام بالانتقال قليلاً نحو الجنوب ، إلى قلعة كركر (٤). على حين أرسل سعدون السرنباقى طالبًا تعزيزات من ألفونسو الثالث ، خليفة أوردونيو الأول . وفى الواقع لم تتأخر بعض الفرق الأشتورية فى الانضمام إلى ابن مروان وسعدون .

أما هاشم ، القائد القرطبى ، فقد اتجه إلى إقليم وعر للغاية ، ورأى أنه مجبر على تقسيم جيوشه إلى عدة فرق أمنية ، الأمر الذى سهل هزيمته ، فضلاً عن سقوطه أسيراً .

واعترافًا من ابن مروان بالجميل لملك اشتوريش ، أرسل الأسير هاشم بن عبد العزيز إليه فى أوفييدو ، حيث مكث عامين . ذلك لأنهم طلبوا لإطلاق سراحه ، دفع مبلغ مائة ألف دينار. ولم يتم إطلاق سراحه إلا بعد جزء من مبلغ الفدية المذكور ، وتم الاحتفاظ برهينتين من إخوته هما ابنه وابن أخيه إلى أن يتم دفع الجزء الباقى .

وبهذا انتقم ابن مروان ، بطريقة فائقة ، من الإهانة التى كان قد وجهها له الوزير العربى فى العام السابق فى قرطبة .

ولم يغب عن ابن مروان ، أن الأمير محمداً الأول سيقوم بجمع كل قواته المتأهبة ، للقضاء عليه فى عقره داره . وقد تم هذا بالفعل ، إذ سلك ولى العهد الأمير المنذر الطريق المؤدى إلى ماردة ، فى صيف عام ٨٧٧ م (٢٦٣هـ) . فقام ابن مروان بالجلاء عن بطليوس التى كان قد عاد إليها .

وقد أدرك ابن مروان ، بعد أن تقابل مرتين مع القوات الموالية (٥)، أنه لم يكن على مستوى القوة الكافية لمواصلة الصراع ، فقرر - لهذا السبب - الانضمام إلى ألفونسو الثالث، ليكون تحت رايته . وظل على هذا النحو إلى جانب ملك أشتوريش مدة ثمانى سنوات ، أو على الأقل - كما يقول المؤرخون - لم يظهر له أى نشاط فى أراضى المسلمين ، خلال هذه الفترة .

وفى الواقع ، فإننا لم نعد نرى اسم ابن مروان حتى عام ٨٨٤م (٢٧١هـ) ؛ إذ بعد أن قطع علاقاته مع الملك المسيحى ، عاد إلى بطليوس حيث تم طرده على أيدى الجيش الأموى ، الذى أرسله المنذر ، والذى قام بحرق مقر إقامته .

ثم توجه ابن مروان إلى الشرق ، عن طريق وادى آنه ، وتمركز فى ميدان أشبرغيرة الحصين(٦)، وقد تمت محاصرته فيه ، فى الصيف التالى ، دون أن تتحقق نتائج ملموسة ، على أيدى ابن الأمير الحاكم عبد الله والقائد هاشم بن عبد العزيز .

ولو أخذنا بأقوال المؤرخ ابن القوطية ، فقد أجرى محمد الأول - فى تلك الأثناء - مفاوضات مع الثائر الجليقى ، الذى استطاع أن يبسط حركته حتى شمال شنتمرية الغرب ، ولم يتوقف عن إعطاء ضربات مؤثرة ، ضد ضواحيد. أكشونبه ولبله ، بما فى ذلك الطرق على أبواب أشبيلية ذاتها [٧].

وفى نهاية المطاف ، ترك العاهل القرطبى ، قبل أن تواتيه المنية ، حرية التصرف فى بطليوس . أما خليفته المنذر ، رغم فترة حكمه القصيرة ، فقد كان يواجه انشغالات عاجلة ، تتجاوز إخضاع عبد الرحمن بن مروان الجليقى . وحين تولى الأمير عبد الله ، بدوره ، السلطة كان عليه أن يواجه صعوبات بلا حصر ، الأمر الذى أدى إلى إتاحة الفرصة للإبقاء على العلاقات الطيبة مع صاحب بطليوس المستقل ، وأنه سواء أرضىَ أم لم يرض كان عليه أن يعترف بوجود إمارته .

مملكة المنذر (٨٨٦ - ٨٨٨م) وتطور حركة الثورة فى الأندلس :

احتفظ الأمير المنذر بهذه السلطة لمدة تقل عن عامين ؛ إذ أعلن عن تنصيبه أميراً ، ليتولى العرش يوم ٩ أغسطس ٨٨٦م (٣ ربيع أول ٢٧٣هـ) بعد أن تجاوز الأربعين عامًا بقليل[٨]، ثم قضى نحبه فى حملة بعد ثلاثة وعشرين شهراً ، فى ظروف مأساوية - كما سنرى . ويأسف المؤرخون العرب على وفاته المبكرة ، ويرون أنه لو كان قد أمهله القدر قليلاً ، لكان قد قضى على التمرد والثورة فى الأندلس تمامًا .

وعلى كل حال ، فقد استشرت الثورة فى الأندلس ، نظراً للفترة القصيرة التى مكثها الأمير المنذر ، وقد وصفه كتّاب سيرته الذاتية بأنه الأمير الكريم والعطوف على رعيته ، كما أنهم يثنون عليه ، بصفة خاصة ، لروح الشجاعة والإقدام لديه .

ومنذ عام ٨٨١ م (٢٦٨هـ) بدأت علاقته مع الوزير والقائد - المفضل لدى والده - هاشم ابن عبد العزيز ، تتسم بالفتور ، وبعد ذلك بفترة من تنصيبه أميراً ، وتعليلاً لبعض الشكاوى ضده ، تعجل بالتخلص منه ، والأمر بسجنه وتنفيذ حكم الإعدام فيه فى السجن . وتم إلقاء القبض على أبناء هاشم وأعوانه ، وكان عليهم أن يدفعوا للدولة غرامات بالغة القيمة ، كما تمت مصادرة ممتلكاتهم ، حتى جاء إلى الحكم الأمير عبد الله ، الذى أمر بإعادتها لهم ، بعد وقت ليس بالقصير ، وبإطلاق سراحهم .

وقد أفاد عمر بن حفصون - صاحب روح وبصيرة ثاقبة ونظرة واقعية زائدة عن الحد - من الفرص السانحة ، عند تغيير الأمير في عرش قرطبة . ففي الوقت الذي كان فيه الأمير المنذر مشغولاً في العاصمة ، بأداء يمين الولاء ، وإعطاء قواته الهدايا التقليدية ، احتفالاً بتنصيبه أميراً ، لم يقف الثائر ابن حفصون مكتوف اليدين ، فأثار بكلماته حمية الفلاحين الأندلسيين الغارقين في الضرائب ، والمساعدات غير القانونية ، وتقديم الخدمات الشخصية التعسفية ، وأوعز إليهم أن يثوروا ، حين خطب فيهم قائلاً : « منذ وقت طويل وأنتم تتحملون سياط هذه الحكومة التي تنزع ممتلكاتكم ، وتفرض على كاهلكم الأحمال الثقيلة ، على حين يجبركم العرب على الخضوع والإذعان ويعاملونكم كما يعاملون العبيد . إن الأمر الوحيد الذي أريده لكم هو أن تتمتعوا بالعدل ، وأن تتخلصوا من هذا القسم » (٩).

وكانت هذه الخطب داعيًا للحماس ، فلم يكن الحديث يدور ، في كل المنطقة الأندلسية ، إلا عن ابن حفصون ، مدحًا وثناءً على خصاله وصفاته ، فهو الرجل الشهم النبيل الكريم - وقد أصبح الواقع ، بالفعل ، هكذا - باحترامه للنساء ، ولميثاق الشرف ، وطلبه للعدل ضد القائم بأي عنف . وكان جنوده يقدرونه لأنه كان يعرف كيف يشجعهم على حبه لشخصه ؛ إذ كان يغدق عليهم النياشين العسكرية الحقيقية ، حينما كانوا يتفوقون في المعركة ، مثل القلادات الذهبية ، التي كان يقدمها لهم في احتفال مهيب أمام القوات .

وقد بدأت أراض جديدة تنضم إليه ، رويداً رويداً ، حتى اتسعت ممتلكاته ، فاستولى على باغو ، وقاموا بأسر قائد الفرقة ، وقام بإغاراته حتى قبره ، وأبعد من ذلك حتى طريق جيان . كما استولى على قلعة حصن آشر وأقام فيها الموالون له .

وفي الصيف التالي لتنصيبه أميراً ، استأنف المنذر الكفاح ، ضد ابن حفصون . وفي هذه المرة لم يستنكف من القيام بهذه المهمة شخصيًا ؛ إذ إن نتائج المهمة - التي كلف بها ثلاثة من قادته ، فتوجهوا إلى الأندلس ، على رأس فرق من الفرسان . واستعادوا حصن آشر ، وقامت قواتهم النظامية ، بنشر الرعب والفزع بين الثائرين المتمردين تجاه إقليم الليسانة - لم تكن كافية ، على الرغم من أنها كانت في صالح هذه القوات .

وحين أدرك المنذر هذا الموقف ، قرر القيام بعملية كبيرة الحجم ، قام بالإشراف عليها بنفسه. وفي أوائل ربيع عام ٨٨٨م (٢٧٤هـ) - وبعد فترة سقوط الأمطار الفجائية التي جعلته ينتظر حتى فبراير - خرجت المجموعات الأموية التي أرسلها الأمير بنفسه ، من قرطبة

تجاه طريق الجنوب بهدف الاستيلاء على القلاع الكائنة فى قبضة الثوار المتمردين ، ومحاصرة ابن حفصون فى قلعة ببشتر . وفى البداية قام الأمير المنذر بمحاصرة أرشدونه الكائنة فى مقاطعة ريه الواقعة بين انتقيره ولوشه، حيث كانت سلطة ابن حفصون ممثلة فى شخص مولد يسمى عيشون . وبرشوة بعض سكان المدينة استطاع الأمير أن يتسلمه حيًا ، ليقوم بصلبه بعد ذلك بين كلب وخنزير .

وقد استسلمت أرشيدونة بسرعة ، وبمطلق الحرية ، وألقى القبض على الرؤوس الكبيرة ، وأرسلت إلى قرطبة ، حتى يتم صلبها . كما لقى نفس المصير ثلاثة من الثائرين المتمردين التابعين لقائد ببشتر ، وهم : حارث وعيد وتالوت ، من بنى مطروح ، الذين كانوا يقيمون قلاعًا فى سلسلة جبال باغو . وبعد ذلك توجه الأمير المنذر مباشرة بحملة ضد ابن حفصون ، وتمركز بقواته أمام أسوار قلعته ببشتر .

هل كان القائد الثائر المولد (ابن حفصون) خائفًا من عدم إمكانية المقاومة ، أو كان يشعر بالمهارة الفائقة لخداع أمير قرطبة ؟ إذ المؤكد أنه أجرى معه مفاوضات ، جعلته يعرف أنه كان مستعداً للخضوع له ، والعدول عن ثورته مقابل منحه الأمان ، وأن يعامله - من الآن فصاعداً - بنظرة تقدير ، وأن يتمتع مع أتباعه فى قرطبة بالحفاوة والتكريم ، وبوضع اجتماعى متميز .

لقد خُدع الأمير المنذر بهذه الكلمات المعسولة ، فقام قاضى الجيش بصياغة وثيقة العفو ، التى يلتزم فيها الأمير باحترام حياة ابن حفصون ، وأرسل على أثرها خمسين بغلاً لنقل أمتعته . كما صاحبت القافلة بعض فصائل الخيالة ، التى سلكت الطريق الوعر المؤدى إلى ببشتر .

ولما كان ابن حفصون - الذى كان يفاوض الأمير - غير جاد فى عهده ، نقض العهد ، وانتهز الفرصة ، وهرب أثناء الليل ، ولحق بالقافلة ، فأفزع فرقة الحراسة ، واستولى على البغال ، والهدايا التى كان الأمير قد خصصها لعائلته ، التى كانت فى القلعة .

وقد أثار هذا التصرف حنق الأمير وضيقه ، فأمر بجمع قواته التى كانت قد بدأت العودة إلى معسكراتها ، وقام بمحاصرة ببشتر من جديد ، وأقسم بكل ما هو مقدس بأنه لن يتحرك من هناك ، حتى يستولى على هذا المتمرد الثائر حيًا أو ميتًا . ولكن القدر لم يمهله ليبر بقسمه : إذ سقط مريضًا بعد عدة أسابيع ، وخضوعًا للقدر ، استدعى أخاه الأمير عبد الله ،

ليعهد إليه بإدارة الحصار . وما إن جاء الأمير عبد الله حتى توفى الأمير المنذر فى ٢٩ يونيه عام ٨٨٨م (١٥ صفر ٢٧٥هـ) .

وقد فعل الأمير عبد الله - الذى كان فى طريقه ليخلف أخاه المنذر ، الذى لم يترك ابنًا بالغًا ليخلفه على العرش - المستحيل ، ليخفى عن الجنود ، خبر وفاة رئيسهم ، لأنه كان يعلم أن خبر الوفاة ، قد يجلب نتائج سلبية مباشرة ، تؤدى فى كثير من الأحيان ، إلي التشتت والتفرق العام ؛ إذ تكررت هذه الظاهرة كثيراً فى التاريخ الإسلامى .

من أجل هذا رفض نصيحة المقربين إليه بأن يقوم بدفن رفات أخيه ، هناك فى السر . ولكنه اضطر بعد ثلاثة أيام أن يعلن خبر الوفاة . وبعد أن اتخذ الإجراءات الضرورية لرفع الحصار عن ببشتر ، حمل جثمان أخيه على ظهر جمل ، ورحل إلي قرطبة تاركًا الجيش كله خلفه ، ذلك أنه لم يصطحب معه سوى فرقة تضم بعض الأمويين ، وعدداً صغيراً من ضباط القصر .

ولكن خبر الرحيل تسرب إلى عمر بن حفصون الذى انتهز الفرصة وأسرع لسلب معسكر الجند ونهب ما به ، وإزعاج الفرق المنسحبة ومضايقتها . وقد ألجأ هذا الهجوم الأمير عبد الله إلى أن يرسل إلى عمر بن حفصون مندوبًا ليطلب منه ألا يعتدى على موكب الجنازة ، وليحدثه عن رغبته فى إقامة علاقات طيبة معه بعد أن يتولى السلطة .

وقد تصرف ابن حفصون ، ثائر ببشتر ، تصرفًا نبيلاً ؛ إذ لم يعتد على الموكب الجنائزى الأموى الصغير ، الذى وصل إلى قرطبة بعد عدة أيام ، ولم يزعجه .

وبعد أن وارى الأمير عبد الله جثمان أخيه الأمير المنذر التراب ، فى جناح الأسرة بالقصر ، أدى يمين تنصيبه أميراً .

عصبة الثورات وانهيار السلطة الملكية تحت حكم الأمير عبد الله (٨٨٨-٩١٢م)(١٠):

الأمير عبد الله « سند » الأسرة الإسبانية الأموية :

منذ وقت طويل ، ونحن نعرف معرفة كاملة ومفصلة الأحداث التى دارت فى الأندلس ، على مدار أربع وعشرين سنة من حكم الأمير عبد الله ، الذى اتسم بالقلق والتوتر . ونعلم كذلك أن جانب الأخبار الذى يقصه علينا ابن حيان حول هذه الأحداث كثير وغزير .

وجدير بالذكر أن هذه الأخبار تضمها مخطوطة يحتفظ بها فى مكتبة أكسفورد ، وقد أفاد منها دوزى وسيمونيه ؛ إذ استخرجنا منها مختصرات مطولة تتعلق بدراساتهما التاريخية عن المسلمين والمستعربين فى إسبانيا ، وذلك قبل أن يخرجها ب . أنطونيا فى طبعة حديثة .

لكن الدراسة المطولة للأخبار التى يقدمها ابن حيان - والتى يمكن الإلمام بها وفقًا للبرنامج التحليلى التقليدى - تقدم خليطًا عجيبًا ، لا ينبغى علينا أن ننسبه إلى هذا المؤرخ وحده . فكل البيانات التاريخية المتعلقة بهذه المملكة تتشابك خيوطها بصفة دائمة ، وتتداخل بعضها فى بعض ؛ إذ إنها لا تدور فقط حول عمليات التمرد والفتن الإقليمية ، التى يتم تحديدها جغرافيا ، ولكنها ذات علاقات متبادلة .

ويرى خصوم النظام الأموى ، فيما بينهم ، أنه كانت هناك اتفاقات فى إطار محدود حول تكوين أو تفريق الاتحادات وفقًا للظروف .

ففى حركة سريعة ودائرية ينقض المولدون على العرب ، الذين ينقضون على البربر ، الذين ينقضون على المسلمين الجدد . وداخل هذه المتاهة الواضحة لم يكن من السهل إيجاد خيط يؤدى إلى معرفة تطور تلك الأحداث .

وقد يكون من الأفضل فى بعض الأحوال التضحية ببعض الأحداث ذات الأهمية الفرعية ، من أجل الوصول إلي توضيح كاف ، يمكّن من تحديد واقعى لتسلسل حكايات الثورات والتمردات وردود الأفعال المتشابكة ، التى قد لا يمكن تصديقها ، والتى تتعلق بهذه الفترة التى اتسمت بالفوضى .

لقد نُصِّب عبد الله أميراً ، وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ، إذ أنه ولد فى الحادى عشر من يناير سنة ٨٤٤ م (١٥ ربيع ثان ٢٢٩م) ، فى نفس العام الذى ولد فيه أخوه المنذر، الذى ولدته إحدى الإماء .

وعلى حين كان المنذر أسود اللون ومجعد الشعر ، وكان وجهه مملوءاً بآثار الجدرى ، كان عبد الله (الأمير الجديد) ذا قامة عادية ، وعينين زرقاوين ، وشعر أشقر يميل إلي اللون الأحمر ، مثل عديد من الأمراء فى أسرته (١١).

كما كان عبد الله معتدل الذوق ، لا يتطلع إلى البذخ ، ويؤكد ذلك سلوكه المتواضع ونوع الحياة التى كان يعيشها . لقد كان قنوعًا ، ولم يكن يقرب الخمر على الإطلاق . وكان يتمتع

بثقافة واسعة ، جعلت الفصاحة لا تغيب عن حديثه ، وكان على دراية كبيرة بالعلوم الدينية ، وكان يتلو فى كل يوم جزءاً من القرآن الذى كان يحفظه ، كما كان يردد فى بعض المناسبات بعض ما كان يحفظه عن ظهر قلب من الأشعار العمودية التقليدية . وفوق هذا كله كان يقرض الشعر الجيد . وكان لفقهاء قرطبة تأثير عليه ، وكانوا يشجعون فيه غيرته وورعه.

وقد فتح بابًا جديداً فى ضاحية القصر أطلق عليه باب العدل - لأنه كان مهتمًا بالرأى العام ، وبخاصة الرأى السائد فى العاصمة ، وكان يروق له أن يتلقى شخصيًا الشكاوى التى يقدمها أهل قرطبة ، ضد عمليات التعسف فى استخدام السلطات من جانب موظفيه - وكان يجلس به ، مرة كل أسبوع ، ليسمع من رعاياه ، الذى يودون أن يقصوا عليه شفاهة مطالبهم، أو يقدموا له مذكراتهم وطلباتهم .

كذلك ، فإنه لم يتقاعس عن حضور صلاة الجمعة فى المسجد الكبير ، وكان حريصًا دائمًا على أداء صلوات الرجاء والتضرع ، وكان ينتقل من القصر إلى مقصورة الأمير التى شيدها أبوه ، عبر ممر (ساباط) مغطى ، أقامه على ارتفاع طابق ، بحيث لا يؤثر على شارع القنطرة ،. وينتهى هذا الممر بباب يطل على غرفة بالمسجد (١٢).

ولكن هذا الاحتياط ، الذى لم يأخذ به أحد من أسلافه ، يسمح لنا بأن نظن أن عبد الله لم يكن آمنًا بطبعه ، وأنه كان يخشى أن يكون هدفًا سهل المنال ، للانتقام منه من جانب أحد الجاحدين . وأنه كان مفرطًا فى الدين ، ولم يكن واسع الصدر بقدر كبير ، وكانت طبيعته قلقه، وكان غيوراً ، كثير الظن .

على الرغم من أن المؤرخين العرب - الذين يميلون دائمًا إلى المديح والتقريظ - لا يرون فى هذه المبادرة مسلكًا غريبًا سوى رغبة الأمير نحو رعاياه القرطبيين بألا يجبرهم على الأنحاء له كلما مرّ عليهم .

وحسب رأى الفقهاء الذين كانوا يلازمونه دائمًا ، فإنه كان يتمتع بكل الخصال الحميدة التى يجب توافرها فى الأمير الجيد . وأنه - فى خضم التعقيدات والأمور المتشابكة ، التى كان عليه أن يحاربها دون هدنة أو هوادة - لم يصب بخداع على الإطلاق من جانب أوساط الكنيسة . ولم تقم هذه الأوساط بإشراكه فى تلك الجرائم التى كانت ترتكب مع أعضاء من أسرته ذاتها تمسكًا بحق الدولة . وعلى العكس من ذلك ، وربما كانت مرة واحدة ، فقد ضغط عليه الفقهاء بإلحاح ليسيل دماء واحد من أتباعه .

وحين نقص ظروف وفاة الأمير المنذر أمام قلعة ببشتر ، وطريقة تولى عبد الله الإمارة من بعده ، فإننا نراعى الرواية التقليدية ، كما جاءت مدونة فى أغلب كتب تاريخ الأخبار .

وتأتى هذه الرواية من حكايات أحمد الرازى وابنه عيسى ، المعلقين والمحللين اللذين كانا يعيشان فى عهد مملكة عبد الرحمن الثالث ، واللذين لا يمكنهما الإصرار على تزييف مذكرات جد هذا الأمير ، الذى كان قد خصص فى حياة حفيده ، أن يكون الولى المزعوم لعهد بنى مروان وعرشهم .

والآن لم يكن لدي المؤرخ ابن القوطية نفس الشكوك ، وأقل من ذلك فيما بعد لدى ابن حزم ، الذى لا يتسامح ولا يهدأ له بال قبل معرفة الحقيقة . فكلاهما[١٣] يتهمان بوضوح عبد الله بأنه كان يرنو للتخلص من أخيه المنذر ليحل محله فى السلطة ، وبالتأكيد فإنهما كانا على حق . ففى ذلك العصر لم يكن من الصعب أن تقوم برشوة طبيب أو تابع وإجباره - كما حدث فى مثل هذه الحالة - ليستخدم مفصداً مسمماً فى جرح ما .

وهذا الأمر ليس غريبًا عن الأمير عبد الله - كما سنرى - فقد عاش حياته ، وهو يضع نصب عينيه الحياة القصيرة التى عاشها بقية إخوته . وكذلك أولاده أنفسهم ، كما أنه ليس أول الأمويين ، ولن يكون آخرهم ، الذى يسلك هذا الطريق ؛ إذ كان على حفيده عبد الرحمن الناصر أن يقلده على الفور بعد ذلك .

لقد انجب الأمير عبد الله - كما يقول كتاب سيرته الذاتية - أحد عشر ابنًا : سبعة أبناء قبل تنصيبه أميراً ، وأربعة آخرين بعد ذلك ، وقد عُين وليًا للعهد ، ابنه الأكبر ، محمد ، المولود عام ٨٦٤ م (٢٥٠هـ) .

أما أمه « در » فلم تكن سوى أم الولد . وقد جاء ذكرها - وفقًا للتقاليد - فى تاريخ أخبار « ميان » ، بشأن نسب ملوك بامبلونه ؛ فقد كانت أميرة باسكيه حفيدة حفيد ونقه المسماة السيدة ينقه[١٤] ، وقد تزوجت للمرة الثانية بالملك عبد الله ، وولدت له الأمير محمد .

وأيًا كان ما يقصد بهذه الرواية ، فإن ابن السيدة ينقه (الأمير محمداً) دفع حياته ثمنًا ، بمجرد أن بلغ السابعة والعشرين من عمره ، حين أغضب والده الذى اتهمه ، وكان محقًا ، بالتآمر ضده ليقضى عليه وليخلفه .

ويقدم ، بالطبع ، المحللون الرسميون للقرن العاشر - الذين لا يستقلون عن روح ما قاله ابن القوطية أو ابن حزم - الأمور بطريقة تؤيد إلى حد ما الأمير ، ووفقًا لأقوالهم ، فإن محمداً - المعين لممارسة السلطة عند وفاة والده - أثار الحسد عليه من أخيه الأصغر المطَرف ، الذى استطاع أن يختلق الحيل المنسوجة مع الموظفين وخدام البلاط الملكى ؛ بحيث جعل عبد الله يقوم بسجن ولى العهد . ثم يفرج عنه بعد أن تظهر براءته ، فى نفس الوقت الذى دخل فيه المطَرف فى خدمة دار البنيقة ، حيث كان أخوه سجينًا ، ثم يوجه إليه اللكمات ، مما أدى إلى وفاته ، وذلك فى يوم ٢٨ يناير من عام ٨٩١م (١٣ شوال ٢٧٧ هـ) . وقبل واحد وعشرين يومًا من عملية الاغتيال ، كان قد ولد فى قرطبة ابن للمأسوف له « محمد » ، أطلق عليه اسم عبد الرحمن ولقب فيما بعد بالناصر .

ويواصل المؤرخون أقوالهم بأن الغيظ أصاب الأمير عبد الله من هذا الموقف الكريه ، فأراد معاقبة المذنب إلا أن حاشيته أثنته عن ذلك . ولكن الحقيقة مغايرة تمامًا ، ولدينا الدليل بأن المطرف قتل أخاه محمداً بتفويض صريح من والده .

وكان المطَرف أصغر من أخيه الأكبر بخمس سنوات ، ولم يحيى أكثر من نفس عمر أخيه مع فارق السن ، وقد سقط أيضًا ضحية لغضب والده ، الذى استجاب لقول الفقهاء الذين لم يغفروا له أنه أهانهم إهانة شديدة ، لموقفه معهم ، فاقنعوا الأمير عبد الله ، بأن المطَرف كان وراء اغتيال وزيره وقائده المفضل عبد الملك بن عبد الله بن أمية ، وأنه كان يقوم بخداعه فى إقليم أشبيلية ، الذى كان يسوده التمرد والثورة ، مما أدخل إليه الغضب ، ولم يتردد لحظة فى اتخاذ القرار ، وتنفيذ حكم الإعدام فيه . وقد جاء تأثير الفقهاء عن طريق الفقيه القضائى صاحب النفوذ ابن لبابه .

وقد دافع المطَرف على مدار ثلاثة أيام فى قصره بقرطبة ، ضد الجنود المكلفين بإلقاء القبض عليه . وفى النهاية وفى حضور والده عبد الله الذى أمر فى ٢ نوفمبر ٨٩٥م (١٠ رمضان ٢٨٣ هـ) بضرب عنقه ، ودفنه تحت شجرة ريحان بحديقته ، فى نفس المكان الذى كان يعتاد أن يقيم الضحية فيه حفلات الشراب .

ولم يهرب أيضًا إخوة الأمير عبد الله الآخرون ، من نفس المصير ، فقد عانوا جميعًا مما عانى منه المنذر ؛ من عدم ثقة الأمير ، ومن رغبته الدائمة فى الانتقام ؛ إذ كان يتخلص منهم، حين كانت تسنح له الفرصة ، بأقل وسوسة فى الضمير ، مستغلاً أى شكوى ، حتى

كانت كيدية . ففى ٢٣ سبتمبر ٨٩٧م (٢١ شعبان ٢٨٤هـ) ، أى بعد عامين من تنفيذ حكم الإعدام فى المطّرف ، جاء دور هشام ، ابن محمد الأول ، الذى دفع حياته ثمنًا لاتهامه بالمؤامرة التى لم يجرؤ قاض ورع على إعلان عدم صحتها .

وشقيق آخر للأمير عبد الله ، يدعى القاسم ، تجرع السم بناء على أوامر منه ، فى تاريخ غير محدد ، وكانت الحجة الدائمة : التآمر ضد العرش .

ولكن لنترك هذه الأحداث الأسرية المأساوية الدامية جانبًا [١٥]؛ إذ تكثر مثل هذه الأحداث ، فى أى عصر من العصور الوسطى ، سواء أكان مسيحيًا أم إسلاميًا . ولننتقل إلى الأمير عبد الله الذى لم يتردد كثيراً ، حين اعتلى العرش - الذى عرف العناية به - فى اختيار الوسائل التى تمكنه من البقاء فوقه ، ومن السيطرة عليه . لقد وجد خزانة الدولة عامرة بالثروات ، التى حازت رضاه الكامل ؛ إذ إنه بدون تلك الودائع الاحتياطية المتراكمة ، التى جمعها أسلافه ، لم يكن فى مقدوره أن يوازن ميزانيته ، أو يوزع المنح على موظفيه ، أو يسدد رواتب قواته النظامية .

على أن وفرة الأموال فى الخزانة العامة لم تستمر لفترة طويلة ؛ فإن نسبة تحصيل الضرائب كانت تقل تدريجيًا ، وفى نهاية كل سنة مالية ، كان الأمير يعانى من مرارة العجز الجديد ، فضلاً عن زيادة رقعة المناطق ، التى كانت لا تريد الاعتراف بسلطانه آنذاك . وفى أكثر من مناسبة كانت البعثة التى ترحل إلى محافظة ، أو أخرى ، من تلك المحافظات المنشقة ، لم يكن هدفها الحقيقى ، سوى الإلزام بدفع ضريبة استثنائية ، لأى من المتمردين الثوار فى أحلك الظروف ، وإحضار القليل من المال إلى خزائن الدولة .

لقد انتهت الأوقات ، التى كان فى إمكان جد الأمير عبد الله ووالده ، أن يجذبا فيها المال إلى الخزانة من أوسع أبوابه . لقد كان الأمير فقيراً ، ولكنه لحسن الحظ لم يكن طماعًا ، وكان حريصًا على ألا يثقل رعاياه القليلين ، الذين كانوا يدينون له بالولاء ، بضرائب جديدة .

كما أنه لم تنقصه إضافات غير مشروطة ، وخاصة بين أصحاب المقام الرفيع القرطبيين ؛ إذ أعرب له أبناء هاشم بن عبد العزيز ، الذى أطلق حرية تنصيبه ، عن عميق عرفانهم لهذه اللمسة الطيبة .

ويحكي أيضًا علاقاته مع القادة المحترمين - الذين منحهم اللقب ، وامتيازات الوزير - ومن بينهم عبد الملك بن عبد الله بن أمية ، الذي اغتاله ابنه المطَرف ، والذي أسف عليه ، وعبيد الله بن محمد بن أبي عبده ، الذي كان في نفس الوقت رئيسًا لشئون خارجيته . وكان على رأس الإدارة المركزية ، مثل سابق العهد ، حاجبًا ، وهو منصب تولاه على التوالي عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ، وسعيد بن محمد بن السالم . وحتى نهاية مملكته قام الأمير عبد الله بإلغاء هذا المنصب [١٦] ، ولكنه عهد باختصاصاته دون لقب إلى بدر الصقلبي (العبد) ، وهو خصي يفديه بروحه وجسده ، على أنه لا يمكن الخلط بينه وبين بدر بن أحمد[١٧] الذي كان رجل الثقة للأمير المتوفى في عام ٩٢١م (٣٠٩هـ) ، واستمر بعد ذلك ليكون المساعد الرئيسي للأمير عبد الرحمن الثالث .

ولم يغب عن الأمير عبد الله الحس السياسي ، سواء أكانت النصيحة التي تأتيه من جانب عليه القوم ، والفقهاء القرطبيين أصحاب النفوذ في حاشيته ، طيبة أم سيئة - وقد كانت تتذبذب بين هذا وذاك ، تبعًا للظروف .

وكما كان يعاني من الصعوبات في بيت المال ، فقد أدرك منذ لحظة توليه السلطة صعوبة المهمة التي تنتظره ، وأن بعض الحملات التي أرسلها ، ولم تسفر عن نتائج إيجابية أو هامشية، لن تكفي وحدها لتكون الأساس الصلب لإقامة الدولة الأموية ، فضلا عن تأرجح الضغوط حول القومية الإسبانية والخصوصية العربية .

وعلى الرغن من أنه كان يعرف ماذا فعل أسلافه الحكم الأول وعبد الرحمن الثاني ، فإنه لم يصل بنفسه إلى إعادة الدولة الأموية إلى صلابتها الأولى ، ولكنه لم يفقد الشجاعة أو ييأس، كما لم يترك الوقت يتسرب من بين أصابعه ، ولكنه قام بتمهيد الطريق لخليفته . وقد عين هذا الخليفة فوراً ، وهو حفيده عبد الرحمن ، وكما نرى فإنه ليس أيًا من أبنائه الذين عاشوا حياته ومماته .

ويبدو أن الأمير عبد الله حفظ قليلاً من الحب . في قلبه الجامد ، لهذا الحفيد ؛ إذ تعهد هذا الطفل اليتيم الصغير (عبد الرحمن) ، ابن ضحيته الذي قتل في عام ٨٩١م ، منذ طفولته ، وسهر على راحته ، وتربيته ، وتعليمه ، وتهذيبه ، واستشعار ذكائه ، وغرس فيه آمال الأسرة مقدمًا ، وجعله ساعده الأيمن .

وعلى الرغم من أن الأمير عبد الله لم يقدم بصفة دائمة أدلة لإثبات جسارته - وتلك كانت السمة المميزة والبارزة لأغلب الأمويين في إسبانيا - إلا أنه ، في بعض المرات ، مع ذلك ، كانت له ردود فعل تختلف عن مثيلتها من بقية الأمراء ذوي النسب المرواني .

آية ذلك ، ما كان منه حين كان ابن حفصون على أبواب قرطبة نفسها ، لقد كان انزعاج حاشيته ، وخوفها من أن يكون قد خدع ، سببًا جعله يقدم أدلة لهمته المفاجئة أسفرت عن الانتصار غير المتوقع فى بولاى .

وأيا كانت أخطاء الأمير عبد الله وضعفه ، فإننا لا يمكن أن ننكر له ، على الأقل ، أنه كان « السيد » لعملية إعادة البناء للدولة الإسبانية الأموية ، وإن لم يكن أكثر من الحكم الأول ، وعبد الرحمن الثانى . وذلك بالعمل الكبير الذى قام به عبد الرحمن المهاجر .

ولهذا يأتى التفسير القائل بأن عبد الرحمن الثالث والأعظم ، قدم له العرفان ، وكرس حياته لإحياء ذكراه ، فى محاولة منه ليمسح من ذاكرة معاصريه للآثار الدامية التى كانت تلطخ سمعة جده .

تجزئة الوحدة السياسية :

حين تولى الأمير عبد الله الحكم فى بدايات عام ٨٨٨م ، تفجرت الحرب الأهلية فى كل أقاليم الأندلس تقريبًا ، تلك التى كانت حتى هذا التاريخ تحافظ على النظام والأمن نسبيًا . وقد أثارت هذه الحرب التى تعد انفجاراً بلا سابقة ، نظرة التجزئة للأراضى ، وتلك هى المرة الوحيدة التى أخذت فيها هذه القضية حجمها وانتشارها الكبيرين . فى إسبانيا الإسلامية ، قبل مجيء عصر ملوك الطوائف .

لقد انتفض الجميع ، فى كل الأنحاء - سواء أكان جنوب قرطبة أو شرقها أو غربها ، وسواء أكانوا مولدين أو عربًا أو من البربر - معلنين صيحة الغضب على سياط السلطة الأموية .

ولم تكن النزاعات بين البعض والبعض الآخر تختص دائمًا بحلم السلطة المركزية ، وإن كانت تقوم على الكراهية الجماعية والازدراء . ولم يكن الموقف على ما يرام فى الثغور بدءاً من إمارة ابن مروان الجليقى ، فى اكستريما دوره ، وشنتمريه الغرب ، حتى الضياع الطليطلية والأرجونية لبنى قسى وعرب التجيبيين .

وإذا أحصينا عدد قادة الثورات ، التى لدينا بها علم فى الأندلس فى أواخر القرن التاسع، فلن تجد سوى ثلاثين قائداً . وبالطبع فإنهم جميعًا لا يتمتعون بنفس الأهلية ، ولم يستطع بعضهم الاستمرار لوقت طويل ؛ إذ إن صغار المغامرين ، اللذين لا يتحركون فى ركب بعض

الثائرين أصحاب النفوذ ، لم يكونوا سوى لقمة سائغة لجيرانهم الأقوياء ، أو أنه يتم احتواؤهم من جانب قائد الجيش الملكى ، وبدءاً من هذه اللحظة فإنهم يختفون من الساحة .

والجدير بالذكر أن هؤلاء المتمردين الذين لا يمثلون أهمية تذكر ، ولديهم إمكانات ووسائل محدودة ، تكاثروا على وجه الخصوص ، فى الأندلس ، حيث لم يقم بالأدوار الأولى ، بصفة تلقائية سوى أربع شخصيات ، هى : العربى سوار فى إقليم البيرة ، والعربيان : كريب بن خلدون وإبراهيم بن الحجاج فى إقليم أشبيلية ، وتفوق عليهم جميعًا بشخصيته الفذة ، قائد ببشتر الذى لا يقهر عمر بن حفصون .

لقد كانت أغلبية قادة التمرد والثورة من المولدين أو المسلمين الجدد - أو قل جميعهم تقريبًا - جيرانًا لابن حفصون وحلفاء له .

وكان العضو البارز لهؤلاء الإسبان المسلمين ، هو : عبيد الله بن أمية ، الملقب باسم عائلته « ابن الشالية » . وهو الذى حكم فى منطقة شمونتين الجبلية (تقع حاليًا بمحافظة جيان بين ليناريس والوادى الكبير) وكان مقر إقامته فى قلعة قسطلونة [١٨]، وهى الاسم القديم لقسطلة .

وقد كان هناك بمثابة الملك الصغير ، وكان لديه قواد وقطاعات جيش منظمة تنظيمًا جيداً ، وقد زوج ابنته إلى جعفر ، وهو أحد أبناء ابن حفصون وظل مستقلاً حتى السنوات الأولى من حكم عبد الرحمن الثالث .

وهناك مولد آخر ، هو : سعيد بن وليد بن مسطانة ، وهو أحد المستشارين الذين كان ينصت لهم ابن حفصون . وكان يحكم فى المناطق التى تسيطر عليها قلاع باغو ، وكركبولية ، ولوقوبين ، ولكّ (بين قرطبة وجيان) . وقد استمر فى موقعه حتى نهاية إمارة عبد الله .

وهناك ثلاثة مولدين آخرين ، هم : بنى حبيل - منذر بن حوريش وإخوته الثلاثة : حبيل وعمير وعمر - وكانوا فى الجبال الشمالية الشرقية لجيان . وقد احتلوا معها قلاعًا ، من بينها: قلعة مرهريطة شنت إشتبن دل بويرتو .

وفى الجنوب ، نجد المولد خير بن شاكر يحكم فى قلعة شوذر ، على حين كان يحتل سعيد بن حودحيل قلعة مُنليون القريبة من جيان ، وهى لاتبعد عن ساحة مارتش .

وهناك مولدون آخرون – دون الحديث عن بنى قسى بأراجون ولا عن ابن مروان الجليقى فى بطليوس – استطاعوا فى ذلك العصر أن يقيموا إمارات حقيقية مستقلة فى جنوب شبه الجزيرة، وفى إقليم تدمر .

أما مدن مرسيه ولورقه فكانت خاضعة لديسم بن إسحاق الذى كان صاحب إدارة وجيش منظم تنظيمًا جيداً ، وكان لديه فرق للمشاة وفريق يضم ٥٠٠٠ فارس ، كانوا مرتزقة فى أغلبهم . وقد أرسل إليه جيش أموى هزمه فى عام ٨٩٦ م (٢٨٣هـ) ولكن دون أن يجرده من ممتلكاته . وقد توفى بعد ذلك بعشر سنين دون إذعان .

وفى جنوب البرتغال طلب اثنان من أتباع ابن مروان الجليقى إقامة إقطاعيات هامة لكل واحد منهما ، وهما عبد المالك بن عبد الجواد فى باغو وميرتله ، والثانى بكر بن يحيى بن بكر فى شنتمرية الغرب[١٩] وتسمى اليوم باسم فارو (حصن ابن هارون) بإقليم اكشونبه .

وكان والد هذا الأخير يعد أميراً صغيراً ؛ إذ كان يقوم بالثورة والتمرد منذ أواخر حكم محمد الأول ، وكان حفيداً لأحد مسيحيى الغرب ، يسمى زدلف . أما خلفه يحيى ، الذى كرس نفسه لتقليد " ملك " إشبيليه إبراهيم بن الحجاج ، فقد شيد مدينته وأحاطها بالأسوار العالية مع بوابات مكسوة بقطاعات من الحديد ، وكان لديه – بصفته صاحب نفوذ قوى – أفراد من السكرتارية ، والمستشارين ، والقادة ، وإدارة حقيقية للخزانة . وكان متحرراً ومضيافًا ؛ إذ كان يلزم رعاياه باستضافة المسافرين الذين يمرون بأراضيه .

وبدأت شنتمرية ، التى توجد بها كنيسة مشهورة ، تأخذ سمة العاصمة . ولرغبة الأمير عبد الله فى عدم الدخول مع الخصم البعيد فى صراع ، وصل معه إلى اتفاق انتهى فيه إلي أن عهد إليه بحكم كل محافظة أكشونبه وعاصمتها شلب .

وقد عاش يحيى بن بكر حتى بدايات حكم الناصر ، وبعد ذلك حل محله ابنه خلف الذى انضم إلى عبد الرحمن الثالث فى عام ٩٢٩ م (٣١٧هـ) .

أما البربر المتمردون ضد الأمير عبد الله فقد كانوا جميعًا تقريبًا من سكان المناطق الجبلية. وسنقوم فيما بعد بالحديث عن بنى ذى النون ، وعن نشاطهم فى الثغر الأعلى .

أما بقية الثوار فقد كانوا معزولين ، ولم تكن لهم أهمية تذكر فى مناطق جيان والبيرة ، أو فى أكستريمادورا أو اليمتيخو .

وفى نفس جيـان كـان هناك الملاحى (مـؤرخ غـرناطى يُنسب إلى ثرية الملاحـة) - الذى أصبح صاحب السـاحة باغتيـاله للحاكم ، ولكن نشـاطه كان قصيـراً ؛ إذ استـسلم بعد عدة أحداث فى عام ٩٠٣م (٢٩٠هـ) أمام القائد ابن أبى عبده الذى استطاع أن يهاجمه ويحمله إلى قرطبة .

وبنفس الطريقة لم يطل الزمن بشأن إخضاع البربر الآخرين ، وهما قطميس خليل بن محلب وأخوه سعيد اللذان كانا يحتـلان فى إقليم البيرة قـلاع قرذيرة ، واشبرغيرة الواقعة على بعد حوالى خمسين كيلومتراً من شمـال غرناطة ، وإن كـانا قد عـاودا التمرد بعـد ذلك إلا أن عبد الرحمن الثالث لم يوليهما اعتباراً حتى عام ٩٢١م (٣٠٩هـ) .

ونذكـر فى النهـاية البـربرى نعزه زعـل بن يعـيش بن قـورنيق ، مـالك قـلعـة أم جـعـفر (٢٠) الكائنة فى أراضى ماردة ، وفى هذه المدينة الأخيرة كـان الثـائر ابـن تاكيت الذى ظهر خصمًا لابن مروان الجليقى .

وفى النهـاية كـانت بين العـرب عـمليـات تمرد وثورة نادرة للغـاية ، ومنعـزلة ومتـفـرقـة ؛ إذ كانوا يفضلون القيام بحركات المعارضة الكبيرة التى كان مسرحها محافظات البيرة وأشبيليه .

ومع ذلك نشيـر إلى الثورات التى قام بها مـحـمـد الحـمدانى فى نوالش بشـمـال غـرناطة ، وكـذلك حركـة الضـابط الملكى القـديم إسـحـاق بن إبراهيم العـقيلى المسـمى بابن عـطاف فى مينيشتا (٢١) عبر أراضى جيان .

وأخيراً منذر بـن إبراهيم بن السـالم . وكان هذا الأخير مقيـمًا فى مـدينة ابن السـالم (٢٢)، وهى حـاليًا محـافظة قـادش . وقـد انتهت حيـاته باغتيـاله على يدى عـبده غلندو . وحل مـحله وليـد بن وليـد ، وهو قـريب له ظل مـحافظًا على ثورته وتمرده حتى لحظة إخضاعـه على أيدى خليفة الأمير عبد الله .

النزاع بين العرب والمولدين فى محافظة البيرة :

فى ربيع عـام ٨٨٩ م (أوائل عـام ٢٧٦هـ) وبعـد شهـور من وفـاة المنذر ، وتنصيب شـقيـقـه أميـراً ، ظهـر نزاع خطيـر ، كـانت بوادره قـائمـة بين المولدين والعرب بمحافظة البيـرة . وانتهـز المسلمون الجدد هذه الفرصة للقيام بهجوم مباغت ضد الرئيس قسى يحيى بن سقاله ، فـأخذوه أسيراً مع بعض من أتباعه ، وقطعوا رأسه .

وكان يحيى بن سقاله هذا قد نصّب نفسه ، منذ فترة على رأس حركة عربية ضد المولدين بالمنطقة ، وفى إحدى اللقاءات المسلحة كان قد هزم فرق الجندية الإسبانية التي أسلها نبيل وشميس .

وحين استولى المولدون على قلعة منت شاقر التى كانت مسرحًا لعملياته ، على بعد ٦٠ كيلومتراً شمالى غرناطة ، عقد معهم هدنة . وقام بتسليم نفسه فى مدينة البيرة ، وبعد ذلك تم اغتياله .

وقبل أن نواصل سرد أحداث هذا النزاع ، علينا أن نقدم بعض البيانات حول الأماكن الرئيسية بالمنطقة الى تم فيها .

لقد ذكرنا فى عديد من المناسبات اسم الإقليم الإدارى والعسكرى (كورة) البيرة التى كانت أراضيها تكاد تختص فى العصر الوسيط المتقدم بأراضى محافظة غرناطة الحالية .

وكانت هذه الكورة ، مثلها مثل بقية كورات الأندلس ، تحمل اسم عاصمتها ، وكان وجودها يرجع إلى تاريخ التقسيم الكنسى ، على أقل تقدير ، وإلى محافظات أسبانيا القوطية .

لقد كان هناك ، قبل وصول المسلمين إلى أسبانيا ، ما يسمى أسقفية الليبيرى - وهو مجلس رومانى قديم ، كان مكانه جزء من غرناطة الحديثة - حيث عقد المجلس الدينى فيها عام ٣٠٠ م .

وقد أقام حكام الكورة المسلمون الأول فى أسقفية الليبيرى ، التى تم تعريب اسمها تحت شكل البيرة . ولكن مثل بقية الأماكن الأخرى فى إسبانيا ، فضل ولاة المحافظات التاليين الانتقال إلى مقر جديد يقع بالقرب من العاصمة القديمة . وبهذه الطريقة تم إقامة قسطلة لتكون العاصمة الجديدة للمحافظة - وهى تقع فى مكان ليس ببعيد عن الليبيرى - وذلك قبل إعادة عبد الرحمن الأول النظام السياسى الأموى .

ومع ذلك فقد استمر إطلاق اسم كورة البيرة على الإقليم الإدارى والعسكرى . ويلاحظ أن اسم كورة البيرة قد تفوق على اسم قسطلة الذى بدأ ليطلق على مدينة مجاورة جديدة حيث جاء اسم غرناطة .

ولم تكن غرناطة حتى ذلك الوقت فى القرن التاسع الميلادى سوى قرية كبيرة محصنة ، وكانت تتدرج على الشاطىء الأيمن لنهر حدرُه ، فى مكان ليس ببعيدٍ عن ملتقى هذا النهر مع

نهر شنيل . وكانت تضم عدداً قليلاً جداً من المسلمين ، وكثيراً من المسيحيين ، ويفوقهم اليهود . وكان يطلق أحيانًا اسم « غرناطة بلد اليهود » .

وعلى الجانب المقابل ، فوق سلسلة جبال وعرة وعالية ، كانت تطل على الضفة اليسرى من نهر حَدَرُّه ، أقيمت القلعة العتيقة التى كانت يطلق عليها « الحمراء » نظراً للون الأشقر الداكن لأسوارها المشيدة من الطوب وقد أصبحت الحمراء بعد ذلك مقراً للملوك النصريين . وحازت شهرة فائقة فيما بعد .

وفيما يختص بمدينة البيرة (قسطلة القديمة) الواقعة على بعد ١٢ كيلومتراً من شمال غرب غرناطة ، بين قريتى الطرف وبينش الحاليتين ، فإنها كانت مقر خلافة الأمويين ، أثناء عصر الإمارة بعد ذلك .

وهى مدينة كثيفة السكان مزدهرة البنيان . وكان مسجدها الكبير ، مثل مسجد سرقسطة، الذى أسسه التابعى حنش الصنعانى ، وقد أعيد ترميمه وتوسيعه فى عام ٨٦٤ م (٢٨٠هـ) على أيدى محمد الأول .

وقد قام البربر بهدم البيرة ، أثناء الحرب الأهلية فى أوائل القرن الحادى عشر فى عام ١٠١٠م (٤٠١هـ) . وقد هجرها سكانها فى ذلك الوقت متوجهين إلى غرناطة المجاورة ، التى أصبحت فى غضون سنوات قلائل عاصمة للمملكة المستقلة بإسبانيا [٢٣].

وعن التركيب السكانى فى العصر الذى نقوم بدراسته ، فإن نسبة كبيرة من سكان محافظة البيرة كانت من عرب البيضاء ، الذين استقروا بعد الفتح ، أو المنحدرين من صلب موظفى الحكومة المتأصلين فى الإقليم ، وهم من المولدين وكان تحولهم – على وجه التقريب – حديثًا . وكذلك فإننا لم نأخذ فى الحسبان أقلية من البربر ، من السلالات العربية ، والسوريين القادمين من دمشق .

ولم ينس هؤلاء القرم غير المتجانسين حتى أواخر القرن التاسع جذورهم : فقد واصل العرب، والبلديون أو الشاميون حفاظهم على ظرفهم ، وكراهيتهم للطبقات .

أما ما يختص بالسلطة المركزية ، فقد اتخذ هؤلاء القوم موقفًا اتسم بالاحترام الكامل : فالمولدون اتسم موقفهم بالتعقل ، وكانوا راضين بحظهم : إذ لم يكن عليهم أن يعانوا من

جراء تطرف عمال بيت المال ، أو من الأعمال التعسفية من جانب الرؤساء المحليين ، وقد كانوا يؤيدون ويحافظون - أكثر من غيرهم - على النظام القائم .

هذا وقد كانت قرطبة تعرف هذا الأمر ، فكانت تراعى عدم مضايقة أصدقاء النظام الذين كانوا يكسبون دائمًا القضايا التى كان عليهم أن يقيموها ضد جيرانهم العرب المتعجرفين الكسالى ، الذين كانوا يعيشون كما يعيش المتطفلون إلى جانبهم فى تلك القطع(٢٤) التى كانوا مستفيدين منها .

كما كان المولدون يفوقونهم فى العدد - فضلاً عن العدد غير القليل من الأسبان الذين استمروا على مسيحيتهم (المجاهدين) ، والتشجيع غير المعلن من حاكم المحافظة - وقد شكلوا ، فى الوقت الذى ساد فيه القلق فى النفوس نتيجة اضطرابات جنوب الأندلس ، نوعًا من الاتحاد الحكومى يخصص للقضاء عند الضرورة ، على موقف العداء الذى كان يعلنه باستمرار العرب المجاورون ضدهم ، وقد قاموا بالتجمع فى طائفة المعارضين .

هكذا كانت الأمور حين وصلت إلى أيدى المولدين والعرب .

وقد أدت المرحلة الأولى من النزاع إلى الاستيلاء على منت شاقر ، واغتيال يحيى بن سقالة ، على أيدى فرقة من المسلمين الجدد . وعلى الفور تجمع عرب البيرة حول القائد الجديد قسى سوار بن حمدون المحاربى الذى كان عليه أن ينتقم فى ذات الوقت من مقتل يحيى بن سقاله وإبنه البكرى .

وفى البداية حاول استعادة منت شاقر ، وعلى الرغم من أن هذه القلعة كانت حصينة للغاية فقد استطاع الاستيلاء عليها ، وقام بإبادة جميع أفراد الفرقة التى كانت بها من المولدين .

ولم يرض العرب بهذا ، بل دفعهم هذا التفوق بذكاء وحمية ، لأن يستولوا على قلاع أخرى كثيرة . وطلب المولدون ، الذين باتت حياتهم فى قلق دائم ، المساعدة من حاكم المحافظة جعد بن عبد الغافر الخالدى الذى خرج على رأس قواته المتمركزة فى البيرة ، والمسلمين الجدد ، للهجوم على سوار ، ولكن هذا الأخير حالفه الفوز من جديد ؛ إذ صد جيش جعد حتى أواسط البيرة ، فضلاً عن سقوط الحاكم أسيراً . وتشجع العرب بهذا النجاح فدخلوا فى اتصال مع ذويهم بالمحافظات المجاورة ريُه (مالقة) وجيان وقلعة رباح .

أما المولدون فقد طلبوا من جانبهم مساعدة الأمير عبد الله متوسلين . وحاول الأمير البحث عن حل سلمى للنزاع ، يقضى بأن يقدم لسوار ، ورعاياه العرب ، امتيازات جديدة ، إذا توقفوا عن الاعتداءات ، وتصالحوا مع المولدين .

وقد قبل سوار ذلك ، ولكنه استخدم جيشه ، ربما لتمتعه بقوة مهيبة الجانب ، ولكونها مدربة تدريبًا حسنًا ، وربما لإغواء الأمير ذاته بالهجوم على رعايا ابن حفصون القريبين من أراضى البيرة .

ولم يكن فهم المولدين بشأن وقف الاعتداءات التى اتفق عليها مؤخراً على هذا النحو ؛ إذا انقضوا - نظراً لما سبق - بالهجوم من جديد على العرب ، وألحقوا بهم أضراراً وخسائر جسيمة، وأجبروهم على اللجوء إلى قلعة الحمراء . وقد قام ٢٠٠٠٠ إسبانى بمحاصرة سوار وأتباعه ، ولكنهم لم يوفقوا ؛ فقد اتفق العرب على القيام بمحاولة كانت إيجابية ؛ إذ نزلوا تجاه سهل شنيل ، وقتلوا أكثر من نصف المحاصرين ، فى المعركة التى سميت بمعركة المدينة ، أو « وقعة المدينة » .

وبعد هزيمة غرناطة هذه لم يبق للمولدين مورد آخر سوى الارتماء فى أحضان ابن حفصون . وجاء ثائر ببشتر إلى البيرة ، وجمع الفرق التى وجدها فى المدينة ، وضمها تحت لوائه وأملاكه، ورحل لمنازلة العرب ، ولكن سواراً الذى كان ينتظره بقدم راسخة ألحق به الهزيمة .

وعاد ابن حفصون إلى ببشتر ، والغيظ ملء جفونه ، تاركًا لنائبه حفص ابن المرة إصراره على مواصلة الصراع . وسرعان ما سقط سوار فى الفخ ، وتوفى بعد مرور عام واحد من توليه القيادة .

وقد عين العرب محاربًا - كان مشهوراً ومشهوداً له بالتفوق فى المعارك وصاحب عبقرية شعرية - خلفًا له ، هو سعيد بن سليمان السعيدى [٢٥].

ومع ذلك ، فإن هذا القائد لم يكن يتمتع بنفس الشهرة التى كان يتمتع بها رئيسه ، ولم تكن له نفس الخصائص ، والصفات التكتيكية ، والاستراتيجية لسلفه ؛ إذا لم يتفوق فى أعمال حربية بارزة ، على الرغم من جعله العرب فى موقف الطاعة النسبية ، وتمكنهم من احتلال بعض القلاع الأخرى مثل منتيشة وبسطة . وقد منحه الأمير عبد الله امتيازات حقيقية أفضل من سوار .

وقد احتفظ سعيد ، لفترة من الزمن بمدينة البيرة فى حوزته ، ولكنه أقام إقامة شبه دائمة فى غرناطة .

وفى عام ٨٩٢م (٢٧٩هـ) جعله ابن حفصون يلعق التراب ، فى إحدى المناوشات المباغتة ، التى أهلكت القوات العربية فى حقول نهر شنيل . كما أنه لم يحالفه النجاح ، فى منع خروج الانشقاقات - التى كانت كامنة دائمًا داخل رابطة مواطنيه - إلى السطح .

ومرت على هذا النحو سبع سنوات . ولكن فى ديسمبر من عام ٨٩٧م (ذو القعدة ٢٨٤هـ) ، حين استعادت حكومة قرطبة البيرة ، قتل سعيد بن سليمان على يدى عربى كانت زوجته قد أغوته .

وقد وافقت وفاته تفكك الرابطة التى كانت تجمع بين العرب ، أو ما يسمى بـ (العصبة). لقد وقف بعض العرب ضد بعض ، وواصلوا القتال فيما بينهم ، ولم تسفر الجهود التى بذلها بعض قادتهم عن توحيد صفوفهم من جديد .

وفيما يختص بأمير قرطبة ، فإنه لم يفعل شيئًا سوى الحصول على العائد من انتهاء العرب ، من جراء تلك النزاعات الداخلية ، مثلما فعل المولدون فى أراضى البيرة . وكان عبد الرحمن الثالث فى السنوات الأولى من حكمه هو القادر على أن يجعلهم يفطنوا لصوت العقل.

اتحاد بحارة بجانة فى أواخر القرن التاسع :

ولنقطع الآن قائمة الصراعات الفوضوية الرتيبة ، لنتكلم بعض الشىء عن اتحاد بجانة البحرى .

إن النشاط الذى انتشر فى النصف الثانى من القرن التاسع ، قد مر حتى اليوم دون الانتباه إليه تمامًا (٢٦)، على الرغم من البيانات التى زودنا بها المؤرخ ابن حيان ، وكذلك الجغرافى الأندلسى البكرى ، فى وصف شمال أفريقيا . وهذه الكتابات تمت ترجمتها ، واستخدامها ، والاستفادة منها ، منذ وقت طويل .

ومن أجل التصور الجغرافى ، وامتداد الساحل ، ونظراً لموقع العزلة عن بقية العالم الإسلامى ، ونظراً لعدم وجود طريق اتصال برى ، فقد أبدت المملكة الأموية فى إسبانيا رغبتها واستعدادها الملاحى .

وعلى كل حال ، فإننا نعرف أنه منذ وقت مبكر ، وإلى جانب الفرق التى كانت تعبر البحر للقضاء على تهديدات النورمانديين ، فقد كان يقوم على استيراد الحبوب المغربية ، ويصدر عن طريق البحر المتوسط منتجات أراضيها ، إلى جانب أدوات الترف ، التى كانت تنتج فى ورشها ، ومصانعها المختصة بالمدن الكبرى .

ويجب علينا ألا نتوغل كثيراً فى تاريخ إسبانيا الإسلامية ، لإيجاد شواهد إقامة دور الصناعة ، ووجود تجارة عادية ، وهامة ، بين موانىء جنوبها وشرقها ، والساحل الشمالى الإفريقى .

وقد سبق لنا - أن رأينا - أن هناك علاقات تجارية دائمة مع نكور ومرسى الدجاج (على ساحل الشمال الإفريقى) ، وأنه عبر ميناء مملكة تاهرت ؛ إذ منذ حكم الحكمُ الأول ، كان يخرج المغامرون الأسبان فى عمليات قرصنة ، ووصلوا إلى احتلال جزيرة كريت ، وأن بحارة أندلسيين آخرين قد شاركوا ، بعد ذلك ، فى فتح صقلية بمساعدة الأغالبة .

وسواء أكان ذلك بشأن العلاقات التجارية ، أم بشأن عمليات القرصنة ، فقد كانوا فى حاجة إلى البحارة أصحاب الخبرة . وكانت الأندلس تضم هؤلاء البحارة ، فبعضهم من العرب، فى قليل من الأحيان ، وبعضهم من البربر وغالبيتهم - تقريبًا - من أصل أسبانى أو مولد أو مسيحى .

وعى امتداد ساحل حوض البحر المتوسط ، كانت هناك تجمعات من هؤلاء البحارة الذين كانوا تحت حكم محمد الأول ، وكانت مرافىء الرسو قائمة بين لقنت وبولاى ، وكان على رأس هذه المرافىء مرفأ أشكمريرة(٢٧) المواجه لجزيرة صغيرة تحمل نفس الاسم فى الطرف الشرقى من خليج قرطاجنه .

وقد اعتاد هؤلاء البحارة الذهاب ، كل خريف ، إلى الساحل الإفريقى الأكثر قربًا ، لقضاء الشتاء فيه ، والعودة منه فى فصل الربيع ، بالأحمال الثقيلة .

من أجل هذا ، عقدت اتفاقات صداقة ، مع قبائل البربر بالساحل المغربى ؛ إذ كان يعيش بينهم عدد من القناصل الذين يمثلون البحارة ، وكان يتم اختيارهم من بينها .

وبهذه الطريقة استطاع عدد كبير من الأندلسيين أن يتمركزوا فى موانىء شمال أفريقيا ، وأن يقيموا بها ، وأن يعمروها .

وفى عام ٨٧٥ م (٢٦٢هـ) أسس البحارة مدينة جديدة ، على مسافة غير بعيدة ، من تنس القديمة ، تحت اسم تنس الجديدة (٢٨).

وبعد ذلك فى عام ٩٠٢ م (٢٩٠ هـ) استقر عدد آخر من البحارة الأندلسيين ، كان رئيسهم محمد بن عون ومحمد بن عبدون ، فى ميناء وهران[٢٩] بتفويض من البربر الذين كانوا يشغلون المكان .

وبعد سبع سنوات هاجمتهم القبائل المجاورة لهم ، فنهبوا محالهم ، ولكنهم فى عام ٩١٠م استطاعوا العودة ، والإقامة هناك من جديد .

ويشير البكرى إلى موانىء أخرى ، فى شمال أفريقيا ، كانت فى أيدى الجاليات الأندلسية فى القرن الحادى عشر ، وهو العصر الذى عاش فيه [٣٠]، مثل ميناء بونة (الآن مدينة عنابة بالجزائر)[٣١] وبوجيه[٣٢] ومرسى الدجاج[٣٣].

ومن خلاله ، كذلك ، عرفنا أن مجموعة البحارة الذين كانوا يترددون على تنس أقاموا هناك مصنعًا ، واختاروا الأراضى المجاورة مباشرة لبرج الحراسة (بيجيه) ويسمى بالعربية (مرية) ، التابعة لـ (بجانة)- قاعدة لتجارتهم فى إسبانيا .

وكان هذا البرج بمثابة نقطة مراقبة قائمة فى أعماق الخلجان ؛ إذ كان يشرف على نهر صغير بالساحل ، هو نهر أندرش (وادى بجانة) . وأصبحت مرية بجانة ، التى أطلق عليها فيما بعد اسم المرية[٣٤]، الميناء الذى يتردد عليه الكثيرون ، وكان أكثر الموانى نشاطًا وحركة فى كل الأندلس.

وبجانة ، ليست اليوم ، سوى قرية صغيرة ، فقيرة ، تقع على الضفة اليسرى من نهر أندرش ، فى موقع ليس ببعيد عن موقع النهر الصغير ، الذى يتجه إلى المنحدر الجنوبى لجبل شُلير ، ثم ينحرف تجاه الجنوب قبل أن يصب فى البحر على بعد عشرة كيلو مترات .

وكانت منطقة بجانة فى القرن التاسع مقراً لعدد من العرب اليمنيين الذين عهد إليهم عبد الرحمن الثانى مراقبة الساحل ، فى مواجهة أية محاولة نزول من جانب المجوس ، وإلزامهم بالإقامة هناك فى « رباط » دائم ، مقابل التنازل لهم عن الوادى الخصيب لنهر أندرش . ولهذا السبب ، أخذت هذه الأراضى اسم « أرش اليمن » [٣٥].

وقد عقد البحارة الأندلسيون ، عند عودتهم من تنس ، ورسوهم فى المرية ، اتفاقًا مع عرب أرش اليمن ، بشروط لا نعرفها ، يقضى بأن يقيموا إلى جوارهم نوعًا يسمى «الجمهورية» البحرية ، للدفاع من البر ضد أية محاولات يقوم بها جيرانهم من الفرق المسلحة الرابضة فى حصونها الصغيرة ، كما قرروا أن تكون بجانة عاصمة للدولة الصغيرة .

ولم تكن بجانة فى ذلك الحين ، تجمعًا مدنيًا حقيقيًا ، وإنما كانت تضم مجموعة من الضياع المتفرقة .

وكانت الشخصية البارزة بأرش اليمن تتمثل فى عمر بن أسود ، الذى أقام مسجداً كبيراً ، يضم ستة أروقة ، وقبة شبه دائرية ، تستند على أحد عشر قوسًا ، مرتكزة على أعمدة . ومنذ أن تم إقامة هذا المسجد فى عام ٨٨٤م (٢٧١هـ) (٣٦)، مد البحارة بجانة بضاحية ، وعكفوا على تحويلها إلى مدينة حقيقية .

ويؤكد البكرى أنهم أخذوا من العاصمة الأموية ، نموذجًا من أجل بنائها ، وإعدادها ، ووضعوا على أحد أبوابها تمثالاً للعذراء ، مثل التمثال الذى كان يزين باب القنطرة فى قرطبة(٣٧)، وهذا دليل على أنه كان هناك مسيحيون ، بين البحارة ، وأن هؤلاء المسيحيين قد يشيدون كنيسة .

وسرعان ما أصبحت بجانة مدينة مزدهرة ، بفضل تجارة أسطولهم ، الذى كان يرسو أمام شاطىء المرية حين لا يكون فى أعالى البحار .

وبدأت المدينة تضم بين جنباتها مزيداً من التجار ، الذين بدأ عددهم يزداد يومًا بعد يوم، حيث استقروا فيها نهائيًا ، وكانت المدينة تضم حمامات ، وأنوالاً للمنسوجات الحريرية ، كما اختص الفلاحون المقيمون فى الأراضى المجاورة بأعمال تربية دودة القز ، وقد اتصف هؤلاء الفلاحون بالصفات الأخلاقية الحميدة .

وبعد سنوات أربع من إقامة دويلة بجانة الاتحادية - ومن المحتمل أن يكون محمد الأول والمنذر من مشجعيها - صعد الأمير عبد الله إلى عرش قرطبة . وحينئذ أرسل العرب وبحارة بجانة بيانًا بالولاء إلى العاهل الجديد طالبين فيه أن يبقى على رئيسهم الذى كانوا قد عينوه . كما طلبوا كذلك تفويضًا بتوسيع رقعة أراضى دولتهم التى كانوا يرغبون فى الحفاظ على استقلالها بنسبة ملحوظة ، مقابل أن تتمتع بنوع من « الحماية » الأموية . وقد وافق البلاط الملكى على مطلبهم .

وبهذا استطاعوا أن يقيموا حزامًا من القلاع الجديدة ، حول المنطقة الواقعة تحت سيطرتهم ، فأقاموا فى جهة الغرب الحامية والخابية وابن طارف وفى جهة الشرق نيجر ، وأقاموا قلعة برشانة الحصينة فى الشمال ، على الجانب الآخر من سلسلة جبال سييرا دى لوس فيلابريس

المشهورة بمحاجر الرخام ، وبعد ذلك خضع لسيطرتهم ، الطريق البرى الوحيد الذى يخرج من بجانة بتفريعاته ، تجاه وادى آش غربًا ، وتجاه مرسيه فى الشمال الشرقى .

وفى العام التالى ٨٨٩ م (٢٧٦ هـ) وجد رئيس الاتحاد العربى للبيرة ، سوار بن حمدون، أن بجانة كانت فريسة سهلة ، حين جعلها هدفًا لإحدى إغاراته . وقد شجعته الظروف على سلوك هذا السبيل ، فمن ناحية كان يحارب ضد المولدين ، والمسيحيين ، الذين جردوا بعض العرب ، من حقوقهم المكتسبة . ومن جهة أخرى ، كان يرغب فى الحصول على غنيمة كبيرة .

وقد وجد البحارة على رأسهم فى ذلك الوقت رئيسًا مملوءًا بالحيوية والقوة يدعى عبد الرزاق بن عيسى . ومن خلال تسابق القادة بشأن بنى أسود حلفائهم العرب ، كانت جمهورية عبد الرزاق مستقرة تمامًا . وكان فى إمكان المسافرين – الذين ينزلون فى المرية للراحة ، ويقيمون لفترة زمنية فى بجانة ، قبل أن يسلكوا الطريق عبر جنوب إسبانيا – ترك بضائعهم، وأمتعتهم دون حراسة فى الشوارع ، أو فى ممرات السوق ، دون أن يجرؤ أحد على أن يمسها ، أو أن يقترب منها .

وأمام خبر اقتراب قوات سوار ، فضل عبد الرزاق أن يتفاوض معه ، فأوفد الخشخاش[٣٨] وابن عمه محمد بن عمر إلى سعيد ابن أسود .

وليس هناك من شك فى أن سوار حين اتخم بالهدايا ، والتعويض المناسب ، وافق على أن يعدل عن طريقه .

وقد حل سعيد بن سليمان محل سوار بعد اغتياله . وعاود – تحت مسئوليته – فتح مشروع سلفه ، ولكن هذه المرة بالتعايش مع عرب أرش اليمن الذين كانوا على خلاف ، مع البحارة الأسبان ، الذين حلوا محلهم بالمخادعة ، والذين كانوا قد رحبوا بهم منذ فترة قصيرة .

من أجل هذا ، خرج عرب البيرة مرة أخرى ، بأعداد كبيرة ، للهجوم على المدينة التجارية المزدهرة ، ولكنها نجت من التخريب ، والتدمير ، بسبب مجموعة من الظروف غير العادية .

تتمثل فى محاولة شنيار ، كونت أمبوريش – الذى كان يعتاد الخروج بنفسه ، فى أعمال قرصنة على امتداد ساحل إسبانيا الإسلامية ، وهو على رأس أسطول صغير ، يضم خمس عشرة سفينة ، رست أمام المرية – أن ينزل نزولاً مفاجئًا على الساحل المجاور ، فى نفس الوقت الذى كان العرب يقتربون فيه من بجانة ، وأن يشعل النار ، فى عديد من المراكب التى

كانت راسية هناك ، أن ينزل حتى بجانة لنهب مخازنها الغنية . فخرج من فورهم ، كل بحارة الجمهورية لوقف الزحف ، واشتبكوا معه في اليوم التالي ، في معركة انتهت بالصلح على أساس أن يعود أسطول شينار الصغير إلى البحر ، الأمر الذي جعل سعيد بن سليمان - الذي كان يرى في الأفق ، من تل قريب ، اصطفاف السفن الخمس عشرة التابعة لكونت أمبوريش - لا يشك لحظة في أن بحارة بجانة كانوا يتلقون تعزيزات هامة ، وسرعان ما سلك طريق غرناطة[٣٩] من جديد .

وما أن انقضى هذا التهديد المزدوج حتى واصلت بجانة ازدهارها ، وثراءها ، بفضل أعمال شعبها الصناعي .

وفي عام ٩٢٢م (٣١٠ هـ) دخلت من جديد في كنف الجماعة الأموية [٤٠]، وواصلت نشاطها خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، ولكن نجم مينائها بدأ في الأفول ، رويداً رويداً ، وبخاصة منذ لحظة قيام عبد الرحمن الثالث في عام ٩٥٥ م (٣٤٤ هـ) بنقل عاصمة المحافظة إلى المرية . وقيامه بتنفيذ عمليات تعمير هامة [٤١].

وكانت فترة حكم الحكم الثاني استمراراً لاضمحلال وتدهور بجانة ، وفي القرن الحادي عشر ، في الوقت الذي كانت فيه المرية الثرية تبلغ فيه درجة هامة ، بوصفها عاصمة للدولة ، عادت بجانة من جديد لتصبح قرية للمزارعين .

النزاع بين العرب والمولدين في إقليم أشبيلية :

إمارة ابن الحجاج :

كانت أشبيلية بعد قرطبة ، في القرن العاشر الميلادي ، المدينة الأكثر ازدحامًا ، والأكثر ثراءً في الأندلس . ويرجع فضل المساهمة في تطورها وازدهارها ، بوصفها مدينة إسلامية ، إلى موقعها الجغرافي المتميز ، وحقولها ذات الخصوبة العالية ، التي تقدم أنواعًا كثيرة من المنتجات الطبيعية .

كانت أشبيلية جديرة بمدينة إشبان القديمة ، والمزدهرة . وكان يُنظر إلى مينائها النهري على الوادي الكبير ، بوصفه منفذاً كبيراً[٤٢] يقوم بنفس نشاط ميناء بجانة ، وكان يتلقى الجزء الأكبر من تجارة إسبانيا مع المغرب عبر الأطلنطي .

وقد عاشت أشبيلية فى هدوء تام تحت حكم كل من ، عبد الرحمن الثانى ومحمد الأول ، دون أن تعير اهتمامًا للحكومة الأموية ، ما عدا الساعات المأساوية لاعتداء النورمانديين عليها فى عام ٨٤٤م .

ومثلها مثل أماكن أخرى كثيرة ، كان من بين سكانها العديدين نسبة كبيرة من المولدين ، فضلاً عن وجود أعداد من المسيحيين ، الذين كانوا يحافظون على كنائسهم . وكانت المدينة حتى ذلك الوقت مقراً لعاصمة نهر الوادى الكبير .

وكان العرب المجاورون لأشبيلية ، شأنهم شأن هؤلاء الأسبان ينتمون جميعهم إلى طبقة الأرستقراطية ، فضلاً عن أن بعضهم كانوا من نبلاء قريش ، وينتسبون إلى أصل أموى . ولم يكن هؤلاء العرب ، الذين كانوا يعيشون كما يعيش النبلاء ، يقيمون فى المدينة سوى فترة من العام ، أما بقية الوقت فكانوا يقضونه في ضياعهم . فقد كان الجميع تقريبًا أصحاب أملاك كبيرة ، وكانوا يمتلكون مساحات شاسعة على امتداد نهر الوادى الكبير ، وكانت المياه تحيط بالعاصمة ، من أعلاها لأدناها ، أو فى منحدرات الشرف أو سند ، طريق لبلة ، وفى كل واحدة من هذه الممتلكات كانت توجد مزرعة طيبة مزدهرة .

وكان يقع فى شرق أراضى أشبيلية عدد لا بأس به من بيوت الضيافة والاستراحات الصغيرة للنبلاء ، التى يمكن من خلالها التمتع بالمناظر الطبيعية الأخاذة . وكانت هذه الاستراحات محصنة تحصينًا قويًا ؛ إذ كانت المحاصيل تحفظ بها ، كما كان المزارعون والعبيد يأتون إليها لتقديم الحسابات إلى النبلاء العرب .

وبعيداً عن ذلك ، وبالقرب من مصب نهر الوادى الكبير ، فى المستنقعات والجزر ، المكونة من رواسب الأنهار ، كان العرب يمتلكون استثمارات زراعية كبيرة حيث المراعى الشاسعة التى كانت تساعد على نمو الثروة الحيوانية ، وبخاصة الأبقار الحلوب .

ومن بين هذه المزارع الشاسعة المساحات ، كانت توجد مزرعة على جانب كبير من الأهمية ، تتبع عائلة تمثل النبل اليمنى على مدار أجيال كثيرة ، وهى عائلة بنى حجاج ، التى كانت تقترن بنسبها ، من ناحية الأب ، مع قبيلة لخم العربية .

وكانت هناك عائلة أخرى من نفس القبيلة تحمل اسم حضرموت ، هى عائلة (الحضرمى) ، تمتلك أراضى شاسعة فى الشرف ، وكانت أراضيها تشتهر بزراعات التين ، وأشجار الزيتون.

ومن هذه العائلات كذلك ، عائلة (بنى خلدون)[٤٣] التى انتمى إليها بعد ذلك بخمسة قرون ، أحد أبنائها المعروفين الذى منحها شهرة دائمة ، وهو عبد الرحمن بن خلدون [٤٤].

وقد كان لهذه العائلات الشريفة علاقات طيبة ، فى ذلك الوقت ، مع الحكومة المركزية فى قرطبة ، التى منحت لها حرية كبيرة . وكان الحكام الموفدون إلى أشبيلية ، يحافظون على التوجيهات الصادرة إليهم ، بعدم جرح مشاعرهم .

لقد اقترنت عائلات عديدة بالزواج من أثرياء الأندلس المولدين ، دون مساس بالروح القبلية - الغربية - السائدة بينها ، ودون مساس بخصوصية جنسها . وعلى سبيل المثال نذكر عائلة بنى الحجاج الذين يجرى فى عروقهم ، من ناحية الأم ، دماء االأمراء القوطيين ، الذين ورثوا ممتلكات شاسعة .

وقد أشار ابن القوطية[٤٥] المؤرخ ، إلى حكاية تثير الفضول ، وقد كانت لديه الأسباب الخاصة ، ليكون على دراية تامة بها ؛ إذ أنه كان يجهل صلة القرابة والنسب التى تربطه بالأمراء الذين تدور حولهم هذه الحكاية .

تقول الحكاية أن أبناء غيطشه - ألمند وأرطباش وثالث يدعى رُمُله توجهوا لرؤية طارق بعد حملته المنتصرة عبر إسبانيا ، ثم طلبوا منه تفويضًا بالتوجه إلى أفريقيا ، لزيارة موسى بن نصير . فقام طارق بتسليمهم خطاب تقديم ، يشرح فيه الخدمات التى قدمها إليه الأمراء القوط الثلاثة . فقام القائد العربي (موسى بن نصير) بإيفادهم إلى الخليفة الوليد بدمشق ، الذى قدم لهم التشريفات ، وأعاد إليهم الثروة الشخصية لغيطشه .

وعند عودتهم إلى وطنهم قام الأمراء الثلاثة بتقسيم ميراث الأب ، فاحتفظ ألمند بممتلكات الأندلس الشرقية ، وأقام فى أشبيلية ، واختار أرطباش الضياع الأكثر قربًا من قرطبة ، واستقر بها . أما رُمُله ، فقد اختار ألف مزرعة فى أراضى طليطلة .

وفى عهد خليفة دمشق هشام بن عبد الملك (٧٢٤م - ٧٤٣ م) توفى ألمند تاركًا ابنته سارة ، وولدين صغيرين ، وانتهز أرطباش هذه الظروف للاستيلاء على أراضى شقيقه الأكبر . وحينئذ شدت سارة ، مع أخويها الشابين ، الرحال على ظهر سفينة متوجهة إلى سوريا ، ونزلت فى عسقلان ، حيث توجهت إلى دمشق ، لتعرض على الخليفة الجور الذى راحت ضحيته ، وطلبت قرار الامتياز الذى منحه الوليد لوالدها .

واعترف العاهل العربي بحقوقها ، وعن طريق وساطة والي أفريقيا ، أعطى الأوامر المناسبة لإنهاء الأمر ، تحت رعاية أبي الخطار الكلبي ، وأثناء فترة بقائها في دمشق تزوجت سارة ، عن طريق الخليفة هشام ، عيسى بن مزاحم ، فأنجبت منه أولاداً ، رافقوها في رحلة العودة ، إلى إسبانيا ، حيث استعادت أملاك والدها المنذ .

وفي بلاط دمشق ، عرفت الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، المهاجر الجديد ، واعترفت به حين أصبح واليًا على الأندلس ، فأحاطها بالرعاية والاهتمام . وحين كانت الأميرة القوطية تتجه إلى قرطبة ، كانت أبواب القصر تفتح لها دائمًا دون حواجز .

وفي عام ٧٥٦ م (١٣٨ هـ) توفي زوجها عيسى بن مزاحم ، وجد المؤرخ ابن القوطية ، فتزوجت الأرملة ، بناء على نصيحة عبد الرحمن الأول ، بعمير بن سعيد ، وأنجبت منه ابنًا ، يدعى حبيب ، أصبح سلفًا لأربع عائلات ارستقراطية ، من بينها عائلة بني الحجاج ، التي أصبحت مالكة لثروة موروثة سبق الإشارة إليها .

وفي حفل تنصيب الأمير عبد الله ، كان الأخوان : عبد الله وإبراهيم على رأس الشخصيات البارزة ، من عائلة بني الحجاج . وعلى رأس العائلة الثانية ذات القرابة كان كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد .

ومن جهة أخرى كان من بين أسر المولدين الأشبيليين البارزة ، والمؤثرة ، بنو أنجلين وبنو شبراق ، وهما عائلتان إسبانيتان ، كما نرى ؛ إذ احتفظتا بألقابهما الإسبانية .

وكان لزامًا أن ينشب بين العرب ، والمسلمين الجدد نزاع خفيف في البداية ، ثم يزداد خطورة ، رويداً رويداً ، لدرجة أن الإمارة لم تعد قادرة ، على القضاء عليه . وعلى المدى الطويل كان ضروريًا أن يتصالح أصحاب هذا النزاع .

ولن نقوم هنا ، بوصف واحدة من التقلبات العديدة ، على امتداد حالة التوتر الأشبيلي ، التي ذكرها ابن حيان ، ومن بعده دوزي بإسهاب كبير ، استناداً إلى رواية المؤرخ المحلي ابن الأشعث القرشي . وسنقتصر فقط على ذكر الأحداث الجوهرية ، التي تسمح لنا بالتساؤل : كيف استطاع إبراهيم شقيق عبد الله بن الحجاج - بسبب هذه الأحداث - أن يصبح في عام ٨٩٩ م (٢٨٦هـ) « ملكًا » لأشبيلية - كما كانوا يطلقون عليه - ويتلقى أمر التولية من الأمير عبد الله نفسه .

على أن الأمر يحتاج إلى العودة إلى الوراء قليلاً . فقبل ذلك بعشر سنوات ، أى فى عام ٨٨٩م (٢٧٦ هـ) بدأ سيد عربى صاحب مزاج خشن ، وضمير غائب ، يدعى : كريب بن خلدون - النزاع والتمرد ؛ فغادر أشبيلية رغبة منه فى الظهور ، والإفادة من حالة الفوضى ، التى تسود المملكة ، ليكون فى الصف الأول ، ولكنه احتُجِز ومُنع على الفور من إحداث الأضرار ، إلا أنه استطاع التوجه إلى قلعته المسماة ضيعة ابن خلدون بالشرف ، حيث كانت مقامة فوق قرية البلاط .

وقد بدأ نشاطه هناك ، بأن أصبح على رأس تحالف للإغارة على المولدين بالإقليم ، بمساعدة بعض العرب اليمنيين ، وعملائهم من البربر . ولكى يخلق مناخًا مناسبًا ، بدأ كريب بعمليات اللصوصية ، والعصابات من وراء الستار .

وكان فى البربر - الذين يتبعونه دون بصيرة منهم - المحرض الرئيسى جنيد بن وهب القرمونى ، وهو من (البرانس) المبعدين ، بسبب كراهية قبلية قديمة ، ترجع إلى تاريخ سابق على إقامتهم ، فى شبه الجزيرة الأيبيرية .

والبرانس مجموعة من القبائل البربرية تقابل مجموعة بربر (بتر) الذين أقاموا أيضًا فى المناطق الجبلية بالإقليم (٤٦).

ثم عقد كريب التحالفات مع الثوار ، والمتمردين ، بمحافظات شذونه ، ولبله . وقام بعمل دعاية نشيطة لنفسه فى كل أنحاء غرب الأندلس . وكرد فعل طبيعى ، وفورى ، على هذا المسلك ، شكل المولدون الأكثر التزامًا ، تحالفًا مضاداً ، انضم إليه العرب ، والبربر ، من القبائل المعارضة لليمنيين والبرانسيين ، أى المضريين ، والبتريين بتقسيم موررور .

وما لبث أن بدأ النزاع ؛ إذ أمر كريب بربر مارده ومدلين ، بالهجوم على ضواحى أشبيلية. ومُنى الحاكم الأموى موسى بن العاصى بن تعلبة بهزيمة فى طبلاطه . وهو نفس المكان الذى سُحق فيه النورمانديون ، قبل ذلك بخمسة وأربعين عامًا .

ولم يتوقف كريب هناك ، وإنما دخل فى اتصال مع ابن مروان الجليقى ؛ إذ حصل على القليل ؛ لأن صاحب بطليوس مولد ، وأية وسيلة ستكون ذات فائدة ، حين تدور حول بث الفوضى ، ومضاعفة حالات عدم الاستقرار ، ونسف سلطة الأمير الأموى .

ولم يتردد ابن الجليقى ، بل انتهز الفرصة ، وقام بنهب قرية من قرى « الشرف » ، وابتعد محملاً بالغنيمة .

وبدأ الموقف يزداد سوءاً بسرعة كبيرة ؛ فامتلأ الطريق بين قرطبة ، وأشبيلية بجماعات من قطاع الطرق ، والعصابات ، وكان من بينهم البربرى « ابن التسمشكه » الذى اشتهر بجرائمه الجريئة .

وحين أصابت الدهشة المولدين الأشبيليين ، من عدم تحرك أمير قرطبة طوال هذه الفترة ، توجه أحدهم إلى العاصمة ، وطلب مقابلة الأمير عبد الله ، وأعلن دون مواربة أنه على استعداد لإعادة الأمن ، والاستقرار ، فى الاتصالات ، وطرق الانتقال ، إذا سمح له الأمير ، بأن يقيم مع مجموعة من الشباب الأقوياء ، فى قلعة الأبراج السبعة ، أو (سان تيرسو) الواقعة بين إستجه وأشبيلية .

وما أن منح الأمير عبد الله الموافقة لهذا المولد الجرىء ، المسمى : محمد بن غالب ، حتى أعاد النظام ، والأمان ، إلى الطريق بسرعة فائقة .

ولكن قادة التحالف اليمنى لم يقبلوا الهزيمة ؛ إذ توجه كريب بن خلدون – الذى استطاع إقناع بنى الحجاج ، أن يتحدوا معه فى الهدف – للهجوم على ابن غالب ، وهو فى قلعته ، ولكنه أضاع وقته ، فتم صده .

ولكن رجلاً من بنى الحجاج سقط صريعًا فى هذه الموقعة ، أى أنه حدثت جريمة اغتيال مجحف ، لأرستقراطى عربى ، على يد مولد خسيس ، وتتجه الأنظار إلى قرطبة حيث تتم المحاكمة .

وتسيطر الحيرة على الأمير عبد الله ، لأنه يريد أن يظل على علاقات طيبة مع هؤلاء ، وأولئك ؛ فهو لا يود أن يجرح شعور العرب المفرطين فى الغيرة على شرفهم ، بوصف هذه الحادثة مسألة شرف وكرامة بالنسبة لهم . ولا يريد أن يفقد رعاياه المولدين المخلصين . فقرر أن يتخذ حلاً وسطًا من جانبه ، لا يتسبب فى إحراجه ؛ يتمثل فى أن يرسل إلى أشبيلية ابنه الأكبر الأمير محمداً ، ليستقصى الحقائق ويقترح عليه الحل . فى ذات الوقت الذى يقف فيه كلا من كريب بن خلدون ، وعمر بن خطاب بن أنجلين أمامه للدفاع عن موقفيهما .

ولم يكن توجه الأمير محمد إلى أشبيلية ، فى حقيقته ، لتقصى الحقائق ، ولكن والده أرسله للسيطرة على الموقف ، وأرسل فى أعقابه مساعداً جديداً للحاكم ينتمى إلى عائلة سامية ، هى عائلة بنى أبى عبده ، هو : أمية بن عبد الغافر الخالدى ، شقيق جعد ، حاكم البيرة ، ذلك الذى أخذه سوار ، رئيس التحالف العربى فى غرناطة ، أسيراً .

وكسبًا للوقت أطال الأمير محمد ومساعد الحاكم أمية إقامتيهما فى أشبيلية ، حتى تحل المشكلة من تلقاء نفسها ، ومن باب التمويه سمح لابن غالب بأن يعود إلى قلعته ، وأن يؤمن طريق قرطبة ، وأن يراقبه .

وعلى حين حسب المولدون الأشبيليون أنهم كسبوا الجولة ، كان العرب اليمنيون قد نفد صبرهم ، وأقسموا على أن ينتقموا ، بأنفسهم ، للإهانة التى يعانون منها ، فقرروا القيام بضربة حاسمة ، استولى بفضلها كريب بن خلدون على قلعة « كورية دل ريو » على نهر الوادى الكبير ، فى نفس الوقت الذى استولى فيه عبد الله بن حجاج على قرمونه .

وفى نفس الوقت ، الذى حالف فيه النجاح هاتين العمليتين الفجائيتين ، استطاع كريب ، بمساعدة ثائر متمرد من لبريشه ، أن ينهب جزيرة النهر ، التى يملكها أحد الأمويين الأثرياء ، وأن يأخذ منها مائة فرسة ، ومائتى بقرة .

وقد أبلغ الأمير محمد الذى بقى فى أشبيلية ، والده الأمير عبد الله ، أنه لم يعد من المجدى البحث عن حل سلمى ، حين اقترح الوزراء فى قرطبة ، حلاً خاليًا من كل معانى المروءة، والشهامة ، ويتمثل هذا الحل فى تنفيذ حكم الإعدام فى المولد محمد بن غالب ، حتى يسود الأمن والنظام .

وتنفيذاً لهذا الحل ، عاد جعد إلى قرطبة - وهو شقيق أمية مساعد الحاكم ، بعد أن أطلق سوار سراحه فى هذا الوقت المناسب - ليكون المكلف بشغل مكان ابن غالب ، ثم توجه إلى قرمونه ، بحجة طرد ابن حجاج منها ، وحين حضر ابن غالب ، هاجمه جعد ، وتغلب عليه ، وقتله . فأعرب ابن حجاج عن رضائه ، وأعاد للأمويين قلعة قرمونه .

وقد أطلق اغتيال محمد بن غالب ، عنان الغضب لدى المولدين الأشبيليين ، المقتنعين بعدالة حقهم ، وكثر التفكير فى أمرهم . ورداً على هذا قرروا ، دون أن يقطعوا حبل الاتصال، والمودة الكاملة مع الحكومة المركزية ، وطلب المساعدة من الخصوم الطبيعيين لليمنيين : أى من العرب المعديين ، ومن بربر بتر - وإن كان ذلك برغبة عدم التجاوز داخل أشبيلية ، والحفاظ الدائم على الأمن والنظام فى المدينة .

وفى سبتمبر ٨٨٩م (٩ جمادى الأولى ٢٧٦هـ) وصلت التعزيزات المطلوبة . ولما كان الجو مشحونًا ، لزم الناس المسالمون بيوتهم لتوقعهم حدوث زيادة فى التذمر واضطرابات فـ

الشوارع . وبعد عقد اجتماع سرى قصير غير مشروع ، قام المولدون وحلفاؤهم بمظاهرة أمام مقر ابن الأمير ، ولكن طبقات الشعب الأشبيلى ، التى انضمت إليهم ، وقعت فى اشتباك مباشر مع حرس القصر ، مما حفز أمية مساعد الحاكم ، على المقاومة ، معرضًا نفسه لمخاطر كبيرة .

وبدأ الخطر يتفاقم بالنسبة لممثلى النظام ، الذين كان عليهم تحمل الهجوم حتى تصل فرق جعد الذى تم إخطاره . وبالفعل دخل جعد إلى أشبيلية صباح اليوم التالى ، وتوجه لتحرير أخيه أمية والأمير محمد ابن أمير قرطبة ؛ فقام بالهجوم من الخلف ، على المولدين الذين تراجعوا ، وتفرقوا ، أمام هذا العدد ، على حين بدأت المذبحة ، التى احتواها تدخل العملاء الأمويين .

وتلا هذه الأحداث عفو صادر من الأمير عبد الله لبعض العناصر التى شاركت فيها . ولكن الهدوء كان عابرًا ؛ إذ سرعان ما سقط جعد - الخائف من أن يسلم لابن حفصون ، الذى كان يطالب برأسه ، بسبب اغتيال ابن غالب - فى فخ نصب له ، حين كان عائدًا مرة أخرى إلى أشبيلية ، قادمًا من قرطبة ، التى كان قد ذهب إليها مع الأمير محمد ، وتم اغتياله مع اثنين من إخوته كانا يرافقانه .

وألقى أمية - الذى كان يقوم بوظيفة حاكم أشبيلية رسميًا - بالمسئولية على المسلمين الجدد ، واتهمهم بأنهم السبب فى هذا الاغتيال الثلاثى ، الذى وقع على أعضاء عائلته . ثم طلب بنى خلدون وبنى حجاج ومنحهم موافقته للشروع فى الحكم .

ونتيجة لهذا عاشت المدينة ، والمناطق المتاخمة لها أيامًا عصيبة دامية ، تمت فيها إبادة الأسبان ، والمسلمين ، والمسيحيين بالآلاف ، وكان على رأسهم بنو إنجلين وبنو شبراق .

ولم يبق أمام اليمنيين ، بعد أن شفى غليلهم ، بالانتقام ، سوى أن يزيحوا الحاكم أمية ، وأن يفرضوا على عبد الله أمير قرطبة حياة تضمن لهم الموقف . فى نفس الوقت الذى لم يترك ابن حفصون للأمير عبد الله لحظة للتنفس ، مما جعله يمنحه كل ما كان يطلبه منه .

وبهذا نصل إلى عام ٨٩١م (٢٧٨هـ) . فى ذلك الوقت حل فيه إبراهيم شقيق عبد الله بن حجاج محل أخيه ، الذى كان قد سقط ضحية فى زنزانة ، كان قد نصبها له البربرى جنيد بإيعاز من أمية .

أما أمية - غير الواثق - فإنه بعد أن كان قد أخذ رهائن بنى حجاج وبنى خلدون ، وجد نفسه ملزمًا بإطلاق سراحهم ، ولكنه فضل السقوط والسلاح فى يده ، حين وجد نفسه ، ضائعًا ومضطهداً ، فخرج من قصره ، بعد أن ذبح زوجاته ، وعقر فرسانه ، وحرق حاجياته الثمينة ، ليبحث عن ميتة بطولية ، وقد تم له ما أراد .

أما الأمير عبد الله ، فقد تظاهر بتصديق الأكذوبة التى بلغته ، بأن النهاية المأساوية ، لواليه أمية ، كانت تكفيراً عن محاولة تمرد ضد سلطانه ، وأحل محله واليًا آخر .

وبعد ذلك أرسل إلى أشبيلية عمه هشام بن عبد الرحمن الثانى - الذى لم يكن سوى دمية لانقاذ المظهر - لكى يمثله شخصيًا . ولأن هشام عاش حبيسًا فى قصره من جانب سادة أشبيلية الحقيقيين ، كان على العاهل الأمير أن يقرر شيئًا ، فأمر بإرسال بعثة تحت قيادة وزيره - المقرب إلى قلبه - عبد المالك بن عبد الله بن أمية ، وكذلك إرسال ابنه شخصيًا الأمير المطرف.

وفى يونيو ٨٩٥م (ربيع ثان ٢٨٢هـ) رحلت هذه البعثة فى مهمة رسمية ، هى فى ظاهرها ، لإقرار الأمن فى شنتمريه الغرب ، وفى حقيقتها للدخول فى جدال مع الأشبيليين ، وسحق كريب بن خلدون وإبراهيم بن حجاج ، اللذين أعلنا عن نفسيهما بعصيانهما وتمردهما ، فقد كانا يثيران فتنة التمرد فى المدينة وفى الثغر .

وقد حاول هاشم - حاكم أشبيلية وعم الأمير - أن يتدخل ، حين علم كريب بمجىء الأمير المطرف ، لإقناع المطرف أن يغير خط سيره ، ولكنه ضاع منه الوقت ، ووجد نفسه ملزمًا بفتح أبواب أشبيلية أمام القوات الملكية ، التى توجهت على الفور للهجوم على عدة قلاع ، كان يحتلها المتمردون فى أقسام شريش وأركوش ومدينة شدونه .

وحين عادت هذه القوات من جديد إلى أشبيلية ، فى أواخر شهر أغسطس ، رفض كريب أن يدخلها . ولم يفلح المطرف فى إدخال قواته ، ولكنه نجح فى أسر خالد بن خلدون ، شقيق كريب ، وعبد الرحمن بن إبراهيم ، وعاد بهما إلي قرطبة .

وقبل ذلك ، كان المطرف قد قتل مرافقه القائد عبد المالك ، وكما رأينا فإنه لم يتأخر أمر تنفيذ الإعدام فيه بناء على أوامر والده .

وفيما يختص بالأسيرين ، فقد أطلق سراحهما ، بمجرد أن تم دفع جزية أشبيلية ، وإيداعها الخزانة . وما أن عاد الأسيران إلى مدينتهما ، حتى تحررا من وعودهما ، وأعلنا عصيانهما ، لسلطان أمير قرطبة . وقام كريب وإبراهيم بتقسيم قيادة إقليم أشبيلية كله .

ولكن عبد الله أمير قرطبة لم يتحرك هذه المرة لضرب هذا العصيان ، لأنه كان يأمل فى أن رئيسى كلتا العائلتين العربيتين ، لن يظلا وقتًا طويلاً على وفاق . وبالفعل لم تخطىء حساباته ، فسرعان ما سحب كريب ثقته التى أولاها لإبراهيم ، وبادله إبراهيم نفس الأمر . ولم تترك حكومة قرطبة أية فرصة لتعميق بؤر الخلافات ، التى كانت تفصل بينهما ، إلا استثمرتها .

وهكذا ، ينتهى التحالف القديم بين بنى حجاج وبنى خلدون مضرجًا بالدماء ؛ ففى عام ٨٩٩م (٢٨٦هـ) اغتال بعض رجال ابن الحجاج كريب بن خلدون وأخاه خالدًا داخل منزل خالد.

ومنذ تلك اللحظة أصبح المجال خاليًا لإبراهيم فى أشبيلية ، ووصلت به الجرأة إلى أن يطلب من قرطبة أن تخلع عليه ما يؤكد له حقوقه على أشبيلية وقرمونه . وقد استجاب له الأمير عبد الله ، ولم يجرؤ أن ينكر عليه ذلك .

وهكذا نشأت ، بموافقة الأمير نفسه ، دول جديدة شبه مستقلة على بعد ٥٠ كم من قرطبة ، يقودها عربى لديه جيشه الخاص ، ويحصل الضرائب لنفسه ، ويحفظ للملكه الاسمى موقف الجار المتثل ، مع مراعاة الفوارق ، بأنه صاحب إقطاعية متفضل ، ولكنه مستعد فى نفس الوقت - إذا سنحت له فرصة تكون مفيدة - أن يتحالف مع الأعداء ضد سيده ، بما فى ذلك ابن حفصون الذى كان تربطه به ، منذ وقت قصير ، علاقة مصاهرة ، والذى كان يكن له إعجابًا شديدًا .

وأصبح إبراهيم بن حجاج صاحب أشبيلية وقرمونه - وإن كان مازال بعيدًا عن نهاية مسيرته ؛ فقد كشف عن مستوى عالٍ من القدرة على الإدارة ، كما أخذ دور الملك بجدية ؛ إذ كرس حياته لحكم إمارته ، بقدرة فائقة وأريحية ، وتمتع بالشعبية بين رعيته الجدد . وقام بتشييد وتحصين قرمونه التى كان يزورها ، بشكل دائم ، ليعد فيها مكانًا قويًا ، يلجأ إليه عند الضرورة .

ويبرز المؤرخون العرب ، المبادرات التى اتخذها لتركيز سلطانه ، وتوطيده وزيادة شهرته ؛ فقد قام بتنظيم فرقة عسكرية تضم ٥٠٠ فارس يدفع رواتبهم بنفسه ، وأحاط نفسه بحاشية ،

وعين بنفسـه كلا من االقاضى ، وقـائد الشـرطة بأشـبيليـة ، وأبدى ترحيـبـه ، واسـتـعـداده ، وسخاءه ، مع الأدباء والشعراء ، ليبدو نصيراً لهم ، وليعظموا اسمه .

ويبدو أنه لم يصك عـملة باسمه ، وإنما كان لديه مصانع الطراز ، التى يـكتب فيها اسمه ، على المنسوجات الحريرية ، مثلما كان يحدث فى قرطبة ، ومصر ، والعراق .

وتقليداً لعبد الرحمن الثانى ، أراد أن تكون لديه مغنية بغدادية ، تدعى « الجميلة قمر »، وقد ابتاعوها بوزنها ذهبًا ، من الشرق . كما استقدم من الحجاز عالم اللغة أبا محمد العذرى، الذى بهر الأشبيليين بمعلوماته اللغوية ، وبلهجته البدوية العظيمة القادمة من الجزيرة العربية .

ولما رأى رجال الأدب فى قـرطبة ، أن الأمير عـبد الله ، لا يوليـهم رعـايتـه ، ولا يـعطيـهم قـدرهم ، سلـكوا الطريق إلى البلاط الـصـغـير ، لابن حجـاج ، وهم على يقين بأنهـم لن يعـودوا وجيـوبهم خالية : وعلى سبيل المثال ، حالة الأديب المشـهـور ابن عـبد ربه ، مؤلف المختـارات الأدبية ، التى عنوانها « العقْد » .

ولكن العلاقات بين عبد الله ، وأمير أشبيلية ، استمرت فى توتر ؛ إذ احتفظ أمير قرطبة بعبد الرحمن بن إبراهيم رهينة لديه ، فى قـرطبة ، ولكنه أمام إلحاح وزرائه ، خضع لرغبتهم ، وأطلق سراحه ، بعد ثلاث سنوات ، أى فى عام ٩٠٢ م (٢٨٩ هـ) .

ومنذ تلك اللحظة ، تصالح إبراهيم بن حجاج مع الأمير الأموى ، ودفع له ضريبة الطاعة ، وقام بإمداده بفرق الجنود اللازمة لإرسالياته ، وأوقف تأييده لابن حفصون ضده .

ولكن هذه المصالحة لم تـسـتـمـر طويلاً ؛ إذ وافـتـه المنية فجـأة ، فى عـام ٩١٠ - ٩١١م (٢٩٨هـ) ، بعد أن بلغ من العمر ثلاثة وستين عامًا . ثم خلفه ابناه : عبد الرحمن ، فى إمارة أشـبيلـيـة ، ومـحـمـد ، فى قـرمونه[٤٧] ولكنهـما عاشا وقـتًا قـصيراً ، فى عـهـد تنصيب عبد الرحـمن الثـالث : إذ لـم يتـقـاعس هذا الأمـيـر ، بشـأن اسـتـعـادة الأراضى التى كـانت فى حيازتهما ، والتى كان والدهما قد ادعى أحقيته لها .

نشاط ابن حفصون تحت مملكة الأمير عبد الله :

على حين ، كانت البيرة وأشبيلية مسرحًا للأحداث ، التى انتهينا من ذكرها ، لم يقف ثائر ببشـتر مكتـوف الأيدى ؛ فقد كـانت له ، أحيـانًا ، مشـاركـة مـباشرة فى هذه الأحداث - وإن كانت مشاركة سريعة ، حين لم يكن يجد أن وراءها فائدة شخصية .

ولقد اتبع هذا الأسلوب ، على امتداد عهد الأمير عبد الله ؛ فقد كان يتخذ القرارات العاجلة ، ثم ينفذها مباغتة ، ثم يتبعها بفترات انتظار ، تطول أحيانًا ، وتقصر أحيانًا أخرى، ولكنها تتكرر .

وتأمل سلوكياته ونشاطاته ، يمكن من استنتاج أحكام ، تدلنا على شخصيته ، وتكون لدينا انطباعًا يبعث على حب الاستطلاع .

لقد كانت أية وسيلة له ذات فائدة ، إذا أتاحت له الفرصة للسيطرة على الأقاليم ، التى تمتد من ناحية جنوب قرطبة ، حتى ساحل البحر المتوسط . والتى تشكل فى مجملها إقطاعية حقيقية ، بوصفها المكان الذى يناسب هواه ، ويتحرك فيه بسهولة .

وحين يريد أن يكسب وقتًا ، نراه ينضم خلال فترات قصيرة للحكومة الأموية ، ويقدم لها الرهائن ، ويضحى بهم بغير تردد ، أو تشكك ، أو إحساس بالندم .

وفى بعض المناسبات الأخرى ، كان يشجع ، أو يدعم ، الثوار ، أو المتمردين ، الذين لا يمثلون أهمية كبيرة بالنسبة له ، والذين يشورون داخل دائرته ، ومع ذلك فإنه سرعان ما يهاجمهم ، ويبيدهم ، بعد عدة عدة شهور ، أو بضع سنوات .

كما أن العلاقات التى كان يجريها ، مع ثوار المحافظات ، الأقل قربًا ، كانت تتأرجح درجات حرارتها ، أو فتورها ، وفقًا لمزاجه الشخصى ، أو « حالة » اللحظة التى يعيشها .

لقد كان نهازًا للفرص ، بشكل مثير وغريب ؛ فكان يرتد ، حين كانت الظروف تملى عليه ، الارتداد المفاجىء إلى المسيحية ، وكان لايترك فرصة - لهذا السبب - للبحث عن تحالفات فى الإسلام .

لقد كان يطرق كل الأبواب ، بما فيها أفريقيا ، وكان يحاول الاتصال بخصومه السياسيين، ورجال الدين ، بالنظام الأموى الأسبانى ، الذى يناهض العباسيين ، كما كان أرثوذكسيًا بالتقليد . وحين تنقضى إحدى الاتفاقات التى أبرمها ، فإنه لا يفعل شيئًا من أجل تعزيزها ، وجعلها حقيقة .

وفى الواقع ، فإنه لا يمثل أهمية كبيرة " إنه شديد التردد ، زلق ، لا يمكن العثور عليه . وعلى الرغم من عبقريته التى لا يمكن إنكارها ، ومهارته ، وحركاته ، ونشاطاته ، وقدرته على قيادة الحشود ، والجماهير ، فقد خاب ظن الذين ضحوا من أجله ، بغرض اتباعه فى ثورته وتمرده .

هل كان له مثل أعلى حقيقى ؟ هذا مشكوك فيه . فإذا كان فى الواقع ، يريد تخليص أرض الأندلس ، من الغازى الأجنبى ، من أجل إقامة حكومة وتجديدها ، بحيث تكون - بطريقة ما - حكومة قومية وطنية ، هل كان ينقصه - لدرجة ما - فى أفكاره ، برنامج يقوم بإعداده ، وتنفيذه بكل مقتضياته ؟ هل كان عليه فى هذه الحالة ، أن يتعسف ، ويشتت جهوده من سنة لأخرى ؟ .

إن المؤرخين الذين قصوا علينا حياة ابن حفصون ، ربما قد بالغوا فى القول ، عند الحديث عن دوره السياسى ، ونسبوا إليه تطلعات ، وأهدافًا قد تكون صادرة عنه ، ولكنه - بغير شك - لم يفكر فيها .

ودون الرغبة فى تقليل الخطر الكامن للتمرد الأندلسى ، الذى حافظ عليه الثائر ابن حفصون ، من خلال مجهوداته المستمرة ، فإننا نرى أنفسنا ملزمين ، أن نؤكد أن التمرد المذكور كان سيء التنظيم دائمًا . وأنه ليس من الصحيح التقليل من جدارة الأمير عبد الله ، بشأن معرفته : كيف يواجه خصمًا يتسم بنشاط طويل المدى ، دون راحة ، وبوسائل محدودة ؟ كأن يعرض عليه السلام حين كان يعتقد أنه مستعد لقبوله ، ودون أن يتبنى آمالاً وطموحات حول مدة الهدنة ؛ ذلك أنه كان يوجه له ضربة شديدة ، حين تحين الفرصة ، دون أن تكون هناك مخاطر للمغامرة ، وكا يبقيه فى حرب لا تبدو لها نهاية ، أو ما يسمى بحرب الاستنزاف ، لأن التمرد الذى كان يسود بقية البلاد ، كان يحول دون محاولة الأمير عبد الله الإجهاز عليه مرة واحدة .

لقد تصرف ابن حفصون ، حين توفى المنذر ، تصرف الرجال ؛ إذ ترك الأمير الجديد يعود إلى قرطبة ، ويجلس على العرش ، ترقبًا لما تسفر عنه الصداقة التى وعده بها عبد الله . وبالفعل فقد أوفى عبد الله بكلمته ، حين جاء إلى ببشتر القائد إبراهيم بن جامير ، ليسلم الرئيس المولد مهام منصبه ، حاكمًا لمحافظة ريُه ، وأن يحصل فى نفس الوقت ، على يمين وقسم الوفاء للأمير . ولم يحل عمر بن حفصون دون ذلك ، ولكنه قدم ما هو أكثر من هذا ؛ إذ جعل الرسول يعود إلى العاصمة ، وبصحبته ابنه حفص ، وعدد من ضباطه دليلاً وتعبيراً عن الوفاء .

ولكن ابن حفصون بمجرد أن عاد رجاله ، وعلم أن أنحاء البلاد ، يسودها التمرد ، انخرط فى الانشقاق ، ووسع عملياته ، ليصبح فى غضون شهور ، سيد الأندلس ، بدءًا من الجزيرة حتى مرسيه ، تاركًا جنوده ينهبون المزارع والضياع القريبة من قرطبة .

من أجل هذا ، قرر الأمير عبد الله التصدى له ، وأن يرسل أولى حملاته ضده ، وفى ربيع عام ٨٨٩م (٢٧٦هـ) قام بمناورة عسكرية ، لمدة أربعين يومًا دون أية نتائج عملية .

وجاء رد ابن حفصون بالاستيلاء علي إسطبة وأشونة حتى استجه ، وتوغل حتى ثلاثين كيلومتراً فى طريق قرطبة . ومع أن هذا التقدم يُعد كافيًا فى هذا الوقت ، إلا أنه يجعلنا نعرف أن الأمير مستعد لوقف هذه الاعتداءات .

لقد قبل عبد الله على الفور الحل السلمى ، الذى لم يستمر سوى بضعة شهور . ذلك أن ابن حفصون - الذى لبى دعوة الأمير لحضور مجلس تأديب أمر به إبراهيم بن جومير ضد الثائر ابن مسطاته ، الذى كان يقدم مساعدته لعرب قلعة السبطاط المتخصصين فى أعمال السلب والنهب - يعقد الموضوع ، ويدخل فى اتفاق مع هذا الثائر الذى كان عليه أن يؤدبه ، ويأخذ القائد الأموى أسيراً ، ويقطع حبل المودة والاتصال مع قرطبة ، بعد أن ساعد مولدى البيرة ضد سوار .

ورغم معاناة ابن حفصون من واحدة من هزائمه الأولى فى سهول غرناطة ، لم يقلل هذا الفشل من سلطانه وعدوانيته ؛ إذ كان سلطانه هو السلطان الوحيد الذى يسمع على امتداد محافظات : ريُه والبيرة وجبان تقريبًا .

ولم تكن هذه المدينة هى المنطقة الأخيرة التى تخضع لسلطانه ؛ فقد اعترفت به كل من مواقع أرشدونه وبياسه وباغو واستجه زعيمًا .

ويبدو أنه قد جاءت لحظة العملية الكبيرة الحجم ضد قرطبة .

ويعتقد المؤرخان دوزى وسيمونيه ، فى هذا العصر على وجه التحديد ، أن المستعربين بالعاصمة كانوا يقدمون مساعدتهم للثائر ابن حفصون ، وينتظرونه كما لو كان هو المنقذ لهم . ولكننا بحثنا فى المصادر العربية فلم نجد شيئًا مماثلاً .

إن الحقيقة تكمن فى حادث عادى للغاية ، يتمثل فى هروب عضو يسمى شربند من الجماعة المسيحية ، كان معاقبًا بالحبس ، وتوجهه إلي ابن حفصون ليقدم إليه خدماته . وكان والد هذا الهارب يحمل نفس الاسم ، ولكنه كان يحمل فى نفس الوقت الاسم العربى حجاج ، وكان فى أواخر حكم محمد الأول قومس (كونت) المستعربين فى قرطبة .

وقد لوحظ على هذا القومس قسوته الشديدة فى معاملته مع أبناء دينه ، ولما كان لا يفكر إلا فى إرضاء البلاط الملكى ، فقد أثقل عليهم بالضرائب غير العادية ، وأجبر العديد منهم على التحول إلى الإسلام هروبًا من تعقبهم ضرائبيًا وماليًا . وقد أفقر خزائن الكنائس ، وفرض عليهم بالإضافة إلى ذلك ولاة من اختياره ، وحاول أن يحرج ويورط ، أمام رؤسائه المسلمين ، أسقف قرطبة فيناسيو ورئيس الدير سمون الذى يقدم لنا ، فى رسالة وصلت إلينا(٤٨) ، هذه التفاصيل على الرغم من مبالغتها بالتأكيد ، إلى حد ما .

وغير ذلك ، فقد طلب هذا القومس بعد ذلك العفو والمغفرة ، وبدأ يحاول مع شركاء دينه أن ينسوا ما فات .

وبالنسبة لابنه شربند ، المتورط فى عملية اغتيال ، فقد انضم إلى مجموعة من الأنصار والأتباع ، للسطو على الطرقات ، على بعد ٥٠ كم من جنوب شرق قرطبة ، حول قلعة بلاى ، التى تسمى اليوم باسم اجيلار (٤٩) ، والتى احتلها تحت اسم ابن حفصون .

وقد انتهز ابن حفصون هذه الفرصة ، فكلف سير فاندو ليقوم بإغارات ضد الأرياف والضواحى ، حيث أرسل الأمير فرقة من الفرسان للهجوم على ابن القومس القديم . وقد أسفر الهجوم عن سقوط المسيحى « شربند » ميتًا فى الشراك الذى نصب له . ثم نقل رأسه إلى قرطبة ، حيث صلبه والده حجاج .

ولو كانت للمستعربين بالعاصمة أية رغبة فى التمرد فقد كان هذا العقاب جديراً بأن يجعلهم يفكرون قبل أن يقدموا عليه .

وبهذه الطريقة أصبح ابن حفصون صاحبًا لـ « بلاى » . وأمر بتحصين هذه القلعة ، التى كان يرغب فى أن تكون قلعة منيعة .

وبعد أن نقل معسكره العام إلى استجه انضم إلى مواقعه أولاً فى بيّانه وبعد ذلك فى اللسانة – التى كانت وظلت حتى أواخر القرن الحادى عشر مدينة يهودية تمامًا (٥٠).

وفى نفس الوقت عندما تيقن من خيانة الثائر الصغير خير بن شاكر ، سيد شوذر جعل نائبه الروُبُول(٥١) يقوم بقتله ، ثم قام بإرسال رأسه إلى الأمير عبد الله كعلامة مميزة لأسلوبه فى القتل .

وفى نفس العصر أرسل مندوبية محملة بالهدايا إلى إبراهيم الثانى ، أمير القيروان الأغلبى ، طالبًا منه أن يحصل له على رعاية العباسيين ؛ إذ كان يريد أن يواصل الكفاح تحت اسمهم ضد المروانيين المغتصبين . وجاء رد إبراهيم الثانى - الذى كان لديه الكثير من المشاغل الشخصية والخاصة بشأن الاهتمام بالأمور الأسبانية - مجاملاً ؛ إذ اقتصر على تشجيعه لتنفيذ مشروعه بالهجوم على قرطبة .

وفى الواقع ، فقد شجع كل هذا ، الثائر بالوقوف على أرض صلبة لعملياته ، وبخاصة قلعة بُلاى التى كان يخرج منها كل ليلة فرسانه للقيام بعمليات السلب والنهب ، للمزارع التابعة للضواحى القرطبية .

وقد عاشت العاصمة « قرطبة » التى بدأت تنقصها موارد المعيشة ، فى قلق شديد . ولم تخف حاشية الأمير تشاؤمها ، كما أن الشائعات الكاذبة بدأت تقلق الشعب ، وتجعل حياتهم أكثر اضطرابًا .

وقد قام الأمير عبد الله بعمل بعض عمليات جس النبض ، بالنسبة لابن حفصون ، ولكنت جاء الرد عاتبًا . وكان قد انقضى وقت طويل أمام حالة التردد ، ومن ثم لم يستطع الأمير انتظار أية نصيحة مفيدة من مستشاريه ، الذين هبطت معنوياتهم . وكان عليه هو أن يصدر القرار ، وأن يكون القرار عاجلاً .

وأمام حالة الدهشة التى أصابت كل الذين كانوا يحيطون به ، الذين اعتادوا على إجراءات التساهل ، وردود الفعل البطيئة أمام الخطر ، أعلن الأمير عبد الله أنه سيقامر ، بكل شىء من أجل كل شىء . وكان ذلك يتعلق بعرش أبويه ، وشرف الأمويين ، ومستقبل الأسرة الحاكمة . وبالقرار الذى ألهب المشاعر والطاقات ، أمر بجمع كل القوات المستعدة ، وتنظيم جيش يقوم بقيادته بنفسه .

وكان ابن حفصون الذى تابع هذه الاستعدادات يسخر منها ، لدرجة أنه أطلق على خصومه بأنهم « قطيع من الثيران المستأنسة » (٥٢).

ووفقًا للاحتفالات التى كانت تتم عندما يخرج الملك فى حملة كان يرفع سرادق الملك فى سهل شقونده حيث تتجمع القوات ويتم مراجعتها . وبلغت جرأة القائد الأندلسى أن أتى ليلاً، فى محاولة لإشعال النيران ، وكان برفقته بعض الفرسان . ولكن هذا الصلف كان على وشك

أن يكلفه حياته حيث أطلق عليه وابل من السهام ، مما جعله يعود أدراجه ، وكان معه واحد فقط من مرافقيه .

وكان عبد الله قد استطاع أن يجمع بجهد جهيد ٤٠٠٠ جندى نظامى و ١٠٠٠٠ متطوع من قرطبة . وكان ابن حفصون مستعداً بأعداد تزيد عن الضعف . هذا وقد خرج الجيش الأموى من العاصمة مكونًا فقط من الفرسان ، عند بزوغ فجر يوم السبت ١٥ مايو ٨٩١ (الأول من صفر ٢٧٨)(٥٣). وفى المساء وصل إلى مسافة ألفى ميل من بلاى ، وعسكر على ضفاف جدول قارتشيناس . وقد أجرت فرق الاستطلاع المعادية اتصالاً ، واجتمعت على أن اللقاء سيتم فى صباح اليوم التالى .

وعند الفجر بدأت القوات الأموية تقدمها ، وكان ابن حفصون قد وضع لقواته نظامًا للمعركة ؛ حيث انتظرت أسفل قلعة بلاى ، وانتظرت العدو بأقدام راسخة . وبعد أن أعطى عبد الله توجيهاته أصر على استمرار الحرب ، وهو فى مكان عال حيث أقام السرادق الملكى رمز السلطة .

وفى مناورة غير مناسبة بدأها الوزير عبد المالك بن أمية قام بإيقافها الرئيس الثانى القائد عبيد الله بن أبى عبده . وانطلقت فرق الفروسية الأموية ضد الموالين للثائر المولد . وقد الجناح الملكى الأيمن باكتساح الجناح الأيمن لابن حفصون الذى أرسله بنفسه ، واستطاعت القوات الملكية أن تجعلها تفر هاربة .

أما بقية الفرق والقوات الثائرة التى أصابها الخوف والهلع فقد ولت الأدبار ، وتركت ميدان المعركة بعد أن منيت بالهزيمة .

واستطاع جيش عبد الله أن يستثمر كل ما أمكنه من هذا الانتصار غير المتوقع ، وقام بمطاردة الهاربين الذين تقهقروا نحو « بلاى » .

أما ابن حفصون - الذى كان على يقين من قدرة قواته على مقاومة حصار القلعة ، خذلته هذه القوات ؛ ذلك أن قواته كانت - فى أغلبها - تضم أفراداً من استجه ، وهؤلاء الأفراد لم يردوا أن يخضعوا للحصار ، فأخلوا كل المنطقة ، تقريبًا ، خلال الليلة التالية ، وذلك بعد عمل ثغرة فى السور - فلم يكن أمامه ، إزاء هذا الموقف من بد ، سوى الهرب . فتوجه بسرعة ألى ارشدونه ، وانضم بعد ذلك إلى سلسلة الجبال الأندلسية ، بعد أن أصبح خامد

الهـمـة ، وأصـيب بالإحبـاط ، من جراء هذه الكارثة ، التى لم يكن لها سابقة ومن تقاعس جنوده .

وأما الأمير عبد الله ، فقد قام باحتلال قلعة بلاى ، ثم أمر باغتيال السجناء الذين أصبحوا مسيحيين . ولقد لقى ألف من هؤلاء التعساء حتفهم باستثناء واحد فقط ارتد لحظة ضرب أعناقهم .

ثم توجه بعد ذلك الأمير عبد الله لحصار استجه ، حيث كان على فرقتها أن تستسلم وتنقذ حياتها ، وبخاصة بعد أن تناقصت الموارد الغذائية ، ولم تكن متوفرة .

وواصل الأمير سيره نحو ببشتر ، حيث اقتصر الزحف على القيام بمناورة .

وفى ١٣ يونيو التالى (١ ربيع أول) توجه إلى أرشدونه حيث أجرى مناوشة مع ابن حفصون ، ومر عبر البيره ، حيث جعله يسلم الرهائن ، وفى النهاية عاد إلى قرطبة .

وقد أصبح الموقف - فى ذلك اليوم الذى كان مظلمًا حالكًا - أفضل حالاً حيث كان انتصار بلاى الذى تلاه استعادة استجه وارشدونه والبيره وجيان - التى خضعت تلقائيًا - بمثابة الحافز والمشجع لأمير قرطبة .

ومن جهة أخرى فقد كان ابن حفصون الذى كان مصراً على نكبته ، فقد كان فى حاجة لقدر من الراحة ، والتقاط الأنفاس ، ليعيد بناء اسمه وشهرته . ولهذا طلب عقد السلام مع عبد الله ، الذى قبل اقتراحه شريطة أن يرسل الثائر له واحداً من أولاده ليكون رهينة لديه .

وأذعن الثائر المتمرد لهذا الطلب ، ولكنه حاول السخرية من الأمير ، بأن أرسل إليه فتى صغيراً ، كان هو أباه بالتبنى .

وبلغ هذا الأمر البلاط الملكى بشكوى ابن حفصون ، ولكن هذا الأخير الذى اعتقد أنه كان فى أفضل موقف قطع خيوط الاتصال مع قرطبة ، فى عام ٨٩٢م (٢٧٩هـ) ، وخرج لاستعادة المدن الضائعة ، بداية بأرشدونه ، وبعد ذلك البيره ، التى عادت إلى سلطانه بسبب خيانة بعض مواطنيها . وبعد ذلك بدأ تخريب مزارع غرناطة التابعة لسعيد بن سليمان ، والعرب ، واستولى على جيان . ولم يبق سوى استجه وبلاى ، ليصبح فى نفس الموقف الذى كان عليه قبل هزيمته فى عام ٨٩١م .

ولكن خلال السنوات الست التالية لم يقم ابن حفصون بأعمال كبيرة ، بل فقد البيره . واستفاد الأمير عبد الله من هذه الفترة ، لكي يطلق فرقه ، وكتائبه ، ضد المتمردين الأندلسيين ، الذين لا يمثلون أهمية كبيرة ، وبخاصة ضد سعيد بن مسطانه ، دون أن يواجه ابن حفصون مباشرة ، إلا عندما استعاد هذا الأخير استجه ، لفترة زمنية مؤقتة فى صيف عام ٨٩٧ م (٢٨٤هـ) .

وخرج جيش يقوده الولد أبان ، والقائد أحمد بن محمد أبى عبده ، الذى كان عائداً إلى قرطبة ، من بعض العمليات فى أراضى لبله ضد ابن يحسب ، أحد الثائرين فى مونت ميور ، حيث توجه إلى جنوب الأندلس .

وكانت هذه الحملة البوليسية - التى قادها الولد أبان حتى ساحل مضيق طارق - ذات فائده ؛ حيث ملأت بعض صناديق دار خزانة الأمير ، ولكنها لم تحقق النتيجة السياسية التى كان ينتظرها الأمير عبد الله .

وعلى العكس من ذلك فقد قام ابن حفصون بمبادرة غير متوقعة جعلته يفقد بعض النقاط الحصينة .

ففى عام ٨٩٩م (٢٨٦هـ) أعلن ابن حفصون عودته إلى دين سادته الكبار ، وتم تعميده إلى جانب عائلته . وغير اسمه إلى « صمويل » واتخذت زوجته اسم كولومبا .

وكان لهذا الارتداد إلى المسيحية صداه ؛ ففى رأينا أنه إذا كان مستعربى الأندلس ، قد رحبوا به بحماس شديد ، إلا أنه حرمه فى ذات الوقت ، من المساعدات التى كانت تأتيه ، آنذاك ، من عديد من المولدين الموالين ، والأوفياء للدين الإسلامى .

وقد انقلب عليه واحد من أفضل نوابه ، هو : يحيى (خوان) ابن أناطوليو ، ونفس الشىء فعله أيضًا عوسجة بن الخليع سيد قلعة منيط التابعة لمقاطعة تاكرنا .

وبالإجمال ، فإن عملية جحود وارتداد ابن حفصون كان لها صداها العميق ؛ حيث أخذت أكثر مما أعطته ، لأنه فضلاً عن إنكاره للإسلام ، كان يعرف أنه كان معرضًا لضربات الجهاد ، تلك الحرب المقدسة ضد المرتدين ، حيث لايمكن للأوساط الدينية فى قرطبة أن تتركهم يقفون ضدها .

وفى الواقع ، فقد وقف الناس فى كل الأنحاء تقريبًا فى وجهه ، بمنا فى ذلك مراكش - حيث كان يواصل باهتمام خفيف الظل لعبة « القط والفأر » التى كان يقوم بها قائد ببشتر والإمارة الأموية - حيث فقد المسيحى الجديد الكثير من شهرته .

وقد أخذت الحمية أحد المتدينين والغيورين على الدين ، وهو محارب من نكور يدعى : عبد الرحمن بن الأمير صالح بن سعيد ، كان قد قام بالحج إلى مكة أربع مرات ، حيث جهز فرقة صغيرة ، واتجه إلى أسبانيا لمحاربة ابن حفصون ، تحت لواء الدين المهان ، ولم يحالفه الحظ ؛ إذ سقط جميع جنوده فى الكمين الذى نصبه لهم الثائر المتمرد ، إلا أنه استطاع الهرب، والوصول إلى مرسيه . وانتهى به الأمر بالانضمام فى عام ٩١٢ م (٣٠٥ هـ) إلى جانب القائد ابن أبى عبده ؛ حيث لقى حتفه باعتباره المجاهد الذى جاء للبحث عنه [٥٤].

ويجعلنا الموقف الذى اتخذه ابن حفصون بارتداده ، نتأمل أكثر تصرفاته الماضية من حيث حالة عدم الاستقرار التى تسود شخصيته ، واتجاهاته الانتهازية .

لقد رأيناه يطلب المساعدات فى كل مكان ، ويقوم بجس النبض مع الفونسو الثالث ، ومحاولاته فى التصالح مع بنى قسى بأراغون ، رغبة فى عقد عملية ضد أراضى جيان . ولقد كتب إلى مليك البصرة ، وأرثيله (فى شمال شرق مراكش) - إبراهيم بن القاسم بن إدريس - أن يذكر اسمه فى خطبة أيام الجمعة ، فى مساجد الأراضى الأندلسية التى تقع فى اختصاصه [٥٥].

وفى عام ٩٠٠ م (٢٨٧هـ) ، عقد تحالفًا مع إبراهيم بن الحجاج ، مما زاد من الحقد الذى كان يكنه ابن الحجاج ، للأمير عبد الله ، الذى كان يصر على ألا يعود إليه ابنه الذى احتفظ به رهينة فى قرطبة - وقد قبل أمير أشبيلية ، هذا التحالف ، فأرسل إليه قوات ومساعدات مالية .

وفى العام التالى عقد علاقات بين بلاط قرطبة وببشتر . ولايعرف على وجه الدقة من الذى بدأت منه المبادرة لإقامة هذه العلاقات . ولكنه كان سلامًا عابرًا زائلاً . فابن حفصون قبل أن يرسل إلى قرطبة أربع رهائن - كان واحد منهم هو حليفه القديم ابن مسطانه ، صاحب « باغو » و « لك » وقطعت الهدنة فى عام ٩٠٢م (٢٨٩هـ) . وعلى الرغم من تعزيز سلاح الفرسان الأشبيلى فقد عانى الثائر بعد ذلك بقليل من عملية إحباط خطيرة ألحقت به أضرارًا فى أراضى اسطبه من جانب القائد الأموى أحمد بن أبى عبده . ونظرًا لكل هذا ، فقد أمر الأمير عبد الله بتنفيذ الإعدام فى رهائن ابن حفصون باستثناء ابن مسطانة ، وبعد ذلك تصالح مع أمير أشبيلية ابن الحجاج بأن أعاد إليه ابنه عبد الرحمن .

وشهدت السنوات العشرة الأخيرة من حكم الأمير عبد الله ، على حالة الضعف المضطردة ، التى عانت منها سلطة ابن حفصون ، الذى لا يناقش . وكانت حكومة قرطبة التى عانت فى جانب كبير من هجمات ، واعتداءات الثائر ، انقلبت لتكون عدوانية ؛ إذا حالفتها سلسلة من الانتصارات التى كانت فى حاجة إليها ، والتى أدت إلى رفع مكانتها فى النهاية .

ومنذ ذلك الحين ، كانت الحملات التى تقوم بها سنويًا ناجحة ، والتى وجهتها ضد جيان وباغو أو ريُه (مالقة) ، والتى كانت ترسل بقيادة الأمير أبان أو أخيه العاصى ، وباستشارة القائد حمد بن أبى عبده ، أو بواسطة أبناء هذا الأخير عيسى والعباس .

وفى عام ٩٠٣م (٢٩٠هـ) تم استعادة جيان ، وتم القيام بمناورة أمام ببشتر . ومنذ شهر مايو وحتى أوائل أغسطس من عام ٩٠٤ م (٢٩٩هـ) جاب الجيش الأموى ، دون أن يجد خصمًا أو عدواً ، الأراضى التى تفصل مالقه ولوشة .

وفى عام ٩٠٥م (٣٩٢هـ) ، واجه ابن حفصون كارثة كبيرة بجوار وادى بلون الذى لايبعد عن جيان ؛ حيث تكبد خسائر جسيمة . وقد تم استعادة تُشىّ (مارتوس) حاليًا[٥٦] ، فى نفس الإقليم ، من أيدى الثائر فهر بن أسد الذى حمل إلى قرطبة ، وتم صلبه ، على حين تم الاستيلاء على قلعة قنيط الواقعة فى أراضى تاكرنا ، ووضع فرقة مسلحة بها .

وفى عام ٩٠٧م (٢٩٤هـ) جابت فرقة الصائفة الأموية ، دون مقاومة ، مناطق الجزيرة وريه.

وفى عام ٩٠٨م (٢٩٥هـ) تم عمل مناورة جديدة أمام ببشتر .

وفى عام ٩٠٩م (٢٩٦هـ) ظهر الأمويون مرة أخرى بالقرب من محمية ابن حفصون ، واستولت على قلعة « لك » التابعة لابن مسطانه ، الذى كان متمرداً ثائراً .

وفى عام ٩١٠م (٢٩٧هـ) تم استعادة بياسه ، على حين كان ابن حفصون المبعد ليس ببعيد عن البيضاء (انتقيرة) . وبعد ذلك بعدة شهورمنى بهزيمة فى أراضى جيان ، على الرغم من قوات سعيد بن مسطانه وسعيد بن حدحيل التى جاءت لتعزيزه .

وفى عام ٩١١م (٧-٢٩٨هـ) واجه كارثة أخرى ، بجوار نهر جواديبله .

وأخيراً فى عام ٩١٢م (٢٩٩هـ) كان عليه أن يتحمل بالقرب من ببشتر ضغط القوات الملكية التى استعادت حصن آشر .

وفى ١٦ أكتوبر التالى (١ربيع أول) ، توفى الأمير عبد الله فى قرطبة ، وحل محله حفيده عبد الرحمن الثالث .

ويجب أن نحذر أنه لاتوجد لدينا حكايات أخرى مختصرة ، رواها مؤرخو الجانب الأموى، بشأن سلسلة هذه العمليات الصغيرة لصالح الحكومة المركزية . ولكن علينا أن نفترض أنه لو كان ابن حفصون قد حقق خلال هذه الفترة بعض الانتصارات الهامة ، فإن هؤلاء المؤرخين كانوا سيشيرون إليها .

ويسيطر علينا الانطباع ، أنه خلال العقد الأخير من حكم الأمير عبد الله فقد ابن حفصون زمام المبادرة بعملياته ، ولا يعنى هذا بأية طريقة كانت أن القائد المولد- الذى بدأت الشيخوخة تلحق به ، إذ إنه عند تنصيب عبد الرحمن الثالث كان قد تجاوز الخمسين عامًا - يسلم سلاحه ، بل على العكس من ذلك ، فإنه لم يتوقف ولم يفقد حماسه وهمته بشأن ما فعله الأغلبى القيروانى والإدريسى ؛ إذ تابع تطور الحركة الفاطمية السريعة فى المغرب الأوسط ، ونجاحاتها الأولى ، وحين علم بأن أفريقيا سقطت فى أيدى المهدى عبيد الله ، وأنه نُصب أميراً للمؤمنين ، فى أوائل عام ٩١٠م (٢٩٧هـ) ، وأن الشيعة دخلت فى رقادة (مدينة فى تونس) - تعجل ابن حفصون وأرسل إليه رسالة الطاعة والولاء. وبدأ يذكر اسمه فى منابر جميع المساجد الأندلسية الواقعة تحت سلطانه . وكان هو - بلا شك- أول من لفت أنظار سادة شمال أفريقا الشرقية الجدد ، نحو سراب فتح شبه الجزيرة الأيبيرية .

ولهذا وضع عبد الرحمن الثالث إصراره بإبادة ثائر ببشتر العتيق ، وهذا يعنى قتل عصفورين بطلق نارى واحد . ومن جهة أخرى سيخرج من مملكته الشوكة السامة التى كانت تسبب له إزعاجًا عى مدار وقت طويل . ولكنه من جانب آخر سينزع من الفاطميين أحلامهم الأولى بشأن المساعدة التى يمكن أن يجدوها فى داخل أسبانيا ، من أجل صراع النفوذ التى كانت تجرى فى الخفاء فى البداية ، ثم أصبحت علانية ، والتى سرعان ما جرت فى شمال أفريقيا ضد الأمويين .

الموقف فى الثغور فى أواخر القرن التاسع :

عندما تولى عبد الله العرش ، كان الموقف يتسم بالغموض فى الثغور ، أكثر منه فى أشبيلية والبيرة أو جنوب الأندلس . وكان على الأمير طوال فترة مملكته ، أن يتخذ سياسة متعرجة ، إزاء البلاد الواقعة على حدود أراضيه ، من حيث تطور الأحداث ، والتدخل فى

بعضها ، فى الوقت المناسب ، والميل تجاه أحد الأحداث إذا لم يكن هناك بديل آخر ، والتسامح بشأن عمليات الاغتصاب لمتلكاته ، التى يقوم بها قادة الثورة والتمرد ، والتسرع أحيانًا فى الاعتراف بأنهم أتباعه ، بهدف تقليل حجمهم أمام عيون رعيته .

وكان لهذا التنوع ، لهذه الدول الصغيرة شبه المستقلة - بدءًا من أشبيلية ، حتى مرسيه ، ومرورًا ببطليوس وطليطلة وسرقسطة ، احتواء غرب وشمال وشرق أراضى قرطبة - مظهر للوحدة التى تحمل معنى الطاعة أو بمعنى أدق ، لقد مثل هذا التنوع نوعًا من « المحمية » الأموية . وإن كان ما يهم الأمير ، هو منع هذه الاقطاعات المتعددة ، التى تضم العرب ، أو البربر ، أو المولدين ، من أن تتخذ موقفًا موحدًا ضده ؛ إذ إنه كان يعلم - تمام العلم - أن أى تحالف بين خصومه ، ستكون عواقبه وخيمة ، بالنسبة له .

ولم يفهم أى أمير من أمراء الإسلام فى الغرب ، حقيقة ما يعرفه عبد الله ، من الحكمة البليغة التى تقول « فرق تسد » .

ومن جهة أخرى لم يكن كل شىء سهلاً ، أمام الأمير عبد الله ، نظرًا لخصوصية أصل هؤلاء السادة ، الذين يتعاملون معه على قدم المساواة ، وطبيعتهم ، مع الفارق بأنهم كانوا جميعًا منبتًا للحقد والحسد من جيرانهم .

ومع ذلك ، فإن هؤلاء السادة ، على الرغم من تطلعاتهم وشوقهم للاستقلال ، كانوا بمثابة المساعدين المتازين للأسرة الأموية ، من حيث مراقبتهم للحدود ، فضلاً عن أنهم - أحيانًا - كان يشنون حربًا مقدسة ، ضد النزعة المسيحية فى شمال أسبانيا .

ويمكن أن نقول عنهم ، بأنهم كانوا مثل شاشة السينما التى تعرض أرض الأندلس التى تمزقها النزاعات والخلافات المدنية ، وفى ذات الوقت ، فإنهم يجنبون هذه الأرض تهديد الهجوم المباشر ، من جانب مملكة أشتوريش .

وبفضل روح الهجوم التى كانت تسودهم ؛ حيث اليقظة الدائمة إزاء أى محاولة للمناوشة ، أو الإغارة عليهم ، ورغبة منهم فى الشراء العاجل ، فإنهم على امتداد مملكة عبد الله ، وألفونسو الثانى - الذى تحرك بنشاط كبير أثناء مملكة محمد الأول - لم يقوموا بأى هجوم حقيقى وذى أهمية ، ضد أراضى أسبانيا الإسلامية .

وتجاه هذه الأقاليم الواقعة على الحدود - حيث كثافة البربر بصفة خاصة - بدأت بعض موجات المتصوفة والزهاد ، فى أواخر القرن التاسع ، تسرب عقائدها ، ومذاهبها ، داخل جماهير المسلمين .

وفى هذه الفترة تخمرت وامتزجت نوعيات عديدة من النفوس ، على امتداد العالم الإسلامى . وبدأت النظريات العقلانية للمعتزلة التى تنادى بحرية الاختيار ، بالتسرب داخل الأندلس ، على أيدى الرحالة الذين جاءوا من المشرق ، والذين لاترضيهم اجتهادات علماء الدين بالمملكة ، ولا تأملاتهم .

وفى ظل مملكة الأمير عبد الله وخليفته ، عرض الفيلسوف الأسبانى ابن مسره على تلاميذه ، فى إحدى المصليات ، بسلسلة جبال قرطبة ، نظريته الميتافيزيقية ، التى استنبطها على الجانب الآخر من حوض البحر المتوسط ، بشأن نظام الفيلسوف الإغريقى بلوتينو ، عن الفيلسوف والطبيب أمبيدوكليس .

وإلى جانب هؤلاء الزهاد ، الذين يحملون الناس إلى حياة الخشوع والورع والدراسة ، ولا يسعون إلى أى منفعة أو فائدة دنيوية ، نجد شخصيات أخرى لا تحمل أى قدر من الثقافة ، يسعدها أن تقوم بدور المصلحين الروحيين ، إذ ينشرون الصيغة الإسلامية المشهورة ، بشأن الرقابة على العادات والتقاليد (والتى ظهرت - فيما بعد - فى مراكش ، على أيدى المهدى بن تومرت حين أعلن المذهب الموحد) .

ولم يكن المغامرون بهذا النوع من الدعوة صادقين دائمًا ، سواء أكانوا مقتنعين أم دجالين . لذا تحولوا على الفور إلى خصوم للنظام ، الذى كان يضطهدهم ، ونادراً ما كان يغفر لهم تدخلهم فى نظام المملكة .

أما فى أسبانيا فقد كان يمكن لهؤلاء القوم أن يعيشوا آمنين ؛ إذ كانوا يجدون أنفسهم بين المبتدئين والمتحمسين من البربر المبعدين ، أو المنفيين إلى المناطق المركزية الوعرة .

وقبل وفاة الأمير عبد الله بعدة سنوات ، ظهر أحد هؤلاء الأشخاص ، وكان مسرح نشاطه، بين أسبانيا الإسلامية ، والمسيحية ، وهو يذكر بالداعية الفاطمى أبى عبد الله الشيعى ، الذى كان يعمل - فى نفس الوقت أيضًا - فى شمال أفريقيا ، لنشر المذهب الإسماعيلى ، بين سكان المناطق الجبلية ، فى كتامة ، تلك القبيلة الصغيرة .

أما الداعية الأندلسى فقد كان يدعى : أبو على ابن سراج [٥٧]. وبحجة النداء للحرب المقدسة ، كان عليه أن يجوب القرى - مع الإيحاء بأنه يصنع المعجزات والكرامات ، وكان يرتدى خرقة من الصوف ، وكان حذاؤه صندلاً من الحلفاء ، كما كان يمتطى حماراً ، يجوب به جبال أوريس وأفريقية ، بنفس طريقة الثائر المناهض للفاطميين أبى يزيد ، الذى عرف باسم «رجل الحمار » بعد ذلك بنصف قرن من الزمان .

وعلى الرغم من أن ابن سراج أصبح مصلحًا دينيًا إلا أنه قام - بدور كبير - بإتمام مشروع تحالف ، تم وضعه بشكل إجمالى ، فى عام ٨٩٨م (٢٨٥هـ) ، بين بنى قسى بأراجون وعمر بن حفصون . ولكن على الرغم من كثرة الذهاب والإياب بين تطيله وببشتر إلا أن الموضوع قد ذهب أدراج الرياح .

وبعد ذلك بسنوات ثلاث أقنع ابن سراج شخصية قرشية بقرطبة ، تدعى : أحمد بن معاوية الملقب بابن القط [٥٨]- الذى ينحدر مباشرة من صلب الأمير هشام الأول ، والذى أصبح خبيراً فى الفلك - ليكون على رأس حركة سياسية دينية معارضة للأمير الحاكم .

وبدأ الاثنان يطوفان بين البربر المقيمين فى شمال قرطبة بضاحية البطروج وفى سلسلة جبال المعدن ، وكان الترحيب الذى قوبلا به حافزاً لهما لتجنيد مريدين جدد ، وبهذه الطريقة وصلا إلى أراضى أهل نفزه : وهم قوم من البربر يسكنون وادى (آنه) الأعلى ، بعد مياه ماردة .

وهناك كان المهدى الذى أعلن عنه الداعية ابن القط ، الذى قام بالدور الأول ، ثم ابن سراج بعد ذلك . وكان المهدى الجديد يوجه باستمرار نداءات بالحرب المقدسة ، لبقية البربر المقيمين على الحدود . وكانت هذه الرسائل تلقى ترحيبًا كبيراً ، حين يعلن عن نية طرد مسيحيى سموره : تلك المدينة التى أعاد بناءها الفونسو الثالث ، عام ٨٩٣م ـ ٢٨٠هـ) ، والتى كانت مزودة بفرقة عسكرية قوية ، وقد خرجت منها باستمرار إرساليات وحملات عبر أراضى المسلمين ، سببت معاناة كبيرة للبربر .

وكانت تتوافد يوميًا طوابير من المتطوعين للجهاد ، وصل عددهم أكثر من ٦٠٠٠٠ متطوعًا . وبهذه العصبة المتعصبة التى كانت تتبعه بطريقة عمياء ، عبر ابن القط نهر التاجه وتوجه إلى نهر دويره ، وكان ينضم إليهم فى الطريق أعداد أخرى من المسلمين ، القادمين من طليطلة ، ومن طلبيره ، ووادى الحجارة شنتبرية .

وكانت الناس تتزاحم بإعجاب شديد ، حول أعمال الشعوذة ، التى كان يقوم بها المهدى أمام حشود مريديه وأتباعه وكان ينظر إليه - على سبيل المثال - حين يأخذ فى قبضة يده حزمة من العصى الجافة ، ويضغط عليها بقوة فتخرج ماء ، ولم يكن فى حاجة لكى يبرر أمام أعين البلهاء ، والسذج المؤيدين لمهمته ، أنه الرجل الفائق الخارق للعادة ، صاحب المعجزات . وزيادة على ذلك ، فقد أعلن ، عند وصوله ، أن الجزء السادس من أسوار سموره سيسقط من تلقاء نفسه . ، وأثناء ذلك ، احتجب الداعية ابن سراج بذكاء .

وقد أسل ابن القط ، الذى وصل فى أحد الأيام إلى مدينة مسيحية ، إلى الفونسو الثالث خطابًا يدعوه ، وأتباعه ، إلى التحول إلى الإسلام ، لتتلاشى آلامه . حينئذ ضاق ملك اشتوريش ذرعًا بجرأة الداعية ، فخرج على الفور إلى الضفة اليمنى من نهر دويره للهجوم عليه .

وفى المعركة التى تحرش به فيها كانت الانتصارات الأولية ، لصالح المهدى ، واضطرت القوات المسيحية للهرب نحو الشمال ، وقام جيش المسلمين بفرض الحصار حول سموره . ولكن الحسد والضيق بدأ - بعد هذا النجاح الأول - يدخلان إلى قلب رئيس بربر نفزه ، زعل بن يعيش بن فرانك ، الذى كان يشكل طرفًا فى جيش الجهاد ، أو بمعنى أصح ، شعر بشرعيته ، فهجر ابن القط ، ورحل مع كل أتباعه ، وشد أتباع آخرون رحالهم خلفه .

وحين علم ألفونسو الثالث أن عمليات الهرب والرحيل فى تزايد ، عاد مع فرقه وجيوشه ، وفى غضون ثلاثة أيام ، من عمليات الهجوم المفاجئة والخاطفة ، تقدم ابن القط - الذى تركه كل مريديه تقريبًا - بشجاعة وحماسة ضد العدو ، واستشهد فى يوم ١٠ يوليو ٩٠١م (٢٠ رجب ٢٨٨هـ) . وقد ظلت رأسه معلقة لفترة طويلة على أحد أبواب سموره (٥٩).

وتعد هذه المغامرة المأساوية بمثابة حادثة بسيطة ، دون أن يكون لها صدى ، فى حوليات وأخبار الثغر الأدنى ، والثغر الأوسط ، بأسبانيا الإسلامية ، فى أواخر القرن التاسع ، وأوائل القرن العاشر .

وكان السيد المولد عبد الرحمن بن مروان الجليقى ، الذى حقق استقلاله فى بطليوس ، بقوة السلاح ، تحت حكم محمد الأول ، ثم احتفظ به لمدة عامين فى عهد مملكة المنذر ، وحين تم تنصيب عبد الله اعترف به أميراً ، فجدد له الامتيازات ، التى كان قد منحها له والده .

ولكن صفة الخاضع وصاحب الإقطاعية لم تمنع ابن الجليقى فى العام التالى ، ٨٨٩م (٢٧٦هـ) من أن يلبى نداء كريب بن خلدون ، ويقوم بنهب وسلب قرية من « الشرف » فى أراضى أشبيلية ، كما كان يفعل قبل ذلك .

وفيما يبدو أنه توفى بعد عدة شهور ، فى ظروف لا نعرفها . وكل ما نعرفه هو أنه فى السنوات الأخيرة من حياته ، كان عليه أن يحارب ابن تكيت أحد البربر المتمردين ، الذى استطاع إلحاق الهزيمة به ، فى ماردة .

وكان لاختفاء عبد الرحمن بن مروان الجليقى فضل فى تطور الدويلات الصغيرة التى انشئت فى « الغرب » : فى : باجة ، وشنتمرية ، على أيدى اثنين من نوابه ، هما : عبد الملك بن أبى الجواد وبكر بن يحيى بن بكر .

وفى بطليوس ، التى حولها عبد الرحمن إلى مدينة جميلة ، تزدان بالقصور والحدائق ، خلفه - بعد وفاته - ابنه مروان الذى لم يبق سوى شهرين وحل محله فى حكم المدينة حفيد عبد الرحمن بن مروان الذى توفى فى عام ٩٢٣م (٣١١هـ) . وجاء مكانه ابنه عبد الرحمن .

ولم يظهر عبد الرحمن سليل ابن الجليقى على ساحة الأحداث ، حتى عام ٩٢٩م (٣١٧هـ) ، حين أجبره عبد الرحمن الثالث على الخضوع نهائيًا ، وحمله معه إلى قرطبة (٦٠).

وليس لدينا العديد من الأخبار ، حول الموقف فى طليطلة والثغر الأوسط ، فى الفترة بين تنصيب المنذر ووفاة عبد الله . ومع ذلك ، يبدو من خلال دراسة بعض المشاهد القليلة لأخبار ابن حيان وابن عذارى ، اللذين يتحدثان عن حاضر الدولة القوطية التى ظلت طوال هذه الفترة بعيدة تمامًا عن السلطة الأموية ، وكان قدرها أن تتحد ، فى البداية ، مع إقليم سانتا فير ، الذى كان يسيطر عليه أحد البربر من قبيلة حواره ، يدعى : موسى ابن ذى النون (٦١).

وقد دخل هذا المتمرد - فى الثورة ضد الإمارة - فى علاقات مع الثائر الطليطلى : لوب بن طريبشة ، وقرر معه أن يستوليا على مدينة التاجه ، فقام جيش قوامه ٢٠٠٠٠ بربريًا ، من شنتبريه ، تحت رئاسته بسحق القوات المدافعة عن طليطلة ، يوم ١٨ فبراير عام ٨٨٨ م (الأول من شوال ٢٧٤هـ) . وفى غضون سنوات أصبح موسى بن ذى النون سيداً للمدينة .

وبعد ذلك انتقلت السلطة إلى بعض أعضاء عائلة أرجونية ، من بنى قسى . وفى أوائل عام ٨٩٧م (ذو الحجة ٢٨٣هـ) أصبح صاحبها محمد بن لوب بن موسى .

وفى العام التالى حشد ابنه لوب القوات ، للهجوم على المولد ابن الشاليه [٦٢]، فى قلعته قسطلونة القريبة من ليناريس .

وفى أواخر عام ٩٠٣م (٢٩٠هـ) أرسل الطليطليون وفداً ، إلى لوب ليقدموا إليه خضوع المدينة . ففوض لوب لمقابلتهم أخاه مطرفًا - الذى حصل على لقب « ملك » . إلا أنه خلع عن العرش ، بواسطة عمه الثانى محمد بن إسماعيل بن موسى ، الذى مات مقتولاً على أيدى الطليطليين ، فى عام ٩٠٦م (٢٩٣هـ) ، وحينئذ أصبح لوب بن طربيشة - النائب القديم لموسى بن ذى النون صاحبًا لطليطلة ، وظل هلى هذا الحال حتى السنوات الأولى من حكم عبد الرحمن الثالث .

ومن المعلومات المتاحة لنا ذلك المشهد المختصر الذى قدمه لنا المؤرخ المسيحى سامبيرو ، والذى يفيد أن سكان طليطلة طلبوا ألفونسو الثالث بشأن سداد ضريبة ، وأنه عند عودته استولى على إحدى القلاع ، واسماها : سامبيرو قنيطه لوبل ، ولكن زحف ملك اشتوريش حتى وادى التاجة لم يكن سوى إغارة سريعة ، دون نتائج [٦٣].

وقد قام أولاد موسى بن ذى النون الثلاثة - فى جهة الشرق ، على مشارف الثغر الأعلى - حينما توفى فى عام ٩٠٨م (٢٨٥هـ) ، بتقسيم إقطاعيته . ليستقر الابن الأكبر يحيى فى وله ، والفتح فى أوقليش ، ومطرف فى وبذه . وكان عليهم البقاء فى هذه القلاع الثلاثة الواقعة فى محافظة كونكه ، حتى بعد وفاة الأمير عبد الله .

وفيما يختص بالثغر الأعلى ، فقد كان مسرحًا لصراع النفوذ المتشابكة والمتغيرة ، بين التجيبيين وخلفاء موسى بن موسى بن قسى ، وشخصية جديدة ، تسمى : محمد الطويل ، الذى دخل بدوره فى ميدان المبارزة فى إقليم وشقه ولاريده .

وكما لاحظنا - فإنه من أجل مقاومة نشاط الخصوم ضد الأمويين ، الذى قام به فى أرغون محمد بن لوب ، حفيد موسى بن موسى بن قسى - استطاع محمد الأول أن يضع فى وجهه عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبى ، السيد العربى لقلعة أيوب ، ودروقة . ومن جهة أخرى فإنه أعاد سرقسطة ، فى عام ٨٨٤م (٢٧١هـ) - مقابل بيع - إلى سلطة العاهل القرطبى .

وبعد ذلك ، فى يناير ٨٩٠ م (رمضان ٢٧٦ هـ) قام ابن عبد الرحمن التجيبى ، تحت اسم أبو يحى محمد ، ولقب بالعنقر ، بناء على أمر الأمير عبد الله ، باغتيال الحاكم الوفى ،

الذى كان يرأس سرقسطة ، أحمد بن البراع بن مالك القرشى ؛ الذى لم يكن يثق فيه البلاط الملكى .

وبانتهاء هذه الجريمة ، احتفظ العنقر بسرقسطة ، وعبد الله بقرطبة ، ولم يكن هناك من بد ، سوى قبول حالة هذه الأمور ، مبديًا سعادته برعد بسيط وهو طاعة التجيبى . وكان لهذه الضربة القوية سبب فى إثارة الكراهية ، التى كان يكنها محمد بن لوب للعنقر .

أما محمد بن لوب فقد جاء عدة مرات لمحاصرة عاصمة الثغر الأعلى ، ولكنه لم يحرز نجاحًا ، وقد انتهت هذه المحاولات بوفاته ، أمام أسوارها ، فى عام ٨٩٨ م (٢٨٥هـ) .

ونتيجة لهذا واصل العنقر احتفاظه بسرقسطة ، حتى وفاته ، فى عام ٩٢٤م (٣١٢هـ) ، بموجب فترات السماح والتجديد التى كان يمنحها إياه عبد الرحمن الثالث .

وفى الواقع فقد قدم التجيبى خدمات ملحوظة للأسرة الحاكمة ؛ إذ استطاع بوسائله الخاصة أن يقف ضد بنى قسى ، وأن ينتزع منهم ، فى عام ٩٠٣م (٢٩٥هـ) قلعة الفرسان ، تلك التى كانت تعد موقعًا استراتيجيًا ، (على بعد حوالى ٦٠ كم من شمال سرقسطة) وكان محمد بن لوب قد انتزعه من الضابط الأموى محمد بن تملس ، قبل تنصيب الأمير عبد الله بوقت قليل (٦٤).

أما بالنسبة لبنى قسى ، فقد بدأ نشاطهم يخمد ابتداء من وفاة محمد بن لوب . ولم يستطع المنحدرون من صلب موسى أن يقيموا اتفاقًا ، وبدأت المنازعات تزيد من ضعفهم . ويعد لوب بن محمد الشخص الوحيد ، الذى أنقذ نفسه من هذه الخلافات ؛ إذ إنه يتميز عن بقية العائلة بحماسته القتالية وجسارته وإقدامه .

لقد قام حين تولى الأمر خلفًا لوالده بعمليات لجس النبض ، فى قرطبة ، واستطاع أن يحصل من الأمير على تعيينه لاقطاعيته التى ورثها ، فى تطيله وطرسونه . ولم يتخل بموجب هذا عن الهجوم على سرقسطة ، ولكنه - مثله مثل والده - لم يستطع طرد العنقر منها . ثم ترك لأخيه المطرف منطقة نفوذه الطليطلية ، وعاد بأسلحته ضد ألبه ، والثغر الحر ، ومنطقة جبال بسكونيا .

ومن ناحية أخرى ، فقد انتزع ألفونسو الثالث ، فى صيف عام ٩٠٤م (٢٩١هـ) ، قلعة بانيوس الكائنة فى إقليم لاريوخا ، وأجبر عاهل أشتوريش ، على أن يوقف حصار جرانيون ، التى لا تبعد عن الإقليم كثيراً .

والذى لا شك فيه هو أنه واصل تعامله مع الملك أوفييدو ، بشروط لا يمكننا تحديدها .

وفى منطقة سبتمانيا القديمة ، فقد تغير الموقف كثيراً ، منذ أكثر من ثلاثين عامًا تقريبًا . حتى عام ٨٦٥م - كما رأينا - إذ كانت مقسمة إلى إقليمين متباينين : لاجوتيا فى الشمال ، والثغر الأسبانى فى الجنوب ، وقد اختص بهذا الإقليم ، الذى كان متحداً بروابط ضعيفة للغاية ، مع بقية الإمبراطورية الفرنسية - ويفريدو الفيوسو ، الذى أسس أسرة « كونتات المركيز » ببرشلونة .

ومازالت قضية جذور هذه الأسرة - التى يدور الجدل حولها ، منذ قرن من الزمان ، مثل قضية بدايات مملكة نبره - تتسم بالغموض . ومع ذلك فإن المؤرخين المحدثين ، الذين حاولوا توضيح حقيقتها ، لم يأخذوها فى الاعتبار ؛ إذ إن أغلبيتهم - بلا شك - لا يعرفونها ، اللهم مشهد أساسى ذكره المؤرخ عيسى الرازى ، كما ذكره ابن حيان فى دراسته القيمة ، حول مملكة الأمير عبد الله ، والتى يشير فيها إلى ويفريدو الثانى (٦٥).

وحسب التقليد المقبول ، بصفة عامة ، فإن هذا الكونت - المسمى باللغة القطلانية : جويفرى البيلون - كان قد حكم فى برشلونة ، التى حررها من وصاية شرلمان منذ عام ٨٦٥ حتى ٨٩٨م . أما خلفاؤه ، فقد كانوا : أولاً ابنه ويفريدو الثانى الشهير باسم : بوريل الأول ، الذى توفى فى ٢٦ أبريل ٩١٤م . وبعد ذلك ابنه الثانى : شينار ، الذى كان كونتًا معينًا حتى ١٥ أكتوبر ٩٥٤م .

والآن - إذا صدقنا المؤرخ الإسلامى ، الذى لديه المعلومات الكاملة - فإن ويفريدو الأول (المسمى فى النص العربى باسم هنفريد) ، توفى ، فى الواقع ، فى عام ٢٨٤ من الهجرة - أى فى الفترة ما بين ٨ فبراير من عام ٨٩٧م و٢٧ يناير ٨٩٨م ، وفقًا للتاريخ التقليدى - ولكن خلفه ابنه شينار ، وإذا كان يفريدو الثانى قد حكم ، فى الواقع ، مرة ، فقد يكون بالمشاركة فى السيادة مع أخيه شينار .

كما يكشف لنا ابن حيان أن ويفريدو الفيوسو قد قتل ، على وجه التحديد ، على أيدى لوب بن محمد بن لوب . يقول النص فى إشارة الرازى : « قام لوب فى عام ٢٨٤ هـ بإغارة عى قلعة أورة (فى أراضى برشلونة) ، وبعد الهجوم عليها ، وإشعال النار فيها ، واجه ويفريدو ، وألحق به هزيمة ، ووجه ضربة ، بنفسه ، أدت إلى وفاة الكونت بعد أيام قليلة(٦٦).

وبعد تحقيق هذا النجاح ضد الفرنجة فى قطالونيه [٦٧]، تلت ذلك هجمات أخرى ضد أملاك كونت بيارس ، وعاد لوب بن محمد بن لوب للوقوف ضد الباسك ، الذين كانوا يحاولون سلب ممتلكاته الواقعة فى وادى الأبرو .

هذا ، وقد خلع شانجه بن غرسيه الأول عن العرش ، فى عام ٩٠٥م ، فورتون جارثيس ، سجين قرطبة القديم ، وجد الجد من الأم لعبد الرحمن الثالث ، الذى خلف والده ، فى تاريخ غير معروف ، حيث قضى نهاية أيامه فى أحد الأديرة .

ولم يتوف « شانجه بن غرسيه »[٦٨] حتى عام ٩٢٦م - حيث ظهر تاريخ نبره من الظلام الذى كان يطمسه - بعد فترة حكم طويلة كانت خالية من الشكوك التى سادت فترات حكم السابقين .

وبعد أن تولى المغتصب الباسكى السلطة ، قام لوب بن محمد بن لوب بعملية هجومية ضد بنبلونه ، وربما جاء ذلك بناء على طلب ممثلى الدار الملكية القديمة ؛ حيث أقام قلعته ، وتحصن بالقرب من العاصمة ، فى إحدى المواقع التى - ربما - تكون آراثيا الحالية . ثم قام شانجه بن غرسيه بنصب عدة شراك له ، كانت إحداها مميتة للوب ؛ إذ سقط جريحًا فى ٢٩ سبتمبر ٩٠٧م (١٧ ذو الحجة ٢٩٤هـ) قبل أن يبلغ من العمر أكثر من ثمانية وثلاثين عامًا.

وحين خلفه أخوه عبد الله ، واصل الكفاح ضد أهل نبره ، وألحق - فى صيف ٩١١م (٢٩٨هـ) - هزيمة كبيرة بشانجه غرسيه الأول . واستمر خمس سنوات ، على رأس إمارة تطيله، ثم توفى فى معركة عام ٩١٥م - ٩١٦م (٣٠٣هـ) ، فى بدايات مملكة عبد الرحمن الثالث.

وقبل ذلك بعامين ، عاش محمد الطويل حياة طيبة ، وهو يعد البطل الآخر للكفاح ضد مسيحيى شمال غرب شبه الجزيرة . وكان هذا المولد - إذ إن اسمه الحقيقى ، هو : محمد بن عبد المالك بن شبريط ، ولقب بالطويل نظراً لقامته المميزة - حفيداً لشبريط ، ابن عم المشهور - عمروس « يوم الحفرة » الذى كان قد عهد إليه فى أوائل القرن التاسع بحكومة وشقه[٦٩].

وحين تولى محمد الطويل بالميراث سيادة وشقه ، أعلن عن سخطه تجاه بنى قسى منذ عام ٨٨٩م (٢٧٦هـ) ، فاستولى على ولارده ، التى كانت تابعة لهم .

وكان الإقليم ، الذى كانت هذه المدينة تشكل جزءًا منه ، يسمى آنذاك باربوبيا أو بريطانية، وكانت إقطاعية خاصة بإسماعيل ، الضعيف ، ابن موسى .

وفضلاً عن ذلك ، كان على محمد الطويل أن يتنازل عن ملكية هذا الإقليم لمحمد بن لوب استجابة لقرار أصدره الأمير عبد الله . ثم تفجرت مشاجرة جديدة ، بعد ذلك ، بين سيد وشقه ولوب بن محمد بن لوب حين أراد هذا الأخير فى عام ٨٩٦م (٢٨٣هـ) ترميم قلعة منتشون فوق ثينكا ، وأن يضع فيها فرقة مسلحة ، فاعترض محمد الطويل ، ولكنه هزم ، وسقط ابنه فورتون أسيراً .

وبعد ذلك بإحدى عشرة سنة ، سمحت وفاة لوب لمحمد الطويل أن يستأنف هجماته ، ضد بريطانية . وفى عام ٩٠٧م و ٩٠٨م (٢٩٤ - ٢٩٥ هـ) أصبح صاحبًا للقلاع الحصينة فى ببشتر ، والقصر ، ومنشون ، ولاردة .

ومنذ تلك اللحظة ، استطاع أن يكرس نشاطه العسكرى ، خلال أربع سنوات تالية من عام ٩٠٨م إلى عام ٩١١م (٢٩٦ هـ - ٢٩٩ هـ) بالكفاح ضد نبره ، وبصفة خاصة ضد الفرنجة فى الثغر القديم . وقد بدأ بإمارة بيارس ، فدمر على التوالى ، قلاع : رودا فى وادى نهر إيسابينا ، ومونتى بيدروسو ، وأليوله ، وجوالتير ، والجوايرى ، فى وادى شقر .

وتحالف - بعد ذلك - مع عبد الله بن محمد بن لوب ، وبطريقة عرضية ، انقلب ضد مملكة نبره ، وفى مايو ٩١١م (رمضان ٢٩٨هـ) قام بحرق قلعة بجنوب بنبلونة وعدة كنائس ، ولكن بضغط من شانجه بن غرسية الأول كان عليه أن ينسحب ، تاركًا فرقة مسلحة ، فى سير كاستييلو ، ويطلق عليها اليوم رويستا ، على نهر أرغون (٧٠).

وأخيراً ، وفى العام التالى ، ألحق هزيمة بشينار كونت برشلونه ، بعد أن قام بسلب ونهب وادى طراجة التى يمر بها ثيربيرا . ولقى حتفه عام ٩١٣م (٣٠١هـ) ، ومن المحتمل حدوث الوفاة أثناء الهجوم الجديد ضد قطالونيه .

ونعرف عن طريق مخطوطة ميا أنه تزوج سانشا ، ابنة كونت أثنار الثانى حيث أنجبا أربعة أبناء : عبد الملك وعمروس وفورتون وموسى ، وابنة ، تسمى : فيلاسكيتا .

ولكى ننهى هذا الحصر للأحداث ، التى وقعت فى ثغور الأندلس ، أثناء مملكة الأمير عبد الله ، تبقى لنا الإشارة إلى أنه عام ٩٠٣م (٢٩٠هـ)(٧١) استعاد المسلمون جزر البليار .

ومن المدهش أن ابن حيان لم يذكر شيئًا على الإطلاق حول هذا الأمر . وكان ابن خلدون هو الوحيد الذى قدم لنا بعض التفاصيل ، إذا استثنينا الإشارة الموجزة للجغرافى البكرى ، التى تؤكد التاريخ ؛ حتى لا نضع أنفسنا فى مجال الشك .

وقد رأينا أنه فى عام ٨٤٨م - ٨٤٩م (٢٣٤هـ) ، وتحت حكم مملكة عبد الرحمن الثالث تمرد سكان ميورقه ومنورقه ، وتم إرسال أسطول مكون من ٣٠٠ مركب لإقرار النظام والأمن فى كلتا الجزيرتين . وليس هناك من شك أنه منذ ذلك التاريخ ، بدأت هاتان الجزيرتان تحاولان التحرر من سيطرة المسلمين .

ولكن - استناداً وتصديقًا لابن خلدون - حدث أن أندلسيًا يدعى عصام الخولانى ، كان مبحراً لأداء فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة للإسلام وجد نفسه مجبراً - بسبب عاصفة مناخية - على أن يبحث عن ملاذ فى ميورقه ، وأن يظل بها عدة أيام قبل أن يعود إلى البحر. وأثناء عودته إلى الشرق ، أبلغ الأمير عبد الله بشأن جزر البليار ، وأشار عليه بالسهولة ، التى يمكن للمسلمين أن يستولوا بها على هذا الأرخبيل .

ونتيجة لهذا ، تم إعداد بعض السفن الممتلئة ، بعدد من المتطوعين المؤمنين ، والرحيل تجاه ميورقه . وتحت توجيه عصام الخولانى تم فتح الجزيرة دون صعوبة . وأصبح رئيس الحملة ، هو مسئول الحكومة بالجزيرة ، ثم توفى بعد عشر سنوات ، بعد أن قام ببناء المساجد ، وأسواق الغلال ، والحمامات . وقد حل محله ابنه عبد الله - الذى أكد منصبه عبد الرحمن الثالث - حتى عام ٩٦١م (٣٥٠هـ) ثم ذهب إلى الشرق ، حيث أنهى أيامه فى مكان اعتكف فيه للتزهد .

كانت هذه هى خطوب الدهر الرئيسية ، فى عهد الإمارة الثائرة للأمير عبد الله ، سادس الخلفاء « المهاجرين » .

وقد توفى الأمير عبد الله فى قرطبة بعد أن بلغ سن الشيخوخة ، ليلة الخامس عشر للسادس عشر من أكتوبر سنة ٩١٢م (أول ربيع عام ٣٠٠هـ) . وترك العرش ، الذى كان يتأرجح حتى ذلك الوقت ، لحفيده : أبو المطرف عبد الرحمن . وقد أعلن عن تولى الأمير الشاب العرش ، على الفور ، وفقًا لرغبة الملك المغفور له ، وأعمامه ، وأعمام جدوده(٧٢) ، الذين ارتدوا الملابس البيضاء علامة على الحداد(٧٣) ، وقدموا له يمين الإخلاص والوفاء .

حينئذ بدأ عصر جديد للمملكة ، هو عصر خليفة قرطبة الأول . وبه بدأ القرن الرابع الهجرى الذى يعد أكثر العصور ازدهاراً وخصوبة ، فى تاريخ إسبانيا الإسلامية .

الهوامش :

المصدر :

تاريخ إسبانيا - إسبانيا الإسلامية - الجزء الرابع : ليفي بروفنسال ، رامون مينينديث بيدال ، ترجمة للإسبانية وقدم له : إميليو جارثيا جوميث (إسبانيا الإسلامية حتى سقوط خلافة قرطبة ٧١٩م - ١٠٣١م)، الطبعة الثالثة ، دار نشر أسباسا كالبى ش.م. ، مدريد ١٩٦٧م.

(١) حول عبد الرحمن بن مروان الجليقى : انظر بصفة خاصة دراسة كوديرا « بنى مروان فى ماردة وبطليوس فى الدراسة النقدية للتاريخ العربى فى إسبانيا » الجزء التاسع ، ص ١ - ٧٤ . وعن علاقة ابن مروان مع مملكة أشتوريش ، انظر أيضًا : باروديهجو : مملكة أشتوريش ، ص ١٨٨ - ١٩٤ .

(٢) باللغة العربية حصن (قلعة) الحنش ، ويترجمها المؤرخون اللاتين ب : قلعة الكولبرا ، كوديرا ، الدراسة النقدية لتاريخ العرب فى إسبانيا ، الجزء التاسع ، ص ٥٥ ، رقم ١ . من الخطأ أن يوضع فى القائمة اسم المكان تحت اسم التابعى حنش الصنعانى . وشرح ذلك يكون عما إذا كان قد ظهرت هذه الشخصية فى إحدى المرات مقرونة بأداة المعرفة (آل) حيث توجه فقط باسم « حنش » تشكل اليوم جزءًا من القطاع الشرقى لماردة بمحافظة بطليوس .

(٣) حسب سيمونيه ، تاريخ المستعربين ، الصفحات ٥٠٩ ، ملحوظة ٢ ، قلعة منت شلوط كانت تقع بطليوس فى أراضى نقاليش .

(٤) وليس كركى ، بالقرب من السبطاط القريبة من الشرق حسبما اتفق باتباع رأى دوزى ، أما سيمونيه فهو الوحيد الذى نفى قبول أن تختص كركى حيث يقول أنها كركر الواقعة جنوب مونت شلوط فى طريقة أشبيلية .

(٥) ابن القوطية ، افتتاح ، النص ص٨٩ والترجمة ص ٧٤ يؤكد أنه فى هذه اللحظة أن ابن مروان وسعدون السرنباقى أصبحا يجوبان « المناطق الخالية التى كانت تفصل بلاد المسلمين عن بلاد المسيحيين » . وقد قام دوزى بترجمة هذا المشهد بطريقة غريبة (تاريخ إسبانيا الإسلامية ، الجزء الثانى ، ص ٩ : « أعلن بين مواطنيه عن دين جديد كان وسطًا بين الإسلام والمسيحية » وفى ترجمة فاجنان (مستخرجات غير منشورة ، ص ٢٣١ : « كانا يمشيان بين مؤيدى كلا الدينين ») .

(٦) هكذا يبدو أنه يجب قراءة اسم العلم الذى نسخه دوزى ، والذى تبعه فاجنان : الشرغيره أو إشيرجيرا وقراءة إشبرغيرة = اسباراجوسا تتفق تمامًا مع الحروف العربية ، كما يذكرها ابن الأثير وابن

عذارى . ويوجد مجلسان للبلدية بهذا الاسم فى محافظة بطليوس الحالية : اسباراجوسا دى لاسيرينا فى القطاع القضائى لكاستويرا واسباراجوسا دى لاريس فى قرية القصير فى هذا المكان الأخير بين وادى آنه والمعدن من المؤكد أن ابن مروان قد لجأ إليه .

(٧) ابن خلدون ، العبر ، الجزء الرابع ص ١٣١ (كوديرا ، بنى مروان ، ص ٤١ و ٤٢ وباردييهجو ، مملكة أشتوريش ، ص ١٩٤، ملحوظة ١) ، يقدم الأمور بطريقة مغايرة وبتسلسل تاريخى غير دقيق . حسب هذا المؤلف أن ابن مروان ، بعد بقائه مع الملك ألفونسو الثالث ، استقر فى قلعة بإقليم ماردة تسمى إنطاطه ، والى بدأ منها هذا المشهد لابن خلدون ، أى تحقق لقلعة إنطاطه ، ولكنها فى الواقع تختص بالقرية البرتغالية الحالية إيدانها إلى فلها ، والتى لا تبعد عن ١٥٠ كم من الحدود الإسبانية فى إقليم قنطرة السيف فى شمال غرب ماردة .

(٨) كان قد ولد فى عام ٨٤٤م (٢٢٩هـ) من امرأة أطلقت عليه اسم « أيْلُه » (نفس اسم أرملة لذريق – إيخيلونا – متزوجة من عبد العزيز بن موسى بن نصير : ويبدو أنها من أصل مسيحى ، تاريخ تنصيبه الذى نذكره صادر عن الرازى (ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ص ٧٤) . بقية المؤرخين يؤخرون التاريخ عدة أيام .

(٩) ابن عذارى ، البيان ، الجزء الثانى ، النص ص ١١٧ والترجمة ص ١٨٨ .

(١٠) المصادر

قبل كل شيء مجلد المقتبس لابن حيان ، الخاص بمملكة الأمير عبد الله (مخطوطة بودليانا رقم ٥٠٩ ، طبعة ب . م.م. أنطونيا ، باريس ١٩٣٧) . بالإضافة إلى : ابن عذارى – البيان ، الجزء الثانى ، النص ص ١٢٤ – ١٦١ ، الترجمة ص ١٩٨ – ٢٥٨ . وابن القوطية ، افتتاح ، النص ص ١٠٣ – ١١٧ ، الترجمة الإسبانية ص ٨٧ – ١٠١ ، (فاجنان ، مستخرجات غير منشورة ، ٢٤٢ – ٢٥٥) . وأخبار مجموعة ، النص ص ١٥٠ – ١٥٣ ، الترجمة الإسبانية ص ١٣١ – ١٣٣ . والنويرى ، تاريخ إسبانيا ، النص ص ٢١١ – ٢١٣ ، الترجمة الإسبانية ص ٣٠ – ٣٨ . وابن عبد ربه ، العقد ، الجزء الثانى ، ص ٢٧٢ . ابن الخطيب، أعمال ص ٢٨ – ٣١ . وابن الأبار ، الحلة ، ص ٦٥ – ٦٨ . وابن خلدون ، العبر ، الجزء الرابع ، ص ١٣٢ – ١٣٧ . والمقرى ، مختارات ، الجزء الأول ، ص ٢٦ – ٢٧ . ولا يوجد شيء يذكر عن مملكة الأمير عبد الله فى حوليات ابن الأثير ص ١١٣ .

المراجع :

دوزى ، تاريخ إسبانيا الإسلامية ، الجزء الثانى ، ص ٢١ -٩٣ . وسيمونيه ، تاريخ المستعمرين ، ص ٢٥٧ - ٢٧٤ . وكان خوليان ريبيرا لديه مشروع دراسة حول مملكة الأمير عبد الله . و (بايستيروس ، تاريخ إسبانيا ، الجزء الثانى ، ص ٧ ، ملحوظة ١٤٨) . وهذا العمل لم ينشر ، وبالتالى لم يدرج ، ولكن على كل حال فإن خوليان ريبيرا قد أعطى اهتمامًا بأن الأمير عبد الله تحمل فى مجملها تاريخ إسبانيا الأموية .

(١١) نظراً لأن أمهاتهم كن دائمًا فرنسيات أو سكوسونيات ، ومن ثم كن يتميزن بهذه المميزات . ولهذه الخاصية الجسدية لعديد من الأمويين الأسبان صدم ابن حزم ، وقد خصص لها بعض الفقرات فى : طوق الحمامة (ص ٣٦ - ٣٧ من طبعة بترون ، ليدن ، ١٩١٤) . وانظر أيضًا ريبيرا : محاضرات ورسائل ، مدريد ١٩٢٨، الجزء الأول ، ص ٢٣ - ٢٥ . ونيكل : طنين الحمام ، باريس ١٩٣١، ص ٢٢٧ .

(١٢) انظر ليفى بروفنسال ، إسبانيا الإسلامية ، القرن العاشر ، ص ٢١٣ . و « ج مارسيه » ، مختصر الفن الإسلامى ، الجزء الأول ، ص ٢٢٢ ، ويلاحظ أنه يشير إلى تجديد التقليد السورى ؛ إذ إنه كان هناك ممر محجوز فى دمشق يؤدى من القصر الذى بناه معاوية إلى مسجد الوليد .

(١٣) انظر ابن القوطية ، افتتاح ، النص ص ١٠٨ والترجمة الإسبانية ص ٨٧. و (فاجنان ، مستخرجات غير منشورة ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣) . وابن حزم ، نقط العروس . وحسب ابن حيان ، المقتبس ، ص ٤١ (المشهد لا يرد فى طبعة سيبولد لرسالة ابن حزم) . وانظر أيضًا ابن عذارى ، البيان ، الجزء الثانى ، النص ص ١٦٠ ، ١٦١ والترجمة ص ٢٨٥ .

(١٤) السيدة ونقه ، كانت ابنة فورتون جارثيس (العنقر) ، ولدت فى قرطبة خلال فترة الأسر الطويلة لوالدها فى هذه المدينة . وقبل أن تصبح زوجة لعبد الله (الذى كان قبل تعيين عبد الله أميراً بوقت كبير) وربما كان لاثنار سانشيس دى لاوورون (نبارة) . وانظر كوديرا « بى . إيه . أتش » ، الجزء الثامن والخمسين ، ١٩١٩ ص١٢٨ (حسب مخطوطة ميا) وسيروت : دليل العملات وجغرافية «تاريخ ليون» فى النشرة الإسبانية ، الجزء ٣٦ ، ١٩٣٤ ، ص ٤١٨ والمراجع المذكورة .

(١٥) للحصول على تفاصيل أكثر بشأن ظروف الاغتيالات للأمير عبد الله ، واغتيال الأمير المنذر ، واغتيالات أبنائه ، واثنين من إخوته ، انظر رواية دوزى فى مقدمة طبعة البيان لابن عذارى ، ص ٤٤ - ٦١ ، والتوافق بين التواريخ التى تقدّم غير صحيح ، نفس المصدر ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(١٦) انظر ليڤى بروڤنسال ، إسبانيا الإسلامية ، ص ٦٥ ، ملحوظة رقم ١ .

(١٧) حسب ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٢١ من طبعة سيبولد ، كان بدر بن أحمد – حاجب المستقبل لعبد الرحمن الثالث – طفلاً ترك بالقرب من أحد المساجد بضواحى قرطبة ، والتقطه عبد الله ، وذلك إبان مملكة الأمير محمد الأول .

(١٨) بشأن قسطلونة ، هذا الاسم الذى تحقق منه كوديرا باسم كاسترو دى لاماجدالينا ، انظر ليڤى بروڤنسال ، ص ١٩١ ، ملحوظة ٢ ، وص ٢٨٤ ، ملحوظة ١٣.

(١٩) بشأن شنتمرية الغرب ، انظر ليڤى بروڤنسال فى الموسوعة الإسلامية ، الجزء الرابع ، ص ١٥٨ – ١٥٩ ، شبه الجزيرة الأيبيرية ، ص ١٤٠ – ١٤١ .

(٢٠) قلعة أم جعفر ، ظهر ذكرها بين القلاع الحصينة بإقليم ماردة ، على لسان البكرى ، انظر : ليڤى بروڤنسال ، شبه الجزيرة الأيبيرية ، ص ٢٥٢ وملحوظة رقم ٧ .

(٢١) بشأن هذا المكان ، نفس المصدر ، ص ٢٨٤ ، ملحوظة ١٤ .

(٢٢) فى العربية : مدينة ابن السالم تختص باسم الشخصية التى نتحدث عنها ، انظر : المصدر السابق، ص ١٩٥ ، ملحوظة ٤ .

(٢٣) التحقق من أسماء (الليبيرى – غرناطة – البيره) دار بشأنها جدل كبير . هنا نقتصر على الرجوع إلى مقال سيبولد ، البيره ، فى الموسوعة الإسلامية ، الجزء الثانى ، ص ٢٦ – ٢٧ ، والأعمال التى ذكرها دوزى ، وسيمونيه ، وإيجالات وجوميث مورينو . انظر أيضًا : ليڤى بروڤنسال، شبه الجزيرة الأيبيرية، ص ٢٩ و ٣٧ . وبشأن الحمراء فى القرن التاسع ، انظر ل . تسوريس بالباس ، حمراء غرناطة قبل القرن الثانى عشر ، فى مجلة الأندلس ، الجزء الخامس ، ١٩٤٠ ، ص ١٥٥ وما يليها .

(٢٤) هذه الإقطاعات كانت تحمل الاسم الأسبانى القديم قطعة وعربت إلى برجيلة والجمع « البراجلة » ، هذه الأسماء كانت تتبع القبائل الأصلية للإقطاعيين الذين كونوا فى العصور الوسطى أسماء الأعلام التى حلت محلها حتى أواخر المملكة الناصرية بغرناطة . وكانت هذه الإقطاعات فى كل ضواحى غرناطة ، وبخاصة فى اتجاه جيان ، وفى البشرات . انظر : سيمونيه ، معجم الأصوات الأيبيرية ص ٣٤ – ٣٥ .

(٢٥) سيرة حياة سوار وسعيد بن سليمان وردت فى : ابن الآبار ، الحلة ص ٨٠ – ٣ و ٨٣ – ٧ ، وفى ابن الخطيب ، الإحاطة ، مخطوطة ١٦٧٤ بالأسكوريال ، ص ٣٦٤ و ٣٦٦ .

(٢٦) سيمونيه هو الوحيد الذى تحدث عن هذا النشاط فى كتابه « وصف مملكة غرناطة » طبعة ١٨٧٢ وص ١٣٦ - ١٣٧ . انظر أيضًا : ليفى بروفنسال ، شبه الجزيرة الأيبيرية ، ص ٤٥ ، ملحوظة ٧ .

(٢٧) انظر : البكرى ، وصف أفريقيا الشمالية ، النص ص ٨١ ، والترجمة ص ١٦٣ .

(٢٨) المصدر السابق ، النص ص ٦١ - ٦٢ والترجمة ص ١٢٨ - ١٢٩ . ترجمة « سلان » يجب الرجوع إليها بحذر . انظر أيضًا : ديسو سى - لاماروج . مارسيه ، أبحاث عن الآثار الإسلامية : مسجد تنس القديم ، فى المجلة الإفريقية ، ١٩٢٤ ، ص ٥٣٧ ، ملحوظة ١ . - العلاقات بين تنس وبجانة كانت مستمرة فى القرن العاشر ، وعن طريق هذا الميناء الأفريقى جاءت أسرة بنى عبد زمانين؛ إذ اشتهر عدد من أعضائها فى إسبانيا حتى القرن الرابع عشر ، انظر - على وجه الخصوص - : ابن الفرضى ، تاريخ ، أرقام ٧٠٤ و ١٦٦٦ .

(٢٩) انظر : البكرى ، المصدر السابق ، النص ص ٧٠ والترجمة ص ١٤٤ - ١٤٥ ، قارن كتاب الاستبصار (ترجمة فاجنان ، أفريقيا الشمالية فى القرن الثانى عشر فى عهدنا ، كونستنانتينه - باريس ١٩٠٠ ، ص ٤١ - ٢) .

(٣٠) بعد ذلك بكثير ، حين تم طرد الموريسكيين من إسبانيا ، استقرت الجاليات الأندلسية فى كثير من موانىء شمال أفريقيا (مثل الرباط وعلى الأطلنطى وتشرشيل والجزائر وديجيدلى بنزرت وتونس حتى درنه فى ليبيا) .

(٣١) انظر البكرى ، وصف أفريقيا الشمالية ، النص ص ٥٥ والترجمة ص ١١٧ .

(٣٢) نفس المصدر ، النص ص ٨٢ والترجمة ص ١١٦ .

(٣٣) نفس المصدر ، النص ص ٦٥ والترجمة ص ١٣٥ .

(٣٤) كانت توجد أيضًا « مرية » أخرى جنوب غرناطة : مريت بليش اليوم تسمى : بيليث مالقة .

(٣٥) انظر ليفى بروفنسال ، شبه الجزيرة الأيبيرية ، ص ٤٧ . حول الأسماء المختلفة لـ « أرش » بجنوب إسبانيا ، نفس المصدر ، ص ٤٧ ، ملحوظة رقم ٣ . وفى الملحوظة رقم ٤ من نفس الصفحة يوجد موجز للأحداث التى سنوردها هنا .

(٣٦) مناهج الفكر (فاجنان ، مستخرجات غير منشورة ، ص ٥٩) أوردت التاريخ .

(٣٧) انظر : ليفى بروفنسال ، شبه الجزيرة الأيبيرية ، ص ٤٨ وملحوظة ١ ، نفس المصدر : ملاحظات أسماء الأعلام والعملات الإسبانية المغربية فى نشرة معهد الدراسات بالجزائر ، الجزء الثانى ، ١٩٣٦، ٢١٦ وملحوظة ١ .

(٣٨) فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ص ٣٦ ، ملحوظة ٣ ، طرح مؤلف هذا الكتاب نظرية تقول : أن ابن خشخاش كان البحار الذى قام برحلة استكشافية عبر المحيط الأطلنطى ، وقد أشار البكرى إلى هذه الرحلة وللأسف بإيجاز شديد .

(٣٩) المصدر الوحيد ، هو : المقتبس لابن حيان ، ص ٥٣ ، ٨٧ - ٩ . وحول تدخل كونت أمبوريش خ . م .ميلاس بايكروسا : نصوص المؤرخين المسلمين المتعلقة بقطالونيا الشرلمانية ، برشلونة ، ١٩٢٢ ، ص ١٥٢ ، سولد يفيلا ، تاريخ قطالونيه ، الجزء الأول ، ص ٦٧ والملحوظة ٢ ، وحسب سيمونية ، تاريخ المستعربين ، ص ٥٤٨ .

(٤٠) عودة بجانه إلى طاعة السلطة الأموية جاء ذكرها فى « أخبار الناصر » ، (٣١٠هـ) .

(٤١) انظر ليفى بروفنسال ، شبه الجزيرة الأيبيرية ، ص ٢٢١ .

(٤٢) دوزى ، تاريخ إسبانيا الإسلامية ، الجزء الثانى ص ٣٩ ملحوظة ٢ .

(٤٣) حسب ابن الخطيب ، أعمال ، ص ٣٩ ، أسرتان عربيتان أخريان بأشبيلية فى هذا العصر كانتا أسرة بنى عباد - سلف الأسرة العبادية بالقرن الحادى عشر - وأسرة بنى السالم ، وقد استقرتا بعد ذلك فى رنده .

(٤٤) حدد ابن خلدون فى سيرته الذاتية تاريخ الأصل السابق القديم لكريب والاضطرابات التى وقعت فى أشبيلية تحت عهد مملكة الأمير عبد الله : مقدمة الكتاب ، الجزء الأول ، من الطبعة المعادة لسنة ١٩٣٤، ص ٩ - ١٣ .

(٤٥) افتتاح ، النص ص ٣ - ٧ ، الترجمة الإسبانية ص ٢-٤ ، ونقلها المقرى فى مختارات الجزء الأول، ص ١٦٧ ، ١٦٩ .

(٤٦) حول تقسيم البربر إلى بتر وبرانس التى نعرفها عن طريق ابن خلدون أساسًا ، نرجع بصفة خاصة إلى الصفحات المستفيضة لجوتير ، العصور المظلمة فى الغرب ، ص ٢٠٢ - ٢١٤ ، فيما يختص فقط بشمال أفريقيا .

(٤٧) ابن آخر لإبراهيم بن الحجاج يدعى سليمان وشنقه والده ، إذا اعتقدنا فى أقوال ابن حزم ، نقط العروس ، ص ١٩ .

(٤٨) حول رئيس الدير سمسون وكتابه (نشرة فلوريس ، إسبانيا المقدسة ، الجزء الحادى عشر ، ص ٣٢٥ - ٥١٦) انظر على وجه الخصوص ، سيمونيه ، تاريخ المستعربين ص ٤٨٧ - ٥٠٢ .

(٤٩) التحقق من بلاى مع أجيلار - لا تقدم صحتها أى شك - اقترحه دوزى ، أبحاث ، الجزء الأول ، ص ٣٠٧ ، على أساس وثيقة عام ١٢٥٨ .

(٥٠) حول مدينة اللسانة اليهودية ، انظر - بالإضافة إلى الإدريسى - وصف أفريقيا وإسبانيا ، النص ص ٢٠٥ والترجمة ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ، ليڤى بروڤنسال « مذكرات عبد الله » ، ص ٣١ وملحوظة ٦٤ وخ . م. مياس باليكروسيا ، الشعر المقدس اليهودى الأسبانى ، ص ٢٢ .

(٥١) هذا الاسم الأسبانى القديم يعنى « أحمر صغير » . ابن حيان من جانبه يقدم المقابل العربى « الأحيمر » لهذا اللقب والذى كان معروفًا بنائب ابن حفصون .

(٥٢) ابن حيان ، المقتبس ، ص ٩٧ ، حيث يذكر عن لسان ابن حفصون الكلمة الإسبانية القديمة ببساطة المعادلة اليوم لكلمة بويادا (قطيع الأبقار) انظر ر. مينينديث بيدال ، جذور الإسبانية ، ص ٤٣٩ ، ملحوظة ١ .

(٥٣) القراءة المتأنية لرواية موضوع بلاى فى أخبار ابن حيان لا تسمح لنا بمتابعة دوزى فيما يختص بالتاريخ الذى اتخذه هذا المؤرخ (تاريخ إسبانيا الإسلامية ، الجزء الثانى ، ص ٢٦٩ وملحوظة ١ . وفقًا لقوله إن معركة بلاى كان تاريخها هو يوم الجمعة المقدسة ١٦ من إبريل ٨٩١ . وبالافتراض فإن التاريخ لم يظهر فى أى جزء من الأخبار العربية ، فضلاً عن أن عيد الفصح لعام ٨٩١ كان يوم ٧ أبريل وليس ٤ أو ١٨ كما يزعم دوزى ، واستناداً لنص قصيدة ابن عبد الربيحى ، التى تشير إلى تلميحات مبهمة ليوم عيد مسيحى ، استنتج أنه يدور حول يوم الجمعة المقدسة ، وليس يوم أحد عادى كنتيجة أكثر بساطة وأكثر قبولاً . يتابع سيمونيه فى تاريخ المستعربين ، ص ٥٥٧ ، دوزى فى جانب ولكنه يحدد معركة بلاى يوم الجمعة المقدسة ٥ أبريل ٨٩١ . والتاريخ الوحيد المحدد الذى تقدمه المصادر العربية هو يوم ١٥ مايو ٨٩١م (الأول من صفر ٢٧٨هـ) الذى يناسب يوم السبت ، وأنه فى هذا اليوم حسب رواية « بهجة النفس » الذى رجع إليه البيان ، الجزء الثانى ، النص ص ١٢٦ (= الترجمة ص ٢٠٢) حين خرج جيش الأمير عبد الله من قرطبة . ويقتصر ابن حيان فى المقتبس ، ص ١٠٠ ، على إعطائنا تاريخ المناورة التى أجراها الملك بعد ذلك أمام ببشتر : ١٣ يونيو ٨٩١ (أول ربيع الأول ٢٧٨هـ) . ومن الواضح تمامًا أن عبد الله بعد انتصاره فى بلاى ، لم يكن فى حاجة إلى شهرين كاملين لكى ينهى نزهته العسكرية عبر ضواحى ببشتر قبل العودة إلى قرطبة .

(٥٤) انظر البكرى ، وصف أفريقيا الشمالية ، النص ص ٩٢ الترجمة ص ١٨٥ - ابن عذارى البيان ، الجزء الأول ، النص ١٧٩ والترجمة ص ٢٤٩ .

(٥٥) على الأقل يروى ذلك ابن حزم هكذا فى : نقط العروس ، ص ١٧ و ١٨ .

(٥٦) حول التحقق من : تُشّ (جالية أوجوستا خيميلا للرومانيين) مع مارتوس ، انظر دوزى ، أبحاث، الجزء الأول ، ص ٣١١ - ٣١٣ .

(٥٧) الدور الذى قام به المغامر اهتم به آسين بالاثيوس ، ابن مسره ومدرسته ، ص ٣٣ وملحوظة ٣ .

(٥٨) سيرة حياة ابن القط فى الحلة لابن الآبار ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٥٩) هذا الحدث الذى أشار إليه ابن حيان فى المقتبس ، ص ١٣٣ - ١٣٩ ، أشار إليه بإيجاز المؤرخ سامبير طبعة هويشى ، الأخبار اللاتينية لحرب الاسترداد ، الجزء الأول ، ص ٢١٩ ، مملكة أشتوريش، ص ٢٠٩ ، وملحوظة ١ . وانظر أيضًا دوزى : تاريخ إسبانيا الإسلامية ، الجزء الثالث ، ص ١٣٢- ١٣٤ .

(٦٠) حول هذه القصة التى مازالت مبهمة حتى الآن ، انظر : دراسة كوديرا ، بنى مروان فى ماردة وبطليوس فى الدراسة النقدية لتاريخ العرب الأسبان - القرن التاسع - ص ٤٨ وما يليها .

(٦١) ذو النون ، حول هذه الأسرة والدور الذى قامت به القرن التاسع ، انظر أيضًا سيبولد فى الموسوعة الإسلامية ، الجزء الأول ، ص ٩٩٠ ، د.م.دنلوب - ذو النون بطليطلة فى الجريدة الملكية للمجتمع ، الجزء الثانى ، ١٩٤٢ ، ص ٧٨ - ٨١ .

(٦٢) انظر بارو ديهجو ، مملكة أشتوريش ، ص ٢١١ وملحوظة رقم ٢ ، مشهد سامبيرو الذى انتهينا من الإشارة إليه نقله هويشى فى الأخبار اللاتينية لحرب الاسترداد ، الجزء الأول ، ص ٢٦٩ .

(٦٣) انظر على وجه الخصوص دوزى ، أبحاث ، الجزء الأول ، ص ٢١٧ - ٢٢٠ ، وكوديرا ، الدراسة النقدية لتاريخ العرب الأسبان (الجزء السابع) ، ص ٣٢٣ - ٣٦٠ (حسب قوائم الأنساب بالجمهرة لابن حزم) .

(٦٤) المقتبس ، ص ١٢٦ . انظر أيضًا ج.م.ميلاس فاليكروسا ، نصوص المؤرخين المسلمين المتعلقة بقطالونيه الشارلمانية ، ص ١٥٣ . المؤرخ الأول لقطالونيه الذى استخدم هذا المشهد لابن حيان هو روفيرا أى فيرجيلى ، التاريخ القومى لقطالونيه ، برشلونه ، ١٩٢٢ - ١٩٣١ ، الجزء الثالث ، ص ٢٠٤ - ٢٠٧ .

(٦٥) حول شخصية وأعمال ويفريدو الفيوسو (بالقطلانية ، جويفرى البيلوس ، أحدث الدراسات هى للمؤلف سولد فيلا ، تاريخ قطالونيه ، الجزء الأول ص ٤٨ - ٥٨ . وانظر أيضًا : ج . كالمـ

ملاحظات حول ويفريد لو فيلى ، فى « ار . إيه . بى . أم » الجزء الخامس ، ١٩٠١ ، ص ٤٤٢ - ٤٥١ ، وروفيرا أى فيرجيلى ، نسب جيفرى ، الجزء الأول ، برشلونة فى مجلة قطالونية ، الجزء السادس ، رقم ٥٥ ، و ج . تاتستو ، ملاحظة حول أصل القمامصة الوراثين ببرشلونه وأمبوريش ، روسيلون ، مونبلييه ، ١٨٥١ .

(٦٦) سيرتان إسبانيتان مسلمتان ، ابن الفرضى ، تاريخ ، رقم ٦١٨ ، وابن الأبار ، التكملة (طبعة ميسلانيا) ، رقم ٢٧٣٥ (مصدر م . بن شنب ، ملاحظات تاريخية حول فتح إسبانيا ، فى مجموعة رينيه باسيه ، باريس ، ١٩٢٣، الجزء الأول ، ص ٧٧) ، تتكلم بالمصادفة عن المعركة التى وقعت فى عام ٨٩٨ (٢٣٥) فى بيغش « على طريق برشلونه » بين المسيحيين وعصابة قطاع طرق من المسلمين ، سقط منهم ٣٠ فى المعركة . يبدو أن المكان هو بيجاس الحالية الواقعة جنوب غرب برشلونة ، فى منتصف المسافة بين هذه المدينة وبيافرانا دل باناديس . ابن حيان فى المقتبس لايشير إلى هذا اللقاء .

(٦٧) وفقًا لكتاب ر. مينيديث بيدال ، إسبانيا بلد السيد ، الجزء الأول ، ص ٢٧٦ ، ملحوظة ٣ « إقامة مملكة نبره فى عام ٩٠٥ على أيدى شانجه بن غرسيه ، الذى استولى على بنبلونه وارجون وناشرة . ويضيف المؤرخ العظيم « قبل عام ٩٠٥ كانت بنبلونه تتبع مملكة أشتوريش لألفونس الأول وبعد ذلك كونت دويلة أو مملكة صغيرة قصيرة الامتداد ، وأن الباشك الغربيين استمروا كرعايا لأفييدو » .

(٦٨) أخبار التاريخ العربية واللاتينية حول محمد الطويل جمعها كوديرا تحت عنوان « محمد الطويل »، ملك وشقه العربى » فى : بى . ار . إيه . اتش . الجزء ٣٦ ، ١٩٠٠ ، ص ٣١٨ - ٣٢٤ (أعاد طبعه فى الدراسة النقدية لتاريخ العرب الأسبان ، الجزء السابع ، ص ٢٣٥ - ٢٤٨) . وابن حزم ، الجمهرة ، ورقة ١١٨ ، من مخطوطة المؤلف ، يسمى الأسرة باسم شبراط بدلاً من شبريط .

(٦٩) دراسة خ . م. لاكارا ، حملات إسلامية ضد سانشو جارثيس (٩٠٥ - ٩٢٥) فى مجلة امير فيانا، بامبلونه ، ١٩٤٠ . وإشارة مختصرة فى كراسة تاريخ إسبانيا ، الجزء الثالث ، بوينوس أيرس، ١٩٤٥ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٧٠) العبر ، الجزء الرابع، ص ١٦٤ - انظر أيضًا كوديرا ، المصدر السابق (الجزء السابع) ص ٢٤٩ وما يليها فيما يختص بدراسة البارو كامبانير ، رسم إجمالى لتاريخ السيطرة الإسلامية فى جزر البليار ، بالما ١٨٨٨ .

(٧١) ليڤى بروڤنسال ، شبه الجزيرة الأيبيرية ، ص ٢٢٨ .

(٧٢) للعلم ، حسب الأخبار العربية ، أبناء عبد الله هم : آبان والعاصى وعبد الرحمن ومحمد وأحمد .
وإخوته هم : العاصى وسليمان وسعيد وأحمد .

(٧٣) هذا التفصيل يقدمه لنا « تاريخ أخبار الناصر » . تفصيل آخر بمناسبة الاحتفال بتنصيب الحكم الثانى ، بعد نصف قرن من الزمان (المصدر : ليڤى بروڤنسال ، إسبانيا الإسلامية ، القرن العاشر ، ص ٥٨) . الأبيض كان اللون الرسمى للأمويين فى إسبانيا وكان أساسيًا فى حداد أسرة الأمير هـ.بيرى ، الشعر الأندلسى ، ص ٢٩٧ - ٣٠٣ ، ناقش باستفاضة من خلال الاستشهادات الشعرية غير المؤكدة ، ودون أن يتخذ نظرية نافعة ، إذ يقول : « حداد أبيض » و «حداد أسود » فى إسبانيا الإسلامية فى القرن الحادى عشر .



(٢)
المنذر وعمر بن حفصون

(بقلم : لويس سواريث فرنانديث)

كان لزامًا على ولدى الأمير محمد الأول ، اللذين خلفاه فى العرش ، على التوالى ، أن يواجها آخر وأفظع مرحلة من التمرد الأسبانى ، الذى كان على وشك القضاء على الإمارة ، فى بعض الأحيان ، وإعلان الانقسام إلى طوائف متعددة ، فى أحيان أخرى كثيرة .

لقد بدأت الثورة الأندلسية قبل وفاة الأمير محمد ، بعدة شهور ، حينما عاد عمر بن حفصون إلى ببشتر ، وانضم إليه سكان الحامة . وكان الأمير المنذر ، على وجه التحديد ، محاصراً لقلعة ببشتر ، حينما استدعته وفاة والده للذهاب إلى قرطبة ، وكان هذا حظًا طيبًا لعمر بن حفصون ، الذى أعلن قراره الكامل ، بشأن إنشاء مملكة مستقلة فى الأندلس ، مثلها مثل مملكة ابن مروان فى إكستريمادوره .

وأثناء الشهور الأولى من حكم المنذر ، قام الحاجب هاشم - بناء على أمر الأمير - بمواجهة التمرد الذى استشرى فى البلاد ، واحتج المولدون على الضرائب ، والمعاملة السيئة من شيوخ المسلمين العرب ، للأسبان المرتدين .

وكان مثال عمر بن حفصون سببًا فى انتشار عدوى التمرد ؛ إذ قام موسى بن ذى النون بإثارة بعض الأحقاد القديمة للبربر ، واستولى على طليطلة (٨٨٨) وأقام سلطة جديدة مستقلة امتدت حتى « القرية » .

ويهدف تركيز جهوده ضد القائد الأندلسى ، كان على المنذر شروط الصداقة مع أعدائه القدامى : محمد بن لوب بسرقطسة ، وعبد الرحمن بن مروان فى بطليوس ، اللذين أعلنا الاعتراف الفعلى لحكوماتهم المستقلة .

ولا يأخذ المؤرخون هذه القرارات ، على أنها قرارات سلبية ؛ إذ إنهم مقتنعون بأنه لو كانت فترة حكم المنذر امتدت لكان على حركات التمرد أن تخضع . وبالنسبة لألفونسو الثالث ، فقد حانت الفرصة المناسبة ، إذ كانت الحدود خالية من القوات العسكرية ، وكان لديه الوقت الكافى لنقل خطوطه المتقدمة ، حتى منتصف نهر « حدرة » .

وكان عمر بن حفصون ، صاحب « باغو » و « حصن آشر » و « شذونه » يتحكم فى كل إقليم « ريُّه» . وقرر الأمير الجديد أن يقوم بالقضاء عليه ، قبل أى شيء آخر ؛ ففى حملة ٨٧٧م ، تم استعادة حصن آشر .

وفى حملة ٨٨٨م التى أرسل فيها المنذر ، شخصيًا ، استولى على شذونة ، وقام بتمشيط جبال « باغو » من المتمردين ، وكان على الأمير أن يظهر فى كل الأنحاء ، أنه صاحب اليد القوية ، التى تمثل ثقل سلطاته ؛ فقام بمحاصرة ببشتر ، معقل ابن حفصون .

ولكن عمر بن حفصون ، تقدم بطلب للمصالحة ، بشرط أن يوقع معاهدة تكفل له الأمان ، ثم قام بعد توقيع المعاهدة ، بالهجوم على إحدى قوافل الأمير . وفى تلك المرة أقسم المنذر ، أنه لن يرفع الحصار عن ببشتر ، حتى يتم القضاء نهائيًا على هذا المتمرد .

وأثناء هذه الحملة ، توفى الأمير فى ٢٩ يونيو ٨٨٨م – ويحتمل أن تكون وفاته بسبب المرض – فقام ابنه وخلفه عبد الله برفع الحصار عن القلعة ، والعودة إلى قرطبة .

عبد الله وتقسيم الإمارة :

كان الحاكم الجديد ، المولود فى عام ٨٤٤م ، رجلاً ناضجًا ، وكان مسلمًا تقيًا ومعتدلاً ، لا يقرب المسكرات ، ويحرص على أن يكون موجوداً بشكل دائم فى المسجد ، كل أيام الجمع ، كما قام بإحياء العادات والتقاليد القديمة ، مثل : الجلسة الأسبوعية أمام باب العدل ؛ وكان بالنسبة للفقهاء المالكيين نموذجًا مثاليًا للأمير ، أما المؤرخون ، مثل : ابن القوطية ، فقد وصفوه وصفًا متباينًا ، واتهموه بأنه اغتال سلفه ؛ لكى يجلس على العرش .

لقد كان فى سلوكه - فيما بعد - ما يسوغ قبول هذا الاتهام : لقد توفى كل أشقائه بطريقة عنيفة ، وتوفى ابنه الأكبر محمد مقتولاً ، فى يناير ٨٩١م . بناء على أمر الأمير الذى كان ينسب إليه قتل الأقارب . أما الثانى وهو المطرف ، فقد لقى حتفه ، بنفس الطريقة . وعدّ ابن محمد - وهو : عبد الرحمن ، الذى ولد بعد أيام من اغتيال والده ، وسليل ونقه أريستا لجدته ، منذ اللحظة الأولى - وليًا للعهد .

ما من شك ، فى أن عبد الرحمن كان يتمتع ببعض خصائص الحكم ، وبخاصة تلك التى تحاك فى مكايدات الحريم ، مثل الحكمة ، أو معرفة الرجال ؛ ولهذا كان إلى جواره دائمًا المخلصون ، مهما كلفه الأمر ، فضلاً عن ذلك ، فإنه استطاع - فى أحلك الظروف - أن يدير التنافسات ، التى كانت تفصل المجموعات ، بعضها عن البعض الآخر . كما أنقذ الإمارة من الغرق الحتمى .

لقد كان شبح الصعوبات الاقتصادية التى واجهته عدوه الحقيقى ؛ إذ كان بيت المال مملوءًا فى بداية حكمه ، ولكن حركات التمرد المتواصلة ألحقت به كثيراً من الخسائر ، وحالت دون وقفها . ولم تكن البعثات العسكرية فى معظمها تعرف - هناك - هدفًا آخر سوى جباية الضرائب ، ولكن عمليات التمرد كانت تحول دونها ، وللمصادفة فإن الصعوبات التى كان يسببها المتمردون لم تكن قليلة .

إن الأخبار التى نقلها ابن حيان ، غزيرة ، وتتسم بعدم الدقة ؛ إذ إنه من الصعب أن نجد فيها خيطًا يوصلنا إلى الحقيقة . ولكن فيها بيانات يمكن أن تكون جوهرية ، لو تم التوصل إلى توضيح الأمر .

لقد انقسمت الأندلس فى عام ٨٨٩م إلى دويلات الطوائف : ابن مروان فى بطليوس ، وموسى بن ذى النون فى طليطلة ، ومحمد بن لوب فى سرقسطة ، وعمر بن حفصون فى ببشتر وجبال مالقة ، وعبيد الله بن بكر فى المغرب . وقد كانوا يتحركون كقادة حقيقيين مستقلين ، وضد رغبة الأمير .

وفى خضم هذه الفوضى السائدة ، بدأت بعض النزاعات القديمة تثار بين القبائل العربية ، وبخاصة محاولات الوصول إلى مواجهة مباشرة بين المسلمين القدامى والجدد . ومن أجل هذا ، أصبح مستقبل الإسلام فى إسبانيا فى مهب الريح . وفيما يبدو أن التقسيم كان نتيجة لغضب المولدين ، بصفة خاصة ، وكان عمر بن حفصون يحرك بمهارة وذكاء كل هذه الحجج والأسانيد ، حتى أصبح فى عيونهم بطلاً قوميًا .

لقد بدأ النزاع الكبير بين العرب والمولدين ، فى وقت واحد ، فى إقليم البيرة ، الذى يضم الآن محافظة غرناطة ، وفى حصن بنى قسى ، وفى مدينة أشبيلية .

لقد قام مولدو البيرة - الذين ينسب إليهم العديد من أعمال العنف - بقتل الحاكم يحيى بن سقالة ، وأجبروا العرب على اللجوء إلى القلعة المواجهة لغرناطة التى كانوا يطلقون عليها الحمراء .

كما وجد بنو قسى رئيسًا ذا كفاءة وشجاعة كبيرة ، هو سوار بن حمدون ، الذى كسب شهرة بالاستيلاء على منت شاقر ، وقتل المدافعين عنها .

وحين لجأ المولدون إلى الأمير - وقد كانوا بالنسبة له بمثابة ضمان التأييد - حاول عبد الله - بعد هزيمة القوات المعادية - إيجاد حل للمشكلة ، يقوم على التفاوض ، فعقد اتفاقًا مع سوار الذى حثه ، فيما يبدو ، على محاربة الحصون الموالية لعمر بن حفصون .

وفزع المولدون ؛ إذ لم يكن الموقف كما كانوا يفهمون ، فالحفاظ على الاتفاقات ، والقضاء على القائد العظيم ، يساوى عندهم القضاء على أنفسهم ، لهذا قاموا بالهجوم على سوار ، وألحقوا به الهزيمة ، وبعد ذلك فرضوا حصاراً على الحمراء . ولكن العرب استطاعوا فى إحدى الخروجات المؤسفة ، تحقيق الفوز . ولم يكن لدى المولدين مصدر آخر سوى توجيه النداء لعمر ابن حفصون والانضمام إلى حركته .

أما أشبيلية ، فقد كانت منذ القدم ، تخضع لسيطرة القبائل العربية ؛ إذ كانت حكومة قرطبة تعاملهم معاملة طيبة ، وتبدى لهم اهتمامًا كبيراً . فالثروة والسلطة كانتا تجريان - بصفة خاصة - بين أيدى بنى حجاج - الذين كانوا ينحدرون من صلب إحدى حفيدات ملك القوط الأسبان « غيطشة » ، وبنى خلدون - الذين كانت دماء المولدين تجرى فى عروقهم كذلك .

وكان إبراهيم بن الحجاج يطمح للقيام بدور رئاسة الفريق العربى . وكان المولدون يعترفون - أيضًا - بنسب اثنين رئيسيين ، هما : بنو أنجلينو ، وبنو هبريكو ، اللذان احتفظا باسميهما من أصل لغة الرومانث .

وفى عام ٨٨٩م ، بدأ كريب بن خلدون عمليات التلصص ، فى إقليم الشرف الإشبيلى ؛ حيث هزم الحاكم الأموى موسى بن العاص . وبعد ذلك اتصل بابن مروان الجليقى . وانطلاقًا

من موقف الشرف ، طلب المولدون من عبد الله التدخل - مثلما حدث فى غرناطة - واقترحوا عليه - فى نفس الوقت - حفظ النظام تحت مسئوليته ؛ لذا بدأ المولد : محمد بن غالب فى مطاردة قطاع الطرق ، فى كل أنحاء المحافظة .

ثم قرر الأمير إرسال ابنه الأكبر محمد لمعرفة الموقف . وكان هذا إجراء للممالطة ، وبادرة للحذر ، لجأ إليهما وفقًا لنصائح الوزراء ، الذين كانوا يوصون بالرضا عن العرب ، أولئك الذين كانوا يطالبون بالانتقام لموت واحد منهم ، أثناء الصراع ضد ابن غالب ، وثقة من عبد الله أنه بهذا يمكن أن يحقق الخضوع إذا منح موافقته ، ورضاءه .

ولكن اغتيال محمد بن غالب كان سببًا فى التمرد العام للمولدين : إذ أغرقه إبراهيم بن الحجاج وكريب بن خلدون فى الصراع ، هذه المرة مع الحاكم الأموى وقواته (٩ سبتمبر ٨٨٩). وعلى المدينة انتشرت سيطرة الظلام لليمنيين الذين كانوا يطاردون بحنق وغيظ كل أعدائهم من العرب والبربر والمولدين .

وكان الشيء الباقى هو الانقلاب من أجل تكريس الاستقلال لهذه المملكة العربية الإسبانية. فى عام ٨٩١ تجرأ إبراهيم وكريب بالإقدام على الخطوة الأخيرة ، باغتيال الحاكم الأموى . وكان رد فعل عبد الله متأخرًا وبدون تحديد .

ومن خلال هذه الأحداث المؤسفة اختلط موت ابنه الأصغر المطرف ؛ إذ ربما كان مذنبًا لاشتراكه فى المؤامرة . وفى عام ٨٩٥م كان يبدو أن الأمير كان يوافق على الإيرادات فى خزينة الضرائب على أمل أن تقوم القبائل المنتصرة بالقضاء على نفسها ، فيما بينها .

وهكذا كان - على الرغم من أن هذا لم يكن فى صالحه ، وربما فى صالح إبراهيم بن الحجاج ، الذى أصبح عاهلاً حقيقيًا مستقلاً بعد أن قتل كريب بن خلدون (٨٩٦م) . وكان بلاطه الملكى يباهى به ، ويفوق بلاط قرطبة فى بعض الوجوه . وحتى وفاته ظل فى حكمه واقفًا الضرائب للأمير بانتظام متخذًا نفسه راعيًا من رعاياه ، ومزودًا إياه بالقوات فى صراعه ضد العدو المشترك المتحصن فى قلعة ببشتر . وفى عام ٩١١م ، انتقل سلطانه إلى أولاده بعد أن قام بتقسيمه فيما بينهم .

تألق عمر بن حفصون وفشله :

على حين كان يتم نزع قطع من جذع الخلافة بعزل الأمير الأموى فى قرطبة ، بدأت سلطة عمر بن حفصون فى الازدياد ، بطريقة خيالية ، كما دارت بينه وبين عبد الله لعبة الاتفاقيات

التى تدعو للعجب ، وحب الاستطلاع ، ولم تكن هذه الاتفاقات تستمر إلا عدة شهور بالكاد؛ إذ كان كلاهما يحاول فهم خداع الآخر .

وقد عملت قوات المولدين - منذ عام ٨٨٩م - فى ضواحى قرطبة ؛ إذ استعاد عمر بن حفصون شذونه ، وأصبح صاحبًا لأسيجه ، وأسطبه ، وأشونه .

وعلى الرغم من هزيمته على أيدى سوار بن حمدون ، حين كان متوجهًا لنجدة المولدين بغرناطة ، إلا أن هذا العائق لم يغير من خططه ؛ فقد استطاع أن يشرف على الجانب الأكبر من الإقليم . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد توفىٌ سوار بعد ذلك بعدة شهور ، وخلفه سعيد بن سليمان بن جودى السعدى ، الذى كان غير جدير بوقف ضغط المولدين وزحفهم .

ثم بدأت قوات الثائر الكبير تزداد تدريجيًا ، حتى أصبح الشخصية السياسية الناضجة . وقد جعل بنزوله من ببشتر حتى استجه ، هذه المدينة عاصمة لملكته ، التى كانت أكثر ضعفًا ، مما اعتقده بعض المؤرخين ، الذين خدعهم بتحركاته ، ونشاطه .

ثم قرر سيرفاندو كونت المستعربين بقرطبة ، أنه قد حانت ساعة الانصراف عن الأمويين ؛ فها هو (أجيلار دى لافرونتيرا) صاحب قلعة بلاى ، يستدعى عمر بن حفصون - الذى قد ضم جيَّان وبيانه ولوشه وبياسه وأبده لتكون تحت سيطرته - ليقدمها له . وإن كانت الأقاويل غير الدقيقة تفيد بأنه قبلها بكل سعادة ورضا . وأنه كان يخطط للقيام بضربة نهائية ، بالهجوم على قرطبة .

ثم انقشع التهديد الذى كان يطوق عاصمة الإمارة ، كما لو كان سحابة صيف عابرة ، لتبين لنا قلة الصلابة ، التى كانت تتسم بها حركة الثورة الأندلسية .

أما الخطر الأكبر فقد كان قادمًا - ؛ إذ لم يسمع بنو تجيب الذين كانوا بقلعة أيوب ، والذين كانوا يدينون للأمير بامتلاك سرقسطة (٨٩١م) ، وكذا لم يسمع إبراهيم بن الحجاج بأشبيلية ، ولا سعيد بن سليمان بغرناطة - طلبات النجدة التى كان يوجهها إليهم الأمير عبد الله .

لقد دعى الأمير كل القوى ، وجرك سكان قرطبة ، الذين شعروا بالخوف واستطاع - فى مواجهة أسوار " بلاى » (١٦ مايو ٨٩١) - أن يحقق النصر الذى كانت نتائجه حاسمة . واستنشق الإسلام روحه من جديد .

وبانتهاز فرصة الفوز فى « بلاى » قام الأمير بنزهة حربية كبيرة عبر الأندلس ، حيث استولى على أرشذونه ، واستجه ، ووصل إلى حد تهديد ببشتر . ولكن عمر بن حفصون تحرك بسرعة ، واسترد أرشذونه ، وخدع الأمير فى هذه المرة ؛ فهزم العرب فى البيرة ، التى عادت إلى سلطانه من جديد .

ثم استعاد استجه فى عام ٨٩٧م . وكانت عمليات الاحتلال هذه بمثابة الاحتلال العابر ، دون أن يكون هناك ثبات فى السيطرة ، ودون أن تكون قوة للدولة .

لقد كانت مبادرة هذا الثائر المولد حول نفس السبب الذى اتسمت به بالحماقة والتصرفات المجنونة . ففى عام ٨٩٩م ، اتخذ قراراً بالعودة إلى المسيحية ، مع كل أسرته فاتخذ اسم صمويل . ويمكن القول بأن هذا التصرف كان لمحة منطقية - لدرجة ما - إذ أعاد لحركته جذورها الأولية .

ولكن العديد من المولدين المخلصين للإسلام ، والبربر ، والعرب ، الذين كانوا يتبعونه - فقط - من أجل عدواتهم للأمويين وكراهيتهم لهم ، تخلوا ، وانصرفوا عنه ؛ أى أن تغيير دينه كان سببًا فى ضعفه .

وخلال السنوات الأخيرة من حكم عبد الله ، نجد انهيار نزعة الأندلس القومية ، وكان الانطباع السائد ؛ هو أن سقوط هذه النزعة سيتم بلا محالة ، فقد كانت الشواهد تؤكد ذلك ، وكانت القوات الأموية تتحين الفرص الكثيرة للاستفادة من هذا الموقف .

وقد قام عمر بن حفصون بالبحث عن تحالفات فى كل الأنحاء ، بهدف دعم البناء المتهاوى وسنده ، فتوجه إلى ألفونسو الثالث ، وبنى قسى ، الذين كانوا فى مرحلة الاضمحلال ، وبنى الحجاج فى أشبيلية . ولكن كل هذه الجهود باءت بالفشل ؛ ألفونسو الثالث كانت لديه خطته الخاصة ، التى كان عليه أن يقوم بها ؛ إذ لم يكن فى مقدوره الاعتماد على المولدين ، الذين كانوا مجردين من كل قوة . وأما إبراهيم بن الحجاج فقدم بعضًا من المال ، والقوات ، لا لشىء إلا لإجبار الأمير عبد الله على إطلاق سراح ابنه ، الذى كان رهينة لديه .

ثم بدأت المواقع الهامة فى الخضوع - خطوة خطوة - ففى عام ٩٠٣م استعاد الأمويون جيّان ، وفى عام ٩٠٥م ألحقوا به هزيمة فى وادى بولون ، وفى عام ٩٠٧م خضعت أرشذونه ،

وفى عام ٩١٠م خضعت بياسة ، ولحق بها حصن آشر فى عام ٩١٢م . أما ببشتر فكانت فى متناول قوات قرطبة التى كانت تصل إلى مشارفها - تقريبًا - كل عام .

المصـــــدر : لويس سواريث فرنانديث : تاريخ إسبانيا - العصور الوسطى ، دار نشر جريدوس. مدريد . ١٩٨٣ (الصفحات ٢٥ - ٥٦) .

(٣)
ضوابط حول عمر بن حفصون

(بقلم : بدرو شالميتا)

يقوم كل جيل ، عادة ، بإعادة طرح التراث الحضارى المنقول ، قبل أن يوافق عليه . ففى التاريخ - بسبب تنوع المشكلات - يكون لزامًا زيادة البيانات والمعلومات ، التى يمكن استخراجها من المصادر المعروفة . وظهور نصوص جديدة يستلزم عقد المقارنات مع النصوص الأخرى ، وبخاصة محاولة التوفيق بينها ، بغرض الوصول إلى الحقيقة الفعلية . وبالطبع فإن هذا يستلزم المراجعة ، التى قد تؤدى إلى التأثر بقوالب محددة ، وربما إلى « تحطيم الأيقونات» و « الصور الدينية » بالنسبة للأساطير و « الشخصيات » العظيمة .

وتطرح أيضًا مشكلة : هل نواصل إعادة « نظريات جليلة غير محققة » ، وأخطاء مدركة تحميها مراجع مشهورة ؟ أو نتخلص من الألم ، ونقول الحقيقة - كل الحقيقة - التاريخية ؟

إنها قضية الشعور المهنى أكثر منها الشعور الأخلاقى . إن هذه الجرعة القليلة من الشعور النقدى اللازم والضرورى لكل مؤرخ، تثير نوعًا من اللامبالاة ، أمام تلك الروايات النموذجية. ومن الناحية الإحصائية فإن الأساطير التى تتحمل الدراسة المنهجية للمصادر ، نادرة للغاية .

وبكل تواضع ، سنحاول المساهمة فى توضيح الحقيقة الفعلية ، بأن نعيد كل شىء إلى أصله . وبمراجعة عامة ، سنعيد طرح جانب من تاريخنا فى العصور الوسطى ، الذى أصابه الاعوجاج ، بسبب أيديولوجية قومية دينية إسبانية .



(٣) أنه مات ، ودفن بوصفه مسيحيًا طيبًا .

ولنرى الآن : ما المعلومات التى تقدمها المصادر العربية المعروفة ، وهذا سيكون :

- بمراعاة المصطلحات المستخدمة من جانب كل مؤلف (بما يعكس المفهوم الذى كان يستحقه نشاط عمر بن حفصون) .

- التسلسل التاريخى للمعلومات (المؤلفات القديمة لا يمكن أن تستحق - مقدمًا - نفس الرؤية اليقينية للمؤلفات المعاصرة) .

المصطلحات :

الطريقة التى تقرها النصوص بشأن تحديد شخصية عمر تكون عرضية ، بالنسبة لاختيار بعض المصطلحات المحددة . وباستثناء البعض الآخر ، ومؤشر شيوعها ، حيث تعكس آراء ذات قيمة ، وتقديرات . سنرى أن نتيجة هذا الحصر الصغير يلقى نتيجة مختلفة عما كان ينتظر سلفًا :

- فى المقتبس ، الجزء الثالث ، يظهر عادة اسم ابن حفصون فقط ، وعندما تلحق به الصفة يوصف ١٤ مرة بـ « لعين » و ١٠ مرات « خبيث » ، ومرة واحدة « فاجر » ، و « جرثومة الضلال » ، و « جرثومة النفاق » ، و « الطاغية » ، و « عدو الله » ، و « عميد المخالفين» ، و « عميد الانشقاق » ، و « عميد أهل الضلال » . وعن رواية ارتداده عام ٢٨٦هـ يقتصر على قول : فيها أظهر اللعين عمر بن حفصون النصرانية .

- وأما دورية الأخبار المجهولة المؤلف فقد ذكرته ست عشرة مرة : ١٢ مرة « بدون صفة» ، ومرة واحدة مشطوبة « خبيث » ، و٣ مرات « لعين » وذلك حين (نبش قبره وتم صلبه) .

- وأما المقتبس ، الجزء الخامس : فقد استخدم الاسم فقط ووصفه ١٤ مرة بـ « خبيث » ، و ٩ مرات « فاسق » ، و ٨ مرات « مارق » و ٧ مرات « لعين » ، و ٥ مرات « مارد » ، و ٤ مرات « مرتد » ، و ٣ مرات « جرثومة النفاق » و ٣ مرات « إمام الضلالة » ، ومرة واحدة « خنزير » ، و «مشرك» ، و « ملحد» . ويسمى أبناؤه ١٧ مرة « مارق » ، ٦ مرات « خبيث » و ٤ مرات « فاسق » ، و ٣ مرات « لعين » ، ومرة واحدة « ناكث » . ويلاحظ أنه لم تذكر أية صفة فى الوثائق ، مما يستدل منه على أن السباب من صنع المؤرخين .

- وأما الافتتاح لابن القوطية فقد صنفه بدون أى صفة احترام ، بين ثائر ومنتزى .

- وذكر كذلك فى التاريخ لابن الأثير بنفس الوصف .

- وأما البيان لابن عذارى فكان يذكر اسمه بدون صفات ، على الرغم من نعته : خمس مرات بـ « لعين » ، و مرة واحدة « مرتد » و « عدو الله » ، و « عميد الكافرين » ، و «رأس المنافقين » .

- وأما ابن خلدون فإنه لم ينعته بصفات ، وإن كان يصنفه تحت لقب « ثائر » .

- وأما ابن الخطيب فإنه لم ينعته بصفات فى السيرة الذاتية التى يخصصها له ، وهذا نفس ما حدث فى كتابه : الأعمال ٣١ - ٤ ؛ حيث يقتصر على تصنيفه بين منتزى وثائر .

- وأما النواوى فى كتابه « نهايات » فإنه لاينعته بصفات وإن كان يصنفه تحت لقب «مخالف» .

وفـــاته :

- يؤكد ابن القوطية أن « عمر مات فى أوائل (حكومة الناصر) بعد أن تأسف على (عمليات تمرده الماضية) ، واعترافه بأنه الملك » .

- فى مختصر تاريخ أحمد بن محمد الرازى ، الذى يطلق عليه خطأ التاريخ المجهول : فى هذا العام (٣٠٣هـ) توفى عمر بن حفصون ملاذ المنشقين والمارقين .

- المقتبس ، الجزء الخامس ، ٩٠ - ٩١ يضع وفاة الخبيث فى الأربعة عشر يومًا الباقية من شهر شعبان سنة ٣٠٥هـ ، (عدل ليفى بروفينسال هذا التاريخ إلى ربيع الأول) . « وفى إطار الطاعة العمياء ؛ إذ يوجد اتفاق موقع ومصدق عليه من الملك الناصر ، وأنه خرج مرتين فى حملة - مع قوات قرطبة - لاحتواء ابنه سليمان فى (أبده) وأصيب بجرح » - النص غير صحيح على الإطلاق - فرح عمر عندما حصل على الأمان ... الذى طالما انتظره بقية حياته ، ونفذ كل شروطه ... وظل واضحًا بالنسبة للناصر أن عمر حافظ بشرف على العهد المبرم ونفذه ، وأطاعه حين كان يأمره ، وكان يمنعه ، جدارة اعترافه به ... حتى واتته المنية بكل الشرف والاستقامة ، لقد أبدى صدقه فى طاعته عند الهجوم مع ألوية الناصر على ابنه سليمان عندما .... » .

- عريب كان يشير إلى وفاة الكافر الخبيث فى عام ٣٠٥ دون توضيح ما إذا كان متمردًا أو خاضعًا .

- ابن الأثير لم يذكر وفاته .

- ابن الخطيب : تاريخ وفاته فى عام ٣٠٦ محدداً بأنه بعد اعترافه بالناصر . وأن هذا الأخير منحه معاهدة .

- ابن خلدون : يقول « بعد أن اعترف (عمر) بعبيد الله عاد لطاعة بنى أمية ... التى استمر عليها حتى وفاته » .

- النواوى : لم يذكر وفاته .

ومن ثم يتضح أن المصادر العربية أو غيرها لم تفصل فى أى موقف سياسى مات ، وأن المصادر الوثيقة والموثقة تختلف فى أن أيامه الأخيرة كانت الطاعة .

المصدر : بدرو شالميتا : ضوابط حول عمر بن حفصون - المعهد الأسبانى العربى للثقافة - محاضر يوميات الثقافة العربية والإسلامية (١٩٨٠) - مدريد ١٩٨٥.



(٤)
حول ببشتر من جديد

(بقلم : خواكين باليه)

إن القيام بدراسة نقدية للمصادر العربية ، التى تبحث فى ثورة عمر بن حفصون وتمرده ، وكذلك أولاده يطرح علينا ، من جديد ، مشكلة تحديد مكان قلعة ببشتر .

ومنذ كوندى الذى خلط بين ببشتر ووشقه ، وحتى سيمونيه الذى حدد موقعها فى هضاب بيابيردى ، ومروراً بدوزى التى حددها بـ « قسطليون » بالقرب من إطابة ، كتب الكثير عن القلعة المشهورة لكورة ريه أو مالقه [١].

وحتى الآن فقد غلب الرأى الذى طرحه سيمونيه دون جدال ، ولكن بعد دراسة متأنية ومتفحصة للمصادر العربية التى تشدنا إلى تصحيح بعض النتائج الهامة التى توصل إليها المستعرب المشهور ، فإنا نعتقد أن ببشتر - ولنسميها هكذا - لم تكن واقعة فى هضاب بيابيردى بجوار خزان تشورو .

وعلى الرغم من أعمال الحفائر العظيمة التى قام بها ميرخلينا فى هذا المكان الأخير ، فإنه لم يتم العثور على أى دليل قاطع يؤكد نظرية سيمونيه .

وقد وصل الأمر بمرخيلينا - على الرغم من ظنه بأن قلعة ببشتر ربما يكون مكانها هضاب بيابيردى - إلى حد القول « إذا لم تكن هنا ، فإن المظهر العظيم لهذه المنطقة الرائعة يؤكد وجودها . إذ إنه من المنطقى التفكير أن عمر قد اختار المكان الذى حبته الطبيعة بأن تجعله قويًا ، حتى يمكنه الحفاظ على تفوقه ، وبخاصة فى الفترات الأولى من ثورته [٢].

وتبدو لنا هذه الحجة غير مقنعة تمامًا ؛ إذ إنه يمكن الإشارة إلى مناطق عديدة فى محافظة مالقه تجمع شروطًا أفضل للدفاع .

وفى هذا المقال المختصر ، سنقتصر على دراسة تلك الحملات الأموية ، التى كان هدفها الرئيسى الاستيلاء على ببشتر ، مع التركيز على خطوط السير التى اتبعتها الجيوش الملكية، أو المتمردون ، وفقًا للتسلسل التاريخى دون أن ننسى أوصاف الجغرافيين ، ودون الرجوع إلى تلك الأمور التى قد تستغرق الكثير - ثلاثة أو أربعة شهور - وتحتاج إلى فريق عمل كبير ، وقد تؤدى إلى التحقق من شىء مشكوك فيه ، وأحيانًا إلى أماكن جغرافية لا يمكن الدفاع عنها .

ولهذا السبب - وحتى لا يطول عرضنا أكثر من اللازم - سنستند إلى دراسة ليفى بروفنسال الجامعة الرائعة ، فى كتابه : تاريخ إسبانيا الإسلامية .

حدود كورة ريه فى العصر الأموى :

قبل أن نواصل دراستنا ، علينا أن نقتصر على الإطار الجغرافى ؛ إذ تدور وتتطور الأحداث الرئيسية لثورة عمر بن حفصون وتمرده .

ويقدم لنا مؤلف من مالقه فى القرن الرابع عشر ، هو : النباهى ، حدود كورة ريه ، قبل سقوط الخلافة (٣)، بقوله : « فى القديم كانت حدودها الشرقية الحامة بغرناطة ، حيث كانت الحمامات العامة العظيمة (٤). ومن جهة الغرب كان يحدها حصن الورد(٥) ويسمى الآن مونتى مايور (الجبل الكبير)(٦) بالقرب من مَربِلَه(٧) . وفى الشمال كان يحدها وادى شنيل (نهر شنيل) وحصن بنى بشير (٨)، والرانيسول (قلعة أنثور)(٩) وبعد ذلك يلى الخط الفاصل بالأرض المسماة الخنوس (١٠)، وبقرية جليانه بالقرب من اسطبه حتى نهاية حوز فى مورور »(١١) .

ونؤكد على أهمية وصف النباهى ، بوضع اللبنة الأولى التى تقدم لنا حدود الكورة أو المحافظة فى جغرافية إسبانيا الإسلامية .

ومن خلال المعلومات التى تمدنا بها المصادر العربية الأكثر تنوعًا ، والدراسة المتأنية ، والمستفيضة « للتقسيمات » والوثائق المسيحية الأخرى ، يمكن إعادة ترتيب تقسيم أراضى الأندلس بشىء من التقريب .

فنحن نكرس أنفسنا – منذ وقت – لهذه الدراسات ، التى ستقدم لنا – بدون أدنى شك – معرفة أفضل لجغرافية شبه الجزيرة فى العصور الوسطى .

إن حدود ريه التى أشار إليها النباهى لا تتفق – تمامًا – مع الحدود الحالية لمحافظة مالقه . وبمقابلة هذه البيانات مع بيانات الجغرافيين ، والمؤرخين العرب الآخرين ، نعرف أن الحامة انتسبت دائمًا إلى ريه ، ولم تنتم إلى البيره أو غرناطة على الإطلاق .

وحتى لا نطيل على أنفسنا كثيراً ، نقول : إن مؤلفين إسبانيين مسلمين اتسما بالدقة ، والمعرفة ، هما : ابن الخطيب – الذى ولد فى لوشه – والعذرى استبعد دائمًا الحامة ، حينما كان يصفان كورة البيره (١٢).

ونفس الشىء يمكن أن نقوله عن حصن آشر ، الذى كان ينتمى إلى المحافظة ، موضوع دراستنا ؛ إذ إننا وجدنا إشارات عديدة ، فى المصادر العربية ، تحدد أن حصن آشر ، من كورة ريه (١٣).

وإذا كانت حدود شرق وشمال ريه دقيقة – بالقدر الكافى – فإن الحدود الغربية غير واضحة ، لدرجة أن النباهى لم يذكر كورة تاكرنا ، التى كانت عاصمتها رنده . ولكننا نجرؤ على افتراض أن وادى الخُرس كان تابعًا لكورة ريه ، مع قصر بنيره وقرطبة ، وفقًا لكتاب جغرافية الرازى ، على حين أن إطابه وتنِّيط كانتا تابعتين لكورة تاكرنا (١٤).

وعن اسم ريه الذى يعده المؤلفون الأسبان المسلمون كاسم رومانث ، بمعنى المملكة أو السلطانة ، فليس لدينا فى أسماء الأعلام والأماكن الحالية ، سوى فحص ريه الموثقة فى القرن الرابع عشر ، تحت اسم فحص ريه .

ويؤكد لنا الشعر العربى أن اسم مالقه كان يقرأ وينطق ريه وليس ريُّه أو ريخيو كما يذكر الآن (١٥).

وكانت أرشذونه عاصمة المحافظة أثناء العهد الأموى ، ولكن فى تاريخ لاحق لا يمكن لنا تحديده ، ربما عند سقوط الخلافة ، انتقلت العاصمة إلى مالقه .

بداية تمرد عمر بن حفصون :

بتحديد الإطار الجغرافى الذى دارت فيه عمليات الثورة والتمرد الرئيسية لعمر بن حفصون وأولاده ، سنقوم بالتركيز على تلك الأحداث االتى يمكن أن ترشدنا إلى مركز التمرد ؛ أى إلى ببشتر ، التى تسمح لنا بتحديد موقعها ، وذلك باتباع التسلسل التاريخى المحكم .

في عام ٢٦٧ (أغسطس ٨٨٠ - أغسطس ٨٨١) بدأ نشاط عمر بن حفصون الذي هزم القوات الأموية بالكامل التي أوفدها حاكم كورة ريه ، عامر بن عامر ، على الرغم من أن الثورة في محافظات ريه ، والجزيرة ، وتاكرنا كانت قد بدأت قبل ذلك بعامين (١٦).

والمصادر التي تحت أيدينا حتى الآن قليلة في معلوماتها ؛ إذ إنه من المستحيل تحديد مدى انتشار هذه الثغرات المتمردة الثائرة وموقعها .

ونجد ابن الخطيب ، وحده ، في سيرته - غير منشورة حتى الآن - يخصص لعمر بن حفصون بعض البيانات الهامة للغاية . يقول لنا : إن أسلافه كانوا أصلاً من رنده . ففي عهد الحكم الأول ، وجدوا أنفسهم مجبرين على الهجرة ، إلى قرية ترجيلة بكورة ريه القريبة جداً من حصن أوطه .

وفي ترجيله ، ولد عمر بن حفصون ، وحين أعلن تمرده ، تحصن في جبل ببشتر ، الذي كان يشرف على قريته التي ولد فيها . فقد استولى في البداية على حصن أوطه المجاور له ، ومحياش (١٨) ، وبعد ذلك احتل قمارش وأرشذونه ، حتى أصبح صاحبًا لكل كورة ريه ، وامتد نفوذه عبر المحافظات المجاورة ، مثل : الخضراء (الجزيرة) والبيره (غرناطة) .

ولنترك التحليل النقدي لهذه الأخبار الهامة للغاية - ولنناقشها فيما بعد - لنتابع الآن مسيرة التمرد ، ورد الفعل الأموي التالي له .

لقد أرسل الأمير محمد الأول ، في عام ٢٧٣ هـ (يونيه ٨٨٦م - ٨٨٧م) جيشًا كبيراً ، تحت قيادة ولي العهد المنذر ، والقائد ابن جهور ؛ إذ قامت القوات الأموية بمحاصرة مدينة الحامه ، التي كان قد اجتمع فيها ابن حمدون ، قائد بني رفاعة(١٩) وحليفه عمر بن حفصون. واستمر الحصار شهرين وفي إحدى الخروجات اليائسة أصيب ثائر ببشتر بجراح ، وفقد يده ، وكان عليه اللجوء من جديد إلى الحامه (٢٠).

وحين كان المنذر ، على وشك إخضاع المدينة ، تلقى نبأ وفاة والده الأمير محمد ، في يوم الخميس الأخير من شهر صفر من العام المذكور (٤ أغسطس ٨٨٦م) . وقد وصل الخبر إلى الحملة بعد أربعة أيام . ولم يقم الأمير الجديد برفع الحصار فوراً ؛ إذ يشير المؤرخون العرب إلى أنه عين سليمان بن عبد الملك الأخطل ، وعبد الرحمن بن جريش حاكمين لكورة ريه ، وأنه دفع رواتب جنود الجيش ، وأنه بعد بحث عدة موضوعات أخرى بالإقليم ، عين أميراً في نفس

الحملة ، وحينئذ قرر العودة إلى قرطبة ؛ حيث أعلن تنصيبه أميراً فى حفل مهيب ، فى يوم الأحد ١٤ أغسطس (٢١).

وحينئذ انتهز عمر بن حفصون الفرصة ، ليقوم بإخضاع كل القلاع والحصون ، بدءًا من ببشتر على الساحل ، كما قام بتنظيم الإغارات الجريئة ، عبر محافظات : باغه (بيغو) ، وقبره ، وقد حظى دائمًا بتأييد الشعب الذى كان فى أغلبه من المسيحيين ، أو المولدين .

وفى العام التالى وجه الأمير المنذر بنفسه حملة ضد أراضى عمر بن حفصون ، وبعد عملية حصار لببشتر - لم تحقق نتائج مجدية - قام باحتلال أرشذونه ، وعدة حصون فى سلسلة جبال باغه (بيغو) ، أثناء انسحابه (٢٢). وأمام المقاومة الشديدة للثائر ، قام الأمير مرة أخرى بالتوجه إليه ، وقام بمحاصرته ، وفرض حصاراً شديداً حول حصن قماره(٢٣) - بين كولمينار وكاسابرميخا - دون أن يسمح له بتعزيز قواته ، أو تموين حلفائه ، وإمدادهم .

وحين وجد عمر بن حفصون نفسه فى موقف اليأس ، قرر التفاوض على السلام ، والالتزام بتحديد إقامته فى قرطبة ، تحت شروط محددة . وقد وافق الأمير على طلباته ، وأرسل إليه محضر الاتفاقية ، بالإضافة إلى بعض الهدايا الثمينة ، ومائة بغل ، وخمسين فارسًا تقديراً لمنزلته . وبدأ عمر بن حفصون بإرسال الهدايا إلى ببشتر ، حيث كانت أسرته .

ولكن بمجرد أن رفع الجيش الأموى الحصار عن حصن قماره ، بموجب النتيجة المرضية للمفاوضات ، انتهز فرصة حلول الليل ، وقام بمغادرة القلعة ، ولجأ إلى ببشتر ، بعد أن استولى على المائة بغل ، والهدايا التى أرسلها له المنذر ، وأعلن تمرده من جديد أمام مواليه : " أنا ربكم الأعلى " (٢٤).

ولسرعة تحركه، فإننا نشك فى أن حصن قماره - المذكور - قد يكون قريبًا جداً من ببشتر؛ إذ أنه فى وقت قصير (ليلة واحدة وعدة ساعات) استطاع أن ينتقل من القلعة ، ويلجأ إلى حصنه ، بوقت كاف ، ليبلغ الأدلاء الذين كانوا يقودون البغال المائة إلى ببشتر. ومن المستحيل أن يكون فى بيابيردى - كما يدور الحدث حول هذا الاحتمال حتى الآن - إذ لو كان فى تلك المنطقة لكان قد تأخر وقتًا طويلاً فى أن يجوب أكثر من ستين كيلو متراً فى منطقة جبلية وعرة، فضلاً عن أن حصار الأمير له فى منطقة بعيدة عن ببشتر لا يكون ذا مغزى .

وما لبث أن جاء رد الفعل من جانب الأمير الأموى مباشراً ؛ إذ قام بحملة جديدة ، وأعلن استعداده لإخضاع عمر بن حفصون نهائيًا . فقام بمحاصرة ببشتر لمدة ثلاثة وأربعين يومًا ، ولكن بسبب المرض الخطير والغريب الذى أصيب به ، أمر باستدعاء الأمير ولى العهد أخيه عبد الله ، وقد توفى المنذر فى ظروف غريبة فى نفس يوم وصول أخيه ، يوم ١٥ صفر ٢٧٥ هـ (٢٩ يونيه ٨٨٨م) ، عن عمر يناهز ستة وأربعين عامًا ، وعامين من الحكم [٢٥].

وقام الأمير الجديد - على الفور - برفع الحصار ، بعد أن توصل إلى أن عمر بن حفصون لن يقوم بمضايقة الاحتفال الجنائزى اليسير ، حيث تفرق الجيش الأموى « عبر البلاد مثل السهم » ليصل إلى قرطبة ، بعد يومين من الوفاة ، وذلك فى يوم الاثنين ١٧ صفر (١ يوليو ٨٨٨م) . وبعد أداء صلاة الجنازة على روح أخيه ودفنه فى الروضة حيث يرقد أسلافه ، قام عبد الله بأداء يمين الولاء لرعيته [٢٦].

وأول ما فعله الأمير عبد الله هو التفاوض مع عمر بن حفصون ، الذى تجاوب مع مقترحات الأمير ، وأرسل إليه ابنه حفص للعاصمة مع حاشيته من النبلاء للاعتراف به رسميًا . وقام الأمير عبد الله بتعيين عمر بن حفصون ، نفسه ، حاكمًا لكورة ريه ، وكان عليه أن يشارك النائب الأموى : عبد الوهاب ابن عبد الرؤوف فى المنصب [٢٧].

ولكن عمر بن حفصون عاود بعد شهور قليلة انشقاقه ، وقطع كل مواثيقه والتزاماته مع الأمير ، وقام بتنظيم الإغارات الخطيرة ، على : أشونه واستجه وكوره قرطبة وتوجيهها .

واستطاع - بعد أن قام بطرد عبد الوهاب بن عبد الرؤوف - أن يستميل المسيحيين والمولدين والبربر بالمحافظات المجاورة ، لتكون رأس الفريق المناهض للعرب . وكان لهذا الموقف أثر فى وجود فترة طويلة من الفوضى التى عمت كل الأندلس ، وأثبت الأمير عبد الله عجزه عن إخمادها [٢٨].

ثم استولى عمر بن حفصون فى عام ٢٧٦ هـ (٦ مايو ٨٨٩م) على بَيَّانه وبُلاى (أجيلار) ، وفى عمليات تهديده المتواصلة بلغ به التهديد الجاد لعاصمة المملكة .

وأمام خطورة الموقف تحرك الأمير عبد الله الذى كان يقود بنفسه حملة بلاى الشهيرة . وكان اللقاء الحاسم فى يوم الأحد الموافق ٢ من صفر سنة ٢٧٨ هـ (١٦ مايو ٨٩١م) والذى هزم فيه عمر بن حفصون شر هزيمة [٢٩].

واستطاع عمر بن حفصون أن يلجأ إلى قلعة بلاى ، وحين خيم الليل استطاع الهرب على حصان ، ليصل عبر الجبال إلى أرشذونه مبكراً ، وبعد استراحة قصيرة واصل هرويه ليصل إلى ببشتر .

وخلال هذه الأثناء كان الأمير عبد الله متوجهًا إلى استجه ؛ حيث كان الجزء الأكبر من القوات المتمردة لاجئًا إليها ، وبعد أن قام بإخضاعهم واصل مسيرته تجاه ببشتر ، وقام بفرض حصار شديد عليها ؛ لدرجة أنه قام بتخريب حقولها وتدميرها ، ولكنه بدأ فى العودة إلى قرطبة ، حينما عجز عن إخضاع القلعة ، ورأى أن جيشه أصبح منهك القوى .

وأثناء انسحاب الجيش الملكى ، حاول عمر بن حفصون أن يقطع عليه الطريق ، من خلال ممر ضيق لا يسمح بالمرور منه سوى لشخصين أو ثلاثة أشخاص ، ولكن الأمير استطاع أن يتجاوز هذا العائق ، واستعد للمعركة عندما قامت القوات الموالية لعمر بن حفصون بمحاصرة الجيش الملكى من جميع الأنحاء .

وبعد معارك ضارية انتهت بانتصار الأمويين ، فى يوم السبت غرة ربيع الأول ٢٧٨ هـ (١٣ يونيو ٨٩١م) استطاع الأمير عبد الله أن يفتح طريقًا ، ويصل إلى أرشذونه ، عاصمة المحافظة ، وبعد ذلك توجه إلى البيره [٣٠].

ومن هذه الأحداث يمكننا أن نستنتج أن ببشتر كانت قريبة نسبيًا من أرشذونه ، وأنه كان هناك موقع الممر الضيق المذكور فى المرتفعات الجبلية التى تفصل حاليًا بين منطقتى أرشذونه وكولمينار ؛ إذ إنه بجيش يسير فى تلك الأزمنة ، بجنوده الجرحى وعوائق طبيعية ، لا يمكنه أن يجوب أكثر من ثلاثين كيلو متراً فى يوم واحد فقط ، كما أن هضاب بيابيردى كانت تقع على بعد أكثر من ستين كيلو متراً من أرشذونه ، سواء عن طريق إللوره ووادى أبدلاخيس وأنتقيره ، أو باتباع طريق بنياروبيا وكامبيرس وأنتقيره .

وفى عام ٢٨٠ هـ (١٣ مارس ٨٩٤م) قام الأمير المطرف ، ابن الأمير عبد الله ، بحملة جديدة ضد ببشتر . قام بالهجوم على القلعة لمدة عدة أيام ، وحين بدأ فى الانسحاب قام بتدمير منية الخاصة بالقرب من الفرنات[٣١] !! وكذلك كنيسة قام ببنائها حفص ، والد عمر . وبعد معارك عنيفة واصل الأمير المطرف مسيرته المنتصرة حتى استقر معسكره فى لوشه ؛ حيث أقام فى قلعتها ، وترك بها فرقة عسكرية قوية تحت رئاسة إدريس بن عبد الله .

وبعد ست سنوات أعلن عمر بن حفصون على الرأى العام صراحة ارتداده للمسيحية ، مما أثار الانشقاق بين العديد من أتباعه ، ومن بينهم البربر المقيمين فى محافظة تاكرنا المجاورة ؛ حيث انسحب قائدها عوساجه بن الخالى إلى حصن قنيط ، وابتداء من هذا التاريخ بدأ عوساجه فى محاربة ثائر ببشتر بلا هوادة (٣٢).

وفى يوم الخميس السادس من جمادى الثانى ٢٩١ هـ (٢٥ أبريل ٩٠٤ م) خرج من قرطبة الأمير أبان ، ابن الأمير عبد الله ، والقائد أبو العباس بن عبده ، على رأس القوات الملكية تجاه ببشتر .

ولدينا نصان يقومان على مصادر مختلفة تمامًا . وأسماء الأعلام الجغرافية التى تذكر فيهما ليست هى نفسها دائمًا ، ومن ثم لا يمكننا الآن التوصل إلى إمكانية التحقق والتأكد منها .

لقد عسكر الجيش الأموى فى وادى نسقانيه ، بهدف تدمير مزروعاته . وواصل طريقه إلى وادى بينوش ، بالقرب من ببشتر ، ليعسكر فى محلة طلجيره ؛ حيث يمكن قيام المعركة بدون استحكام القضاء على المتمرد الثائر .

وبعد معارك ضارية حول ببشتر انسحب الجيش الأموى نحو لوشه بعد الهجوم على طُرُشْ والرُّبول . وعلى حين كان الأمير أبان يستريح فى لوشه ، قام القائد ابن أبى عبده على رأس فرقة من الفرسان بعدة إغارات عبر أراضى العدو ، وقام بمعركة فى حصن الخوشان ، استطاع فيها تحقيق النصر الكبير ، والعودة إلى معسكر لوشه مع غنائم وأسرى كثيرين (٣٤).

ويقدم لنا ابن حيان تفصيلات أكبر حول حملة عام ٢٩٤ هـ (٢٢ أكتوبر ٩٠٦م) على الرغم من أنه يحدد تاريخها خطأ ، بعشر سنوات قبل ذلك . وعلى أساس هذه الحملة ، يحدد سيمونيه نظريته بشأن موقع ببشتر فى هضاب بيابيردى ، ولكن لو قمنا بتحليل دقيق للتسلسل التاريخى ، سندرك أنها كانت فى عام ٢٩٤ هـ وليس فى عام ٢٨٤هـ . والخطأ يرجع إلى أنه فى هذين التاريخين قام الأمير أبان بحملتين أخذتا نفس الاسم : صائفة الجزيرة باعتبار أن هذه المدينة هى الهدف الرئيسى لكلتا الحملتين .

لقد خرج الجيش الملكى من قرطبة يوم السبت ١٧ جمادى الثانى سنة ٢٩٤ هـ (٤ أبريل ٩٠٧م) . وفى يوم ٢٩ أبريل حط الجيش رحاله فى شقنشه ، بالقرب من مدينة شذونه ، ومن

هذه المنطقة قامت الفروسية الأموية بعدة إغارات على أراضى الأعداء ، بهدف إفساح طريق الجزيرة .

لقد وقعت المعارك المتلاحمة فى منشنت[٣٥] بجوار قلعة بنى غزول ، ولما لم تتمكن القوات من الاستيلاء عليها ، قام الجيش بعمل حصار كبير ، وبعد أن مر عبر أراضى طريف ، حط رحاله فى الجزيرة ، يوم ١٠ مايو من نفس العام .

وبعد حصار دام ثمانية أيام ، وأمام المقاومة الشديدة من جانب أهل الجزيرة ، توجهت القوات الأموية - التى كانت تواجه مضايقات مستمرة من المتمردين فى كل الإقاليم - يوم ١٦ مايو ببطء إلى لوره [٣٦]. وفى اليوم التالى تم تنفيذ حكم الإعدام فى بعض البربر الذين كانوا يحملون المؤن والإمدادات للمدافعين عن القلعة المذكورة ، التى قاومت بشجاعة وبسالة ضد الهجمات الأموية المستمرة على مدار ستة أيام . وكانت هذه المقاومة الشديدة التى اتسمت بالإصرار على الرغم من سوء حالة الطقس الذى ساد هذه الفترة سببًا فى انسحاب جيوش قرطبة من القصر [٣٧]. وربما كانت نفس القلعة المذكورة تحت حصن لوره ، حتى الشاطىء مرورًا بمرسى الشجرة[٣٨] وخندق الجنة وطريق خُشَيْن ، وسهيل وذكوان[٣٩] ليعسكر على ضفاف الوادى - وادى الخرس - فى يوم الاثنين الأول من يونيه .

ويبدو أن الجيش كان يحاول عبور النهر[٤٠] دون أن يحقق ذلك ، بعد معارك عنيفة كان يشارك فى أسوأها عمر بن حفصون ، وفقًا لحديث المؤرخ ، وقد توجهت القوات الأموية إلى قصر بونيره ؛ حيث وجد المتمردون المهزومون أنفسهم من جديد ملزمين باللجوء إلى الجبال .

وفى النهاية حطت القوات الأموية رحالها ، فى وادى بنى عبد الرحمن فى مواجهة ببشتر فى يوم ١٥ يونيه . وعلى مدار ستة أيام استطاع جنود الأمويين أن يمهدوا معسكراتهم دون قيام معارك ، وأن يواصلوا الزحف والتقدم إلى أن وصلوا إلى أرشذونه ، فى نفس يوم عيد القديس خوان (مهرجان العنصره) فى يوم الأربعاء ٢٤ يونيه [٤١].

وفى كل الحملات التى قام بها الأميران المنذر وعبد الله ضد ببشتر ، يرد باستمرار ذكر مناطق وأماكن قريبة من تلك القلعة المذكورة مثل قمارش وأرشذونه ولوشه والحامة وقماره ، ولكننا لم نر إطلاقًا تحديدًا لأسماء إطابه[٤٢] وأردالش وقنيط ، وهى أماكن قريبة للغاية من هضاب بيايردى ولم يرد ذكر مدينة انتقيره ، الأمر الذى يجعلنا نظن أن الجيوش الأموية كانت تفضل أن تسلك طرق أرشذونه ولوشه التى كانت تصب مباشرة فى ببشتر .

استسلام ببشتر :

كانت حملات عبد الرحمن الثالث ، حفيد الأمير عبد الله وخليفته ، الأولى موجهة إلى مناطق بعيدة نسبيًا عن ببشتر ، بهدف تقليل حدة المتمردين الآخرين ، وعزل عمر بن حفصون تمامًا . وبعد وفاة هذا الأخير فى سبتمبر ٩١٧م ووقوع الانقسام والشقاق بين أبنائه استطاع خليفة قرطبة بفضل ذلك أن يوثق الحصار - رويداً رويداً - حول ببشتر ، وبدون توقف إلى أن احتلها فى النهاية بعد عشر سنوات(٤٣) .

وفى العام الثانى من حكمه قام عبد الرحمن الثالث بحملة طويلة ، عبر كورة ريه والجزيرة وقرمونه . فقد خرج على رأس قواته يوم ٧ مايو ٩١٤م وتوجه فى المقام الأول إلى حصن طرش(٤٤)؛ حيث وصل إليه بعد ستة أيام ، وبعد حصار الأمير للقلعة المذكورة - وبدون أن يستولى عليها - اكتفى بأن يقطع عنها مئونتها ؛ حيث توجه نحو الشاطىء .

وفى حصن طرش الآخر(٤٥) حقق نصراً كبيراً ، على مؤيدى ابن حفصون ، وقام بحرق بعض السفن التى كانوا قد أحضروا فيها المؤن والطعام من الجانب الآخر من البحر للمتمردين. وتوجه عبر الشاطىء نحو الجزيرة ، وبالقرب منها تعجلت قواته بإخضاع أهل سنار ، وفج وسيم ، وقلبيره ، والقصر(٤٦) للوصول إلى قرطبة ، بعد اثنين وثمانين يومًا من خروجهم .

ولقد كانت هذه الحملات تقريبًا ذات صفة مظهرية أكثر منها فاعلية ، ويمكن قصرها على أنها نزهة عسكرية لعقاب المتمردين ، وللحصول على الاستسلام الرسمى ، لأنه بمجرد أن تنسحب القوات ، يعود الموقف إلى حالته السابقة .

وبعد أن قام عبد الرحمن الثالث فى الأيام الأولى من شهر يونيه ٩١٩م باحتلال القلعة القوية فى البضاء ، الواقعة فى الطرف الحالى لمغارات القديس ماركوس ، استقر مع قواته فى جبل ببشتر . وكما هى العادة ، قام الجيش الملكى بقطع الإمدادات عن القلعة ، وتشديد الحصار عليها ، مما أجبر جعفر ، خليفة عمر بن حفصون وابنه ، على تسليم رهائنه وسداد الضرائب الواجبة عليه حتى يتم انسحاب تلك القوات . وفى العام التالى فضل عبد الرحمن (أحد أبناء عمر بن حفصون الذى كان يعانى من مضايقة شقيقه جعفر) أن يسلم حصن طرش أو طرش خشين إلى عبد الرحمن الثالث ، والانسحاب إلى قرطبة ؛ حيث اعتنى به الأمير ، وضمن له حياة طيبة .

وحصن طرش الذى أسماه الناصر - فى الأخبار المجهولة المؤلف - باسم طرش خشين ، كان يختص بإحدى القلاع القريبة جداً من ببشتر ، وربما تكون القلعة المذكورة فى حملة عام ٩٠٤م بين ببشتر ولوشه (التى حسبما نرى يجب التحقق منها جغرافيًا أو استراتيجيًا بالضيعة الحالية المسماة الفاخان ، بجوار ربوة القليعة فى طرف ريوجوردو) .

ويثبت ليفى بروفنسال هذا المكان مع أوخين (خشين) الواقعة على بعد تسعة كيلو مترات من مربله ، وذلك بالتفكير الدائم فى هضاب بيابيردى ، إلا أن وجود عدة أسماء مكانية جغرافية بهذا الاسم فى جغرافية الأندلس ، تجعلنا نتردد ونشتبه بأنه كان اسمًا نوعيًا عامًا ، ربما ينتسب إلى الرومانث ، أو اسمًا مستعربًا ، مثلما يحدث كثيراً فى أسماء الأعلام الجغرافية الإسبانية العربية (٤٧) .

وفيما يبدو أن الأمويين قد فقدوا على الفور هذه القلعة ، وأنه من أجل استعادتها ، قام عبد الرحمن الثالث بحملة جديدة فى عام ٣٠٩ هـ (التاريخ غير مؤكد فى ١٢ مايو ٩٢١م).

وحتى الآن لدينا روايتان مفصلتان عن هذه الحملة : كتاب الأخبار المجهولة لعبد الرحمن الثالث الناصر ، والبيان لابن عذارى . وعن المصدر الذى يرجع إليه المؤرخ يقدم لنا التواريخ الهجرية ، وما يعادلها بالتواريخ الميلادية ، وعند مقارنتها نجد أن هناك اختلافًا جديداً بينها . إذ إنها تشير إلى حملة العام السابق ، وهذا الخلط يمكن تفسيره لأنه يتعلق بنفس المكان ، وهو طُرُش .

لقد تمركز المسيحيون وتحصنوا فى هذه المنطقة الاستراتيجية - التى نتحقق منها بالاسم الحالى الفاخان - ، وبعد هجوم مكثف بماكينات الحرب الخاصة بهدم الأسوار (التى كانت تستخدم قديمًا) استسلمت القلعة ، وقامت القوات الأموية بتدمير القصبة ، بإلقاء حجارتها فى النهر ، ربما يكون نهر صبار ، وجعلوا كنيستها مسجداً . وأثناء الحصار ، أرسل عبد الرحمن الثالث القوات إلى ببشتر ، وحصن أقوط ، ربما يكون ربوة أجودو فى طرف بنيوله ، وجبل الحجارة الذى يكون ميناء بدريشاس الحالى ، وذلك لمحاربة سليمان وحفص ، ابنى عمر ابن حفصون . وبعد فتح طُرُش ، عاد عبد الرحمن الثالث فى يوم الاثنين من معسكره الذى أقامه على هذه القلعة ، ليصل يوم الخميس إلى قرطبة (٤٨) .

وبتحديد مركز المقاومة فى القطاع الحالى لمنطقة كولمينار ، ندرك أهمية طُرُش خُوشين أو الفاخان التى تشرف على طرق الفارناتى حتى لوشه ، والطرق التى تخترق مينائى الس...

وحفص ريه وحصن أقوط ، الذى يقع على مقربة من مرقب لاس أتالاياس الذى يشرف على وادي نهر بيليث ، وجانب من الشاطىء ، وأخيراً جبل الحجارة ، الذى يسد طريق المرور تجاه أنتقيره أو أرشذونه عبر ميناء فريسندا .

ومن المحتمل جداً ، أن الأمويين - لكى يحتفلوا بهذا الانتصار الهام متمردى ببشتر - قد أطلقوا على هذا المكان اسم المنصورة (الذى يعادل اليوم كلمة فى طرف بريانا . والذى أعلنه مادوث فى المقال المخصص لمالقه .

وتأييداً لهذه النظرية يمكننا أن نذكر خبر تأسيس المنصورة ، بالقرب من القيروان ، فى عامى ٩٤٨ م - ٩٤٩ م على أيدى الخليفة الفاطمى إسماعيل . فقد أطلق اسم المنصورة بسبب النصر الذى كان أحرزه ضد الثائر المتمرد أبى يزيد (٤٩).

وفى عام ٣١١ هـ (تاريخ غير مؤكد ٢١ أبريل ٩٢٣م) شن عبد الرحمن الثالث حملة صيفية جديدة على ببشتر ، التى كان يحكمها سليمان ، خليفة جعفر ؛ إذ خرج الجيش الأموى من قرطبة ، يوم الاثنين الأول من محرم (الموافق ٢١ أبريل ٩٢٣م) بعد خمسة وعشرين يوماً من إعلان الحملة وبالزحف العسكرى وصل إلى حصن ببشتر . وخلال عدة أيام تخصص الجيش القرطبى فى القضاء على زراعات القمح والكروم وأشجار الفاكهة حول ببشتر ، والقلاع القريبة من قردريش(٥٠) ونجريش(٥١) وأولية(٥٢) وشانت بيطر ، وفى تلك الأثناء خرج حفص شقيق سليمان لمقابلة عبد الرحمن الثالث وتسليمه حصن قماره ، الواقع بالقرب من كولمينار ، وقد منحه الأمير الأموى الأمان أو إذن المرور ، وسمح له بالاحتفاظ ببعض القلاع التى لا تمثل أهمية تذكر .

وبعد ذلك ، توجه الجيش الأموى إلى مرسى الشط(٥٣) والمنكب وحصن متريل ، حيث جاب المنطقة الجبلية التى لم يكن وطأها جيش ، حتى ذلك الحين . ومن جديد عاد إلى ببشتر ؛ حيث كانت قد تفجرت ثورة ضد سليمان ، ولكن هذا الأخير استطاع إخمادها بسرعة . وحط عبد الرحمن الثالث رحاله للمرة الثانية يوم الأحد الرابع من ربيع الأول (٢٣ يونيه ٩٢٣م) وبعد أن أمر ببناء الحصون ، ووضع الفرق العسكرية الثابتة لمواصلة الحصار ، عاد إلى قرطبة بعد ستة أيام (٢٩ يونيه ٩٢٣م) (٥٤).

وفى يوم الثلاثاء ٢٤ ربيع أول من عام ٣١٥ ، (الموافق ٢٩ مايو ٩٢٧م) نرى عبد الرحمن الثالث من جديد فى حصار ببشتر ؛ حيث كان حفص يواصل مقاومته ، وهو الذى كان

قد خلف أخاه سليمان ، الذى توفى فى فبراير من نفس العام ، وعلى حين يترك أمير قرطبة جانبًا من قواته لتشديد الحصار ، ينتقل إلى مدينة أولية ، التى استسلمت على الفور ، ويقوم بمعركة شنت بيطر ، وفى بعض القلاع القريبة ، وبعد القضاء على مزروعاتها وأعنابها ، يتوجه إلى مالقه ، ويعود مباشرة إلى ببشتر بعد إقليم لاmaya(٥٥) ويأمر الأمير ببناء الحصون بجوار الأطلال القديمة المسماة باسم المدينة . ويكلف قواده بمنع وصول التعزيزات من جهة تاكرنا ، وبعد مرور سبعة أيام ينتقل إلى معسكر طلجيره ، بجوار ببشتر ، وبعد أن أمر ببناء حصون جديدة لمحاصرة القلعة تمامًا ، يقوم برحلة العودة فى يوم السبت ١٦ جمادى الثانية (١٨ أغسطس) ليصل إلى قرطبة فى يوم الثلاثاء التالى (٥٦).

وفى النهاية ، بعد عدة شهور ، فى ١٧ يناير ٩٢٨م استسلم حفص ، ورفع العلم الأموى على أسوار ببشتر . التى قاومت على مدار خمسين عامًا أربعة من أمراء قرطبة ، وتلقى عبد الرحمن الثالث النبأ السار بالفرح ، ودون أن يعلنه قام بحملته الأخيرة ضد ببشتر ، للقضاء على بقايا الثغرات المتمردة الثائرة .

لقد جاب القلعة المشهورة ، وبلغت به دهشته وإعجابه الشديد بموقعها ، وصعوبة الوصول إليها ، وإمكاناتها الدفاعية مبلغًا كبيراً . وبعد أن قام بحرق رفات عمر بن حفصون وابنه جعفر ، احتل القلاع الأخيرة التى لم تكن قد خضعت حتى تلك اللحظة ، ومن بينها شنت بيطر ، وقمارش ، وجوطرون(٥٧) وأجبر مدافعيها على مغادرتها ، والإقامة في السهول . وقبل أن يرحل كلف وزيره سعيد بن المنذر أن يقوى دفاعات ببشتر ، حتى تكون تحت قبضته جيداً . وبعد أن أمر بهدم القلاع الأخرى بريه وتاكرنا ومغيلة ، عاد إلى قرطبة بعد أن تغيب عنها ستة وعشرين يومًا (٥٨).

ومازال يشير ابن عذارى إلى زيارة جديدة قام بها عبد الرحمن الثالث إلى ببشتر . لقد كانت رحلة سريعة للتفتيش (رحلة ميدانية) لمراجعة ما بقى من أعمال الدفاع التى كان قد أمر بها . وكان خروجه من قرطبة فى يوم الخميس ١٣ شوال ٣١٧ هـ (١٩ نوفمبر ٩٢٩م). ووصوله إلى ببشتر فى يوم الخميس التالى ، وبعد أن طاف بالمدينة ، وراجع الأعمال التى شرع فيها ، عاد فى اليوم التالى ليصل إلى قرطبة فى يوم الثلاثاء الأول من ديسمبر (٥٩).

ببشتر بعد سقوط الخلافة :

كما رأينا أن عبد الرحمن الثالث لم يقم بهدم ببشتر ، ويمكننا الظن أنه قد ترك فيها فرقة عسكرية كبيرة وهامة ، حتى سقوط الخلافة . ولقد ورد ذكر اسمها بعض المرات فى عصور لاحقة ، وإن كانت متفرقة .

وعندما هزم البربر مؤيدى المهدى على ضفاف نهر وادى آرُه ، فى يوم ٦ من ذى القعدة من عام ٤٠٠ هـ (٢١ يونيه ١٠١٠م) ، عادوا إلى قرطبة ، وفى الطريق احتلوا حصن ببشتر « الذى كان قد لجأ إليه عمر بن حفصون . وقد زاد غزو هذا المكان الغزير بالمياه والمراعى من قوته ودفاعاته » (٦٠).

وبعد سنوات أصيب إدريس الأول المتأيد (الملك الحمودى لمالقه) بمرض خطير ، وأقام فى ببشتر الذى كان قد حصنها من قبل ، حيث توفى بعد يومين من وصوله فى ١٦ محرم ٤٣١ هـ (٩ أكتوبر ١٠٣٩م) . ولجأ ابنه حيون ، المخلوع عن العرش ، إلى قمارش (٦١).

وهنالك ملك حمودى آخر لمالقه ، هو إدريس الثانى ، المخلوع عن العرش ، وحين خرج من العاصمة للصيد وجد أبواب مالقه مغلقة فى وجهه ، ولجأ إلى ببشتر ، فى شهر رجب من عام ٤٣٨ هـ (يناير ١٠٤٧م) (٦٢).

وحين يذكر ابن خلدون والمقرى هذا النبأ ، فإنهما لايشيران إلى ببشتر ، وإنما إلى قمارش ؛ حيث كان قد أقام إدريس الثانى بهدف استعادة مالقه .وفيما يبدو أنه بمساعدة من غرناطة دخل العاصمة من جديد ، بعد عام ٤٤٤ هـ (١٠٥٢م) (٦٣).

والإشارة الأخيرة عن ببشتر - التى وجدناها فى المصادر العربية - يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر الميلادى : حين تمرد الأشبيليون فى يناير ١١٤٧ ضد الموحدين ، الذين كانوا قد فرغوا من احتلال المدينة ، هرب إخوة المهدى من أشبيلية ، لجأوا إلى ببشتر ، حيث انسحبوا بعد ذلك إلى أفريقيا ، بعد القضاء على فرقة الجزيرة (٦٤). وعن أخبار ابن سعيد فى القرن الثانى عشر - كما سنرى - نعلم أن القلعة المشهورة فى عصره كانت أطلالاً .

الخلط بين ببشتر وقمارش :

كان للتحليل الدقيق للمصادر العربية المعروفة ، التى عالجت ثورة عمر بن حفصون وأولاده وتمردهم ، فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر ، والأخبار التالية المتعلقة ببشتر ، ما جعلنى

أشك فى أن القلعة ، التى يصعب الوصول إليها ، كانت قريبة جداً من قمارش ؛ إذ إن بعض المؤلفين العرب قد توصلوا فى ذلك إلى التحقق من ببشتر مع قمارش ، أو وضعها طرفها .

لقد قام ابن سعيد (١٢١٣ - ١٢٧٤م) بزيارة ببشتر ، حين كانت أطلالاً ، وحين كان يشير إلى القلعة المذكورة ، كان يستخدم تعبيراً مماثلاً لتعبير ابن الخطيب ، حينما وصف قمارش ، بعد قرن من الزمان . يقول ابن سعيد : " وكان قيامه وامتناعه فى قلعة ببشتر ، بين رنده ومالقه ، وقد وقفت عليها . وهى خراب ، وكانت من أمنع قلاع الأندلس ، لا ترام ، ولا يخشى من فيها إلا من الأجل "(٦٥) .

أما ابن الخطيب (المتوفى فى عام ١٢٧٤م) فإنه يشير إلى أن بنى أشكلوله ، أقارب ملوك بنى نصر بغرناطة ، لجأوا إلى قمارش ، « وهى معقل الأندلس الذى لا يرام ، وكان الملوك من بنى حمود وغيرهم ، قد قدروا قدرة ، واتخذوا به مساكن تناسب الملك » (٦٦).

وفى مناسبة أخرى يصف ابن الخطيب قمارش ، بهذه الطريقة : « لا يخامر قلب الثائر به خطره وَجَله إلا من أجله ، طالما فزعت إليه نفوس الملوك الأخاثر بالذخائر ، وشقت عليه أكياس المرائر فى الضرائر » (٦٧).

وكما يقول ابن سعيد ، إذا كانت قلعة ببشتر فى القرن الثالث عشر أطلالاً ، فإنه من الواضح أنه بعد قرن من الزمان أن يشير ابن الخطيب إلى قمارش على أنها منطقة أكثر قرباً وأهمية ، على الرغم من عدم اختفاء ذكرى قلعة ابن حفصون المنيعة ، حينما يشير إلى الأمن والأمان الذى يشعر به « الثائر » أو ملوك بنى حمود بداخلها .

التحقق من هوية حصن آط :

وبالعودة إلى المراجع غير المنشورة عن عمر بن حفصون التى أوردها ابن الخطيب فى الإحاطة ، يقول لنا ابن الخطيب : إن ببشتر وطرجيلة كانتا قريبتين من حصن آط . ويحققها سيمونيه بـ باروطًا الواقعة على بعد عشرة كيلو مترات تقريبًا ، جنوب شرق رنده (٦٨)، على حين اقترح دوزى حصن آط ، على بعد خمسة كيلو مترات من نهر بيليث مالقه ، ويمكن رؤيتها من قمارش (٦٩).

وبعد دراستنا نعتقد أن حصن آط كان واقعًا فى ضاحية أوطة الحالية ، فى نهاية نهر ريه جوردو ، بجوار سلسلة جبال (سييرا دل ريى) وتاجه دى جومير ، ومع هذا فإنها الآن د

تقع على ضفاف نهر لاكوبيا - وهو رافد من نهر بيليث ، فى القرن الخامس عشر - وحينما قام الملوك الكاثوليك بغزو أراضى مالقه ، منح فرنسيسكو دى كوايا ، القائد الأول لقمارش ، لقب ماركيز دى ميراندا دى آط ، وهو اللقب الذى يؤكد أهمية مكان إقطاعيته (٧٠).

والمحياش المكان الذى ذكره ابن الخطيب ربما يكون هو الحالى ، والواقع بين ضيعة آط المذكورة ، وريو جوردو (٧١).

وبالتحقق من هذين المكانين نرى منطقية الغزوات الأولى التى قام بها عمر بن حفصون . وبالعثور على ببشتر فى مكان قريب جداً ، من منبع نهر لاكوبيا ، يواصل عمر بن حفصون مسار النهر المذكور فى البداية ليحتل آط والمحياش وقمارش جنوبًا ليستولى بعد ذلك على أرشذونه ، عاصمة الإقليم ، والواقعة على بعد ثلاثين كيلو تقريبًا من شمال آط .

هضاب بيابردى ومنطقة قمارش :

فى يونيه ١٩٦٤ وبفضل مساعدة المعهد الأسبانى العربى للثقافة بمدريد قمنا بجولة ميدانية متفحصة فى هذه المنطقة . ومن أنتقيره توجهنا فى البداية إلى هضاب بيابيردى ، باتباع طريق كامبيرس وبنياروبيا وأرداليس ، دون أن نجد حدثًا جغرافيًا جديراً بالذكر ، وعبر طريق محلى بدأنا فى الاقتراب من خزان شورو ، ولقد لفتت انتباهنا جباله الجرداء ، وقلة الخضرة والنماء ، عى عكس ما كان يقول الجغرافيون العرب ، عندما كانوا يصفون ببشتر.

ولم يقابل الجيش الأموى صعوبات جادة ، عند الاقتراب من هذه المنطقة ، ولم يكن كثرة ما فعله الجيش من تجريد حقولها ليغير من طبيعتها ؛ حتى تتحول إلى أرض جرداء جدباء ، تمامًا ، لا ينبت فيها سوى الأعشاب . ومن جهة أخرى - كما رأينا - فإن استيلاء البربر على ببشتر ، فى القرن الحادى عشر ، قد سمح لهم بالتمتع والاستفادة من ثروتها الطبيعية .

أما إذا خرجنا من أنتقيره تجاه مالقه ، عبر الطريق الوطنى رقم ٣٣١ فإن علينا أن نعبر ميناء روميرال الصعب ، وبعد أن نعبر ميناء لاس بيدريشاس ، فسيظهر أمامنا منظر بديع وأخاذ . كما أن الجبال المسماة بجبال مالقه أو أخاركيا تشكل لنا ربوة وعرة مغلقة من جانب جوردا فى الشمال ١٤٣٥م ، وفى ربوة دى لاكورث فى الشرق مع سلسلة جبال تيخيا التى تصل إلى ٢٠٦٥م ؛ وفى الجنوب ميناء ليون ١٠٠٠ م ، وشنت بيطر ١٣٦٩م فى أقصى قمة ارتفاعها .

ويمكننا تحديد مركز هذه المنطقة الطبيعية فى كولمنار بارتفاع ٦٩٤ متراً فوق مستوى البحر . ولكونها المنطقة الأكثر غنى بالمحافظة المشهورة بزراعات القمح فى كامبو دى كامار ، وزراعات الكروم التى تنتج النبيذ المشهور باسم بيرو خيمين ، والمشهورة بحساء أوليه ، وخوطرون ، وبيطر ، وريوجوردو ، إلخ . فإن لها مخرجًا طبيعيًا عبر وادى نهر بيليث ، الأمر الذى يفسر لنا أن جيوش الأمويين كانت تقوم بدورة كبيرة ، عدة مرات ، عبر غرناطة ، وساليرينيا والساحل ، للهجوم على ببشتر .

وعبر ميناء لاس بدريشاس ، نتأمل هذا المدرج الضخم ، المحاط بالجبال العالية : وبالقرب منا نجد بيانويبا دى كاوتش الواقعة جنوب قصر برميخا ، وأكثر بعداً عن قمارش ، وحيث تقع فى الداخل القرى الصغيرة القبصيل ، وكانياس ، التى تميل تجاه سلسلة جبال تيخيا .

وكان فى صحبتنا الباحث الشاب : رفائيل موراليس ، الذى يقوم بإعداد دراسة تاريخية عن ريو جوردو مسقط رأسه ، حيث قدم لنا المعلومات ، والبيانات ذات القيمة الكبيرة ، وقد رافقنا وأرشدنا إلى الأماكن التى نحن بصدد دراستها ، والتى يعرفها جيداً . ولقد تجولنا بأناة فى سلسلة جبال (سييرا دل ربى) ، بجوار ضيعة آط . وتسمى أعلى قمة فى هذه السلسلة باسم كاستيخون ، وليس هناك شك فى أنه كانت هناك قلعة هامة ، بدليل وجود بقايا آثار كثيرة على سطح الأرض . وبجوار كاستيخون ترتفع قمة جبل تاجه دى جومير ؛ حيث توجد فى هذه القمة المنيعة بقايا مرقب دمر من جراء هزة أرضية ، وقعت فى القرن الماضى . ومن كاتسيخون نفسها يكون الإشراف على كل وادى نهر بيليث ، حتى مصبه فى البحر ، وفى مواجهتنا نحدد قمارش المرفوعة على إحدى القمم العالية .

وعلى السفح الجنوبى لسلسلة جبال سييرا دل رى ، نجد بقايا كثيرة من الخزف والطوب والحجارة المنحوتة ، من جهة التاجه دى لوس كاستيخوس ، حتى المنطقة القريبة من ضيعة آط ، وعلى ضفتى نهر دى لاكويبا الذى ينبع فى نفس المكان ، حيث فوارة بوربو يون ، والأرض هناك خصبة حيث يتم الحرث ، وإلقاء البذور ، دون مراعاة لهذه الاثار والبقايا . وعلى سطح الأرض ، حيث الوادى ، يتم اكتشاف مقبرة أثرية بها مقابر شبه آدمية . وتعتبر ضيعة آط قديمة للغاية ، وطاحونتها العتيقة وأسوارها تبدو لنا على أنها من عصر سابق ، بفترة كبيرة على القرن الخامس عشر ، حيث نجد حجارة للطواحين فى كل الأنحاء وأحياناً نجدها فى دركات سلم أو أرصفة .

وفيما يتعلق بأسماء الأعلام والأماكن الجغرافية القليلة لهذه المنطقة ، فإنه يتأكد وجود كل أنواع الدفاعات العسكرية : أسماء القليعة ، المورييو ، لاكوراتشا شنت بيطر ، لا أتا لايا (المرقب) ، الأتاليون (المرقب الكبير) ، وأسماء أخرى تجعلنا نشك فى أن هذه المنطقة المنيعة كانت مركزاً لمقاومة عمر بن حفصون وأولاده .

ومن جهة أخرى فإن الأخبار التى يوردها لنا أمادور دى لوس ريوس فى كتابه « فهرس الاثار التاريخية والفنية لمحافظة مالقه »(٧٢) الذى لم يطبع حتى الآن ، المتعلقة بقطاع كولمينار يبدو أنها تؤيد شكوكنا ، يقول : « إن الفلاحين حينما كانوا يضربون الأرض بفئوسهم كانوا يجدون أشياء أكثر تنوعًا ، مثل : القوارير ، والقناديل ، أو الشريات ذات الأذرع ، والأوانى ، إلخ . وهذا - فيما يبدو - برهان على تنقل الناس والمعسكرات على مدار سنوات عديدة ، وذلك بناء على الحملات المستمرة التى كان يقوم بها الأمويون ضد ببشتر .

اسم ببشتر :

من بين المشكلات الهامة التى طرحها تمرد عمر بن حفصون وثورته ، أمام المؤرخين : المشكلة التى كانت ، ومازالت تتعلق باسم القلعة المشهورة . إن الروايات المتعددة للاسم ، والنطق الصوتى المتباين ، غير المؤكد ، أو غير الموجود ، والذى يرد فى المصادر العربية ، يتطلب القيام بدراسة نقدية واعية لهذه المصادر ، فى محاولة لتحديد الشكل الصحيح . ويجب للوصول إلى هذه النتيجة مواجهة هذه المصادر فى المخطوطات الأصلية ، ونأمل القيام بهذا العمل فى المستقبل القريب .

إن الإشارات الأكثر قدمًا المتعلقة ببشتر ، تظهر كإشارات منطقية فى أخبار بداية التمرد والثورة فى عصر الأمير محمد الأول . لقد قام ابن عذارى فى البيان بنسخ نسب عمر بن حفصون نقلاً عن ابن حيان ، وفى هذا النسب المذكور ، يرد ذكر القلعة المشهورة تحت اسم حصن بربشتر (٧٣)، ولقد ظهرت هذه الرواية فى نص ابن عذارى فى عهد المنذر وعبد الله ، ولكن ابتداء من حملة عام ٢٩١ هـ (٩٠٤م) كان الاسم ينسخ تحت شكل أكثر عمومية ، هو: بوبشتر (٧٤). وهناك روايات أخرى نجدها تحت أشكال بووبشتر ، وبابشتر ، وباشتر ، وبشتر، وهى دائمًا تحتوى على حرف متحرك .

وبعد دراسة هذه الروايات ، على عجالة ، يبدو لنا أنه فى البداية قد يكون الاسم مركبًا من كلمتين ، والتى تظهر فى مرات عديدة متماثلة : بربشتر أو ببشتر ، وفى أحيان أخرى تذكر

الكلمة الثانية : بَشتر أو بُشتر ، وبداية من القرن الحادى عشر ظهر هذا الشكل الأخير ليكون الأكثر قبولاً وشيوعًا .

والآن نشير هنا إلى ثلاثة مؤلفين لظروفهم الخاصة التى تجدر أن نوليها اهتمامًا كبيراً .

– العذرى بالمرية ، الذى عاش فى القرن الحادى عشر ، وكتب بحثًا جغرافيًا مشوقًا ، وقد نشر الدكتور الأهوانى الجزء المحفوظ منه ، وحين ذكر مصادفة عمر بن حفصون ، كتب : « المنتزى ببشتر » (ثائر ببشتر) (٧٥).

– الإدريسى ، الجغرافى العظيم للقرن الثانى عشر ، حفيد إدريس الثانى ، الذى لجأ إلى ببشتر – كما رأينا – حين خلع عن العرش فى مالقه ، يقول بُشتر ، ولقد شطب اسم الإدريسى لعدم معرفته للجغرافية الأسبانية ، ولكن فى هذه الحالة على وجه الخصوص ، علينا أن نفكر بأن اسم مقر أجداده لا يجب أن يكون مجهولاً بالنسبة له (٧٦).

– وأخيراً ابن الخطيب ، المولود فى لوشه ، والذى ذكرناه كثيراً ، يقول : فى السيرة الذاتية غير المنشورة لعمر بن حفصون « وكانت وفاته فى ببشتر » (٧٧).

تقسيم قمارش :

مع الشك إذن فى أن بوبشترو أو بُشتر ، كان موقعها بالقرب من قمارش ، فلقد قمت بدراسة فى سجل المدونات لمجلس بلدية مالقه ، حول : « تقسيم قمارش » ، المؤرخ فى ١٤٩٤م . وكان هذا التقسيم قد نشر فى عام ١٩٣٢م على أيدى صديقنا العزيز السيد فرانسيسكو بيخارانو ، أمين المحفوظات بمجلس بلدية مالقه . ولقد ظهر فى جريدة « يوميات مالقه » ، وفى عدة أعمال لعديد من المؤلفين ، عن موضوعات تتعلق بالمحافظة ، وقد تم تجميعها فى مجلد واحد تحت عنوان « دراسات مالقية لعدة مؤلفين » . وهذه الطبعة ، دون توجيه نقد واضح ، تحتوى على عديد من الأخطاء المطبعية ، حيث يكون من الصعب التعرف على عديد من أسماء الأعلام المذكورة .

وعند الحديث مع السيد / بيخارانو عن دراساتى ، انبهر بها ؛ إذ إنه لم يساوره الشك فى أهمية البيانات التى تم جمعها فى التقسيم المذكور . وأود هنا أن أعرب عن شكرى للمعاملة الطيبة ، والتسهيلات ، والإرشادات التى قدمها لى .

ومن جهة أخرى فقد اتفقنا على أن نقوم بإصدار طبعة نقدية جديدة ، لهذه الوثيقة الهامة المشوقة ، بهدف االتحقق من أكبر عدد ممكن من أسماء الأماكن التى ترد بها .

وفى تقسيم قمارش ، مثلما يحدث فى هذا النوع من الوثائق ، يكون جمع البيانات من لسان العيان . يقوم كاتب عمومى وبرفقته مترجم بتسجيل ممتلكات وتخوم المسلمين الخاضعين حديثًا . ولهذا السبب يظهر أحيانًا نفس الاسم بمسميات وروايات متعددة .

وتوجد أسماء أعلام كثيرة ذات صفة عسكرية ، مثل القليعة ، وأتالايا (المرقب) ، والقلعة ، والمزرية (بمعنى معسكر أو ربض) ، وتاجه دى جوميز ، بجوار ضيعة آط (قلعة آط) ، نتحقق منها تحت أسماء : فاجا أومار ، وفاجيومار ، أو فيجيومار . ومن ثم فهى ترد تحت ثلاث روايات ، ويتبين بوضوح اسم العلم العربى الأصلى : فج عمر أو تاجه عمر . كما ندون أيضًا فى هذه الوثيقة القيمة سلسلة جبال سبيرا دل ربى المذكورة ، والواقعة بالقرب من آط ، والإشارة دون أدنى شك إلى الملوك فى العهد الإسلامى ، ربما يكون واحداً من ملوك بنى حمود ، أو هو نفسه عمر بن حفصون ؛ إذ إن ابن خلدون ومؤلفين آخرين يطلقون عليه لقب الأمير .

وحتى لا نطيل فى هذا العرض ، نقول إنه عند تسجيل تقسيم قمارش ، فإن التخوم الشمالية لتلك المدينة ، مع تخوم أرشذونه ، وأنتقيره ، التى تهمنا الآن ، يشار إليها من الشرق للغرب « مرقب القليعة ، طليعة القليعة ، مرقب مشار القلعة ، وكورال دل إنثينا » ساحة أشجار البلوط ، الذى يطلق على البوستويرو بعد عبور نهر الجواخار (ريو دى لاكويبا)(٧٨). ومن هنا يتجه إلى فوارة توروتشيلا ، وبثرى ثيجوينى ، ومرقب المزرية (طليعة المزرية) بجوار سلسلة جبال كوهدر ، حتى فوارة وادى المدينة » .

إن البوستويرو أو ساحة أشجار البلوط فى تقسيم قمارش ، يجب أن يكون اسمًا سابقًا على العهد الإسلامى ، وربما يكون اسمًا أيبيريا ؛ إذ يحتفظ به فى عدة نقاط بالأندلس ؛ حيث تكثر أو كانت أشجار البلوط . فى جنوب أركوس دى لافرونتيرا ، وفى خريطة عام ١٠٤٩م ، من القسم الجغرافى ، نرى أن البوستويرو ، وميناء لاس انثيناس (أشجار البلوط الكبيرة) ، ومادوث ، فى المقال الخاص بقلعة بنى غزول ، يذكر البوستويرو الأعلى الذى تغزر فيه أشجار السنديان ، ولكن فى خريطة عام ١٠٦٣م ، وجدت المكان المشار إليه باسم البويرتو الأعلى (٧٩).

وقد يكون من حب الاستطلاع أن ابن حوقل (٨٠)، عالم الجغرافيا الموثق لدى خدمة الفاطميين ، حين يصف محافظة ريه ، ويتكلم عن عمر بن حفصون يقول لنا : إن فحص

البلوط الذى عاصمته غافق (ابن القصر) يقع بجوار ضياع الثائر المشهور . وهذا الخطأ الجسيم يمكن تفسيره فقط إذا كان ابن حوقل قد خلط « فحص البلوط » مع ببشتر (ساحة أشجار البلوط) باعتبارهما مترادفان ، ومن ثم فإن البيانات التى يقدمها بعد ذلك تتعلق بتمرد وثورة مسيحيى ريه ومالقه .

وكما قمنا - أيضًا - بمراجعة تقسيم الكورة ، على عجالة ، والموجود فى سجل محفوظات مجلس بلدية مالقه ، وتحققنا من أنه لا يرد أى اسم من أسماء الأعلام المذكورة فى المؤرخات الأسبانية الإسلامية المتعلقة بثورة عمر بن حفصون ، فإننا نصل إلى النتيجة بأن ببشتر ، أو البوستويرو - فلنسميها هكذا - كانت تقع شمال نهر ريو جوردو فى السلسلة الجبلية المسماة بسلسلة جبال (سييرا دل ريى) ، وبالقرب جداً من ضيعة آط .

ونأمل فى أن نطوف من جديد بأناة وصبر بهذه المنطقة ، فى محاولة للتحديد الدقيق لمكان القلعة المشهورة ، وفقًا لأوصاف الجغرافيين العرب ، وبصفة خاصة كتابات الحميرى الذى يقدم لنا بيانات أكثر دقة عن أسماء الأعلام الجغرافية ، ولكن سيكون علماء الآثار هم فى النهاية الذين يقررون القضية ، وإليهم نعهد بتأكيد نظريتنا .

الهوامش :

* مصدر البحث : مجلة الأندلس ، مجلة مدرستي الدراسات العربية بمدريد وغرناطة ، المجلد الثلاثون ، ١٩٦٥ ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، هيئة مينينديث اى بلايو ، معهد ميجيل آسين . (ص ١٣٩ - ١٦٩) حول ببشتر من جديد (بقلم : خواكين بالبيه) .

(١) نذكر هنا المراجع الأساسية عن عمر بن حفصون وببشتر :

خ (أ. كوندى ، تاريخ سيطرة العرب فى أسبانيا ، ١٨٢٠ - ١٨٢١ ، الجزء الأول ، ص ٢٩٤ وما يليها .

دوزى ، أبحاث حول تاريخ أسبانيا وأدبها ، الطبعة الثالثة ، ١٨٨١ ، الجزء الأول ، ص ١٩٠ وما يليها .

سيمونيه ، وصف مملكة غرناطة ، مدريد ، ١٨٦٠ ، ص ٨٤ - ٨٦ و ١٤٦ - ١٦١ - وتاريخ المستعربين فى أسبانيا ، مدريد ، ١٨٩٧ - ١٩٠٣ ، ص ١٥٢ وما يليها .

س . دى ميرخلينا ، ببشتر ، فى ذكرى الحفائر التى أجريت فى هضاب بيابيردى ، الشورو (مالقه) ، مدريد ، ١٩٢٧ - ليفى بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الإسلامية ، باريس ، ١٩٥٠ . الجزء الأول ، ص ٣٠٠ - ٣١٠ ، ٣٦٨ - ٣٨٠ والجزء الثانى ، ص ٦ - ٢٢ ، وعمر بن حفصون (الملحق أ - الأول والثالث ، ص ١٠٤٩ ، سيبولد ، ببشتر (الملحق أ، الأول - ص ٧٥٥) . - فى الطبعة الجديدة موسوعة الإسلام فى مقال ببشتر ، الجزء الأول ، ص ١٢٨٨ على القارىء مراجعة بربشترو ، الجزء الأول ، ١٠٧٢ بتوقيع دنلوب ولكن يتكلم فيه فقط عن بربشتر وبوشقه .

(٢) ميرخلينا ، المصدر السابق ، ص ٦ .

(٣) النباهى ، قاضى غرناطة فى القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى ، كتاب : المركبة العليا ، طبعة ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٨٢ .

(٤) حتى أواسط القرن الحادى عشر ، على الأقل ، كانت الحامه تابعة لكورة ريه ، وبعد ذلك تذكر تباعًا فى المصادر العربية تحت اسم حمه ريه أو حامة ريه أو الحامه .

(٥) حصن الورد احتله الثائر البربرى عبد الكريم بن إياس المعاصر لعمر بن حفصون سمى إقليمه ، ماجيلا وكان يتبع حينئذ كورة شيدونه . انظر العذرى ، ترصيع الأخبار (مقتطفات جغرافية تاريخية) ، طبعة الأهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ١١٣ ، ابن سعيد فى كتاب المغرب ، طبعة شوقى ضيف ، القاهرة ، ١٩٥٣ . الجزء الأول ، صفحة ٣١٣ ، يذكر قلعة الورد بوصفه إقليمًا تابعًا لمملكة أشبيلية ؛ حيث كانت قرية

ماجيلة أو موجيلا . يقول لنا ياقوت ، وفقًا لأغلبية المصادر العربية : إن قلعة الورد كانت تنتسب لإقليم ماجيلا أو موجيلا . انظر معجم البلدان ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥ ، الجزء الخامس ، صفحة ١٦٣ .

(٦) مونتى مايور الحالية توجد فى قمتها حتى الآن آثار قلعة قديمة . يشير ابن الخطيب فى السيرة الذاتية لأحمد بن أيوب اللمعى إلى أن هذا الشاعر المشهور ، ووزير ملوك بنى حمود بمالقه ، دفن فى عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٢-١٠٧٣) فى حصن الورد الذى يقع بجانب حصن منت مايور ؛ إذ إنه هو الذى شيده « (الإحاطة ، طبعة عنان ، ١٩٥٥ ، الجزء الأول ، صفحة ٢٤٣) . من هذا الخبر يستنتج أنهما كانتا قلعتين مختلفتين ، على الرغم من قربهما الشديد من بعضهما . وربما يشير الجغرافيون العرب إلى منت ميور عندما يقولون : إن إقليم حصن منت ميور بريه كان يوجد به سنبل برى من نوعية جيدة . انظر ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ، الدمشقى ، وصف الكون ، طبعة مهرن ، ص ٢٤٤ . فى ١١ يونيه ١٤٨٥م قام الملوك الكاثوليك بغزوها ، انظر : ف . هنريكيث دى خوركيرا ، حوليات غرناطة طبعة أ. مارتين أوثيثى، غرناطة ، ١٩٣٤، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٧) يجمع ابن الآبار فى كتابه « تكملة » السيرة الذاتية لشخصيتين من مربله أو على الأقل أقاما فيها. عن الأول ، يقول : إنه درس فى مربله أعمال الخضراء - مربله ، محافظة الجزيرة - فى عام ٥٥٠ هـ (١١٥٥م) . والثانى : شخصية عاشت بعد ذلك بعشرين عامًا فى مربله ، من أعمال مالقه (مربله - محافظة مالقه) . انظر طبعة القاهرة ، ١٩٥٥ - ١٩٥٦ ، الجزء الثانى رقم ، ١٣٣٦ ، ص ٤٨٥ ، ورقم ١٤١٠ ، ص ٥١٦ . وعن الحدود بين الجزيرة ومالقه ، كان يتم المرور ، على وجه التحديد ، عبر نهاية طرف مرباله وفقًا لما أورده النباهى ؛ إذ يتضح اللبس عند ابن الآبار ، الذى كان من منطقة الشرق .

(٨) شيده الأمير عبد الله . انظر أخبار عبد الرحمن الثالث الناصر ، طبعة وترجمة ليفى بروفنسال وأميليو جارثيا جوميث ، مدريد ، غرناطة ، ١٩٥ ، ص ١٢٨ ، ملحوظة رقم ٢ .

(٩) فى الرانيسول ، فى منتصف شهر صفر عام ٥٢٠ هـ (١٢ مارس ١١٢٦م) وقعت معركة حاسمة بين ألفونسو الأول المحارب ، والمسلمين ، وذلك أثناء حملته المشهورة عبر الأندلس . وقد حرك هذا الانتصار المسيحى الفقيه العلامة المشهور : أبو الوليد بن رشد ، للسفر إلى مراكش ، ليطلب من السلطان المرابطى على بن يوسف ، إبعاد المستعربين بالتعاون مع ملك أرغون . انظر : النباهى ، المصدر السابق ، ص ٩٩ ، وابن الخطيب الإحاطة ، الطبعة المذكورة ، الجزء الأول ، ص ١١٧ ، والحلل الموشية ، ترجمة هويسى ، تطوان، ١٩٥٢ ، الصفحة ١١٣ ، ومحمود مكى ، وثائق غير منشورة من عصر المرابطين ، مطبوعات المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، الأجزاء ٧ - ٨ ، صفحات ١٢٣ - ١٢٦ .

(١٠) الخونوس لأخبار خوان الثاني ، عندما قام الأمير دون فرناندو دى أرغون بحملة أنتيكيرا ، عسكر هناك فى يوم ٢٣ أبريل ١٤١٠م . انظر : فرانسيسكو لوبيث استرادا ، الاستيلاء على أنتقيره ، أنتقيره ، ١٩٦٤ ، ص ٦٥ . تقع على ضفاف نهر شنيل ، وتتبع قطاع إسطبه ، شمال غرب معبر شنيل . الخريطة القومية للمعهد الجغرافى ، ص ٩٨٧ ، سجل قلعة الخونوس ، ضياع الخونوس ، وضيعة الخونيلا .

(١١) لا يمكننا التأكيد عما إذا كان اسم موررور بموررون دى لا فرونتيرا بمحافظة أشبيلية ، أو يختص بحصن موررور بمحافظة مالقه ، والذى قد يختص بقرية موررون على بعد خمسة كيلو مترات من كوين ، والمسجلة فى فهرس أسبانيا ، مدريد ، المعهد الجغرافى ١٩٠٤ . ص ٢٨ . والجبل موررون بمالقه حمل إليه الحاجب رضوان (توفى فى ٧٦٠ هـ - ١٣٥٩م) مياه جارية ، والذى كرس نفسه لبناء ، وإعادة بناء أكثر من ٤٠ برجًا ، للدفاع من جهة بيرا دى المريه ، حتى الطرف الغربى لمملكة غرناطة ، انظر الإحاطة ، الجزء الأول ، ص ٥١٧ . وفى الامتياز الذى منحه الملوك الكاثوليك لمالقه ، والمؤرخ فى مرسيه يوم ٦ يونيه ١٤٨٨ ، والمؤكد فى غرناطة فى ٢٥ يونيه ١٥٠١م أصبحت قرى طرش وموررور ومنده ووارة وغيرها تحت اختصاص مدينة مالقه ، انظر : مذكرات مضبوطة ... لقرية كولينار ... مع ماركيز دى ميراندا دى آط ، مدريد ١٧٨٢، أقسام ٢٤٤ وما يليها .

(١٢) انظر : ابن الخطيب ، اللمحة البدرية فى الدولة الناصرية ، طبعة القاهرة ، ١٣٧٤، ص ١٨ - ١٩ . والعذرى ، المصدر المذكور ، ص ٩٠ - ٩٣ .

(١٣) لقرية حصن آشر تنتمى أماكن روتى ، وثامبرا (الزمرة) « التى كانت أرض وقضاء القرية المذكورة » ، وذلك حسب امتياز أنريكى الرابع ، المؤرخ فى ٢٣ أكتوبر ١٤٦٦ . انظر : سلفادور دى موشو ، الاقطاعيات (حول مشكلة لدراسة النظام الإقطاعى) فى أسبانيا ، ٩٥ (١٩٦٤) ، صفحات ٤٠٨ - ٤١٠ . وبالنسبة لحدود لوشه مع حصن آشر فى العصر الإسلامى ، انظر : تقسيم لوشه ، المؤرخ فى مايو ١٤٨٦ ، مخطوطة المكتبة الوطنية بمدريد ، رقم ٧٤٤ ، الفصل ٢٨ ومايليه .

(١٤) انظر ليڤى بروڤنسال ، « وصف أسبانيا » للرازى ، الأندلس (١٩٥٣) ص ٩٨ - ٩٩ .

(١٥) انظر : النباهى ، المصدر المذكور ص ٨٢ ، حيث يذكر ابن عسكر ، المؤلف المالقى بالقرب الثالث عشر لـ « تاريخ مالقه » ، الصادر حديثًا فى المغرب ، ابن سعيد ، المغرب ، الجزء الأول ، صفحة ٤٢٣ ، يقول : « ريه بين المسيحيين هى سلطانة ، ومن ثم فهى سلطانة كل الشعوب » . وربما تكون ريه هى ترجمة رومانية للكلمة الفينيقية مالاكا ، والمقرى فى نفح الطيب ، طبعة القاهرة ١٩٤٩ ، الجزء الثانى ، صفحة ١٦٠ حيث يأخذ شعراً ارتجله ابن زمرك (توفى ٧٩٠ / ١٣٨٨) حينا كان برفقة ملك غرناطة ، عند عبور

فحص ريه تجاه مالقه . ويأخذ ابن سعيد عدة أشعار تصف مالقه ، ولمتطلبات القافية يجب قراءة رايا ، المصدر المذكور ، صفحات ٤٢٣ - ٤٢٤ .

(١٦) ابن عذارى ، البيان ، طبعة كولين ، ليڤى بروڤنسال ، الجزء الثانى ، صفحات ١٠٣ - ١٠٤ . والجزء الخاص بمملكة محمد الأول من المقتبس لابن حيان ، حيث أعد طبعتها الدكتور محمود مكى ، ليس كاملاً ، وقد قطع عام ٢٦٥ هـ (سبتمبر ٨٧٨ م - أغسطس ٨٧٩م) عندما تظهر البوادر الأولى للثورة والتمرد .

(١٧) ابن الخطيب ، الإحاطة ، مخطوطة ١٦٧٣ بالأسكوريال ، الصفحات ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(١٨) نقرأ فى المخطوط المذكور : محياش أو مجياش ، سيمونيه قرأ ميجاش وتحقق منها ب «ميجاس» ، ولكن هذه القرية ظهرت مكتوبة باسم ميش . انظر ليڤى بروڤنسال ، « مذكرات » ملك زويد عبد الله ، ملحق الأندلس ، العدد الرابع (١٩٣٦ - ١٩٣٩) صفحة ٦٣ ، مذكرة رقم ٦٥ .

(١٩) ضد بنى رفاعة ، ثوار الجبال فى رايه أو مالقه ، خرج محمد بن أمية بن شهيد فى مناسبتين خلال عامى ٢٦٩ - ٢٧٠ (٨٨٢ - ٨٨٤) . انظر ابن عذارى ، البيان ، الجزء الثانى ، صفحة ١٠٥ .

(٢٠) ابن حزم القرطبى فى كتابه الجمهرة ، طبعة ليڤى بروڤنسال ، القاهرة ،١٩٤٨، صفحة ٤٦٦ ، أخذ هذا الحدث ، ويقول : إن يحيى بن خريص بلقونه ، هو الذى جرح عمر بن حفصون ، وأصاب يده اليمنى بعجز، انظر : مفاخر البربر ، طبعة ليڤى بروڤنسال ، الرباط ، ١٩٣٤ ، صفحات ٧٨ - ٧٩ .

(٢١) تعرض المصادر العربية تاريخين لتتويج أو بيعة الأمير المنذر ، ولكن كلا التاريخين يمكن قبولهما ؛ لأنهما يشيران إلى الحفلات التى عقدت فى معسكر الحامه ، وفى قرطبة ، انظر : البيان ، الجزء الثانى ، صفحات ١٠٦ و ١٢٠ ، وابن الخطيب ، كتاب الأعمال ، طبعة ليڤى بروڤنسال ، بيروت ١٠٥٦ ، ص ٢٤ ، وابن الآبار ، الحلة السيراء ، طبعة حسين مؤنس ، القاهرة ، الجزء الأول ، صفحة ١٣٨ . وانظر : ليڤى بروڤنسال ، تاريخ .... ، الجزء الأول ، الصفحة ٣٠٦ .

(٢٢) انظر : البيان ، الجزء الثانى ، صفحات ١١٦ - ١١٧ . فى كلتا المناسبتين يرد نفس خط السير ببشتر أو بربشترو ، وأرشذونه .

(٢٣) فحص قماره ، يقع بين قصر برميخو ، وكولمينار ، وفحص قماره بالمصادر العربية ، هو : بلد الفلال . انظر : ليڤى بروڤنسال ، « مذكرات زويد عبد الله » ، الأندلس ، العدد الرابع ، (١٩٣٦) ، صفحة ٦٣ ، وأميليو جارثيا جوميث « المقارنة بين مالقه وسالبه » لابن الخطيب ، الأندلس ، العدد الثانى

(١٩٣٤) ، ص ١٨٩ . ففى عام ١٥٥٩ كان خوان راموس جارا لفحص قماره ، وساكنًا ضيعة رينجليس غرب كولمينار ، التى تنتمى الآن إلى طرف هذه المدينة . انظر : « مذكرات مضبوطة .... ، الصفحة ١٠٢ . وعلى الرغم من وجود آثار لبناء قديم فى ربْوة القائد ، وبرج قريب من قصر برميخا ، الذى يسمى الآن باسم برج الزمره ، ونشك فى أن حصن قماره حيث كان عمر بن حفصون محاصراً ، ربما كان يشغل المكان الحالى لقرية كولمينار ، الواقعة فى مفترق الطرق المؤدية إلى مالقه ، انتقيره ، ولوشه ، وبيليث مالقه .

(٢٤) البيان الجزء الثانى ، صفحات ١١٧ - ١١٨ .

(٢٥) المصدر السابق ، صفحات ١١٨ - ١١٩ . ابن حيان ، المقتبس ، طبعة م . أنطونيا ، باريس ، ١٩٣٧ ، صفحة ٤١ .

(٢٦) المقتبس ، صفحات ١ - ٤ .

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٥٠ . البيان ، الجزء الثانى ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢٨) المقتبس ، صفحات ٥١ وما يليها .

(٢٩) المصدر السابق ، صفحات ٨٩ - ٩٢ ، البيان ، الجزء الثانى ، صفحات ١٢٣ - ١٢٤ . وانظر ليڤى بروڤنسال ، تاريخ .... ، الجزء الأول ، صفحات ٣٧٤ . ومادوث فى معجمه الجغرافى ، مقال إسطبه ، الجزء السابع ، صفحة ٦٠٧ ؛ يذكر ميدان « الذين يسمون بلاى » . فى المقال الخاص بأجيلار ، الجزء الأول ، صفحات ١٤٣ - ١٤٤ ، ويقول : إن سان فرناندو فتحها فى عام ١٢٤٠ تحت اسم بولى ؛ إذ إنه فى عام ١٢٥٧ استبدل جونثاليث يانييث حاكم القرية المذكورة باسمها اسم أجيلار .

(٣٠) المقتبس ، صفحة ٩٣ وما يليها ، ابن الآبار ، الحلة ، الطبعة المذكورة الجزء الأول ، صفحات ١٤٦ - ١٤٧ .

(٣١) فى المقتبس ،. ص ١٠٨ - ١٠٩ ، نقرأ « العرمات » وفى المخطوط المعروف ، بالإحاطة ، ص ١٨٢ ، ترد « اللونات » التى قد تختص بالشكل الصحيح لاسم « الفرنات » . وعن الفرنات ، انظر : أوليفر آسين ، الفرنات الأسبانية العربية « طواحين الدقيق » فى أسماء أعلام شبه الجزيرة ، الأندلس ، العدد الثالث والعشرين (١٩٥٨) ، صفحات ٤٥٦ - ٤٥٩ . وهذه « المنية » يمكن أن تختص بشاقر (البستان المقدس) ، بالقرب من الفرنتيخو ، التى احتفظت باسمها الأصلى . وفى تقسيم قمارش - الذى سنتكلم عنه بعد ذلك - يرد ذكر جبال الكنيسة التى تصل حتى النهر المعروف حاليًا بنهر دى لا كويبا . ونحن نشك فى أن « المناصة » هى النقل الصوتى غير السليم لكلمة « الكنيسة » .

(٣٢) المقتبس ، ص ١٢٨ ، البيان ، الجزء الثانى ، ص ١٣٩ .

(٣٣) إذا كان شكل الكتابة صحيحًا ، فإنه يختص بالنهر الذى يمر عبر وادى أبدلاخيس ؛ إذ إنه فى هذه المدينة كانت تقع نشقانية ، التى يحتفظ فيها ببعض النقوش . وكذلك يمكننا قراءة « قنبانية » ، وفى هذه الحالة تتعلق بنهر كمبانياس . وفى أخبار انريكى الرابع يذكر بنفس هذا الاسم .

(٣٤) المقتبس ، ص ١٤٠ - ١٤١ ، والبيان ، الجزء الثانى ، ص ١٤٠ - ١٤١ . ويبدو لنا أن حصن خشين ، الذى يرد فى مرات أخرى تحت رواية حصن أو حوش الخشين . ويمكن التحقق من الاسم الحالى : الفاخان ، الذى كان حتى ذلك الوقت قلعة فى القرن الخامس عشر . أما طلجيره فيجب أن تكون واقعة فى الأثوريس ، وأن وادى طلجيره فى المصادر العربية هو وادى الخرس ، أما الريول فيمكن أن يختص بالاسم الحالى : ميناء الشمس .

(٣٥) ربما يكون منت شيت أو منت شنت ، حيث يبدأ نهر بارباتى حسب رواية العذرى ، المصدر المذكور ، ص ١١٨ ، بجوار قلعة بنى غزول ، ونجد فى خريطة ١٠٦٣ بالمعهد الجغرافى ميناء منت شنت ، فى كتاب الصيد للملك الفونسو الحادى عشر ، طبعة خوسيه جوتيريث دى لابيجا ، مدريد ، ١٨٧٧ ، الجزء الثانى ، ص ٣٨٦ ، ويظهر سلسلة جبال منت شنت فى نفس المنطقة ، ومن الممكن جداً ، إذن ، أن تكون منت شنت فى القرن العاشر هى النواة الأصلية لقلعة بنى غزول .

(٣٦) حصن لورا أو اللوزة ، الذى يبعد بمسافة يوم من الجزيرة ، لا يمكن الخلط بينه وبين لوره ، كما يقول سيمونيه ، وذلك لبعده ، وأنه كان يجب أن يكون موقعه فى وادى آرو ، ومن المحتمل جداً أن يسمى حصن لاره أو قلعة آرو أو جوادیارو .

(٣٧) فى القصر ، إقليم الجزيرة ، توفى فى عام ٣٢٢هـ/٩٣٣م يوسف بن الخطار ، حسب رواية ابن الفرضى ، تاريخ ... ، طبعة القاهرة ، الجزء الثانى ، صفحات ٢٠٣ - ٢٠٤ . وفى رواية العذرى ، ص ١٢٠ ، لا يظهر هذا الإقليم ، ولكن يمكن التحقق منه باسم آره ، كما يشير بذلك . ولهذا القصر نفسه الذى يجب الإشارة إليه بالقلعة المذكورة ، فى حملة عبد الرحمن الثالث ، عام ٣٢١ هـ (ربيع عام ٩١٤م) بوصفه مكانًا قريبًا من الجزيرة - التى سنتكلم عنها فيما بعد - ومن المحتمل جداً أن يكون قصر آروه أو قلعة آرو المكان الحالى لقلعة لافرونتيرا ، وسواء أكان الحصن أم القصر ؟ فإنه ترجمة بسيطة للقلعة ، وإنه يجب أن يكون معروفًا بهذا الاسم ؛ إذ إن ابن سعيد يطلق عليها « قسْطله » ، انظر المغرب ، الجزء الأول ، ص ٣٢٨.

(٣٨) مذكور برواية الإدريسى ، بوصفه مكانًا قريبًا من جبل طارق . انظر : طبعة وترجمة دوزى وجوخى ص ١٧٧ من النص و٢١٣ من الترجمة .

(٣٩) المصدر - الأخبار المجهولة ، ص ١٣٥ ، مذكرة ٩٦ ، والبيان ، الجزء الثانى ، ص ١٨٠ . وهذان المصدران يشيران إلى بناء ، أو إعادة بناء حصن قشتروه زكوان ، فى عام ٣٠٨هـ (٩٢٠ - ٩٢١م) . أما رواية البيان فإنها هى الأكثر قبولاً ؛ إذ إنْ كوين كانت موجودة على الأقل قبل ذلك بأربعة عشر عامًا وفقًا لما يثبته المقتبس .

(٤٠) وفقًا للمعجم الجغرافى لمادوث ، وفى مقالة وادى الخرس ، فإن النهر المذكور يمكن أن يعبر فى ثلاثة أماكن ، باستثناء فصل الشتاء : فى « اللورة » ، وفى معبر أومادا ، وعبر قصر البنيره ، وثالث عبر قرطبة.

(٤١) من الواضح أن هناك تحريفًا أو خلطًا فى النص ، عندما يشير المؤرخ إلى أن الجيش كان قريبًا من المرية فى ١٥ يوليه ، وأنه من هذا المكان اتجه إلى ببشتر ، ليقوم بالحصار لمدة ثلاثة أيام ، ولمواصلة مسيرته عبر فينيانا ، ووادى آش ، إلخ ، انظر المقتبس ، ص ١٢٠ - ١٢٢ ، ص ١٤٢ ، والبيان ، الجزء الثانى ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٤٢) تم التحقق منها عدة مرات فى المصادر العربية تحت اسم ايطاها ، ابن بشكول ، الصلة ، طبعة القاهرة ١٩٥٥ ، الجزء ٤١٣ ، رقم ٩٣٤ بأخذ سيرة ذاتية لأحد الزهاد المولود فى عام ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ - ١٠٠٣م ، فى ايطاها بمحافظة تاكرنا ، الأمر الذى يثبت أنها لم تتبع محافظة ريه .

(٤٣) قلعة كورة البيره التى كان موقعها غرب لوشه ، وجنوب ساجنا (فوارات « فوينتيس » سيسنا) انظر العذرى ، ص ٩٣ .

(٤٤) فى طرف كويباس دى سان ماركوس ، بالقرب من حصن آشر ، انظر : توريس بالبيس ، انتقيره الإسلامية ، مجلة الأندلس ، العدد ١٦ (١٩٥١) ، ص ٤٣٣ ، مذكرة ١ .

(٤٥) من المحتمل جداً أن هذه القلعة تشغل المكان الحالى : طرش .

(٤٦) كل أسماء الأعلام هذه كانت واقعة فى حوض وادى آروه ، والتحقق منها ليس مؤكداً ، ومع هذا يبدو لنا أن الأول من هذه الأسماء شنار أو شينار ، فى نطقة العامى ، يمكن أن يعطينا لفظة : خينار أو خينال، وهو نهر يصب فى الجواديارو وادى آرَه ، الفج الوسيم ، ويمكن أن يكون حاليًا جواسين الذى يقع بين نهر خينال ووادى آره ، فى سفح سلسلة جبال هاتشو ، وعلى حافة فج عميق ، كما يقول بذلك مادوث ، وعن قلمبرية لم نجد أية إشارة يمكن أن تساعدنا على التحقق منها ، على الرغم من وجود وادى آره يشجعنا على ذكرها . انظر خريطة رقم ١٠٧٠ بالمعهد الجغرافى الأسبانى . وفيما يتعلق بالاسم المذكور ، القصر ، ارجع إلى الحاشية رقم (٣٧) .

(٤٧) ليفى بروفنسال ، تاريخ .... ، الجزء الأول ، ص ٢٨٩ ، مذكرة ١ . ومازالت حتى الآن (خشين) وقرية لوس باريوس ، وسييرا دى أوخين ، فى محافظة قادش ، بالإضافة إلى نهر وقرية بنفس الاسم ، فى محافظة مالقه .

(٤٨) الأخبار ... ، ص ٦٦ من النص و ص ١٣٦ - ١٣٧ من الترجمة ، البيان ، الجزء الثانى ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٤٩) انظر : كتاب الاستبصار ، طبعة سعد زغلول ، الأسكندرية ، ١٩٥٨ ، ص ١١٥ .

(٥٠) فى نهاية كولمينار تقع ربوة لاكاديرا فى جنوب غرب سلسلة جبال الريى .

(٥١) حصن تجريش الذى لايمكن الخلط بينه وبين هذا الأخير ، يرد فى قائمة قلاع إقليم رنده - الجزيرة الذى أعاده السلطان أبو يوسف لملك غرناطة ، فى عام ٦٩٢هـ (تاريخ غير مؤكد ١٢ ديسمبر ١٢٩٢م) . انظر روض القرطاس ، طبعة تورنبرج ، الجزء الأول ، ص ٢٦٥ .

(٥٢) فى ابن خلدون يظهر شكل أكثر حداثة أوليه ، ويختص دون شك بالاسم الحالى « أولياس » بالقرب من شنت بيطر . انظر كتاب الأبّار ، طبعة القاهرة ، الجزء الرابع ، ص ١٣٤ .

(٥٣) مرسى الشط هذا يجب أن يكون فى شرم هيرا دورا بين ربوة جوردو ، وطرف لامونا ؛ حيث نهر (الشط) ، أن التشابه فى الأسماء يفسر بأن الخلط وقع مع نهر الشط الواقع شمال المنكب . انظر : الإدريسى ، المصدر المذكور ، ص ١٩٩ من النص وص ٢٤٣ من الترجمة الذى يشير إلى أنه يواصل شاطىء البحر على طوال ١٢ ميل من قرية طورش (طرش) .

(٥٤) انظر ابن عذارى ، البيان ، الجزء الثانى ، ص ١٨٣ - ١٨٤ ، الأخبار ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٥٥) إقليم ريه بجوار فحص قرطمة ، ونهر هذا الإقليم يسمى وادى لاميه ، حسب الحميرى ، الروض المعطار ، طبعة ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٧٠ .

(٥٦) البيان ، الجزء الثانى ، ص ١٩٣ - ١٩٤ ، الأخبار .... ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٥٧) البيان ، ص ١٩٦ ، يضع بوماريش بدلاً من قمارش .

(٥٨) مهجور فى الجانب الغربى من قمارش وجنوب قصر برميخا ، انظر : خريطة رقم ١٠٣٩ بالمعهد الجغرافى . جوطرّون وريانه (الملكة - ربينا ، المنحدر الحالى دى لاربينا) القلعتان اللتان كانتا تدافعان عن مالقه ، فى القرن الحادى عشر . انظر : ليفى بروفنسال فى « مذكرات الملك زريد عبد الله » ، ملحق الأندلس، العدد الرابع ، ١٩٣٦ ، ص ٢١ .

(٥٩) البيان ، الجزء الثانى ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٦٠) المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

(٦١) على الرغم من أن اسم هذا النهر يظهر فى المصادر العربية تحت عدة أشكال ، إلا أن القراءة الصحيحة هى : آره . فابن الخطيب يقول : إن وادى يارو من أحواز مربلة (وادى آره من طرف مربلة) . انظر : أعمال .... ، ص ١١٥ .

(٦٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٦٣) الحميدى ، جذوه المقتبس ، طبعة القاهرة ، ص ٣٠ ، المراكشى ، المجيب ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٦٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، طبعة القاهرة ، الجزء التاسع ، ص ١١٦ ؛ إذ يحذو حرفيًا حذو رواية المراكشى ، ولكنه يقول فقط : إن إدريس الأول توفى فى قلعة كان قد شيدها ، ابن خلدون ، العبر ، الجزء الرابع ، ص ١٥٤ .

(٦٤) البيان ، الجزء الثالث ، ص ٢١٧ ، ابن الخطيب ، كتاب أعمال ، ص ١٤١ ، يشير إلى شعبان (فبراير ١٠٤٧م) .

(٦٥) ابن خلدون ، العبر ، الجزء الرابع ، ص ١٥٥ ، والمقرى ، نفح الطيب ، الجزء الأول ، ص ٤١٠ ، النباهى ، المرقبة ، ص ٩١ ، يؤكد لنا الحكم الثانى لإدريس الثانى عندما يأخذ محضر تعيين القاضى لصالح أحد أسلافه ، والمحضر مؤرخ فى مالقه فى ١١ ربيع الأول سنة ٤٥٥ هـ (يوليه ١٠٥٣م) .

(٦٦) ابن خلدون ، تاريخ البربر ، ترجمة سلان ، ١٩٢٧ ، الجزء الثانى ، ص ١٨٦ . وتورريس بالباس مدن قاحلة فى أسبانيا الإسلامية ، مكتبة المجمع الملكى للتاريخ ، العدد ١٤١ ، كراسة ١ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٦٧) المغرب ، الجزء الأول ، ص ٥٣ .

(٦٨) أعمال ، ص ٢٩٠ .

(٦٩) معيار الاختبار ، ملحق مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، طبعة مختار العبادى ، الأسكندرية ، ١٩٥٨ ، ص ٧٩ . الفقرة الأخيرة تقول حرفيًا : « قطعت ضدها فى المواقف الصعبة الجعب الصفراء » .

(٧٠) تاريخ مسلمى أسبانيا ، الجزء الأول ، ص ١٩٠ . مصدر أبحاث ، ص ٣٢ وما يليها من الطبعة المذكورة .

(٧١) مذكرات ... القضية ... التى يتابع فيها .... قرية كولمينار . مع السيد فرانسيسكو لاسو دى لابيجا ، دوق أركو ، كونت بويرتو يانو ، ماركيز ميراندا دى آط ، صاحب القرية المذكورة ... (بدون حدود)

(١٢ نوفمبر ١٧٨٢) ، ٢٤٠٠ صفحة مطبوعة ، صديقنا العزيز السيد خوان رثيو دى كولمينار يبلغنا أن دوقة فرنان نونييث وماركيزات دى أوطه قد باعوا آخر ممتلكاتهم منذ سنوات كثيرة .

(٧٢) الشاب والمتحمس رفائيل موراليس الذى يعد دراسة تاريخية عن نهر جوردو وضع تحت أيدينا وثائق هامة ومشوقة تتعلق بنهر ريو جوردو ومنطقته ، وأبلغنا أنه قبل أن يتم تأسيس قرية ريو جوردو فى القرن السادس عشر كان يسمى مكانها أبريسكو دى ماخياثا .

(٧٣) مخطوطة معهد دييجو دى بلاثيكيث ، المجلد الثانى ، ص ١٠٢ ومايليها .

(٧٤) المصدر المذكور ، الجزء الثانى ، ص ١٠٦ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، وفى المجلد الثالث تظهر من جديد هذه الرواية عند الحديث عن إدريس الثانى .

(٧٥) المصدر السابق ، الجزء الثانى ، ص ١٤٠ . فى حياة القديسة أرجنتيا ابنة عمر بن حفصون ، تقرأ مدينة بيبستر سيس ، ملحق إميليو فلوريس ، أسبانيا المقدسة ، الجزء العاشر ، ص ٥٦٤ - ٥٧٠ .

(٧٦) المصدر المذكور ، ص ١٠ .

(٧٧) الطبعة المذكورة ، ص ١٧٤ من النص وص ٢٠٩ من الترجمة ، وتظهر إضافة « حيث يقطن المسيحيون » انظر : سيمونيه ، وصف غرناطة ص ١٢٧ .

(٧٨) الإحاطة ، مخطوطة الأسكوريال ، ص ٢٨٤ .

(٧٩) من السهل إعادة تركيب اسم العلم الأصلى : وادى الوجار ، أو (نهر دى لاكويبا) . انظر : آسين بلاثيوس ، مساهمة فى أسماء الأعلام العربية فى أسبانيا ، مقال ، جواخر ، ص ١١١ ، الذى يفسره كـ «منحدر» ، « فج » ، على الرغم من أنه يعنى أيضًا « كهف » ، « جحر » .

(٨٠) نأمل أن ننشر فى المستقبل مقالاً حول هذا الموضوع ، حيث وجدنا أسماء أعلام أخرى تحت روايات غير صحيحة ، مثل التى يمكن أن يكون مصدرها من الأصل الذى لايشير بشىء إلى المسيحيين الأندلسين ، فى القرن السادس عشر . انظر ، على سبيل المثال : أنخيل طابيا ، وبيليث بلانكو : قرية فاخاردو الإقطاعية، مدريد ، ١٩٥٩ ، ص ١٥٦ و ١٦٥ . واعتقد أيضًا أن يكون هناك أصلاً مشتركًا بين بيشتر أو بستويرو ، مع أسماء الأعلام والأماكن بشتاريس ، وبشتريبيخو ، وبشترجا ، وغيرها .

(٨١) كتاب : صراط الأرض ، الطبعة الثانية ، ليدى ، ١٩٣٨، ص ١١٠ - ١١ .



(٥)

كيف كانت حقيقة سقوط غرناطة ؟
(فى ضوء وثيقة غير منشورة)

(بقلم : ماريا دل كارمن بيسكادور دل أويو)

كان للمصادفة وحدها أن تقع فى يدى وثيقة ، مجهولة وغير منشورة حتى الآن . تلك الوثيقة التى وضعتنى على أول الطريق للتحقق الكامل من كيفية تسليم قلعة غرناطة للملوك الكاثوليك . وكانت المصادفة أن أقوم بترتيب مجموعة من الأوراق بقسم الإكليروس للسجلات القومية التاريخية ، والواردة من محافظة بلد الوليد [١]، فكان الحظ حليفى حين وجدت هذه الوثيقة التى اعتقد أنها ذات أهمية خاصة ، لكشف الغمة عن هذه المسألة التى أشير إليها .

وهذه الوثيقة عبارة عن أصل رسالة موقعة من شخصية ما ، تدعى : ثيفوينتيس ، وموجهة إلى السيد ألونسو دى فالديفييسو ، أسقف ليون ، ورئيس المحكمة العليا لبلد الوليد ، ومؤرخة فى ريال دى لابيجا ، فى يناير ، ويقص فيها ، بصفته شاهد عيان ، كيف وصل إلى المخيم - يوم الأحد من العام الجديد - الرهائن الذين أثاروا لحظة إخراجهم فضيحة بين أهل غرناطة بشأن تسليم الحمراء ، وكيف أن الملك العربى « أخبر سادتنا : الملك والملكة ، واتفق على أن يرسلا إليه سراً هذه الليلة شخصًا لاستلامها » ؛ لأنه حين يرى العرب أنهما كانا قد استوليا عليها سيخفضون رؤوسهم ، ولن يكون هناك بد من زيادة الفضيحة والعار ؛ « إذ رأوهم يدخلون جهاراً نهاراً » ... وتؤكد الرواية « ... وفى الساعة المحددة ، أرسل أصحاب السمو لقائد ليون الأكبر أن يذهب هذه الليلة للاستيلاء عليها » .

وبمراجعة كل المصادر التى فى متناول يدى يتأكد الانطباع الأول عن الحديث عن شىء جديد، وأن حقيقة كيفية تسليم حمراء غرناطة لم تكن معروفة حتى الآن [٢]. وأن كل التناقضات وكل الأمور غير المعقولة التى يمكن ملاحظتها ، فضلاً عن قلة الاهتمام الذى يولى لروايات المؤرخين والكتاب القدامى والمحدثين ، ترد مشروحة تمامًا بفضل هذه الرسالة . ويعد هذا بالطبع بمثابة القيمة والأهمية التى تمثلها هذه الرسالة : ولأنها رواية خاصة ، ليست موجهة للجمهور ، فليس من الضرورى أن تتفق والحقيقة الرسمية . والإشارة إلى الحقيقة الأصلية ، أو بمعنى أنها تمثل ما وراء الاحتفال المعد ، الذى يجعل من تسلم المدينة حدثًا مهيبًا؛ إذ كان تسليمًا سريًا ، وبموجبه كان مؤكداً أن هذا الحدث المشهود لم يفقد رونقه وبهاءه بسبب تلك الذكرى المحزنة والمفجعة .

وهكذا يمكن القول بأن بهذه الطريقة كان هناك اتفاقيتان : إحداهما سرية ، والأخرى رسمية جهرية ، وأيضًا كانت هناك عمليتان لتسليم القلعة : إحداهما سرية ، والأخرى رسمية .

وهنا نورد نص الرسالة :

« صاحب السعادة الموقر : لأننى أعرف أن صاحب السعادة سيسعده معرفة النهاية العظيمة التى أرادها فيما يختص بغرناطة ، مع الرغبة التى أريد أن أبديها لسيادته ، لقد جاء فى يوم الأحد من العام الجديد إلى المخيم عدد من الرهائن ، الذين يبلغ عددهم ما يقرب من ستمائة عربى ... » .

وإذا عقدنا مقارنة بين هذه الرواية الجديدة ، والروايات الأخرى المنشورة والمعروفة حتى اليوم ، سنرى أن هذه الرواية ليست الوثيقة الوحيدة المؤكدة ، التى يشار فيها إلى هذا الحدث الحقيقى ، ولكن المصادفة التى جمعت بين مرحلتين رسميتين بشأن سقوط غرناطة ، الأولى العسكرية لسقوط الحمراء وقلعتها فى اليوم الثانى من يناير ، والمرحلة الثانية نحو سقوط المدينة ذاتها ، وذلك بدخول الملوك وحاشيتهم يوم السادس من نفس الشهر ، كانت سببًا فى أن المرات القليلة التى وجدت فيها إشارات فى الوثائق سابقة على عملية الدخول الأولى جعلت المؤرخين ، دون أدنى شك ، يعتقدون أن العملية عبارة عن مرحلة السقوط المعروفة فى اليوم الأول للثانى من يناير [٣].

وأمام هذا الخطأ أسهم الموقف فى أن الروايات الخاصة ، التى كانت معروفة ، كانت مأخوذة فى الحسبان من جانب الباحثين ، الذين تمسكوا بالأخبار بوصفها المصدر الوحيد الموثوق به ، وأن هذه الأخبار الرسمية لم يكن فى إمكانها إنشاء حقيقة الموقف ، لنفس السبب : لكونه سراً بين البلاطين المسيحى والعربى .

ويوجد فقط اثنان من المؤرخين المعاصرين - لم يكونا لظروفهما الخاصة ، خاضعين للأحوال التى يجب أن يخضع لها مؤرخو البلاط - يقدمان لنا شهادتيهما فى الأعمال التى يكتبونها بصراحة ، وبغير عبارات مبهمة . وهذا المؤرخان ، هما : هيرناندو دى بائيثا ، مؤرخ البلاط الملكى العربى ، الذى يلزم الصمت ؛ بحذف التفاصيل والأسماء ، حين يرى مليكه ذلك فقط(٤)، والإيطالى : مارينيو سيكولو - ونظراً لطبيعته الأجنبية ، وللسنوات التى مرت منذ بداية الأحداث حتى نشر كتابه - فإنه يعد المؤرخ الوحيد ، من الجانب المسيحى ، الذى يأخذ روايته عن هيرناندو دى بائيثا ؛ حيث يروى عملية الدخول الأولى بكل وضوح ، على الرغم من سلوك نفس سلوك المؤرخ الأول ؛ بحذف التفاصيل والأسماء .

ونظراً للظروف التى عرضناها ، فإن عديداً من المؤرخين والدارسين قاموا بدراسة هذا الموضوع ، مع محاولة توفيق الأقوال المتعارضة والمتتالية التى لوحظت فى الروايات والأخبار ، دون الوصول إلى الإدراك بأنهم كانوا يحاولون دمج حدثين مختلفين ومتتالين فى حدث واحد : الدخول السرى والدخول الرسمى . وعلينا أن نثبت ذلك .

المصادر الوثائقية :

بالمراجعة الدقيقة للمصادر المعروفة حتى اليوم ، وبالنظر إلى الجديد الذى تقدمه رواية ثيفوينتيس ، يمكن لنا أن نشكل من بينها بوضوح مجموعتين :

(أ) الذين يعرفون وينقلون أخبار الدخول .

(ب) الذين لزموا الصمت أو يجهلون هذا الحدث الهام ، ويرون الدخول الرسمى والشعبى واحداً ، سواء أكان بمفرده أو مسبوقًا ببعض البيانات الخاصة بالدخول الأولى الذى يجهلون مغزاه ، وسواء أكانوا يقدمون لنا سرداً للدخول الثانى يتضمن بيانات ومعلومات وفيرة عن الدخول الأول .

المجموعة (أ) :

وثيقة رقم ١ :

رسالة برناردو دل روى ، شاهد عيان ، إلى صاحب فينيسيا ، يقص عليه الأحداث . غرناطة فى يناير ١٤٩٢ . والأصل مكتوب باللغة الإيطالية ، ومحفوظ فى مكتبة سان مارك بفينيسيا ، مخطوطة ٢٦٣ ، صفحات ٣٤ - ٣٥ (٥). ونشرت ترجمتها للغة الأسبانية على أيدى دون خوان فاكوندو ريانيو ، فى مجلة الحمراء النصف شهرية ، بغرناطة ، في عهدها

الأول ، فى ١٥ يناير ١٨٩٨ ، ونسخها جاريدو اتينثا فى اتفاقيات تسليم غرناطة ، الوثيقة ٦٨ من ملحقها الوثائقى . ويشير السيد ريانيو لوثيقة أخرى - ندرسها أيضًا ، هى (الوثيقة رقم ٥) - ويعتقد أنها كانت نسخة من تلك الوثيقة ، على الرغم من بعض التعديلات ؛ ولذلك فإننا لا نشاركه فى هذا الرأى .

وثيقة رقم ٢ :

رسالة ثيفوينتيس ، شاهد عيان ، لأسقف ليون ، يقص عليه الأحداث . غرناطة فى ٨ يناير (١٤٩٢) - وهى الوثيقة التى انتهينا من تقديمها - وكما سبق أن ذكرنا ، فهى واردة من أرشيف أكليروس ، محافظة بلد الوليد ، الأرشيف التاريخى الوطنى ، وهى موجودة حاليًا فى قسم متنوعات من ذات الأرشيف(٦) . والرسالة تشغل ورقة مقاس ٠٠٣/٠٢٢٠مم من الورق السميك ، وترجع إلى أواخر القرن الخامس عشر ، وبدون زخارف ، ومكتوبة على الوجهين بحروف ملكية ، لمؤهلين من الخاصة ؛ حيث يمكن التأكد من تأريخها من خلال الحروف الهجائية : الباء والكاف والياء ، من بين حروف أخرى . والمظروف المرفق بورقة الخطاب مكون من نصف ورقة ، ومدون عليه فضلاً عن العنوان ، بخط اليد ، وبخطوط قوطية : « صندوق ٧ ، قسم حرف زد ١٩ » ، وعلى الجانب وبخط آخر « الاستيلاء على غرناطة . صندوق ٧ ، أ - ١٩ » . وأسفل العنوان ، وبخط آخر مختلف يمكن قراءة : « عام ١٤٩٢» . وبالخطاب ثنية من الورق المزخرف ، تعود للقرن الخامس عشر ، حيث نقرأ فى الجزء العلوى منها بخط يعود لهذا العصر : « رسالة ثيفوينتيس ، للسيد الونسو دى فالديفييسو ، بشأن الاستيلاء على غرناطة ، عام ١٤٩٢ » . وفيما يتعلق بكاتب الرسالة لم استطع التحقق من شخصيته .

يقول برناردو دل روى فى رسالته ، إلى صاحب فينسيا ، (الوثيقة ١) : إن البيارق المرفوعة فى الحفل الرسمى كانت فى يده « شقيق الكونت ثيفونتيس » ، ويحتمل أنه ليس هو نفسه ، وسبب ذلك يرجع إلى أن رجلنا حين يشير إلى صعود كونت تنديللا إلى الحمراء ، يقول : إن كونت ثيفوينتيس يرافقه ، دون أن يذكر صلة القرابة به ، وهذا الأمر يجعل من المنطقى الظن بأنه قريب منه جداً .

وثيقة رقم ٣ :

رسالة المؤرخ الونسو دى بالنسيا لأسقف استورجه . أشبيلية فى يناير ١٤٩٢ ، مطبوعة قبل سنة ١٥٠٠ ، بمكتبة كوبنهاجن ، مشار إليها « رسالة إلى الأسقف الاستورجى بغرناطة

الجميلة » ميناردو أولجوت ، وستانيسلاو بولونو ، عام ١٤٩٢ ، و ٨ صفحات بدون ترقيم ، حروف رومانية ، وزخرفة يدوية ولجمة ، يعرفها لأول مرة « هين » فى تقريره البيبلوجرافى ، شتوتجارت ١٨٢٠ - ١٨٣٨ تحت رقم ١٢٢٧٦ بطريقة مختصرة ، وبتاريخ خاطىء لعام ١٤٩١ .

وبعد ذلك يقدم « هايبلر » وصفًا كاملاً فى كتابه البيبلوجرافيا الأيبيرية للقرن الخامس عشر ، لاهاى ، لايبزج ١٩٠٣ - ١٩١٧ ، الجزء ٥١٤ ، وذلك وفقًا للنسخة التى يحتفظ بها فى مكتبة كوبنهاجن ، والتى يعرفها فى كتالوجاتها السيد بولينج مدير المكتبة ، تحت بند : المطبوعات السابقة على عام ١٥٠٠ .

وفى الجزء الثانى من كتابه ، يقول : إن هناك نسخة أخرى فى المكتبة الإقليمية لإيفورا . ومكتوبه بخط لاتينى متصنع يعود لعصر النهضة ، وقد نشرت الرسالة بشكلها الأصلى ، مع دراسة وتعليق سابق ، من جانب السيد مارين أوثيتى ، فى حوليات الفلسفة والآداب ، بجامعة غرناطة ، رقم ٤ - ٥ لعام ١٩٢٩ ، الصفحات ٩٣ -١١١ . وفى روايته يقدم موجزاً لأحداث الحملة ، وفتح مملكة غرناطة ، ابتداء من مناطق رنده ولوشه ومالقه ، ويربطها بأحداث عام ١٤٩٠ .

إن قيمة هذه الرسالة عظيمة للغاية ، إذا أخذ فى الاعتبار أن الخبر الذى كتبه صاحبها يبلغ فقط أحداث عام ١٤٨٩ ، الأمر الذى يجعله يستكملها بتفاصيل أكثر أهمية بوصفها رواية خاصة (٧).

وثيقة ٤ :

رواية فرنسية مجهولة النسب لشاهد عيان ، أو إشارة لشاهد عيان . غرناطة فى ١٠ يناير ١٤٩٢ . وعنوانها : المحتفى بها والجديرة بالتذكار والاستيلاء المظفر على مدينة غرناطة - باريس - ج (إيهان) ت (ريبيرل) ، ش م (١٤٩٢) (رقم إشارى ١٤٧ - ١ - ٢) وفقًا لكتالوج المطبوعات ، قبل عام ١٥٠٠ بمكتبة جامعة غرناطة ، للسيد مارين أوثيتى (مكتبة جامعة غرناطة) .

وقد نشر هذه الرواية جاريبدو اتينشا فى اتفاقيات تسليم غرناطة ، الوثيقة ٦٩ من الملحق الوثائقى . وتوجد نسخة أخرى يحتفظ بها فى المكتبة القومية بباريس (يو ٤١٤٩ إيد)

نشرها هاميل فى المجلة الأسبانية ، الجزء ٣٦ ، ١٩١٦ ، الصفحات ١٥٩ - ١٦٩ ، وكذلك إيجيلاث فى نشرة المركز الفنى لغرناطة ١٨٩٠ ، تحت عنوان « كيف فتح ملوك أرغون الكاثوليكى مملكة غرناطة » ولقد أدخل فى طبعة باريسية موضوعًا ، بعنوان : « الرحلة الكبرى للقدس » . كذلك يوجد خبر له علاقة بأحداث التاريخ ، تحت عنوان « بشأن استيلاء ملك أسبانيا على غرناطة » .

وتوجد نسخة أخرى فى حيازة المتحف البريطانى أمر بإعدادها ونسخها الفوتوغرافى السيد مركيز لورينج ، وقد اكتشفها جايانجوس .

وثيقة ٥ :

رسالة من أحد المؤرخين الإيطاليين ، مجهول النسب ، شاهد عيان ، إلى أحد أساقفة روما. غرناطة يناير ١٤٩٢ . محفوظة فى أوراق أرشيف ميلانو الملكى ، نشرها س باربرا بير مع أربع وثائق أخرى فى أواخر القرن الخامس عشر ، فى كتابه الذى يحمل عنوان : وثائق إيطالية أسبانية غير منشورة ، موجودة فى أرشيف ميلانو الملكى ، بينيرولو ١٨٦٤ . الرسالة موجودة ضمن المراسلات الدوقية لعام ١٤٩٢ ، وهى نسخة منها . بدون تاريخ ، أو مكان ، أو توقيع، ويعتقد ناسخها أن الرسالة كتبها أحد رؤساء ملك أسبانيا لأسقف استورجه فى روما ، أو على الأقل أملاها أحد أعوان الملك لأسقف روما ، سكرتير بورجيا الذى كان يشغل منصب الكاردينال ، وبعد ذلك أصبح رئيسًا للكهنة ، (١٤٩٢ - ١٥٠٣) ؛ حيث أرسلت رسالته أو نسختها إلى ميلانو على لسان الدوق الذى كان فى ذلك الحين معتمداً بالقرب من بلاط روما .

وقد سبق أن ذكرنا أن السيد رايانيو يعتقد أن هذه الرسالة ، ورسالة مكتبة مارثيانا (وثيقة ١) ، هى نسخة لرسالة أخرى ، على الرغم من الاعتراف بتغيراتها الملحوظة ، ولكن هذا الرأى لايمكن الوقوف عليه ، بشأن هاتين الرسالتين ، وإنما ، فيما يبدو ، هى عبارة عن رسائل مختلفة لشهود عيان يحملون نفس الجنسية ، كانت لهم مهمة مماثلة للغاية ، وذلك وفقًا للتأكيد بأن كليهما كانا مكلفين بنقل الأسرى إلى حيث الملوك الكاثوليك ، أثناء حفل التسليم الرسمى .

وهذه الإشارة هى التى كان واجبًا على السيد ريانيو أن يتحقق من كاتبيها قبل أن يجمعهما فى شخص واحد .. لأن هذا الأمر مستبعد ؛ إذ لوحظ أن بيانات ذات أهمية لم ترد فى رسالة ، على حين ظهرت فى الأخرى ، والعكس صحيح .

وثيقة ٦ :

حوارات فيراردوس . روما فى ٢١ أبريل ١٤٩٢ - مطبوع قبل عام ١٥٠٠ بالمكتبة الوطنية بمدريد ، مؤلفه كارلوس فيراردوس كاتيساناتى ، تاريخ مملكة غرناطة ، يهديه مؤلفه لرافائيل رياريو رئيس أسقفية سان جورج والكاردينال . المكتوب يعتمد معرفة الحدث عن طريق رواية خاصة ، وربما عن طريق رسالة غير معروفة النسب للإيطالى الموجهة لروما (وثيقة ٥) ، وربما يكون هو ذاته المستلم لها أو شخص أبلغه بها ؛ حيث تتفق مع افتراضات باريرا بيزى . هذا الكتاب المطبوع قبل عام ١٥٠٠ المحفوظ بالمكتبة الوطنية يضم عدة نسخ ، وقد تم نسخه فى مجلة أسبانيا المصورة ، الجزء الثانى عام ١٦٠٣ ، ص ٨٦٣ تحت عنوان : عرض لمملكة غرناطة .

وثيقة ٧ :

علاقة هيرناندو دى باثيثا ، شاهد عيان ومؤرخ . حتى سنوات قليلة كانت الحادثة التى تهمنا غير معروفة أو مفقودة . ومع ذلك فإنه وفقًا للدراسة الحديثة التى قام بها دون خوان دى ماتا كارياثو ، بعنوان : استمرار غير منشور « للعلاقة » لهيرناندو دى باثيثا (مجلة الأندلس ، المجلد الثالث عشر ، ١٩٤٨ ، صفحات ٤٣١ وما يليها) استطعنا معرفة الجزء المذكور ، من خلال تداخل فقراته فى « أخبار الملوك الكاثوليك » لالونسو دى سانتا كروث وفى « حياة الكاردينال » التى كتبها مدينا اى ميندوثا .

وثيقة ٨ :

لوثيو مارينيو سيكولو ، « الكتاب الأول للأشياء التى تستحق الذكر فى أسبانيا » الكالا دى ايناريس ، العدد م . د . ٣٣ ، مؤلفه معاصر للأحداث ، ولكنه ليس شاهداً لها ، استقى بياناته من هيرناندو ، فيما يختص بالجزء الذى يهمنا . فى دراستنا ندرجه بين المؤرخين المعاصرين ، على الرغم من نشره فى القرن الحالى .

وثيقة ٩ :

مجهولة النسب ومحفوظة بمكتبة الأسكوريال ، حيث توجد منها طبعة للنص الأصلى (موليير، بعنوان : حول أمور غرناطة) ، ميونيخ ١٨٦٣ .

وتوجد طبعة أخرى أكثر استفاضة ، وترجمة لهذا النص ، مستخرجة من مخطوطة تطوانية، لأفريدو بوستانى ، تحت عنوان : « مقتطفات العصر حول أخبار الملوك النصريين أو اتفاقيات

غرناطة وهجرة الأندلسيين للمغرب » لاراتش ١٨٤٠ . وبإعادة تحرير هذا المؤلف ، مع مؤلفات المقرى ، فى الترجمة التى قام بها ايجيلات اى يانجواس ، بعنوان : « مختصر تاريخى لفتح غرناطة على أيدى الملوك الكاثوليك ، وفقًا للمؤرخين العرب » ، غرناطة ١٨١٢ . ويكمن اهتمامه فى أنه يلتقط التقليد العربى المعاصر للأحداث .

المجموعة (ب) :

فى هذه المجموعة يظهر لنا بجلاء المؤرخون الذين رجعنا إليهم ، مع الأخذ فى الاعتبار تسلسل الأحداث التاريخية لديهم ، وداخل إطار هذا البحث عن نقل الأخبار من البعض للآخر، مع حذف كثير من المراجع ، التى رجعنا إليها ، والتى لا تخدم بحثنا .

معاصرون :

استخدمنا أعمال بيرنالديث ، « تاريخ الملوك الكاثوليك دون فرناندو ، ودونيا إيزابيل »، (طبعة المكتبة الأسبانية ، الجزء ٧٠ ، صفحة ٦٤٣) وكتاب : « الإبهام المجهول فى أخبار الملوك الكاثوليك » لبولجار (طبعة روسيل ، المكتبة الأسبانية ، الجزء ٧٠ ، الفصل ١٣٣) . والفصل الذى يهمنا فى هذه الطبعة ، يظهر تحت « بولجار » (الإبهام) ؛ إذ إن المؤلف غير معروف ، حسب الدراسات التى قام بها السيد كارياثو ، الذى يؤرخه نحو عام ١٥٠٠[٨]. كما تدرج هنا فرنانديث دى أوفييدو ، بكتابه : « معارك وخمسينات » (المعركة الأولى ، حوار ٢٨ ، رقم ٢١٣ ، مخطوطة ٣١٣٥ بالمكتبة الوطنية) بوصفه شاهد عيان ، حينما كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر أو أربعة عشر عامًا [٩]، على الرغم من أن كتابه جاء فى تاريخ لاحق .

من القرن السادس عشر :

- حوليات تاج أرغون وسرقسطة ١٥٦٢ - ١٥٨٠ .
- مدينا اى ميندوثا ، حياة الكاردينال دون بدرو جونثاليث (مذكرة تاريخ أسبانيا ، الجزء السادس ، صفحة ٢٨٩) .
- فالتاناس ميخيا : مختصر الأحكام الأخلاقية ، وبعض الأشياء البارزة فى أسبانيا والفتح والاستيلاء على غرناطة ، أشبيلية ١٥٥٣ .
- بدرو دى مدينا ، « كتاب الأعمال العظيمة والأشياء التى تستحق الذكر بأسبانيا » ، الكالا دى إيناريس ١٥٦٦ .

- الونسو دى سانتا كروث ، « أخبار الملوك الكاثوليك » (طبعة ودراسة خوان دى ماتا كارياثو ، أشبيلية ١٩٥١ ، (مجلدان) .
- الأستاذ رودريجيث ارديبا ، " تاريخ كونتات تنديللا " (نسخة فى تاريخ دار مونديخار، الكتاب الثالث ، الفصل ٢٧ ، الورقة ٢١٤ من المخطوطة رقم ٣٣١٥ بالمكتبة الوطنية بمدريد) .
- مارمول كارباخال ، « تاريخ التمرد وعقاب الموريسكيين بمملكة غرناطة » ، مالقة ١٦٠٠ (الذى ندرجه فى هذا القرن حيث ينتمى بحثه إليه) .

من القرن السابع عشر :

- بالتسار بورينيو ، حياة وأعمال الكاردينال دون بدرو جونثاليث دى ميندوثا (المكتبة الوطنية ، مخطوطة رقم ٩٦٤٣) .
- أوردونييث دى ثيفايوس ، « أربعون انتصاراً لسانتا كروث » ، مدريد (انتصار ١١).
- بليدا ، « أخبار العرب فى أسبانيا » ، فالنسيا ١٦١٨ .
- سالاثار اى ميندوثا ، وثيقة ١٥ أ . م .
- بيرموديث بيدروثا ، « التاريخ الكنسى لغرناطة » ، غرناطة ١٦٣٨ .
- هنريكيث دى خوركيرا ، حوليات غرناطة " (طبعة مارينا وثيتى ، غرناطة ١٩٣٤ ، مجلدان) .
- أباركا ، حوليات تاريخية لملوك أرغون ، سلمنقه ، وثيقة ٨٤ م .
- عن العرب المقرى ، كتاب : « نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب » ومذكرات وزيره لسان الدين ابن الخطيب : ترجمة نشرها إيجاليث اى يالجواس ، فى العمل المذكور سلفًا (وثيقة ٩) .

إن تشكيل هاتين المجموعتين لمصادر أساسية لا يعنى ، مع ذلك ، أن هناك توافقًا وتجانسًا بينهما ، فيما يختص بهذا أو ذاك ، وإنما الأمر ببساطة هو أن هناك اشتراكًا فى الحدث الذى يروونه ، (كله أو جزء منه) ، أو ملازمة الصمت ، إزاء النقطة الرئيسية التى ندرسها . ولكن فى إطار هذه النقطة الأساسية التى نحتك بها ، توجد بدائل كبيرة من نص إلى آخر ، بالنسبة للتفاصيل الواردة ومدى امتدادها ، وكذلك بالنسبة لحالة الخلط الناتج عن مزج

البيانات والمعلومات بين مصدر وآخر ، الأمر الذى جعلنا نقوم بعملية التحقق من نقطة البداية لهذه الأخبار ، وهى الوسيلة التى نقلتنا من جيل إلى جيل وأوضحت لنا أصل الأخطاء الرئيسية التى ظللت الأحداث بدءًا من القرن السادس عشر .

إن الاعتبار الأول الذى يقدمه لنا فحص الوثائق يكمن فى أن الروايات الخاصة لشهود العيان لا تولى أهمية للدخول الرسمى ، كما هو منطقى ؛ إذ إنهم كانوا قد لجأوا للمجازفة الوحيدة ، بأن قدموه لنا كما هو ، على أساس أن هذا الدخول استمراراً للأحداث السابقة ، مما كان سببًا فى أن ظل سره غير معروف ، حتى بعد أن عرف الباحثون المحدثون والذين لم يولوا أهمية كبيرة ، للحظة التى يحددون بها بداية الحدث .

كما أن الأخبار الرسمية المواكبة للحدث كانت مقنعة ، وكافية بشأن وصف الحدث الرسمى، كما هو طبيعى دائمًا ، حيث أنهم يعرفون الحقيقة ولا يمكنهم تزييف أهميته . وكذلك فإن المعرفة الواهية للحقيقة ، التى كانت من خلال المؤرخ الوحيد هيرناندو دى بائيثا ، الذى استطاع الوصول إليها جزئيًا ، أدت إلى الأخطاء التى ذاعت وانتشرت فى السنوات التالية ، ووصلت إلى قمتها ، لدى : روديجيث ارديبيا الذى يعد المؤرخ الأول الذى أبرز بعثة الكاردينال دون بدرو جونثاليث ميندوثا (١٠).

ومادمنا قبلنا أن الأمور تمت بطريقة مختلفة ، ووافقنا على خطوطها العامة حتى الآن ، فإننا سنقوم بدراسة الموضوع خطوة خطوة ، وسنتعرف كيف وقعت الأحداث ؟ وذلك بدأ - من وجهة نظرى - منذ حالة عدم الأمان التى جعلت أبا عبد الله يطلب سراً ، وعلى وجه السرعة ، احتلال الحمراء من جانب المسيحيين ، فى فجر اليوم الثانى ، حتى اللحظة التى أعلن فيها انتهاء الاحتفال الرسمى ، وعودة الملوك بجيوشهم النظامية إلى موقعها الحقيقى ، فى سانتا فى .

وسوف نرى أن كل اعتبار ، وكل إشارة ، تؤكد ما ذكر ، وتعين على أن نضع نصب أعيننا ، بكل بساطة ويسر ووضوح كامل الحقيقة ، حول كيفية التحقق من تسليم غرناطة .

تطور الحدث التاريخى :

مخاوف أبى عبد الله :

من المعروف أن سر المفاوضات التى أجراها أبو عبد الله بشأن عملية التسليم - سواء الخاصة بالشعب بصفة عامة أو الخاصة به وبعائلته وأتباعه - لم يستطع إغفاله بعيداً عن

قومه؛ إذ فاحت رائحتها . كما أن هيئة السفراء الشعبية التى كانت تتفاوض مع فرناندو الخامس ، كانت تضم العديد من القوم ، ويشير المؤرخ المجهول النسب لمخطوطة الأسكوريال إلى ذلك بإشارات بسيطة (١١).

ويوضح الونسو دى بالنسيا فى رسالته كذلك ، كيف ضايقته الشخصيات الرئيسية والفقهاء فى عديد من المرات ، وكيف كان عليه أن يستخدم كل أنواع الدهاء لكى يعزو إلى الآخرين مفاوضات السلام الخفية ، وأن يحقق فى نفس الوقت هدفين : التخلص من أعدائه ، وأن يفرض على الآخرين الرهبة والخوف حتى يتركوه وحده للتفاوض على السلام سراً (١٢). لقد عم الضيق هنا وهناك بين أهل غرناطة ، وإن كان بدرجات متفاوتة (١٣)، وبمعرفة تسليم الرهائن - تنفيذاً لما اتفق عليه - انفجر التمرد الحقيقى (١٤).

وحول هذه النقطة ، تتفق مخاوف أبى عبد الله ، أساسًا ، مع كل مصادر الروايات تقريبًا ، على الرغم من أن بعض الخواص يعطون أسبابًا أكثر وجاهة (١٥).

ويشير بيرنالديث إلى « شهوانية العرب » ويرجع ذلك إلى جهلهم « إنهم رجال ذوو معرفة محدودة » ، ويشير أيضًا « البولجار » إلى حالة الهياج . ولكن يبدو أن مارينيو سيكولو كان يجهل الحدث ، ولا يوجزه (وبالتأكيد كان دليله هو هيرناندو دى باثيثا) ، أما فرنانديث دى أوفييدو ، فلا يتذكره ؛ إذ كان طفلاً فى ذلك الحين .

وفى المجال المضاد يحذف هيرناندو دى باثيثا هذا التفصيل حبًا فى أبى عبد الله .

وفى القرن السادس عشر ضاع بين المسيحيين النقل الخاص بهذا الحدث الذى لا يمكن إنكاره ، والذى غلب عليه النسيان فى القرن التالى ، وذلك لغلبة الظاهر على الباطن ، كما هى العادة .

أما المؤرخين العرب ، سواء المجهول النسب بالأسكوريال أو المقرى ، فكانوا ضد الرأى المسيحى ، حيث يعزون السبب لدورية الاستكشاف هذه (التى لا يعرفون داخلياتها تمامًا) وإلى خوف الملك فرناندو ، كنوع من عزة النفس لمليكهم . وكما يروون فإن سبب بقاء ملك قشتاله مع الجانب الأكبر من رعاياه خارج أسوار مدينة غرناطة ، كان : « السير خوفًا من أية خيانة من المسلمين » ويجب الاعتراف بالتأكيد على أنهم لم يضلوا فى مسيرتهم .

إرسال الرهائن والإخطار السرى :

وبناء على ما تم الاتفاق عليه فى السابق على تسليم المدينة كان عليهم تسليم ٥٠٠ رهينة للفريق المسيحى ، كضمان أمنى ، وذلك فى مساء اليوم الأول من يناير ، وأن تتم العملية مع الخيوط الأولى من الليل ؛ إذ إن أبا عبد الله تعجل فى التنفيذ بإرسال الوزير يوسف بن قماشة ، والقائد أبو القاسم المليح ، على رأس البعثة ، بوصفهما شخصيتين معروفتين ، لوساطتهما مع هيرناندو دى ثافرا فى المعاهدات (١٦).

وبدون أن يولى أبو عبد الله اهتمامًا لمواجهة الأحداث التى يمكن أن تنشأ حين يعلم رعاياه فى اليوم التالى بعملية الإرسال النهائى للرهائن ؛ إذ يبدو أنه عند إخراجهم كانت قد تكررت حالة الهياج والشغب للمرة السابقة ، وذلك حين أرسل للملك فرناندو رسالة سرية مع الرهائن، يطلب فيها أن يرسل فى تلك الليلة ذاتها ، وبأسرع ما يمكن ، قواته لتستولى على قلعة الحمراء . وربما أرسل إلى الملوك الكاثوليك جوادين رائعين مجهزين بسروجهما المزينة ، وسيفًا قيمًا (١٧).

وعن هذه النقطة الخاصة بالإخطار السرى لا يقول المؤرخون الآخرون والمعاصرون شيئًا ، باستثناء فيراردوس الذى أبرز من بين شخصياته « خطيب أبى عبد الله » الذى جاء باسم الملك العربى ليقدم للملك فرناندو تسليم المكان .

ويصف الملك الكاثوليكى قرار أبى عبد الله بأنه قرار حكيم ، ويأمر على الفور ، السيد جوتيرى دى كارديناس ، أن يتولى مسئولية القلعة .

والمدلول الحقيقى لهذا المشهد ، يعززه التعليق الذى يورده لنا الكاردينال فى بعض الفقرات ، بعد ذلك ، مثنيًا على توقع دون فرناندو فى مواجهة ما يمكن أن يحدث لحظة التسليم ؛ إذ أمر أن يتقدم دون جوتيرى .

وفى القرن السادس عشر يعد فالتاناس الوحيد الذى يحدثنا عن الإنذار السرى (١٨).

وفيما يختص بعدد الرهائن فإنه توجد بعض الاختلافات : إذ إنه فى مناقضة الرقم المشروط ، والمتفق عليه ، الذى كان يقدر بخمسمائة شخص ، فإن الروايات الخاصة بذلك ، من ثيفونتيس الإيطالى غير المعروف ، والفرنسى المجهول النسب يقدرونهم بستمائة من البارزين ، فى حين أن برناردو دل روى والونسو دى بالنسيا يتمسكون بالرقم القائم .

ويعتقد برناردو بل روى ، والمؤرخ الإيطالى أنهم أرسلوا فى هذه المناسبة أيضًا الأمير العربى ، ابن أبى عبد الله ، الذى كان يجب أن يعود فور عملية التسليم للمدينة ، وهذا أمر غير مؤكد (١٩)، فضلاً عن ذلك ، يشير المؤرخ الأول إلى ابن قماشة ومولاى ، فى حين أن المؤرخ الفونسو يقول من جانبه : إن الستمائة شخص كان يرافقهم أولادهم (٢٠).

وفيما يتعلق بالمؤرخين المعاصرين ، فإنهم لا يعرفون كيفية تسوية الرواية حتى لا يكتشفون ما حدث . ويتحدث برنالديث عن أربعمائة رهينة ، تم تسليمهم فى يوم الجمعة ، مع تهليل العرب الذين كان يثيرهم أحد المحرضين . ولم يجرؤ أبو عبد الله ، الذى أصيب بالذعر ، على الخروج من البيازين حتى اليوم التالى ، السبت ، حيث استطاع تهدئتهم ، وذلك حين أرسل إنذاراً (ليس سريًا) إلى الملوك الكاثوليك ، يرجوهم ألا ينتظروا حتى اليوم السادس « حيث كان الرهائن فى حوزتهم » . وبهذه الطريقة يكشف هذا الحدث الحقيقى ، حيث يمزج بينه وبين أحداث أخرى ليست أقل صدقًا . ويقول البولجار حين يذكر موضوع تهدئة حالة الهياج ، يوم السبت ، وإبلاغ الملك فرناندو بأن « يختصر الوقت » ، وهى طريقة ماهرة بأن يبلغه بالأمر دون أن ينبس ببنت شفه . ولكن لم يذكر أى منهما وصول الرهائن إلى المعسكر المسيحى ليلة اليوم الأول ، وهو حقيقة اليوم الذى يصل فيه الإنذار إليه ، ليس بتقديم تاريخ اليوم السادس على اليوم الثانى ، وإنما بأن يعجل ، ويقدم الدخول للقوات الأولى من اليوم الثانى إلى فجر ذات اليوم ، قبل أن يطلع النهار .

ولا يعرف فرنانديث دى أوفييدو ، الذى كان طفلاً آنذاك ، شيئًا . أما هيرناندو دى بائيثا فإنه كان يعرف ، ولكن حبًا فى مليكه لم يرد أن يتكلم ، وعن مارينيو سيكولو ، تلميذه ، فإنه لم يكن يعرف الحقيقة ، ويفترض تسليم الرهائن لحظة خروج الأسرى فى اليوم التالى .

وهكذا ففى القرن السادس عشر ، يتوه خبر الإنذار والمخاوف الأخيرة لأبي عبد الله ، حين سكت المؤرخ الوحيد الذى استطاع الحصول عليه ، وأصبحت هذه الحادثة فى حكم النسيان تمامًا لمؤرخى أخبار القرن السابع عشر ، باستثناء أوردونييث دى ثيفايوس ، الذى سار على هدى مارينيو سيكولو ، الذى يقع فى نفس خطأ التاريخ مثل سابقه .

وفيما يختص بالمؤرخين العرب فى القرن السادس عشر ، الذين يحتفظون فى ذاكرتهم بما هو فى صالحهم ، وتركهم المسيحيين للنسيان ، فإنهم يذكرون تسليم الرهائن الخمسمائة ، دون أن يظهر أى إنذار ، كانوا يجهلونه بالتأكيد ؛ إذ أوجزوا عملية الدخول السرى ، كما لو لم

يكن يحدث ، بكلمات مختصرة ، وربما يعود ذلك إلى جهلهم أكثر من كتمانهم للسر ، ويتابعون على الفور سرد أحداث اليوم التالى [٢١]. وفى القرن السابع عشر (المقرى) ضاع أيضًا هذا التقليد .

البعثة السرية :

رحلت البعثة - بعد ساعة من استلام الإنذار والرهائن ، وكان الوقت منتصف الليل - تحت رئاسة القائد الأعلى لليون : السيد جوتيرى دى كارديناس ، وذلك باتباع رواية ثيفونتيس ، ويمكن قبول ذلك من وجهة النظر المنطقية ، فى مواجهة تأكيد ألونسو دى بالنسيا ، وقد استقبلها أبو عبد الله داخل الحمراء ، وسماها مجموعة من جنود فرناندو [٢٢].

وعلينا قبول هذا الرأى ؛ إذ إن ثيفونتيس ذاته كان طرفًا فى هذه البعثة السرية ، بوصفه شاهدًا أكثر من ألونسو دى بالنسيا ، الذى يعرف الحدث فقط بالإشارة . وتأكيد لرأى ثيفونتيس نجد شاهد العيان : « دل روى » الذى يقول بأنهم خرجوا من المعسكر المسيحى ، «عند الفجر » . ويقول المؤرخ الإيطالى : « ساعة قبل بداية النهار » ، وإن كان النص الفرنسى يشير إلى التأخير ، حتى صباح اليوم الثانى .

وتأييدًا لتاريخ ألونسو دى بالنسيا ، يوجد نص هيرناندو دى بائيثا ، الذى نقله المؤرخ العربى المجهول النسب بالأسكوريال ، مارينيو سيكولو ، تابعه الأمين ، بدرو دى مدينا ، سانتا كروث ، بالتسار بورينيو وأردونييث دى ثيفايوس .

ولكن علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن كل هؤلاء المؤرخين يأخذون بياناتهم من هيرناندو دى بائيثا ، سواء مباشرة أم من خلال مارينيو سيكولو ، وأما بالنسبة لبائيثا فليس غريبًا على مليكه أن يعترف بأن التسليم كان ولابد أن يتم فى الخفاء ، وبخداع رعاياه ، ومع ذلك هناك حدث هام ، على الرغم من احتمال خروج القوات المسيحية فى منتصف الليل تقريبًا ، ووصولها إلى الحمراء عند الفجر ، فإن المؤكد أنه كان اليوم الأول فى المساء ، حينما تحقق أبو عبد الله من عملية التسليم ، وإخطاره للملوك المسيحيين بذلك . وهذا يفسر ما يطلق عليه سالاثار اى ميندوثا « موضوع خاص غير عادى » فى التقديم الدينى ، يعزو به لتقليد الكنيسة بنشر أيام الأعياد الرئيسية ، قبل ذلك بيوم ، وأنه فى اليوم الأول من يناير من هذا التقويم ، حينما يتم الاحتفال بعيد « البريما » يشار إلى أنه فى هذا اليوم كان تسليم غرناطة [٢٣].

وفيما يختص بالمصادر العربية ، فقد رأينا كيف توجز هذه الإشارة بكل بساطة مع سابقتها.

وهناك نقطة أخرى من النقاط التى تقدمها بعض الاختلافات ، تتعلق بمن قام بدور الدليل للبعثة . ووفقًا لقول ثيفوينتيس : فإن القوات المسيحية كان دليلها حتى أبواب الحمراء ذاتها ابن قماشة والمليح ؛ حسب ما أورده برناردو دل روى من أن القائد توجه بحثًا عن « من كان يقوم بدور الرئيس أو الرأس » (فهل هو ابن قماشة ؟) الذى كان يرافقه أحد أبناء الحاكم العربى للمدينة . وقد جاء للقائد عربى أخر يدعى الزبير ، قادهم حتى الحمراء وسلمهما مفتاح باب حديدى ، كان موصداً من خلاله إلى القلعة .

وتقص رسالة المؤرخ الإيطالى ، الموجهة إلى روما ، خبر وصول البشائر بصحبة ابن مورار ، وابن القصبى ، وابن عمار ، والمليح ، الذين بينوا للقائد قلعة الحمراء بتوجيهه إلى الباب الحديدى ، الذى كان مفتاحه مع المليح ، وبحذف اسم الزبير ، الذى برز بوصفه دليلاً ، وحاملاً لرسالة ابن بلده .

ومن كل هذا لم يكن من المحتمل أن يكون لدى ابن قماشة والمليح الوقت للعودة ، ولم يكن مناسبًا لهما القيام بذلك ، ولم يكونا أيضًا فى حاجة إلى دليل للطريق ، الذى جابوه سراً ، مراراً وتكراراً ، أثناء عملية المفاوضات ، وأما الأمر الأكثر احتمالاً فهو أن ذلك الزبير قد خرج للقائهما عند جبال البشراة ، ليؤكد لهما عدم علم أحد بالمناورة ، وأن الطريق كان أمامها خاليًا ، للدخول ، فضلاً عن كونه حاملاً المفاتيح للقيام بالمهمة .

ولم يشر ألونسو دى بالنسيا إلى هذا الموضوع ، بصفته مؤرخًا للبلاط ؛ إذ إن ذلك محظور، بلا شك ، حتى وإن كانت روايته خاصة . ويقتصر فيراردوس على إثبات حضور ناطق بلسان أبى عبد الله ، الذى يقوم بعملية التسليم ، ولكنه لا يقدم تفاصيل أكثر من ذلك.

وفيما يختص بعدد أعضاء البعثة ، فلم يتفق شهود العيان أنفسهم ؛ إذ كانت حساباتهم تعتمد على الذاكرة ، وكان البعض يمتنع عن تقديم الأرقام [٢٤]. وتقدم رسالة المؤرخ الإيطالى خبراً لا يرد لدى أى من أصحاب الرواية الخاصة ، ولا لدى المؤرخين ، هو : أن القوات المترجلة والراكبة ، التى تضمنتها هذه البعثة ، كانت من مدن : جيان ، وأبده ، وبسطة ، دون أن يكون هناك عدد محدد .

ولم يكن خط السير نفسه مماثلاً لنظيره الذى كان فى ظروف أخرى ، وإنما كان عليهم التحقق من المسيرة عبر طريق مختلف ؛ لأسباب سهلة الفهم ، حتى لايراهم أحد ، ويؤكد ذلك ثيفوينتيس ، قائلاً : إنهم وصلوا حتى قصر العشارة [٢٥]، ومنه عرجوا إلى الحمراء ، حيث وجب الدخول إليها عن طريق أحد الأبواب الصغيرة ، الأكثر قربًا ، تجنبًا للمخاطر الكبرى . والكلمات الموجزة التى يستخدمها لقول ذلك ، تبين - فيما يبدو - أنهم لم يقوموا سوى بعبور المسافة القصيرة ، التى كانت تفصل بين المكانين . وقد وصلت البعثة - بعد عدة احتياطات - بسلام فى الفجر ، كما يقول ذلك ثيفوينتيس [٢٦].

المقابلة مع عبد الله وتسليم الحمراء :

وبوصول القوات إلى القلعة ، على حين كان المليح ذاهبًا لإعلان وصوله إلى الملك العربى ، قام دون جوتيرى دى كارديناس بتوزيع قواته إلى جناحين ، على اليمين ، وعلي اليسار ، حتى تأخذ موقعها [٢٧]. وكان مكان المقابلة برج قمارش ؛ حيث كان أبو عبد الله ، بعد نزع الرايات الملكية ، فى انتظارهم وسمح للجميع بالدخول ، وفقًا لرواية ثيفوينتيس ، على الرغم من الظن بأن العديد كانوا يلازمون الحراسة على الأبواب الخارجية [٢٨].

وربما لم يكن من جانب العرب شهود أكثر من المذكورين ؛ إذ كانت رغبتهم ، بلا شك ، ألا ينتشر السر ، كما أن الملك حين سمع بوصول المسيحيين أمر فرسان بلاطه ، الذين كانوا يرافقونه بالانسحاب ، فاتجهوا إلى المدينة [٢٩].

وترجل صاحب الوسام العسكرى والفرسان الذين كانوا يذهبون معه ، لتقبيل أيدى الملك ، الذى سلم السيد جوتيرى فى احتفال مهيب المفاتيح ، والتى قد تكون مفاتيح الحمراء فقط ، تاركًا تسليم مفاتيح المدينة ، للاحتفال الرسمى [٣٠].

ويعد هذا هو الجديد فى الأمر ، والنادر فى الرواية ؛ إذ طلب أبو عبد الله صاحب الوسام العسكرى رسالة موقعة باسمه ، يشهد فيها كيف كان استلامه منه قلعة الحمراء ؟ وأنه كان يسلمها بمحض إرادته [٣١].

وبهذا الأسلوب أراد الملك العربى الماكر أن ينقذ نفسه من إلقاء المسئولية عليه ، فى شيء، وذلك فى حالة وقوع أى حادث مؤسف ، عند توقيع عقد احتفال التسليم الرسمى ، على الرغم من اتخاذ الكثير من التدابير ، والاحتياطات .

وبانتهاء ذلك الاحتفال توجّه الملك العربى إلى المدينة ، ربما إلى القصبة ، على حين كانت تنتشر قوات دون جوتييرى فى كل أنحاء الأبراج والنقاط الحصينة بالمنطقة . وحينئذ أرادوا أن يقدموا الشكر لله ، لإنهائهم تلك المخاطرة بسلام ، ولهذا فقد قاموا بتزيين وزخرفة المذبح – كنيسة صغيرة – فى إحدى أحياء المناطق الجميلة ، كما أشار بذلك ثيفوينتيس ، وكما أطلق عليها المؤرخ الفرنسى اسم « المسجد » حتى يتمكنوا من أداء القداس أمام أحد القساوسة ، الذى كان يرافقهم ، لهذا الغرض المحدد ، بدون أدنى شك (٣٢).

وفى ذلك الحين كان قد وصل العديد من الأسرى ، رجال ونساء ، أمام اتباعه المنقذين ، وسمع الجميع القداس بعاطفة جياشة وخشوع ، حيث من السهل افتراض ذلك .

وبانتهاء القداس (أو ربما قبل انتهائه) ، قاموا بإخطار دون فرناندو بأنهم حققوا هدفهم ، والرجاء أن يرسل لكونت تنديبا لكى « يسرع فى الوصول ومعه القواد » حتى يتولوا مسئولية الحمراء ؛ إذ تم تعيينه صاحبًا ، فضلاً عن إحضار الصليب ، والرايات لرفعها على الحمراء .

ونحن لا نعرف : كيف تم هذا الإخطار ؟ إذ لا يقدم الخاصة من الرواة ، والمؤرخين ، إفادة مؤكدة . ويؤكد رودريجيث أرديبا ، فقط : إنه عند بزوغ الشمس سمعت فى الحمراء ثلاث طلقات مدافع ، كانت بمثابة الإشارة المتفق عليها ؛ (ويعتقد أنها كانت بالاتفاق مع أبى عبد الله) ، وذلك بغرض أن يبدأ الجيش المسيحى تحركه ، ولو كان ذلك مؤكداً ، فقد تكون هذه الإشارة هى الوسيلة التى اتخذها القائمون بالحملة لكى يعرف الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر خبر نجاح المهمة ، كما أن لدينا أيضًا إشارة من برناردو دل روى ، ومن المؤرخ الإيطالى قد تكون على صلة بهذه النقطة ، وهى أن القوات التى دخلت مع صاحب الوسام العسكرى وجدت ١٧ راية مسيحية ، ومن بينها راية كانوا قد فقدوها منذ مائة وخمسين عامًا ، ويقول عنها أصحاب الرواية : إن الرايات كانت منبسطة « لتسمح بالدخول والانضمام » ، ومن ثم لتكون بمثابة إخطار للذين سيقومون بالحصار ، بأنهم فى أمان ، ولديهم الحماية المعنوية اللازمة ، ولتجنب أية محاولة لقلب النظام ، أو القيام بمكيدة من جانب العرب ، (ولهذا الغرض كان إجراء عملية الدخول السرى) .

وهذا ما يقوله هيرناندو دى بائيثا ، بكل أمانة ، من خلال كلمات مدينا اى ميندوثا ، وكل هذا يتناوله أيضًا مارينيو سيكولو ، دون أن يأخذ فى الاعتبار مدى قيمته ، وبطريقة مماثلة يعبر شاهد عصره : بدرو مدينا ، الذى يعرف – فيما بعد – رواية بائيثا بشأن طريقة

التحقق من عملية التسليم ، وفى القرن التالى ، يؤكد ذلك أوردونييث دى ثينايوس ، الذى يتفق مع مارينيو سيكولو ، بما فى ذلك ما يختص بالخطأ فى تسليم الأسرى ، فى اليوم التالى، وفى موضوع الاعتقاد بأن التسليم تم فى نفس وقت تسليم الرهائن .

وبالنظر لكل ما سبق أعتقد أنه أصبح واضحًا تمامًا للعيان ، مدى جلاء ويقين هذا الدخول الأول للقوات فى الحمراء ، ولكن الآن ، بعد أن استطعنا إبعاد الحمراء ، من حالة الخلط والتشويش التى عاشت فيها ، مازال أمامنا تساؤل ، هو : ما الذى حدث – حقيقة – فى الاحتفال الرسمى للتسليم والقيام بنفس المهمة ، التى تستقصى ، وتكشف ، وتوضح البيانات الجديدة ، التى تزودنا بها : رسالة ثيفوينتيس ، حتي نصل إلى النتائج الختامية .

الاستسلام الرسمى :

ومن وراء كل هذه الأحداث التى كانت تدور ، تم إعداد الحقيقة الرسمية لتقديها وفقًا لأهمية الاحتفال ، الذى كان بمثابة نوع من الاستهلاك الوقتى .

ومن المقبول جوازاً ما دار فى الليلة السابقة من ١ إلى ٢ يناير ؛ إذ تم إخطار القوات المسيحية ، عن طريق المنادين الملكيين ، حتى تكون مستعدة عند الفجر ، للقيام بالمسيرة ، من مخيم لابيجا إلي المدينة المقصودة .

وكان قد خلع الملكان وحاشيتهما لباس الحداد الذى كانا يعيشانه بسبب وفاة الأمير دون ألونسو دى بورتوجال ، صهر العاهلين ، وزوج إيزابيل التى كانت أميرة ، وأصبح كل شىء معداً وجاهزاً ، حتى يصير الاحتفال فى أبهى صورة .

وليس من المعروف الساعة المحددة التى بدأ فيها التحرك . وفيما يبدو أن ألونسو دى بالنسيا قد تأخر عن الموعد المحدد ، وربما لتعويض ذلك قدم ساعة الدخول السرى ؛ إذ يقول إنهم خرجوا من المخيم بعد انتصاف النهار ، على خلاف الإشارات الأخرى التى تؤكد أن الرحيل كان فى الصباح .

ومن الواضح أن شهادة ألونسو دى بالنسيا هى الأكثر توفيقًا ؛ لاقتراب موعدها من الأمر الذى يحكم به ، ولعدم وجود شىء يحمل على التفكير فى عكس ذلك ؛ أى فى بقية الروايات الخاصة الأخرى لشهود العيان ، الذين لا يحددون لحظة وصول الملكين ، مع زمرة جيشهما .

ومن وجهة أخرى ، فإنه إذا تم القبول بأن لحظة الوصول كانت فى الساعة الثالثة من المساء - وهذا الأمر مقبول بصفة عامة - فإن الساعات الثلاث هى بمثابة الفترة الزمنية التى استغرقتها القوات - تقريبًا - فى أن تجوب مسافة الاثنا عشر كيلو متراً ، التى تفصل بين " سانتا فى " و المدينة .

وما اتفق عليه المؤلفون - تقريبًا - سواء أكانوا المسيحيين أم من العرب (المسلمين) ، هو أن يوم الاثنين الموافق الثانى من يناير ، هو التاريخ الذى يبدو لنا صحيحًا .

الموكب الملكى :

إن المعلومات التى يقدمها ثيفوينتيس فى هذه النقطة ليست باليسيرة ، على عكس برناردو دل روى ، والمؤرخين الإيطالى والفرنسى ، اللذين لا يقولان شيئًا . ويبدى صاحب الرسالة سعادته بوصف الموكب المهيب ، والرائع ؛ إذ كان يرى من موقعه فى الحمراء اقتراب الموكب إلى المدينة ، ذاكراً كاردينال أسبانيا ، وهو بصحبة الملكة ، وهنا يتفق مع أوصاف برناردو دل روى ، وهيرناندو دى بائيثا . وبالنسبة لألونسو دى بالنسيا فإنه يكتب فى هذه الرواية مسحة مؤرخ أخبار المجتمع ، إذ يضع الكاردينال - أيضًا - برفقة العائلة الملكية .

ولكن بنفس الطريقة التى نريد بها معرفة الدخول الأول ، علينا أن نتابع خطوة ، خطوة الروايات الخاصة ، كما هى تقريبًا ؛ حتى نتمكن من معرفة تطور أحداث هذا الجزء الثانى ، وعلينا أن نأخذ فى الحسبان آراء المؤرخين المعاصرين ، (واللاحقين على الفور) الذين استطاعوا معرفة الدخول الأول من الخارج ، وتقديره بوضوح ، مثل هؤلاء الذين وضعوه من الداخل .

وهنا نجد أنفسنا مع المؤرخين المعاصرين - لعدم قول الحقيقة ، أو للرغبة فى تزييف الحقائق، وتحوير المؤلفين منهم - الذين يفضلون عدم تقديم التفاصيل ، بينما لا يحدد «البولجار» شيئًا على الإطلاق ، ويقتصر برنالديث على القول ، بأن الملك تقدم حتى وجد نفسه علي مشارف « شنيل » والملكة والأمير والأميرة خوانا مكثوا على ربوة أرمينيا القريبة.

ويتفق الجميع على أن الملك توقف على بعد نصف فرسخ من المدينة ، بالقرب من رمله شنيل ، حيث يقع اليوم مصلى سان سباستيان .

ويعد فرنانديث دى أفييدو أول الذى تشوق بذكرياته البعيدة ؛ إذ يعدد الكثير من الفرسان الرئيسيين الذين حضروا الاحتفال ، وأبرز من بينهم كاردينال أسبانيا .

وبالنسبة لمارينيو سيكولو ، الذى يتبع مخطوطة هيرناندو دى بائيثا المفقودة ، فإنه يقول : إن الملك اقترب من السور ، وظلت الملكة وراءه ، وبرفقتها أبناؤها والكاردينال .

وفى القرن التالى ، يشير بدرو دى مدينا إلى نفس الرواية ، ونفس التفاصيل .

وعن وجود فرقة متقدمة ، جاء ذكرها فى هذا القرن ، على لسان ثوريتا وڤالتاناس ، فإنهما لا يقدمان تفاصيل أكثر ، على حين كان رودريجيث أرديبا يعرف مخطوطة هيرناندو دى بائيثا ، وربما يعد الخلط بين الأخبار - التى تحقق منها سانتا كروث ، على أساس المخطوطة ذاتها - الأمر الأول الذى قلب الأحداث تمامًا ؛ إذ وضع على القمة المرئية للبعثة الكاردينال جونثاليث دى ميندوثا ، مناقضًا بذلك روايته ذاتها - التى يشير فيها إلى أنه كان مرافقًا للملكة - وتاركًا ذكر اسم دون جوتيرى دى كارديناس بين المتقدمين فقط كنوع من احتفال الكاردينال ، ويتبعه فى تحديده مارمول كارباخال .

وبهذا الخبر الجديد يكون أمام مؤرخى القرن السابع عشر الاختيار ، ويتم توزيع الآراء بين مارينيو سيكولو ورودريجيث أرديبا ، ولكن هناك كذلك من يقدم أسماء كثيرة ، ولا يكتفى بالأسماء المشهورة ، مثل أباركا ، الذى يذكر كونت تنديبا ، ودون بدرو دى جرانادا ، المعين وزيراً أكبر للمدينة . ولكن يجب علينا على وجه الخصوص أن نأخذ في الاعتبار رواية بالتاسار بورينيو ، مؤرخ الكاردينال ، الذى لا يحذف اسمه فحسب فى الفرقة المتقدمة ، وإنما يذكر بالتحديد دون جوتيرى مرافقًا لكونت تنديبا ، وإن كان لا يقول كل الحقيقة ، إلا أنه على الأقل يقترب كثيراً منها .

لقاء الملوك :

إذا عدنا إلى نقطة البداية - فى إجمالى بحثنا هذا ، أو لرواية ثيفوينتيس - وجدنا فيها تفاصيل أكثر حول موكب الملك العربى ، وأخرى أقل حول تشريفة اللقاء ، بعكس روايات بقية المؤرخين ، والرواة ، الذين كانوا ينظرون إليها من أسفل ، وليس من الحمراء .

ومن موقع المراقبة الذى كان يمكن منه أن يقول لنا ثيفوينتيس : إن أبا عبد الله خرج (ولا يحدد من أين ؟) إلى الساحة (الفناء) وبرفقته ثمانون أو مائة فرس « مزركشة للغاية » ، لتقبيل أيدى صاحبى الجلالة ، اللذين استقبلاه بحب كبير ، وأدب جم ، وأعادوا إليه ابنه ، الأمير ، الذى ظل رهينة لديهم ، منذ أن كان أبو عبد الله سجينًا . وعلى الرغم من المسافة التى كان يوجد فيها فإنه لم يمكنه أن يقدم لنا تفاصيل أكثر .

ولم يحدث نفس الشيء مع برناردو دل روى ، وابن بلده المؤرخ الإيطالى ، اللذين نزلا للقاء الملكين فى مهمة - سنراها فيما بعد ؛ إذ كانا يعتقدان أنهما مؤهلان لإعطاء بعض التفاصيل الأكثر ، وإن كانا قد أخطآ فى تقديراتهما ؛ لعدم معرفتهما بما تم الاتفاق عليه سراً ، حين أكدا أن الملك العربى قبل أيدى الملوك المسيحيين .

إن ما يمكن تفسيره هو أنه حين كان أبو عبد الله يقدم التحية للملكة ، كان المؤرخان الإيطاليان فى مهمة للقاء الملكة ، وحين اقترب الملك العربى لتحية الملكة والأمراء كانا فى طريقهما إلي « سنتا فى » . ويشير المؤرخ الإيطالى أيضًا إلى إعادة الأمير العربى الذى اقتاده - بحضور أمه - « فرناندو الأخير » و « مارتين دى الأركون » .

وعن المؤرخ الفرنسى فإنه لا يقول شيئًا سوى أنه وجب عليه البقاء داخل الحمراء ، وكان يجهل التفاصيل سواء بالنسبة لإعدادها أم تنفيذها .

ويقدم لنا ألونسو دى بالنسيا بعض التفاصيل المثيرة للفضول ، والتى هى محصلة مراقبته - حسبما يبدو ؛ حيث يصف وصول أبى عبد الله وبرفقته ٥٠ خيالاً ، وذلك للقاء الملوك المسيحيين ، « بوجه متوسل » و « كما لو كان يندم على إصراره » . ويتوجه الملك العربى لتقبيل أيدى الملك فرناندو ، الذى كان يمشى متقدمًا ، والملك لا يسمح له ، مجنبًا إياه موقف الخضوع والخنوع للمهزوم .

وتدور هذه الرواية باختصار على أفواه المفسرين ، وبعد ذلك يتجه إلى الملكة ، التى تأتى من الخلف ، حيث يكرر معها نفس المشهد . وهنا يقدم تفصيلاً مثيراً للفضول ، ويساعد على حب الاستطلاع : فالملكة (بمظهر الشخصية الكبيرة تهدد طفلاً) توحى لأبى عبد الله بالآمال « إذا لم يتجاوز الحدود » .

وإذا بحثنا عن رواية المؤرخين المعاصرين ، سنجد أن برنالديث يصف الموقف بطريقة بسيطة؛ إذ يقول - بطريقة العرّاف - : إنه بوصول القوات إلى الحمراء ، خرج الملك أبو عبد الله ممتطيًا حصانه ، والمفاتيح فى يده (وهو تفسير صبيانى وربما يقصد به الزهو) . وبصحبته العديد من الفرسان . وبدأ بحركة إخراج قدمه من الركاب للنزول من على الحصان ، ولكن " دون فرناندو " منعه . ثم أبدى نيته لتقبيل يده ، وحينما رفض الملك المسيحى ذلك التصرف (وفقًا لما كان متفقًا عليه تمامًا) قبّله فى رداء ذراعه ، بطريقة لم تكن منتظرة . وبعد ذلك سلمه المفاتيح فى حديث مختصر ؛ ويسلم الملك بدوره المفاتيح للملكة ، وتقوم هى

بدورها بتسليمها للأمير الذى يضعها فى يدى الكونت تنديبا ، معينًا إياه قائداً للقلعة الجديدة . وفى ذلك الحين يتولى هذا الأخير مهام منصبه فى الحمراء مع دوق إسكالونا وغيرهم كثيرون .

ويسرد فرنانديث دى أفييدو ، والبولجار ، رواية مماثلة لرواية برنالديث ، ولكن الثانى بعد أن أشار إلى كيفية تسليم المفاتيح لكونت تنديبا ، يقول : « وهو بدوره إلى القائد الأعلى لليون : دون جوتييرى دى كارديناس وكل الذين دخلوا الحمراء » . ويبدو أنه كان يتألم من نسيان الذى كان قد كلفه بالفعل ليكون مسئولاً عن القلعة مع القوات المسيحية .

وبالنسبة لباثيثا ، فإنه يقدم لنا وصفًا يحمل معنى هامًا ، إذ يبدأ مؤكداً أنه خرج على ظهر « بغله » وليس على ظهر جواد ، وبرفقته خمسون مطية ، وعى مسافة قليلة من المدينة أشار له جونثالو فرنانديث من هو الملك المسيحى الذى يجب عليه أن يتوجه إليه . وهنا لا يتمكن هيرناندو دى باثيثا من أن يخفى سعادته للمهزوم ، ويرفع من عزة شخصه فى تلك الفترة المؤلمة مؤكداً أنه « على الرغم من أن الوجه وملامحه كانت حزينة ، إلا أنه كان يظهر شجاعة الرجال » . وحين اقترب من الملك المسيحى كان ما تم الاتفاق عليه ، حول نية النزول من على ظهر الدابة ، وتقبيل الأيدى ، وبعد ذلك « دارت كلمات قليلة » ، ويتكرر المشهد مع الملكة التى كانت قادمة « على البعد من الخلف » ويصحبتها الأمير دون خوان والكاردينال ، والتى تحدثت مع الملك العربى وواسته ، وكان باثيثا نفسه يقوم بدور المترجم . وإذا كانت علاقة هذا المؤرخ تمثل أهمية ، نظراً لموقعه فى البلاط العربى ، فإن أهميتها تكون بالغة لكونه مرافقًا فى هذه الفترة بالتحديد ، ولكونه مترجمًا فى ذات الوقت لأبى عبد الله نفسه فى أشد اللحظات مرارة وضيقًا .

أما مارينيو سيكولو ، ومؤرخو القرن السادس عشر ، فقد اعتادوا على تقديم رواية مختصرة لهذه اللحظة ، حيث سار بعضهم على هدى برنالديث وسار آخرون على هدى باثيثا ونهجه ، باستثناء صاحب نشر موضوع الدخول الأول والثانى « ألونسو دى سانتا كروث » ، الذى يضع اللقاء والاحتفال بالتقبيل وتسليم مفاتيح أبواب الحمراء . وكذلك المحكوم عليه رودريجيث أرديبا الذى استمر فى نشر الأخبار بتباين واختلاف - من حيث الاتساع - ؛ إذ يقدم لنا بيانات لا نعرف أحيانًا إذا كان قد حصل عليها من مصدر مجهول ، أو هى محصلة خياله الخصب .

وأريد الإشارة إلى الخبر ، الذى لم أره من قبل أو من بعد ، فى أى مصدر آخر ، والذى نعلم بموجبه أن أبا عبد الله حين عرف بتعيين كونت تنديبا قائداً للقلعة الجديدة طلب أن ينادوه، وأخرج من إصبعه خاتمًا من الذهب ، به فص من الفيروز ، وسلمه إليه ، وقال له : إنه بموجب هذا الخاتم كان قد حكم غرناطة منذ أن استولى عليها العرب ، وتمنى له أن يحكمها كذلك به ، وأن يكون أكثر حظًا منه .

وفى القرن السابع عشر ، لم يجرؤ أى مؤرخ على المتابعة الكاملة لرواية رودريجيث ارديبا ، ولا حتى رواية مارمول كارباخال غير المشروحة ، فقد اقتصروا على الوصف المختصر ، مع بعض كلمات التحية التى كانت تختلف من مؤرخ إلى آخر .

وفيما يختص بالمصادر العربية - سواء المقرى أم مؤرخ الأسكوريال المجهول النسب - فإنها تجاوزت وصف اللحظة التى كانت - بلا شك - ذكرى أليمة للغاية .

الصعود إلى الحمراء :

وبتحديد موقف الشخصيات الرئيسية التى كانت تشكل الموكب الملكى ، سنقوم بمراجعة الشخصيات التى ظهرت فى الفرقة التى صعدت لتدعيم قوة حراسة الحمراء .

وبمتابعة روايات ثيفوينتيس ، وألونسو بالنسيا ، وكذلك إشارات الجانب الأكبر من المؤرخين المعاصرين ، وفقًا للواقع ومصادقة له ، فإن هذه الفرقة كان على رأسها كونت تنديبا ، والأسقف هيرناندو دى تالابيرا ، اللذان عينهما الملوك الكاثوليك ؛ الأول قائداً للقلعة الجديدة، والثانى أسقفًا للأبرشية الجديدة .

ولكن من خلال كل الإشارات ، نجد أن الإشارة التى - فى نظرنا - تمثل أهمية ، هى الإشارة الخاصة بالمؤرخ الإيطالى ، التى نصها : « أسندت الحجة لكونت تنديبا ليكون قائداً للحمراء » ، ومن الواضح أنه لكى تسند إليه الحمراء ، كان عليه أن يكون داخل القلعة ، وواضعًا يده عليها .

وفى القرن السادس عشر ، أولى الجزء الأكبر من المؤرخين اهتمامًا باسم الأسقف هيرناندو دى تالابيرا ، باستثناء رودريجيث أرديبا ، الذى أطلق لخياله العنان ، محاولاً ربط الأخبار التى وصلت إليه ، مع مخطوطة بائيثا ؛ إذ نسج خيوط روايته المعقدة ، لتملأ الفراغ الذى خلفه سر الدخول الأول ، ولإرضاء حاجة كل الذين أرادوا أن يضفوا على تسليم القلعة صورة

عسكرية بارزة ، كما لو لم تكن موجودة . ومع ذلك ، فإن هناك بعض البيانات التى يمكن الاستفادة منها فى الرواية التى يزودنا بها ، والتى منها يمكننا أن نبرز الإشارة التى يوضح منها خط السير المتبع ، ووفقًا لتقاريره ، فإن المجموعة البارزة عبرت نهر شنيل ، « بجوار ربوة صغيرة حيث يقع مصلى أطلق عليه اسم سان أنطونيو البيبخو » .

وبدأت المجموعة فى الصعود ، عبر مسار كان قد شيده المسيحيون ، قبل ذلك بعدة أيام ، حتى تصعد عربات المدفعية ، وكان هذا المسار يمر « أمام باب لوس مولينوس » ، نحو ربوة لوس مارثيريس ، وكانت تقع بداخل الضاحية المسورة .

وفيما يبدو أن خط السير هذا كان قائمًا ، ويتفق مع الخبر الذى أورده مارمول كارباخال ؛ إذ أمر الملك أحد العرب الأرغونيين ، ويدعى محمد بلاثيوس ببنائه ، قبل ذلك بثمانية أيام ، وهو عبارة عن مسار تصعد عليه وحدات المدفعية من نفس المكان .

كما يتفق كذلك مع رواية ألونسو دى سانتا كروث ، الذى يقول : إنهم صعدوا عن طريق نهر شنيل من باب لوس مولينوس وريالخو ، حتى وصلوا إلى الباب الرئيسى للحمراء ، (على الرغم من أنه كان من المفروض أن يمر الملك من هذا الطريق) .

وفيما يختص بمصلى سان أنطونيو البيبخو ، الذى يذكره ، وغير الموجود حاليًا ، فقد كان فى المكان الذى نطلق عليه اليوم : حى كينتا اليجرى ، على الجانب الآخر من نهر شنيل ، ويواجه عقبة لوس مولينوس ، ذلك المكان الذى أمر منه بعمل المسار المذكور ، كما كان يطل على الباب الذى كان يحمل نفس الاسم ، وقد تلاشت معالمه اليوم ، ويسمى « وجار » ، وهو ليس إلا « باب النجدة » ، أو باب « لوما » ، ذلك الباب الذى اتفق عليه فى المعاهدات ليربط « باب الأعشار » ، الذى كان يطل على ربض النجدة ، أو « لوما » ، وقد كان يقع خارج أسوار المدينة ، ويسمى اليوم : عقبة لوس مولينوس ولاس بالماس .

ومن هذا الجزء كان عليهم الدخول ، ومن هناك الصعود من ذلك الجانب الذى كان مملوءًا بالغوطات (الحدائق) على امتداد الأراضى ، والتى سميت - فيما بعد - باسم ميدان الشهداء (لوس مارتيريس) ، ومن هناك واصلوا الطريق الطبيعى ، والدخول من باب الأراضى السبعة « سييتى سويلوس » ، الذى كان أبو عبد الله قد خرج لتوه منه .

ومن بين الإشارات التى يمكن الاستفادة منها ، إشارة رودريجيث أرديبا التى تورد تفصيلاً أن أبا عبد الله كان قد نزع الشارات الملكية ، ومن ثم تقبل رواية هيرناندو دى بائيثا ، على الرغم من عدم ظهوره لحظة حدوث ذلك .

والنقطة الثالثة التى يمكن أن تمثل أهمية لروايته ، هى التى يصف فيها أبا عبد الله مع الفرقة التى تصعد ؛ إذ يقول أنه بعد تحية الملك العربى للكاردينال ، التى اتسمت بالود الكبير ، انتحى به جانبًا ، وتحدث معه سراً لفترة وجيزة ، وبعد ذلك رحب به بصوت مسموع حتى يسمعه الجميع من القوات التى كانت تصعد إلى الحمراء التقت بأبى عبد الله ، وأنه أفضى لهم سراً بالنتيجة السعيدة التى حصلت عليها البعثة تلك الليلة ، وأنه رفع صوته عاليًا لكى يرحب بهم رسميًا ، على الرغم من أن الكاردينال لم يكن من بين الحاضرين ، كما سبق أن أوضحنا ، بما فيه الكفاية ، ولم يتم صعود كونت تنديبا حتى بعد لقاء الملوك الكاثوليك .

ولقد يقبل البعض من مؤرخى القرن السابع عشر هذه الرواية بابتهاج وسرور ، وبينما نرى أن برموديث بدراثا ، وسالا ثار اى ميندوثا ، وهنريكيث خوركيرا ، يؤكدون مصداقية رواية رودريجيث أرديبا ، ويكررونها مع اختلافات طفيفة ، نجد أن بليدا ، وارباكا ، يقفان أمامها بحذر ، أما اوردينيث دى ثينايوس ، الذى اقتفى هدى ونهج مارينيو سيكولو ، فإنه يذكر فقط الأسقف هيرناندو دى تالابيرا .

وحتى الآن مازال هناك الكثير : يعارض بورينيو الرواية صراحة فى قسمها البيوغرافى ، ويذكر فقط كونت تنديبا ودون جوتيرى .

حادثة الأسرى :

حين نتحقق من حدث الاستسلام ، سنجد حادثة الأسرى تتصادف مع وصول الملك العربى ، (أو ربما فى أعقاب ذلك مباشرة) . ويقص الرواة هذه الحادثة - التى التزم المؤرخون المعاصرون الصمت حولها - بإجماع نادر وغريب ، ولا أدرى ما السبب ؟ .

وفى القرن السادس عشر يعاد بث حادثة الأسرى وإعلانها من جديد ، بوصفها واحدة من الأحداث والتقاليد المفقودة ، التى يعاد نسج خيوطها ، والأخذ بها فى الحسبان .

وأود الإشارة إلى عدد كبير من الأسرى الذين كانوا يشكلون موكبًا دينيا ، والصليب على رؤوسهم ، وينشدون النشيد المقدس الذى خرج من الحمراء ، عند لقاء الملوك للحظات ، وقبل الاحتفال المهيب لرفع الصليب والبيارق والرايات .

وترد الإشارة لدى ثيفوينتيس ، وألونسو بالنسيا ، وكذلك لدى المؤرخ الفرنسى المجهول النسب ، ولكن الذين يقولون لنا الحقيقة - بدون أدنى شك - هما : برناردو دل روى ، وابن بلده ، المجهول النسب كذلك ، اللذان ظهرا من بين المكلفين باصطحاب الأسرى حتى مكان الملوك ، وبعد ذلك حملوهم إلى « سانتا فى » .

ولا يقدم برناردو دل روى عدداً للذين كانوا قادمين ، ولم يقل لنا ماذا كانوا فاعلين أثناء الغناء وإلقاء النشيد المقدس ، ولكنه أكد مجدداً أنهم كانوا قادمين فى موكب حاملين الصليب، وكانوا يحملون صورة العذراء على سلاسل ؛ وفى رواية المؤرخ الإيطالى تظهر صورة العذراء ، ولكن عدد الصلبان ارتفع إلى ثلاثة ، وفى حوارات فيراردوس أحيط اللقاء بكل الظروف المأساوية الممكنة .

ومن بين المؤرخين المعاصرين يشير مارينيو سيكولو إلى الحادثة فقط ، (وإشارته تأتى دائمًا على خلاف مع بقية المؤرخين) ، وقد خلط الرواية - لعدم معرفته للموضوع بوضوح - حينما اعتقد أن خروجهم من الحمراء مع الرهائن ، بعد الاستيلاء الرسمى فى نفس اليوم الثانى من يناير ، كما نقل على لسان أحد الأسرى ، أسقفًا ، كلمات شكر مؤثرة .

ويبدو أن مؤرخى القرن السابع عشر يجهلون الأمر كله ، باستثناء ثوريتا .

وفى القرن الثامن عشر هناك فريق يحذف الحادث ، وآخر يقصه ويرويه ، ومن بين الفريق الأخير نجد اباركا الذى يعد الوحيد ، يخصص للموضوع مساحة كبيرة ؛ إذ أورد على لسان الملك جملاً مؤثرة .

رفع الصليب والبيارق :

يجب أن نذكر ثلاث نقاط بالترتيب حول هذا المشهد :

أولاً : فى أي برج تم تنصيب البيارق والأعلام ؟

ثانيًا : من قام بذلك ؟

ثالثًا : كيف تم هذا الاحتفال المهيب ؟ .

وفيما يختص بالنقطة الأولى فإنها توضح لنا بجلاء الخلط بين الروايتين التى تتعلق بمرحلتى الدخول - السرية والرسمية - إذ بينما تشير الغالبية من الرواة والمؤرخين المخضرمين والشباب إلى البرج الأعلى ، أو برج الأجراس ، الذى يطلق عليه اليوم اسم " برج لابيلا " ، فإن البوبجار لم يذعن لإغفال اسم دون جوتيرى ، على الرغم من الصمت عن الدخول السرى ؛ حيث يشير إلى برج قمارش ، الذى نعرف عنه أنه كان مكان مقابلة دون جوتيرى مع أبى عبد الله ، وحيث من المحتمل أن يكون قد تم فيه رفع السبعة عشر بيرقًا ، التى أشار إليها برناردو دل روى ، وابن بلده المؤرخ المجهول النسب .

والإشارة إلى هذا البرج الأخير جاءت كذلك عند المؤرخ الفرنسى المجهول الهوية ، وقد التقطها فرنانديث دى أوڤيدو ، مروراً بالآثار ، وميندوثا ، وبوربنيو ، الذين - فيما يبدو - كانوا يتابعون « البوبجار » عن قرب .

ولكن هناك شيئًا فى رواية ألونسو دى بالنسيا ، التى ربما تكون المفتاح لتوضيح هذا اللبس والغموض ؛ حيث يؤكد أنه بعد أن نصب الصليب فى الجزء الأعلى من الحمراء . وأنشد النشيد المقدس « تيديوم » ، وضعوا بيرق : شانت ياقب « على جزء الصليب » مما يتفق مع الإشارة الواردة فى الجزء الأكبر من المصادر المستخدمة ، التى تصف الاحتفال كما لو كان قد تم فى فترتين زمنيتين متتاليتين .

وفى هذه الفقرة بالتحديد ، يبرز بيرنالديث معرفته بالدخول السرى ، التى لم يستطع تخصيصها بالجملة التى تقول : « ... وبعد ذلك أظهر من بالداخل راية شانت ياقب » ، ومن ثم يشير إلى قوات " دون جوتيرى" ، حيث ميزها عن القوات التى كانت قد أوشكت على الوصول ، ورفعت الصليب قبل ذلك بلحظات .

ولسوء الحظ فإن ثيفوينتيس لم يوضح لنا شيئًا عن كل هذا ؛ إذ بعد أن قص علينا أنهم أصبحوا فى « برج عال للغاية » اقتصر على القول بأنهم أصبحوا « الطبقة العليا » مفترضًا أن الشخصية الكبيرة التى كان يتوجه إليها على معرفة كافية بما كانت عليه مراسم الاحتفال.

إن قبول رواية ألونسو دى بالنسيا ، وإشارة بيرنالديث ، والمحصلة التى وصلنا إليها ، قد تفسر السبب فى أن بعض المؤرخين لا يذكرون إلا البيرق الملكى مع الصليب ، وآخرين يذكرون

بيرق شانت ياقب فقط ، على حين يذكر الذين يشيرون إلى البرجين ، أحيانًا برجًا ، ويذكر آخرون البرج الآخر ، ومن ثم فمن المحتمل أن يكون هذا الشرف موزعًا بين الاثنين ، بشأن رفع الصليب على برج لافيلا ، بوصفه الأكثر ارتفاعًا ووضوحًا ، عند النظر إليه من ناحية السهل المنخفض ، ورفع علم (بيرق) شانت ياقب ، على الأقل ، على برج قمارش وقصر أبى عبد الله ومقر سكنه رمزًا للسيطرة ، وربما يرفرف عليه أيضًا البيرق الملكى .

أما النقطة الثانية التى نبحثها وهى : من هم الذين قاموا بهذا الاحتفال ؟ فإنها تطرح علينا أيضًا بعض الروايات ، ومن الواضح أن الصليب الذى وضع على قمة الحمراء كان خاصًا بالكاردينال ميندوثا . وفيما يختص بالشخصيات كانت هناك شخصيتان حاضرتان دون جدال هما : كونت تنديا ، والأسقف هيرناندو دى تالابيرا ، وذلك حسبما رأينا سلفًا . وكان هذا الأخير هو الذى نصب الصليب ، والأول هو الذى رفع البيرق الملكى ، وذلك وفقًا لإشارات الجزء الأكبر من المؤرخين ، ويبقى أمامنا التحقق من رفع بيرق شانت ياقب ، وقد سبق أن رأينا أن برنالديث يقول لنا : « من الداخل » ، وأنه بوجود القائد الأعلى لليون ، فيبدو أنه كان هو، ولكن الوحيد الذى يثبت ذلك هو : بيرموديث بدراثا ، الذى يدور حوله الجدل : إذ يقرر فى مصالحته اعتقاده بأنه كان على يسار الكاردينال ، { وإن كنا قد استبعدنا حضوره } .

ويذكر البولجار ، وفرنانديث دى أوثييدو ، وهنريكيث ديخور كيرا ، اسم « دون جوتيرى »، ولكنهم لا يقولون : إذا كان قد تم التحقق من هذا العمل ، يقول برناردو دل روى عن كلا البيرقين : بيرق شانت ياقب والبيرق الملكى ، إن كليهما ، « كانا فى أيدى شقيق كونت ثيفوينتيس » . ويؤكد رودريجيث أرديا أن الكاردينال بذاته هو الذى كان يمسك البيرقين ، وجاء أباركا ليكمل إطار الروايات مؤكدًا أن كلا البيرقين - مثل الصليب - رفعهما كونت تنديا ودون بيدرو دى جراندا ، حيث كان معينًا وزيرًا أكبر للمدينة .

أما بقية المؤرخين فلم يذكروا شيئًا ، أو التزموا الصمت حول رفع بيرق شانت ياقب ، ولم يقولوا من كان بيده البيرق ، ومن ثم فإنه على الرغم من وضوح الأمر بأن الصليب رفعه هيرناندو دى تالابيرا ، والبيرق الملكى رفعه كونت تنديا ، فبالنسبة لبيرق شانت ياقب علينا أن نوافق على فرض أن القائد الأعلى لليون " دون جوتيرى دى كارديناس" - ووفقًا للنظرية المنطقية - هو الذى رفعه ، ولكن بدون الوصول إلى التحقق والتأكد الموثق .

وإلى جانب هذه الشخصيات الرئيسية ، ظهرت فى الروايات والأخبار أسماء بعض الشخصيات التى حضرت الاحتفال ، سواء التى كانت تشكل مجموعات مع الذين صعدوا إلى الحمراء ، أو سواء بين الذين ظلوا يشكلون موكب العائلة الملكية .

ومن بين الفريق الأول تأكد حضور ماركيز فيينا ، ودوق اسكالونا ، الكونت ثيفوينتيس ، وشقيق الكونت ثيفوينتيس ، وأسقف كاجلياري ، وأساقفة أكيلا ووادى آش ومالقه ، وأيضًا أسقف التونيس الذى لم أتحقق من شخصيته .

ومن بين الذين ظلوا أسفل - فيما يبدو - وإن كانوا بعد الاحتفالات صعدوا إلى الحمراء ، ظهرت شخصيات الكاردينال جونثاليث دى ميندوثا ، والسيد « سنتياجو » ودوق قادش ، وأسقف أشبيلية ، ودوق مدينة شذونه ، وكونت أورينيا ، ودون ألونسو دى أجيلار ، وكونت قبره .

والنقطة الثالثة والأخيرة من الحادثة المتعلقة بصعود الصليب ، والبيارق التى تتعلق بالاحتفالات الباقية ، التى صاحبت الحدث الرئيسى ، لاستكمال هيبتها وعظمتها .

وليس هناك جدال فى أنه قد تمت صلاة الشكر بنشيد مقدس ، وربما كانت بعد رفع الصليب مباشرة ، على الرغم من أن بعض المؤرخين يفترضون ذلك ، بعد رفع كل الشعارات والرايات . واستمرارًا لذلك ، وبعد البيرق الملكى ، وبيرق شانت ياقب ، أعلن قائد السلاح من شرفة القلعة - نفسها - سيادة الملوك الكاثوليك على مدينة غرناطة ، وذلك فى خطاب مختصر - ظهر بعد ذلك مطولاً ، وبتغييرات متعددة ، من رواية إلى أخرى - ولكنه يحتوى فى جوهره على دعوة شانت ياقب للاعتراف بالمساعدة الإلهية ، والإنسانية ، وإعلان أن غرناطة أصبحت منضمة لمملكة قشتاله .

ولقد اتفقت كل الروايات على أن الاحتفال كان مثيرًا للغاية ، وبخاصة الذين حضروه ، وذلك بالتأكيد على أن مجموع الحاضرين قد ركعوا ؛ ليقدموا الشكر لله ، وهم يسكبون الدموع ، ويعبرون عن عاطفتهم الجياشة ، فى حين أن وجوه العرب كانت تعكس مظاهر الحزن والأسف .

وبانتهاء حفل الإعلان سمعت طلقات قاصفة ؛ حيث أطلقت كل أنواع الأعيرة النارية ، ودقت الأجهزة الموسيقية العسكرية ، وقد عدت كل الروايات أنواع المقذوفات ، والمدافع ،

وإطلاق الأقـواس ، والنفخ فى الأبواق ، وقـرع الطبـول والدفـوف تلك التى كـانت تدق أعلى وأسفل القلعة ، كما قال بذلك المؤرخ الإيطالى .

وبالانتهاء من كل هذا اقترب كبار القوم ، والفرسان : لتقبيل أيدى دون فرناندو بصفته ملكًا لغرناطة ، وذلك إذ صدقنا رواية ثوريتا ، الذى يعد المصدر الأول الذى وجدت عنده هذا النبأ .

تعزيز قوات وفرقة الحمراء :

وما أن انتهت مراسم الاحتفال ، حتى بدأت حشود المسيحيين فى الإسراع للصعود إلى الحمراء ، يدفعهم حب الاستطلاع والفضول ، لرؤية هذا المكان الذى تحوطه الأسوار ، والتمتع بامتلاكهم إياه .

ويقول ثيفوينتيس بما أنه كان محظوراً الدخول إلى داخل المدينة ، إلا أن الذين دخلوا فى القلعة على الأقدام ، وعلى ظهور جيادهم ، كانوا بالكثرة الكبيرة ، التى لم تتمكن الشوارع من احتوائهم .

وفى نفس الوقت أرغم العرب على تسليم أسلحتهم سواء الدفاعية ، أو الهجومية « باستثناء بعضها التى أخفوها » ، كما يقول بيرناديث بذلك .

ونفس الشىء يذكره كذلك البولجار بالتفصيل ، حول إخفاء الأسلحة والتستر عليها ، ويؤكده لنا فرنانديث دى أوثييدو ، فى روايته عندما أشار إلى أنه فى شهر يونيو من ذلك العام وجد فى المدينة « منجمًا أو كهفًا مملوءاً بالأسلحة » .

وحول هذا التفصيل الخاص بالتسليم يقدم ثيفوينتيس معلومة إضافية يحدد فيها نوعية الأسلحة التى تم تسليمها . قائلاً : إنها كانت باستثناء البنادق ذات المواسير الطويلة «وطلقات البارود » التى سلمها العرب فيما بعد .

وبالإضافة إلى حب الاستطلاع من جانب الزوار ، تأكد أن تعزيز فرقة القلعة بدخول القوات الجديدة ، الذى يتفق عليه المؤرخين ، أدى إلى تعيين قائده الجديد كونت تنديا رئيسًا أعلى ، وفيما يبدو أنه كان يرافق دون دى كارديناس .

ويقدم لنا برموديث بدراثا خبراً لا يورده الآخرون ، وهو أن الملك وضع حراسًا على الحمراء، هما القبطان خوان دى تروخيو - الذى عهد إليه بمهمة « تورى دل أجوا » - والقبطان

جوثمان- الذى عهد إليه بالباب الرئيسى . ولقد بلغ عدد الجنود المترجلين ، وعلى ظهور الجياد ، من خمسة إلى ستة آلاف تقريبًا فى الإجمال ، ويتباين ذلك بوضوح حول الأرقام الصحيحة ، من رواية إلى أخرى .

وبالنسبة للمؤرخين العرب ، يشير المقرى ومؤرخ الأسكوريال ، المجهول النسب ، إلى الموضوع بأنه تم على الفور تزويد تلك القلعة ، بكميات كبيرة من المؤن ، والبارود ، والمدفعية، وتركوا فيها بعض قوادهم وقباطنهم ، وعاد الملك المسيحى إلى معسكره .

كما نجد كذلك لدى برناردو دل روى خبراً عن الإمداد والتموين ، يقول فيه : إنه قد دخلت ٣٠٠٠٠ حمولة من الدقيق و ٢٠٠٠٠ من الشعير ، ويكرر هذا البيان - تمامًا - المؤرخ الإيطالى ، المجهول النسب ، ولكننا لم نر لدى أى راوٍ آخر أو مؤرخ مسيحى ، شيئًا من ذلك.

ماذا فعل الملك العربى بعد ذلك :

ويبقى لنا الآن معرفة ماذا فعل كلا الملكين العربى والمسيحى ، بعد أن انتهت مراسم الاحتفالات التى وصفناها .

وتنقسم الآراء حول أبى عبد الله إلى ثلاث مجموعات :

أ - الذين يعتقدون أنه عاد إلى المدينة ، إلى القصبة ، حيث كانت فى انتظاره بقية أسرته الملكية .

ب - والذين يعتقدون أنه ذهب إلى مخيم « سانتا فى » حتى تم تسليم كل الأسلحة ، وتم وضع الفرقة العسكرية فى كل المدينة .

جـ - والذين يؤكدون أنه توجه مباشرة إلى وادى برشانه ، حيث منحه الملوك الكاثوليك أرضًا وإقطاعية .

وعلينا أن نرى الآن كيف تسير هذه الآراء :

أ - يعد ثيفوينتيس الأول الذى يقول أنه بعد انتهاء المراسم الخاصة بالاحتفالات ، استودعها ، وتوجه معه « حتى مسكنه » رودريجو دى أيبوا ، وجونثاليث فرنانديث دى أجيلار ، على حين أن الملوك الكاثوليك ، والجيش المسيحى ، كانوا قد عادوا إلى المخيم . ويشارك نفس الرأى البولجار ، الذى يقول : إنه ذهب إلى القصبة . أما ثوريتا ، فإنه يؤكد أنه دخل فى المدينة . على حين يؤكد بيلدا نفس الشىء .

ب - ومن الممكن أن تقوم هذه الرواية على أنه تم احتجاز الملك العربى لفترة زمنية ، دون أن يتركوه يرحل ، حتى يتم التحقق من تسليم الأسلحة ، وتعزيز الحمراء فى نفس ذلك اليوم ، والسماح له بالذهاب بعد ذلك ، وهذا جعل بعض المؤرخين يعتقدون أنه قضى عدة أيام فى « سانتا فى » .

والنبأ الأول يذكره لنا عن هيرناندو دى بائيثا نفسه ، الذى يقول : إنهم حملوه إلى حيث مقام الكاردينال ، حيث كان تحت حراسة شقيق هذا الأخير ، " دون بدرو هورتادو" . ويمكن أن يقدم ذلك لنا تفسيراً ، يقول : إن هذا المقام ليس هو المخيم ، وإنما هو مكان مؤقت أقيم على رملة شنيل للراحة على مدار اليوم .

ويلتقط هذا البيان مارينيو سيكولو (الذى يستقى معلوماته دائمًا من بائيثا) مؤكداً أنهم حملوه إلى « سانتا فى » .

ويقبل هذا الرأى رودريجيث أرديا فى القرن السادس عشر ، مزخرفًا روايته ببعض التفاصيل ، ومؤكداً أنه حيث ظل تحت الحراسة كان ذلك فى خيمة « دون هورتادو دى ميندوثا » ، شقيق الكاردينال .

ويؤكد بورينيو في القرن السابع عشر كذلك ، أن الكاردينال استضاف الملك العربى ، حتى تم تسليم كل الأسلحة ، وتنفيذ ما تم الاتفاق عليه .

جـ - أما المجموعة الثالثة فهى الكثيرة والمتعددة ، وربما يرجع ذلك إلى نوع من تصفية الحسابات : أين توقف ؟ وهل دخل أم لا ؟ وهل ظل زمنًا أو أيامًا فى « سانتا فى » أم لا ؟.

ويظهر لنا فى هذه المجموعة برنالديث ، وكذلك فرنانديث دى أوفييدو ، ومارمول كارباخال، وبرموديث بدراثا ، وسالاثار اى ميندوثا ، وهنريكيث دى خوركيرا ، واباركا .

وهذا يعنى : اثنان معاصران من القرن السادس عشر أحدهما ، وجميع مؤرخى القرن السابع عشر تقريبًا ، باستثناء : بليدا الذى يظهر فى المجموعة (أ) . ومن بين كل هؤلاء علينا أن نبرز تأكيد مارمول كارباخال الذى يقوم ، فيما يبدو ، على شهود عيان ، ويؤكد أنه عند انفصال الملوك عاد أبو عبد الله إلى أندرش ، ليتوجه إلى البشرات ، ودون أن يدخل - حسب بعض الموريسكيين من كبار السن الذين كانوا يؤكدون أن العائلة كانت قد خرجت فى نفس الوقت الذى خرج فيه .

ومن كل هذا ، ربما تكون الحقيقة : أنه بقى فترة زمنية فى مخيم الكاردينال ، فى نفس الوقت الذى يتم فيه تسليم الأسلحة ، وتعزيز فرقة الحراسة ، وأنه حينما ذهب الملك المسيحى لتناول الغداء (ثوريتا وبليدا) وأنه بعد انتهاء كل تفاصيل ودقائق التسليم ، مر بالقصبة ليأخذ أسرته - أو ببساطة لتخرج أسرته - حيث سلك فى النهاية طريق البشرات ، فى الوقت الذى عاد فيه الملوك الكاثوليك ، والجيش المسيحى إلى معسكراتهم .

وفى هذه الحالة ، يمكن أن تعنى كلمات ثيفوينتيس أن رودريجو دل اوبيوا وجونثاليث وفرنانديث دى اجيلار رافقاه ، ليس إلى القصبة وإنما إلى « المقام - المسكن » الذى قدمه له الكاردينال فى رملة شنيل .

وهناك خبر يثير الفضول ، يقدمه لنا البولجار بالنسبة للمهزوم ، حينما يقول : إنه فى هذا اليوم قام أبو عبد الله بعملين يبعثان على الحزن : الأول ، أنه كما كانت العادة عند الملوك العرب أثناء عبور النهر على ظهر الجواد ، كان على الفرسان الآخرين الذين يرافقونهم أن يغطوا أقدامهم وركابهم ، ولكنه لم يسمح لهم بذلك ، والثانى ، أنه بعودته إلى القصبة (لأنه من مؤيدى هذا الرأى) بعد الانتهاء من مراسم الاحتفال لم يرد أن يرفعوا له حذاءه (خفه) الذى تركه على أول درجة سلم ، والذى يخص الملك العربى الكبير .

وبالنسبة لتقليد « زفرة / تنهيدة العربى » لم نستطع أن نحصل على شىء سابق على مارمول كارباخال نفسه ؛ إذ ربما يكون الخبر الذى أورده ، مثل الخبر السابق ، من أصل موريسكى ، ولم يظهر أيضًا لدى المؤرخين اللاحقين باستثناء برموديث بدراثا وسالاثار اى ميندوثا .

ماذا فعل الملوك الكاثوليك بعد ذلك :

وحول هذه النقطة توجد أيضًا بعض الآراء التى تم العثور عليها ، والتى تتكون من مجموعتين :

أ - الذين يقورلون أن الملوك الكاثوليك دخلوا إلى الحمراء .

ب - الذين يؤكدون أنهم عادوا إلى المخيم (المعسكر) .

أ) ويعد برناردو دل روى أول من قدم خبراً عن دخول الملوك الكاثوليك إلى الحمراء ، والذى يؤكد أن « الملك والملكة عادا إلى مقرهما » ، ولكن لا ينبغى أن ننسى أنه حين حدث

هذا ، كـان الراوى نفسـه فى طريقـه إلى « سـانتـا فى » بصـحبـة الأسرى الذين تم إطلاق سراحهم، ومن ثم فإن شهادته حول هذه النقطة ليست مباشرة .

ونجد أيضًا عند البوجار الخبر ، وإن كان هناك تغيير فى القول بأنهم دخلوا فى اليوم التالى ليس فى نفس اليوم الثانى ، وكان فى استقبالهم الأسقف هيرناندو تالابيرا .

ولكن فرنانديث دى أوفيـيدو هو الذى وقع فى الخطأ بالكامل ، وهو شاهد قليل الثقة ؛ وذلك لصغر سنه حين وقعت الأحداث ، كما سبق أن ذكرنا مرات عديدة ، فى حين أننا نعرف معرفة تامة أنه فى الاتفاقيات تم الاشتراط على عدم دخول أحد إلى المدينة فى ذلك اليوم ، وأن الملوك الكاثوليك منعوا ذلك تمامًا ، وأن أحد ضباطهم يدعى بدرو جاسكا دى ابيلا خرق قرار الحظر ، فصدر ضده حكم بقطع رأسه ، إلا أنه تم العفو عنه بعد ذلك ، وربما كان ذلك بمناسبة احتفالات الدخول المظفر يوم السادس من الشهر .

ويقع فى نفس الخطأ ألونسو دى سانتا كروث - كما كان متوقعًا - وورودريجيث أرديبيا ، الذى دفعه غرض البحث ، واتباع نهج هيرناندو دى بائيثا ، وذلك دون التحقق من الظروف التى طرأت فى الساعة الأخيرة ، والتى أدت إلى الدخول السرى ، مما أدى إلى الخطط المعروفة سلفًا .

وينتقل الخطأ إلى مارمول كارباخال ، وفى القرن الماضى إلى سالاثار اى مندوثا ، وإلى برموديث بدراثا ، الذى يضع فى حساباته نزول الموكب المنتصر للملوك الكاثوليك من شارع جوميليس ، والخروج من باب البيرة للنوم فى « سانتا فى » . ويقدم برهانًا على ذلك رسالة مكتوبة من الملكة ، تشير فيها إلى دير وادى لب بشأن تسليم الميدان ، والرسالة مؤرخة فى نفس يوم ٢ (فى مدينة غرناطة) ، ولكن هذا لا يثبت شيئًا ؛ لأنها عبارة عن صيغة مكررة لعدة رسائل أصدرها فرناندو الخامس لعديد من الشخصيات ، ليأخذوا فى الحسبان نفس الحدث، وكلها محررة بشكل الخطاب الدورى ، وبألفاظ متماثلة للغاية .

ب) ولهذه المجموعة ينتمى كل المؤرخين غير المذكورين فى المجموعة السابقة ، ومن بينهم تبرز قيمة ثيفوينتيس ، الذى يذكر موضوع الحظر الذى كان قائمًا ، بشأن الدخول إلى المدينة ، ويؤكد بأن الملوك الكاثوليك عادوا إلى المخيم بمعاركهم المنظمة ، ويتفق ذلك مع رواية ألونسو دى بالنسيا ، الذى يقول : إن الملوك رأوا أنه من الأفضل العودة إلى المعسكر .

ولا يقول هؤلاء ، ولا المؤرخ الفرنسى ، أو الإيطالى شيئًا ، بشأن دخول الملوك إلى المدينة ، ومن ثم فإن هذا الأمر مستبعد تمامًا ، ولا حتى فى داخل أسوار الحمراء ، وكذلك بالنسبة لبرنالديث ، وهيرناندو بائيثا ، ومارينيو سيكولو ، فإنهم لم يشيروا إلى تأكيد ذلك الحدث .

ويقول ثوريتا وبليدا : إنه بعد إجراء المقابلة مع أبى عبد الله ، فإن الملك فرناندو انصرف للغداء ، وأنه بعد وصول الملكة عادا إلى المخيم ؛ حيث مرا من « أمام باب المدينة » .

وتندرج المصادر العربية أيضًا تحت هذه المجموعة ، الأمر الذى - كما يبدو لى - يقترب من الحقيقة ؛ إذ تقول تلك المصادر : « اقترب الملك المسيحى من المدينة ، وبرؤية الهدوء لدى سكانها ، وأنه لم يكن هناك مدعاة للغيرة ، استعد للدخول بقواته إلى الحمراء ، مثلما فعلت الجماهير الغفيرة » .

وبالتحديد ، تؤكد المصادر أنه بعد زيادة قوة فرقة الحراسة للقلعة « انصرف بالعودة إلى معسكره ». وهذا يعنى أنهم دخلوا ، ولكن بالقوات فقط ، وعبر شوارع ضاحية الحمراء فقط.

وفى اليوم التالى ، الثلاثاء ، توجه الملوك إلى كنيسة « سانتا فى » لأداء القداس مع الأسرى لتقديم صلاة الشكر .

وعلينا أن ننتهى بنفس الشهادة ، التى بدأنا بها ؛ أى بموجب رسالة ثيفوينتيس ، التى خدمتنا على مدار كل هذا العرض للأحداث بوصفها دليلاً لا يمكن إنكاره ، وعلى ضوء روايته الصادقة والواضحة استطعنا التحقق من كل الحقيقة ، لكل ما حدث ، ورأينا أننا استعدنا معنى جديداً لعديد من الأخبار ، التى كانت فى متناول أيدينا ، ولكنها لم تتمكن من إبلاغنا بحقيقة مغزاها .

وبالانتهاء من هذه الرواية المذكورة ، يقوم ثيفوينتيس بعرض عدة آراء من صنعه يجب علينا أن نوليها اهتمامنا هنا ، ونحن نحسب أن الله قد أعطى لهذا الموضوع نهاية أفضل مما كان منتظراً ، ومما كان يطمح إليها الملوك الكاثوليك .

وكذلك حين يشير إلى الشروط التى يراها مفيدة للغاية لصالح الملك العربى ، والتى يوضح فيها فى النهاية دهاءه حين يؤكد « وفى الآخر الذى يبقى ، أثبت الملوك الكاثوليك البراعة الطيبة ، وأنهم جعلوا أولئك العرب يغادرون المدينة دون خرق لما اتفق عليه » . وأن هذا الرأى والتقدير ، كما يراه المهزمون ، كان له طابع ودرجة مختلفة .

ويختتم ثيفوينتيس الرسالة ، بالوعد بأنه سيقدم أخباراً أكثر بما يدور ، ويحدث إذا وجد لديه مراسلاً يمكنه من إرسال هذه الأخبار إلى المرسل إليه ، ويتركنا بالفضول وحب الاستطلاع حول تلك الرسائل ، التى ستكون بلاشك ذات أهمية ، ومدعاة لإصدار هذا البحث .

الهوامش :

* المصدر : ماريا دل كارمن بيسكادور دل أويو ، مجلة الأندلس - مجلة الدراسات العربية بمدريد وغرناطة ، المجلد ٢٤ - الجزء الأول - ١٩٥٩ .

(١) يحتفظ بهذه الوثيقة فى قسم متنوعات ، سلسلة « مجالس ومدن » .

(٢) االأخبار السياسية للحدث الهام تم دراستها منذ عدة سنوات فى عديد من الأعمال والمطبوعات ، على أساس الوثائق العربية والمسيحية ، وبخاصة السيد جاسبار روميرو (الاتفاقيات الأخيرة ، والمراسلات الودية بين الملوك الكاثوليك وأبى عبد الله ، غرناطة ١٩١٠) ودراسة مورينو كاسادو الذى درس الموضوع من وجهة النظر القانونية (اتفاق غرناطة فى جانبه القانونى ، جامعة غرناطة ١٩٤٩ ، ص ٢٩٩ - ٣٣١) .

(٣) يتضح ذلك فى الرسالة التى أرسلها برناردو دى روى ، الإيطالى ، إلى صاحب فينيسيا .

(٤) نفقد جزء منها فيما يختص بالأعمال التى ندرسها ، حتى صدور الدراسات القيمة لـ " دون خوان دى ماتا كارياثو "، من خلال دراسة المصادر الوثائقية ، الوثيقة السابقة .

(٥) أعد نشر هذا الأصل وفقًا للخطاب الآخر الموجه إلى نفس الشخصية من فرناندو الخامس .

(٦) سلسلة « مجالس ومدن » ، غرناطة .

(٧) إشارات هامة ومثيرة للفضول للحديث عن العرب « مكرهم ودهاؤهم الذى يتسمون به » وعن وصفه لغرناطة بأنها « أول مستعمرة فى أوربا » المرسل إليه الرسالة أسقف استورجا : دون خوان رويث دى مدينا ، راعى الكنيسة بأشبيليه ، المجلس الملكى ، الذى تولى عرش استورجا فى ١٤٨٩ .

(٨) "دون خوان كارياثو" ، طبعة فى ١٩٤٣ بعنوان : « أخبار الملوك الكاثوليك لفرناندو دل بولجار » طبعة غير منشورة ، دراسة فى جزءين » . على أساس مخطوطة جديدة لجالينديث .

(٩) يعلن بنفسه هذا العمر « ... ولم أكن هناك فى ذلك اليوم على الرغم من أن باكسى صبى يبلغ من العمر ١٣ أو ١٤ سنة » .

(١٠) ها قد رأينا فى الجداول المقدمة أن الخلط بين عمليتى الدخول إلى الحمراء ، يرجع إلى ماقبل ذلك؛ إذ يشير الخبر إلى أن الكاردينال مندوثا على رأس البعثة الأولى ، وأنه كان على مقدمة الفرقة المتقدمة التى انفصلت عن الجيش ، عند وصول القوات إلى شنيل .

(١١) « ... قيل من جانب عامة الناس أنه قد تم الاتفاق سلفًا على استسلام المدينة بين السلطان أبى عبد الله ووزيره وقواده من جهة ، وملك المسيحيين من جهة ثانية » .

(١٢) طبعة مارين أوثيتى تقول ترجمتها « إن الملك أبا عبد الله - الذى لقى مضايقات لفترة طويلة من كبار الشخصيات والفقهاء ، الذين لم ينسوا المآسى الماضية ، والخطر المحيط بهم - قد وجد طريقة ماكرة ، ليقذف بأمور الشك لدى عامة الشعب ، ضد بعض السادة الذين تقدموا فى أعمال البحث والتحرى فى الاتفاقيات ، حول الذين انتهوا فيها مع الملك والملكة .

(١٣) يشير إلى برنالديث والبولجار . جاريبدو اتينثا فى « اتفاقيات حول تسليم غرناطة » ، غرناطة ١٩١٠ ، ينشر رسائل ابن قماشة والمليح ، ويرويه للملوك والرد الذى يرسلوه (الوثائق ٦٣ و ٦٤) .

(١٤) حسب المادة الأولى من اتفاقيات ٢٥ نوفمبر ، يجب تسليم المدينة فى فترة ستين يومًا ابتداء من هذا التاريخ ولكن فى المفاوضات اللاحقة تم تقديم الموعد إلى ٦ يناير .

(١٥) فى حين أن ثيفوينتيس هو الذى على علم بهذا الموضوع بصفته أسبانيًا ، فإنه إلى هذا الخوف ، إلا أن برناردو دل روى ينسبه فقط إلى الجوع االذى عانوا منه .

(١٦) المادة الأولى من الاتفاقيات ، نص أرشيف سيمانكاس (مطبوعات مجموعة الوثائق غير منشورة، جزء ٨ ، ص ٤٢١ وما يليها) يقول مورينو كاسادو فى الاتفاقيات .... ص ٣٠٥ : إن هذا هو النص الأصلى ، وإن المنشور على أيدى برموديث بدراثا هو رسائل امتياز ممنوحة على أساس نص سيمانكاس .

(١٧) هذا هو الخبر الذى وجدته فقط عند ثورتنا .

(١٨) « ... كتب إلى الملك بما حدث ، وجاء بعد ذلك دون تأخير لاستلام الحمراء » الصفحة ٣٦ مكرر .

(١٩) تم تسليمه للرهائن مقابل إطلاق سراح أبيه حينما سقط أسيراً . نفس الاتفاقيات من المادة الثالثة، تنص على أنه فى اليوم الذى يتم فيه تسليم الحمراء سيعيدوا لهم ابنهم » ، « الموجود فى حيازة أصحاب الجلالة فى موكلين (مَوْضِع إقليم) » .

(٢٠) « .... أبناؤهم » .

(٢١) الأمر بإجلاء الأمير أبى عبد الله محمد بن على ، عن مدينة الحمراء وقصورها وأماكن الترويح بها ، وظل منتظراً دخول المسيحيين لاستلامها « إيجلاث اى يالجواس » فى « المختصر التاريخى » ... ص ٥٤ - ٥٥ يأخذ النص التالى : « وبعد الانتهاء من الاتفاقيات وتسليم حتى ٥٠٠ شخص من المدينة ...» ويواصل مع التسليم .

(٢٢) « ..... جنود عسكريون لفرناندو » .

(٢٣) الاحتفال بتسليم غرناطة ، والاحتفال بالأعياد المسيحية الرئيسية ، بحضور فرنادو وإيزابيل «ويدرج ذلك سالاثار اى ميندوثا فى الفصل ٧٠ من سيرة حياة الكاردينال » .

(٢٤) يقول ثيفوينتيس : إنهم كانوا فقط بيادق ، وقاذفى رماح ، وحاملى البنادق الطويلة ، مع بعض القادة ، يقول روى والمؤرخ الفرنسى : إن العدد الحقيقى هو ٥٠٠ فارس ، وإن البيادق ٤٠٠ ، على حين أن العدد الأخير يصل إلى ٣٠٠٠ .

(٢٥) خط السير المتوقع هو الذى اتبعوه بعد ذلك فى الدخول الرسمى . يقول ثيفوينتيس : إنه سار «... فى طريق بعيد للغاية عن المدينة » وكما يرى صراحة أنهم ذهبوا للقاء أهل العشارة الواقعة على الجانب المقابل من « سانتا فى » والبعيدة عن كل المداخل العادية ، حسب نقطة المنشأ . حول معنى واشتقاق كلمة العشارة ، توجد إشارة جارثيا جوميث ، « اشتقاق العشارة » (مجلة الأندلس ، الجزء ٢ ، ١٩٣٤ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٩) ودراسة أخرى لأوليفر اسين ، العشار (الأندلس ، الجزء (٧) ١٩٤٢ ، ص ١٥٣ ، وفيما يبدو أن معناها المزرعة أو دار التسلية .

(٢٦) الرواة الباقون من الخاصة لا يحددون لحظة الوصول .

(٢٧) يحكى « ثيفوينتيس » إخطار المليح و « روى » توزيع القوات .

(٢٨) من رواية هيرناندو دى باثيثا من خلال مدينا ومندوثا ، الجزء ١ ، ص ٢٨٩ .

(٢٩) حسب رسالة برناردو دل روى ، كانوا ٣٠٠ وحسب رواية المؤرخ الإيطالى ٦٠٠ .

(٣٠) النصوص لا توضح هذه النقطة ، ولكن يبدو أن أبا عبد الله تقدم إلى الملوك حاملاً فى يديه بعض المفاتيح بطريقة ظاهرة .

(٣١) انظر نص ثيفوينتيس ، لم ينبه المؤرخان الإيطاليان ولا المؤرخ الفرنسى لهذا ، وربما يرجع ذلك لكونهم من المجموعة التى ظلت خارج القاعة حيث تمت المقابلة .

(٣٢) يقول برموديث بدراثا : إن القداس الأول الذى تم فى الحمراء كان أمام صورة جدتنا دل بوبولو ، أو دى انكارناثيون التى كانت فى قوس الكنيسة التى تحمل نفس الاسم ، والتى كانت أول كاتدرائية فى الطابق الجديد بعد مسجد الحمراء .

(٦)
الرسائل المتبادلة
بين الأمير أبى عبد الله والملوك الكاثوليك(*)

رسالة دون فرناندو إلى أبى عبد الله

« دون فرناندو .... إلى الموقر والمحمود بين العرب مولاى أبى عبد الله ملك غرناطة له التحية مع التمنيات الطيبة .

أنهى إلى علمكم بأننى اطلعت على رسالتكم ، وعلى رسالة قادتكم : أبى القاسم المليح وابن قماشة ، من طرفكم ، اللذين كتبا رداً على خوان دى بانيشا ، كاتب قصرنا الملكى ، الذى سبقت الكتابة لكم عن أمور جديدة مماثلة ، مثل التى تطلب الآن ؛ إذ تبدو أنها زائدة عن الحد ، ومبالغ فى طلبها ، وهناك شك فى منحها ، وأنه إذا لم نتمكن من تشريفكم بها سنترك الرد عليها .

ولكن أرجو أن تتأكدوا من مدى الحب الذى أكنه لكم ، ومن تفكيرى فى الضرر الذى قد يحل عليكم ، بالاستمرار فى مثل هذا الطريق ، لذلك أرجو منكم التخلى عن هذه الفكرة ،

(*) هذه الرسائل واردة من أرشيف إيرناندو دى ثافرا ، وهى اليوم حيازة صديقى المحترم الباحث السيد / خوان اورتادو دى اميكاثا ، مثلها مثل بقية الوثائق التى ترد فى هذا البحث (الباحثة) .

والعمل على التوصل إلى نتيجة حتمية ونهائية ، وأن تضع ، مع القائد يوسف بن قماشه ، حدا لكل هذه الأشياء ، التى حددها ماركيز فيينا - القائد العام - الذى كتب لك من طرفى ، بعدم الإقدام على عملية التأجيل أو التسويف ، لأن هذا الموقف لن يحقق أى فائدة مرجوة ، وأن هذا لن يرضينى ، وأن المسئولية الآن ليست مسئوليتى ، وأن الخطأ كان خطأكم وخطأ جيرانكم بهذه المدينة .

ومن ثم عليكم بالعمل بكل الحب من أجل خيركم وشرفكم ، ومن أجل خير المدينة ، وإننا نأمل أن تقدموا الأعمال الطيبة والمساعى الحميدة ، ومن ثم فإننى أعتقد أن الأمور لن تصل إلى أكثر من الحالة التى عليها الآن ، ومن ثم يمكن تجنب الضرر الذى قد يلحق بكم وبأهل مدينتكم إذا تم التنفيذ ، وأنا مع أتباعى فى المخيم ، مثلما كتب لكم بائيثا ، ولقد أرسلت شهادة بذلك ، بأننا لن نقبل الانحراف عن الهدف المنشود ، إذا لم نتلق شيئًا يبين كيف تكون المدينة بالنسبة لكل الأمور .

وبناء عليه وضع نهاية لهذا الموقف ، ووضع سياسة للوفاق ، وأن هذا سيكون استمراراً للخدمات التى تستحقونها ، فضلاً عن مكنون الحب الدائم لكم ، وعلينا أن نكون فى موقف الثبات فى إرادتنا ، واتخاذ المساعى الحميد مثلاً يحتذى به ، وتنفيذ ما ذكره القائد يوسف ابن قماشة ، بأن يلتزم معكم بكل ماذكر ، وترونه مناسبًا ، وأن ماركيز فيينا - المذكور سلفًا- كتب لكم عن لسانى بذلك ، برضى منى ، وأرجو منكم ، وأكلفكم بإبلاغى بالأمر

أكتب وأوقع » .

رد أبى القاسم المليح على المهام التى كلفه بها إيرناندو دى ثافرا :

« وفيما تقولونه ، يقول أبو القاسم المليح لإيرنادو دى ثافرا : إننى إذا سمعت لكم ، فإنكم لن تتحملوا الخطأ ، ولن يسع الورق الإجابات والردود التى تطلبوها منى ، وإنه ما كان ينبغى العودة لتجديد الأشياء القديمة ، التى تنم عن الضيق ، وتسبب الضجر لكل الذين يسمعونها . إننى لا أريد أن يكون بينى وبينكم أى إحياء لمثل هذه الأمور ؛ إذ إننى أقدم كل الخير ، وأقدر الذى فعله أصحاب الجلالة ، عظمهما الله ، مع سيدى الملك معنا ، ولا يمكن أن ننكره إلى الأبد ، ولكن عليكم أن تأخذوا فى الحسبان - من كل هذا - الخدمة العظيمة التى قدمها سيدى الملك ، وقدمناها - نحن أيضًا - والخطر الجسيم االذى واجهناه فى الماضى للحفاظ على هذه المدينة ، حتى تنتهى ضربات نيرانكم مع أعدائنا ، وهذا لايمكن أن ينكره مسيحى أو مسلم ، وكما سبق أن ذكرت لكم ، فإنه لا داعى لتجديد مثل هذه الأمور .

إن الشرف الذى يكون لى ولكم هو أن ننشر الخير بين سادتنا ، وأن نجعل من الشر خيراً ، حتى ترقى الصداقة إلى أفضل مما كانت .

إن ما تقولونه عن المهمة الملقاة على عاتق الملك ، وعلى عاتقنا ، بالنسبة لأصحاب الجلالة، هو أنه كان هناك أشخاص تقدموا فى محاولة لقتل سيدنا الملك ، وذلك بغية القضاء علينا ، ولكن أصحاب الجلالة لم يوافقوا على ذلك ، ولم يسمحوا بأن يحدث هذا .

إننى اعتقد فى فضلكم ، وفى سلطان وقدرة ورجاحة عقل أصحاب الجلالة ، كما أننا نعتقد بأن أصحاب الجلالة من الأشخاص القلائل فى العالم ، وأن من يدخل فى خدمتهم بمثل هذه الأمور لن يخدع أبداً ، وأن من يحاول خداعهم لن تكون عواقبه حميدة ؛ إذ أن الله حباهم بسلطان وقدرة تستطيع أن تصل إلى أي مكان يريدانه لإنجاز وتحقيق هدفهم وغايتهم ، وهذا ما نريده منكم ، ونعتقد أن أصحاب الجلالة كان عليهم أن يفعلوا ذلك ؛ لأنه حسبما رأت عيناى يتمتعان - جلالتهما - بالرحمة والشفقة مع كل المسلمين والمسيحيين على السواء ، وأن رغبتهما أن يسير المسلمون والمسيحيون فى الطريق الآمن ، وأن تنتهى فى حياتهم حالات الأسر ، وعمليات القتل التى تدور بين كلا الطرفين ، وأن أصحاب الجلالة سيستحقاق الجدارة والعفو من الله .

إن ما تقولونه قد يكون سببًا بين أصحاب الجلالة وسيدى الملك ، للقضاء على هذا الخير ، وربما أحوز مغفرة الله ، بأن هذه هى نيتى ، رغبة منى فى أن ينتهى هذا الأمر حينما تحين ساعة الله ، ويأتى الوقت المناسب .

وفيما تقولونه بشأن النصيحة التى تقدمونها إلىَّ بصفتكم صديقًا ، وهى أن نقوم بأمورنا ، ونقوم بالتنسيق فيما بينها ، بعد ذلك ، وأن ما نقوم به الآن خاضع للظروف وللحظ ، ولو كان الأمر فى يدى لكان من الضرورى أن أهيىء الناس ، وأجعلهم يرقون حتى يلين موقفهم .

ويبدو لى أنكم لاتريدون أن اعتقد أن هذا الأمر مؤكد ، على الرغم من أن سيدى الملك يسعى لإنهاء الجولة مع أهل هذه المدينة ، وأنه يقوم بكل الفصول والالتزامات والمحاولات المرضية لأجلكم ، كلكم ، ولتعم السعادة أيضًا كل أهل المدينة . إن هذا الأمر بين الطرفين لا يمكن إنهاؤه ، حتى يتم تأمين ذلك من الآن وحتى شهر مارس . وأرى أن هذا لا يشكل صعوبة أو ضيقًا لكم بشأن هذا الموضوع ؛ حيث يبدو لنا هذا الأمر كشخص واحد . والحقيقة أقول : إذا كنتم تريدون الإسراع فى هذا الموضوع فإنكم تريدون ألا نكون أصدقاء ؛ لأننى لا أفهم كيف أقوم بالالتزام بأمر دون أن أدركه .

وعما تقولونه بشأن ما ظهر لكم من نصيحة بالكتابة من طرفكم إلى الوزير لإغوائه عن طريق رسالة تحمل مساعى حميدة وأسبابًا وجيهة ، أو أن تجعلوا جونثالو فرنانديث يقوم بكتابتها إليه ، وأن يحملها « أوليلى » فسوف أقوم أنا بتسليمها ، وسأرى ما سيقوم بالرد به عليكم .

وعن قولكم بأننا نمتلك الآن الوقت الأفضل لفهم هذا الأمر ، فإننى أقول لكم : إننى أريد أن أنفذه ، وسأضع يدى فيه ، وستكونون أنتم وأنا أصحاب الثقة والأمان للجميع ، وتأكدوا أنه لايوجد أى شخص يستطيع أن يفعل ذلك مع سيدى الملك سواى - وهذا ليس مديحًا لذاتى - لخدمة أصحاب الجلالة بموجب الحب العظيم الذى أكنه لجلالتها ، وحبًا فى خدمتهما .

ومن ثم فإننى أنفك من اتباع هواك بالحديث بعد ذلك ، عن هذا الموضوع ، وسأخرج منه مثلما خرجت فى المرة السابقة ، ومثلما تركتنى فى الهواء ، ولكننى أريد أن أبدأ وأفهم ذلك تمامًا ؛ حتى نسير وسيدى الملك فى طريق الخير . ولقد تحدثت مع سيدى الملك طويلاً ، حول هذا الموضوع ، ولكن اليوم الذى جئت فيه إلى المدينة ، كنت أنا قد ذهبت للقاء الملك ،

والحديث معه بشأن هذا الموضوع . وفى نفس الوقت حدث تمرد فى المدينة ، وأجبرت على الخروج مع الناس ، ولكن هنا ليس هناك من بد سوى أن أجرى بالفرس ، وبعد العدو بقليل جرحت قدمى ، وأصابنى الجرح بالمرض .

ولكن مع كل هذا ، فإنه فى العودة تحدثت مع سيدى الملك ، وأشرت عليه بالرسول الذى كان قد جاء وقال لى : عليك بالذهاب والراحة ، وسنواصل حديثنا فيما بعد ، وقلت له عن الرسالة التى جاءت من « موكلين (موضع إقليم) » من ابنه ، وكانت سعادته غامرة ، وقال لى أن أرسلها بعد ذلك إلى سيدتى الملكة ، التى سعدت بها ، وأرسلت تشكرنى كثيراً بعد ذلك ، وأرسلت لى بعض الأشياء الصغيرة لملابس الأمير « أحمد » ، وأيضًا قليلاً من المال التى حملها حامل الرسالة « أوليلى » ، وقد أثنت سيدتى الملكة على كثيراً ، ورجت من أصحاب الجلالة أن يرسلا بعد ذلك الرسول الذى يذهب إلى موكلين (موضع إقليم) حتى يرتدى الأمير ملابس العيد ، وأن ذهاب « أوليلى » إلى موكلين كان موفقًا ، وأن هذا كان سبب خير ؛ إذ تبين تخفيف حدة التوتر القائمة .

وأنمى إلى علمكم أنه حينما أتيتم إلى المدينة كان هناك فارس مسيحى ، يسمى الوزير ، يقول : إن القائد الأعلى كان يريد أن يتحدث معه ، وكما يبدو لى ، فإن هذا كان أمراً مقززاً ؛ إذ إن هذه الأشياء لا تقال أمام الجنود والفرسان ، وهذا ليس عملاً طيبًا ؛ إذ لو كان السيد القائد الأعلى يريد الكتابة للوزير وإحضاره رسالة أوليلى ، فإننى كنت سأسلمها له .

وأنمى إلى علمكم كيف خرج اثنان من الأسرى المسلمين من قلعة يحصب ، وأحضرا رسائل كثيرة لسيدى ، وأرجو أن تحتفظ بسر هذه الأشياء ، حتى ينتهى موضوع التفاوض ، وإذا اكتشف السر - بالمصادفة - لن يمكننا أن نفعل شيئًا .

وأنمى إلى علمكم أنه حينما جاء الوزير من أشبيلية ، انتفض أهل المدينة ، وتوجهوا إلى «ابن مرضى » وطلبوا من سيدى الملك أن يرفع الحرب . وأن سيدى الملك قال لهم إذا أردتم أن تعطونى كل ما نحتاجه للفرسان ، وأشياء أخرى ، فإننى سأفعل ذلك ، ووردوا جميعهم بالإيجاب بأنهم رهن إشارته حينما يأمرهم بذلك ، وطلب منهم أن يفعلوا الكثير ، وحينئذ استمر سيدى الملك فى رغبتهم ، والآن يريد سيدى الملك تضييق الخناق عليهم ، والطلب منهم تنفيذ ما قالوه بألسنتهم ، وظل يضغط عليهم حتى أن المهمة عليهم عظيمة ، وجعلت السياط على أعناقهم كل يوم ؛ أن يدرك الناس أهمية العودة إلى رجاحة العقل .

ولا ينسى أصحاب الجلالة أن سيدى الملك لم ينس معروفهم نحوه ، ولا أفضالهم عليه ، وإنما عوادى الزمن كانت سببًا فيما حل الآن .

وإننى أقبل الأيدى ، وأيضًا أقدام أصحاب الجلالة ، وإن ابنى تلقى الكرم ، وأفضل أن يكون لدى أصحاب الجلالة ، ويقبل أياديهم الملكية أهل دارى الذين يثنون عليهما كثيراً ، وعلى كل من بطرفكم ، وإذا أردتم شيئًا من هنا سوف أرسله لكم ، وتحياتى إلى الصديق الحقيقى - بلا شك - كاتب هذه الرسائل .... » .

ملحوظة : الهوامش بهذا النص عبارة عن حذف كلمات ، وإضافة أخرى فى المصادر المختلفة ، ولا تعنى اختلافًا فى المعنى (الباحثة) .

رسالة أبى القاسم المليح إلى إيرناندو دى ثافرا :

« صديقى المفضل وأخى الحقيقى

لقد تلقيت رسالتكم التى تقولون فيها بأننى لم أكتب إليكم ، وتطالبون على وجه السرعة بإيفاد شخص موثوق فيه من طرفنا للقاء أصحاب الجلالة ، للحديث حول هذا الأمر ، وتذكرون بأن أصحاب الجلالة لم يروا رسالتى ، وأنهم أصدروا أمرهم بإيفاد هذا الشخص . ثم العلم بأن كل ما قاله لكم ذلك الإنسان المتقلب عن لسانى كذب ، وأنه لم يتكلم معى ، ولم أرسله ، وأنه لم تكن نيتى عرقلة هذا الأمر ، وإنما إخفاء السر ، ولأسباب أخرى لا يمكننى أن أفصح عنها هنا ، وأنكم حددتم سرعة أن أرسل لكم بناء على قدر الصداقة بيننا التى أكنها لكم ، واعتزازى بخدمة أصحاب الجلالة ، عظمهما الله ، وأنه رغبة منا فى أن نسرع بهذا الأمر بأن أجد طريقة للحديث مع الوزير ابن قماشة ، ومعرفة نواياه نحوكم دون أن يعرف اتجاهى ، وإن كنت أحسنت القول معه ، ولاحظت النوايا الطيبة للحديث والمناقشة ، وأعلنته بما كتبته منذ أول مرة حتى آخر رسالة وجهتها إليكم ، وفهمت منه إنهاء الأمر وتقريره ؛ إذ اتفق معى على أن نكتب لكم حرفيًا من جانبه ، ما يلى : رداً على ما تقولونه « ليسمع السادة الملوك ، سادتنا ، بعظيم السرور أنكما الاثنان أصحاب قلب واحد لخدمة مليككم - سيدكم - وأنكما الآن على يقين من أن كل الأمور تسير على ما يرام لمليككم - سيدكم - ولكما » .

وأود أن أنمى إلى علمكم بأننى سبق أن كتبت لكم الأشياء المماثلة لهذا الأمر ، وذكرت لكم كل ما أشرتم إليه فى رسالتكم ، وما لم تذكروه فقد أخرجته من جعبتى ، حتى تعلموا بكل شىء ، وليكن سراً بيننا أن تعلموا مدى الحب والصداقة التى يكنها سيدى الملك - أبو عبد الله - لأصحاب الجلالة - الملوك الكاثوليك - والخدمات التى قام بها ، وفكره الدائم والعظيم الذى يقدره أصحاب الجلالة ، وأن كل ما حدث كان ضد إرادته ، وأنه بعد ذلك كتب للسادة الملوك من القلعة ، وكما تعلمون فإن سيدى الملك لم يرد من أصحاب الجلالة الجواب ، وأرسل إبراهيم دى روبليدو بشأن حالة الأمير سيدى أحمد - ليفرج عنه الله - وأنه لم تكن رغبته سوى أن يبدى للناس بأنه كان يتكلم من أجل ابنه ، وكان يتكلم من أجل تجديد عرى الصداقة والحب الذى كان يكنه لأصحاب الجلالة ، ولقد جاء الرد مع إبراهيم دى روبليدو ، وبالطريقة التى تعرفونها ، والتى أثارت غضبه ، وأنه فى كل مرة يتذكر تلك الردود ينقلب إلى الغضب ، وأنه لايريد أن يسمع تبريراً ، واعتقد أنه نسى كل تلك الردود ، وأن حالته الآن

أفضل من ذى قبل ، وليكن سراً بيننا بأن الأمور هدأت ، وعاد الحال إلى ما كان عليه فى البداية بين أصحاب الجلالة وسيدى الملك ، وأننى سأنتظر منكم الرد على كل ما كتبته لكم .

وأود أن أنمى إلى علمكم بأنه يمكننا التحدث - أنا والوزير - مع سيدى الملك ، من خلال الود القائم بيننا ، عمّا مضى ، وعمّا هو آت ، والبعد عن تلك الأخبار الكاذبة والمزيفة ، أو محاولات الخداع ، وأنه بعودة الأمير ستعود الأمور إلى مسارها ، وتقرير ما اتفق عليه ، وإليكم أقبّل أصحاب الجلالة - الملك والملكة - عظمها الله ، وكذلك الوزير الذى ينتهز الفرصة معنا ، ليبعث بتحياته إلى أصدقائى الكتبة .

وحينما تريدون أن ترسلوا لنا شيئًا سريًا ، أرجو أن تضعه فى رسالة ملحقة ، داخل الرسالة الأصلية ؛ إذ ربما تستدعى الضرورة قراءة الرسالة أمام الوزير ، أو ربما يريد سيدى الملك معرفة الرسالة ، فيكون من الأفضل أن نأخذ ذلك فى الحسبان ؛ حتى يكون سرنا آمنًا ، وبهذا فإنه من الضرورى ألا أطيل عليكم ؛ بأن يرسل الابن الأمير رسالة إلى والده ، على المرية ليطمئن ، وعليها أكون - أنا - بمثابة الشاهد القانونى » .

رسالة إيرناندو دى ثافرا إلى الوزير :

« السيد الموقر ،

اطلعت على رسالتكم التى أعلنتها على الملك والملكة - سادتنا - حفظهما الله ، وعظمهما ، وقبلت أقدامهما وأيديهما من جانبكم ، وإن أصحاب الجلالة أطال الله فى عمرهما سعدا حينما علما بتفهمكم لهذا الأمر ؛ إذ يعلمان مدى خدمتكم ، ويعرفان أنكم تتمتعون بحسن النوايا الطيبة ، والاستقامة ، وأنكم ستقودون دفة الأمور إلى الخير والحق ، وستقضون على تلك الأشياء التى تعوق المهمة .

إن سعادة أصحاب الجلالة ستكون غامرة لو تم تحديد مدة إنهاء هذا الأمر ، ومن الضرورى أن يكون الموعد فى وقت قريب ، لأنه كلما أسرعنا فى إنهاء الموضوع كان أفضل ، حتى نتجنب سوء الظروف والأحوال ، كما أن تسويف أو إرجاء التنفيذ يكون سببًا فى عرقلة مسيرة الصفاء الموجودة ، ووجودكم بجانب مليككم - سيدكم - يساعد أصحاب الجلالة ، إن شاء الله ، فكل شىء فى أيديكم .

ومن ثم - أيها السيد الموقر - فإنه من المؤكد أن تترك جانبًا الأشياء التى لاتجدى أو تفيد، وأن تأخذ أقصر الطرق إلى عرى الصداقة والسعادة للجميع ؛ إذ إن هذا الطريق يرضى الجميع تنفيذاً لرغبة أصحاب الجلالة - عظمهما الله - فى المدينة ، وتحقيقًا لإرادتهم النبيلة ، وإن عليكم التحدث فى هذا بحسن النوايا التى نعرفها عنكم لكونكم خادمًا أصيلاً .

ومع تحياتنا » .

رسالة أبى القاسم المليح إلى إيرناندو دى ثافرا :

« صديقى المفضل وأخى الحقيقى ، .

أود أن أنمى إلى علمكم أننى تلقيت ردكم الموقر ، الذى ترجون فيه الله أن يمنحكم الوقت لكى ترضوا عن أعمالنا وجهودنا ، حتى يكون الوقت فى صالحنا ، وصالح أصحاب الجلالة - عظمهما الله - ، كما تلقينا رجاءكم بتنفيذ رغبتكم .

وأود أن أقسم لك بالله ، وبالشريعة ، وبحياة ابنى الذى أحبه ، أننى أرغب فى خدمة أصحاب الجلالة ، مثلكم تمامًا ، وأنه لا يمكننى أن أنسى ذلك ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ؛ لأننى أعرف الخير ، والفضل الذى فعلتموه معنا . وأقسم بالله وبالشريعة أننى إذا استطعت أن أحمل غرناطة على كتفى ، لحملتها إلى أصحاب الجلالة ، وهذه رغبة منى ، وليقض الله علىّ إن كنت أكذب .

كما أعرب - أيضًا - عن رغبتى فى الحصول على الخير الكثير لسيدى ؛ لأننى أحبه ، ولأن خيره وفضله علىّ وعلى دارى . كما أتمنى - كذلك - من الله أن ينتهى هذا الأمر على خير ، من هؤلاء القوم المجانين - رغم معاملتهم السيئة لى - ولكن حبًا وتقديسًا للقانون والشريعة ، كما أتمنى لكم الخير .

وكل ما أتمناه أن يكون حديثكم معى بعيداً عن حضور الوزير ، حتى يمكننى الاعتذار عن كل ما كتبته لكم ، وأرجو أن تعتقدوا فى أن كل ما أكتبه لكم حقيقى ، كما أن كل كلمة أكتبها أرجو أن تأخذوها مأخذ الجد ، وأرجو ألا تفكروا فى أنكم تقومون بالرد على العدو ، وإنما ضعوا فى الحسبان ، أننى خادم لأصحاب الجلالة - عظمهما الله - وأننى أتمنى خيرهما ومصلحتهما .

وأنمى إلى علمكم كل ما هو وارد فى الوقت المناسب ، وأن الخير - كل الخير - لكم ، وأرجو أن تكونوا على يقين من أننى خادم شريف ، ومخلص لأصحاب الجلالة - عظمهما الله - وأن ما يمليه علىّ ضميرى أقوله لكم بكل وضوح ، وأن ما تريدونه من الأعداء فى المدينة ، ومن سيدى الملك ، ومنا نحن ، (سيتم) ، كما يجب أن تعلم أن هذه المدينة مملوءة بقوم ذوى طرائق مختلفة ومتباينة ، وأن كل ما تريدونه حقيقة . والحقيقة أقول : أن سيدى الملك لا يريد أن يتكلم فى شىء ؛ لأن أهل المدينة لم يصل إدراكهم سن النضج والتفتح ، ويعلم الله كم أعمل وأبذل من جهد ، مع جهدى سيدى الملك بهذا الشأن .

شقيقى :

إننا نفكر فى كل ما تريدونه بشأن تحديد اليوم الذى يرفضه أهل المدينة ، وعليكم أيضًا أن تفكروا ، وما يجب عليكم أن تفعلوه معى ، فى ذلك اليوم الذى أذهب فيه إلى داركم مع أهلى وابنى . إن الإنسان الخائف لا يفعل شيئًا مطلقًا .

وأنمى إلى علمكم بذلك ولا تفصحوا عنه إلى الرسول ؛ إذ إن الرسول المذكور أحضر هنا العديد من الأشياء من سوق قلعة يحصب (المخيم الملكى) وأعطاها لابن عمه ليبيعها ، وظهرت هذه البضائع فى القيصرية حتى تم التحقق منها ، والتحرى عنها ، وعلموا أننى لم أجلبها ، وتغاضيت عن ذلك كثيراً ، وأراد الله أن يجعلنى مع الناس فى إسداء النصح والنصيحة للناس ، وكان سيدى الملك يخشى كثيراً هذا الأمر ، وأمرنى ألا أعطى الرسول الرسالة ، وإذا أردت اا‌لكتابة علينا أن نتخذ مسيحيًا أسيراً ونتكلم معه ، ونجعله يتحول إلى عربى ، وأن نرسله إليكم مع الرسالة .

من أجل هذا - أيها الأخ السيد - عليكم أن تحتفظوا بالمذكور « محمد » مهلة خمسة عشر يومًا أو عشرين يومًا ، حتى نرى ما إذا كان سيدى الملك سيفعل ما قاله لى الأسير ، أو إذا كان الحظ بألا يقرر ذلك ، وأن يرسل الاتفاق المذكور ، وأننى سأعلمكم بكل ما هو جديد فى الأمر .

وأنمى إلى علمكم أن المبعوث أفاد بخروج شخص قال أنباء جديدة للناس ، مثل : كيف كان يأتى الكاردينال مستعداً ؟ وكيف أراد الملك - عظمه الله - أن يقيم مخيمًا ، وأنه لم يتمكن من لقاء أى قائد أو قبطان يجرؤ على البقاء فى المدينة ، ولهذا السبب ظل المخيم حتى الآن كما هو ، وقال أن هذا الشخص كان يدخل ويخرج بالرسائل ، وقال أن الناس كيف كانت تريد الذهاب للبحث عن أقاربها ؟ ويعلم الله كيف كان حال قلبى . ولقد سعدنا كل السعادة والرضا حينما نما إلى علمنا أن أصحاب الجلالة : الملك - والملكة ، أمرا بإرسال الملابس إلى الأمير « أحمد » وأنه يحظى بالاهتمام الكبير من جانبهما ، ويرجو مولاى من الله أن تزول هذه العداوة ، وأقسم بالله أن مولاى يبذل كل ما فى وسعه من أجل الخير لكم ؛ بسبب تقديركم للأمير ورعايتكم له .

وأنمى إلى علمكم بقبلاتى لأقدام وأيدى أصحاب الجلالة - عظمهما الله - وإننى على استعداد لأن أفعل كل ما تأمروننى به ، وأيضًا إننى مهيأ لكل أموركم بشأن كاتب هذه الحقائق ، وبخاصة التى تعرفونها » .

رسالة إيرناندو دى ثافرا إلى أبى القاسم المليح :

« صديقى المفضل والعظيم

اطلعت على رسالتكم - بصفتكم أخى الحقيقى - وحسنًا ما وجدته بها : من الاتفاق فى الرأى بينكم وبين السيد الوزير ، بشأن خدمة الملك - سيدكم ، إن الخير ينتظركم ، بمتابعتكم لنصائحى ، والتفكير بصفتكم إخوة ، والمجىء لتبادل الحديث مع الملك والملكة - سادتنا - عظمهما الله .

أمّا حفاظنا على السر ، فإننا نذكركم بأنه اتفاق ملكى مصدق عليه كالشهادة ، وحضوركم أوثق من توجيه الرسائل لأصحاب الجلالة ، وهذه الطريقة هى المثلى والأصوب ، ويمكن تحديد التواريخ وبقية الأمور الأخرى التى لم تقوموا بالرد عليها أو الاستفسار عنها دون الحاجة إلى أى شك فى الكتابة إليكم .

إننى أكتب إليكم بكل الرغبة الطيبة ، وأتمنى لكم الخير والراحة والأمان ، وعليكم أن تتأملوا أو تأخذوا فى الحسبان ما أكتبه إليكم ، وإنكم بصفتكم أخ تهتمون بنصائحى بالحضور للقاء جلالتهما - الملك والملكة - عظمهما الله ، حيث بالحب تجدون الحب ، ويمكن تبادل الرأى والمشورة والبحث عن الفائدة الأعم ، ونصل إلى التاريخ المحدد ، وعليكم أن تعلموا أن أصحاب الجلالة - عظمهما الله - يكنون الحب[1] والنوايا الطيبة للسيد الملك أبى عبد الله ، وأصحاب الجلالة - حفظهما الله - يريدان من خلال رسائلهما التصديق على حسن النوايا ، وإنه ليس هناك من سبب يعوق مسيرة العمل أمام ما يقوله أصحاب الجلالة ، إن وجهة نظرهما تنبع من وجهة نظرى ، والخير قادم لمليككم - سيدكم - وكذلك للسيد الوزير ، ولشخصكم ، وهذا ما سبق أن ذكرته لكم بأن الفائدة قادمة ، وأن الرضا سيعم .

وعلينا لتنفيذ ذلك أن نبحث عن الطريق التى تفيد فى استمرار المفاوضات ؛ إذ إن أصحاب الجلالة - عظمهما الله - يأملون الخير فى تحديد التاريخ ، وهما لا يسيران إلا فى طريق الحقيقة ، وإذا أرادا خيراً يمكنهم الوصول إليه لحسن نواياهم .

إن أصحاب الجلالة - عظمهما الله - على استعداد تام لانتظاركم فى أى وقت ، والتفاوض حينما تبدون استعدادكم لذلك ، كما أنهم على يقين بأن ينتهى هذا الأمر ، وهذا هو خيركم وصالحكم كما تبغون أنتم ذلك .

---

(١) هذه الكلمة « الحب » مشطوبة فى الأصل .

إن أصحاب الجلالة - أعز مجدهما الله - يكتبون كل ما بقى غير ذلك ، ولقد نقلت قبلاتكم لأيدى وأقدام أصحاب الجلالة ، وكذلك قبلات السيد الوزير ؛ حيث يشكرانكما لكونكما فى خدمتهم ، وإننى أثنى عليكم كثيراً لفضل السيد الوزير الذى أرد عليه بنفسى الفضل » .

ملحق الرسالة :

« أخى وصديقى العظيم .

إننى أجد بعض الكلمات فى رسالة الوزير[١] التى تتفق تمامًا مع نواياه ، ولكنها ليست فى صالحه ، وإننى أشك فى أنه لا يمشى فى أمره واضحًا ، ولا متأكداً من الخدمة التى يقدمها للسيد الملك ولكم . وأشك فى أنه يبحث عن بعض التسويفات لكسب الوقت ، عن طريق آخر يكون على يديه هو ، وهذا لا يقدم الفائدة المرجوة والمصلحة المطلوبة . وإن سيدكم الملك لن يناله الخير من ذلك ولا أنتم أيضًا ، ولا هو نفسه . وبلا شك فإن هذا لن يؤدى إلى نهاية طيبة للأشياء ؛ إذ إنه لا ينظر إلى الأمام ، ولا ينظر إلى ابن سيده الأسير ، فى كل الأيام القادمة ، واللحظات الآتية التى يستشعر فيها الخطر على شخصه .

وأؤكد لك يا أخى أننى حسن النية لتقديم الخير لسيدكم ولكم ، وأنه ليس هناك من طريقة سوى أن يسير الأمر فى مجراه ، وأنه لا داع لإطالة الموعد وإنتم تتفقون معى على ذلك .

وأنمى إلى علمكم أن أصحاب الجلالة ، حفظهما الله ، متفقان مع وجهة نظركم ، وأنه من الخير الكتابة بكل ما يبدو ويظهر لكم ، حتى يمكن تجنب أية عوائق مع السيد الملك . ومن الضرورى عدم إرجاء أو تسويف هذا الموضوع ، وإنه يا أخى لابد من الاستفادة من ضرورة الإسراع بإنهاء الأمر ، وعدم اللجوء إلى التأخير ، وأؤكد بأن أصحاب الجلالة يكنان الفضل والتقدير للسيد الملك ، حينما يقرر عدم التأخير ، والتعبير عن ذلك بالتوصل إلى نهاية طيبة فى هذا الموضوع » [٢].

---

(١) هذه الكلمة لا تقرأ جيداً (الباحثة) .

(٢) هذه الوثيقة تحتوى على كثير من عمليات الحذف والشطب تجعل من الصعب قراءتها . (الباحثة).

رسالة الملوك الكاثوليك إلى أبى عبد الله :

« السيد فرناندو والسيدة إيزابيل ... إلى الأمين والمحمود بين العرب مولاى أبى عبد الله ملك غرناطة ،

تحية مع التمنيات الطيبة نقدمها لكم بكل الطاعة والتقدير للخدمات التى تقدمونها ، وكذلك لأتباعكم ، وكذلك للفضل وحسن الضيافة التى توجد فى شخصنا ، وفى دارنا - قصرنا الملكى - فى كل الأحيان .

وإننا لم نرد ولا نريد أن تكون رغبتنا وإرادتنا - التى وجدتموها وعرفتموها - مخالفة لما مضى . إن كل شىء يصدر عن إرادتكم يجب أن يتفق معنا ، فإننا لم نرد من كل هذه الأسباب أن نرى نهاية لفقدانكم . ولكل هذا ، فإن الوقت مازال أمامكم ، لتقدموا لنا خدمتكم ، ولقد رأينا أن يكتب سكرتيرنا إيرناندو دى ثافرا لقائدكم وخادمكم : أبى القاسم المليح ، ولتعلم أن كل هذا صدر ويصدر بمحض أرادتنا - بأمر منا . حتى نستطيع تقدير أفعالكم ، واتخاذ القرار بشأنها ، ولتعلم أن كل ذلك من أجل صالحكم وخيركم . ونحن نكتب هذا إلى قادتكم وأتباعكم : الوزير يوسف بن قماشة ، وأبى القاسم المليح ، وكذلك نأمر إيرناندو دى ثافرا بأن يكتب إليهما .

حرر فى يوم السبت الحادى عشر »[١].

---

(١) تكثر بهذه الوثيقة كلمات محذوف حروف من وسطها وتعديلات أخرى ، وكلمات مشطوبة. (الباحثة).

رسالة الملوك الكاثوليك إلى أبى القاسم المليح ويوسف بن قماشة :

« الملك والملكة ... القادة يوسف بن قماشة وأبو القاسم المليح ، نظراً لما كتبه إيرناندو دى ثافرا ، سكرتيرنا ، فقد رأينا الرغبة الطيبة في تقديمكم الخدمة لنا ، والتى لا نشك فيها أبداً؛ إذ إنكم تقدمون دائمًا الأفضال ، وتذكرة منا للخدمات التى يقدمها مليككم بشأننا ؛ إذ إن قصرنا الملكى قدم كل الخير والرعاية فى كل المرات السابقة ، ولسنا نريد أن نفتح الماضى بأموره ، ونؤكد أن ما صدر وما يصدر الآن يكون بإرادتنا ، وبأمر منا ، وبحكمتنا ، وهذا يعد تتويجًا لخدماتنا لكم ، ونؤكد لكم أن سيدكم الملك يجب أن يسير وفق نصيحتكم ، حتى يمكن الوصول إلى النتيجة المرجوة ، وإننا ننظر إلى الأمور الصادرة عن سيدكم الملك ، ونأخذ بها فى الحسبان ، وأنكم ستنالون منا الشكر والتقدير ، ولو تم عكس ذلك - وهذا ما نشك فيه - فإن النهاية لن تكون عادلة ، وإن الخطأ والذنب سيقع عليكم ، ولا تفكروا فى مد المهلة ، أو إرجاء الموعد ، وعليكم أن تعلموا أن إجراء هذا التفاوض - دون مماطلة أو تسويف - سيسعدنا ، وأن التسويف هو الضرر بعينه عليكم . ونرجو هذه المرة أن يتم التوصل إلى النتيجة والنهاية المثلى ، وبها تكون خدمتنا ، ولكل هذا أمرنا إيرناندو دى ثافرا أن يكتب لكم ، ويرد على رغباتكم . يكتب » .

رسالة أبى القاسم المليح إلى إيرناندو دى ثافرا :

« أخى وصديقى الحقيقى

أنى إلى علمكم أننى تلقيت رسالتكم ، ورسائل سادتنا الملوك لسيدى الملك ، ولنا ، وسعدنا بها ، كما سعد سيدى كثيراً بما جاء بها ، وتذكر أصحاب الجلالة للسبب الذى قدموه بأن نكون دائمًا عى خير ، وللسبب الذى عرفناه يأن أصحاب الجلالة يشاركوننا المشاعر والأحاسيس ، وللسبب الذى بموجبه لم نفتقد الخدمات الماضية ، التى لم ننسها ؛ إذ سعدنا بشرفها ، وأفضالها التى نجدها دومًا فى القصر الملكى .

إننا نقبل رسالتهما الموقرة ، ونضعها على رؤوسنا ، ونقرر بمحض إرادتنا خدمتكما ، وأن نعمل بما تأمروننا به ، مثلما يعمل الخادم الأمين لسيده . إن ما تقولونه فى رسالتكم ونصيحتكم لنا ، لم تكن سوى رسالة من أخ إلى أخ ، ونصيحة من صديق إلى صديق .

وينبغى علينا - بعد ذلك - أن نتوجه للقاء أصحاب الجلالة ، وأن نؤكد لكم أننا لم نتوان عن تنفيذ رغبتكم ، ولكن هناك أسبابًا عديدة ، منها السبب الأول الذى تتكلم عنه ، وهو أنه لا يمكن أن يعمل ذلك سوى واحد منا ، وليكن الوزير أو أنا نفسى . وكذلك فإن إرسالنا لشخص آخر قد يطيل من المسألة ، فضلاً عن الأسباب التى قد تؤدى إلى كشف السر . وأرى أنه من الأفضل أن يتوجه واحد منا ؛ إذ من الصعب أن يتغيب الوزير وأنا ، فى نفس الوقت ، بعيداً عن سيدنا ؛ إذ من العادة أن يجدنا كل الفرسان ، والناس معًا باستمرار ، لإنهاء الأمور.

وسيكون الحظ بجانبنا لو تغيب واحد منا لمدة يوم واحد ، وإن كان من المحتمل أن يثير ذلك شكوك الناس ، ولن يكون الحظ معنا لو عرف الناس بالموضوع قبل نهايته . وبالتالى لن يستفيدوا هم أو غيرهم ، وسوف يعرقلون خطواتنا ، ولن يتم عمل شىء ، حينما ننتهى وننهى الموضوع مع أصحاب الجلالة ، ويكون الأمر فى حوزتنا ، سنكون على يقين منكم حينئذ ، وسنعطى الأمر ، وسنفكر كيف يتم إجراء التفاوض ؟ وكيف يتم إقناع الناس حتى يأتوا لتقديم الخدمات ، وعكس ذلك سيعرقل القضية ، ويحول دون إنهائها مع أصحاب الجلالة .

أما بالنسبة لنا ، فإنه لا ينبغى علينا عمل شىء آخر دون أن نقدم المساعدة لقومنا ، وأن نحاول ترغيبهم كل يوم - كما تعرفون - بشأن إنهاء هذه الحالة ، فيذهب واحد منا بالطريقة

التى يتوجه بها ويعود فى نفس الليلة ، وعند شروق الشمس يكون فى داره ، يؤدى أعماله . وبهذه الطريقة يكون العمل السرى قائمًا ، حتى يتم إنهاؤه وفقًا لإرادتنا ؛ بأن نطلب الأمان من أصحاب الجلالة على أيديكم ، وأن يكون الأمان بالنسبة لى ، أو بالنسبة للوزير ، أو لأى واحد منا ، وأن يذهب الذى يذهب فى نفس الليلة ، ويعود أيضًا فى نفس الليلة ، وأن يكون آمنًا فى ذهابه وإيابه ، وأن يوافق أصحاب الجلالة على ذلك ، وبهذا يتم الحفاظ على السر ، ولا يباح به لأى واحد بالبلاط الملكى باستثناء أصحاب الجلالة فقط ، وكذلك أنتم . وحينما نتلاقى - بفضل الله - سنوضح الأمور أكثر ، ولا أريد أن أتحدث أكثر من ذلك فى هذه الرسالة ؛ إذ إننى أرسل مع حامل هذه الرسالة رد سيدى لأصحاب الجلالة - عظمهما الله . كما يحمل الرسول أيضًا رد الوزير ، وردى عليكم الذى به أقبل أيدى أصحاب الجلالة ، ولكم أبعث بثناء سيدى عليكم » .

ملحق الرسالة :

« سيدى ،

لقد اطلعت على تلك الرسالة التى تعبر كلماتها عن عدم السير فى الطريق السليم . إن من الضرورى - يا أخى - أن تسدى إليه النصيحة ، ولكن هذه الرسالة - بالطريقة التى كتبتموها - لم تكن الرسالة التى تطلب من أصحاب الجلالة . ولما كانت - بفضل الله - بمثابة النصيحة الطيبة ؛ فإننى قمت - بعون الله - بتنقيحها له وللآخرين ، بكل حسن النوايا التى أمتلكها لخدمة أصحاب الجلالة ، آخذاً فى الحسبان كل ما هو مفيد ، مع حذف ما لا ينفه ولا يفيد .

لقد أعلنت مراراً أن يذهب هو ، ولا يمكننى أن أذهب معه ، ويبدو أنه متردد وخائف للغاية، ولهذا السبب طلبت الأمان للاثنين معًا ، لأن ذهابى أو عدم ذهابى يعنى أننى الخادم ، وعندما يستشعر الأمان بتحديد أصحاب الجلالة - عظمهما الله - باتباع نصيحتى ، فإننى أقسم بالله أننى لم أقل لهما أشياء حتى أتأكد منهما ، والتى هى بالطبع تفيد أصحاب الجلالة ، وأنه لو اكتشف فى أى وقت شكًا فى نصائحى ، وبدا لكم شىء غير مؤكد ، فإننى لن أظل هنا ، ولا أستحق أن يكون لى وجود ، لأننى لم أطلب رسالة لسيدى ، وطلبى للرسالة التى كتبتموها ، بالطريقة التى رأيتموها ، ربما كان ذلك بمثابة تأكيد لعنصر الأمان .

وفيما يبدو لى فإنه كان لديكم فى اجتماع مجلسكم نقاش يدور حولى ، وأن كل مادار فيه كان على خير مايرام . لقد ساعدنى هذا الاجتماع كثيراً ؛ إذ إنكم أقسمتم بالله على أن الفائدة ستعم علينا فيما بعد الخدمة التى أسديها لأصحاب الجلالة . وأقسم لكم بالله أننى كنت أريد هذا اليوم قبل الغد ، وأن اليوم الذى يمر الآن يبدو لى كما لو كان شهراً ، وأننى أعد هذا عبئًا كبيراً ، وأعرف بكل تأكيد صداقتكم ، وإذا لم يكن الأمر هكذا - كما أقول لكم - فإن هذا لن يجدى معكم فى شىء من هذه الأمور .

إننى على يقين من أنكم تنظرون إلىّ بعين طيبة ، وأنكم تتمنون لى الخير ، ويعلم الله أن فكرى لا يخيب فيكم ، ولا يغيب عنكم ، ولا فكركم عنى . إننا سنكون جديرين بسادتنا ، وسنكسب نحن الاثنين الشرف والمعروف والشهرة ، كما سنكسب كرم وأفضال الدار الملكية لأصحاب الجلالة .

وبهذه الطريقة – يا سيدى – فإننى أنمى إلى علمكم أننى بخير ، وتحياتى بالحظ الوفير لأصحاب الجلالة ، وأقبل أيديهما الملكية ، وأثنى بالشكر الكثير على كل أهل داركم ، وتحيات كثيرة لكاتب هذه الحروف » . .

رسالة أبى عبد الله إلى الملوك الكاثوليك

« بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عظيم الدولة : سادتى ملوك قشتالة وليون وأطراف أخرى ،

تحيات مشرفة لأصحاب الجلالة من عبد الله محمد بن أبى الحسن

أنمى إلى علم أصحاب الجلالة : كيف تلقيت رسالتكم الموقرة ، على أيدى قائدنا الشريف أبى القاسم المليح ؟ وسعدنا واستمتعنا بها ؛ فمن جانب رأينا دولة ملككم - بفضل الله - على مايرام ، والجانب الثانى هو كتاب دولة ملككم لنا ، الذى أفردتم فيه تذكرة صداقتنا وخدماتنا ، كما علمنا أيضًا من الرسالة الموقرة المذكورة ما أردناه دائمًا من أصحاب الجلالة .

إنكم تقولون - يا أصحاب الجلالة - فى الرسالة المذكورة : إن كل ما مضى بيننا لم يكن عن رغبة منى ولا عن إرادة ، ولا من طرفنا ، وإنما سعدنا لأنكم تريدون هذا ، وكتبتم لنا بذلك ، وعليه - يا أصحاب الجلالة - أذكر لكم أننى لم أنس ولن أنسى ما لقيته فى قصركم الملكى من خير وحب وحفاوة ، ولهذا السبب فإن صداقتنا لن تنتهى عند هذا الحد .

إن الرسالة المذكورة تشير إلى حسن النوايا والأفضال وحسن الاستقبال والحفاوة والتشريف، التى تريدون أن تقدموها لنا ولأتباعنا ، مثلما حدث فى الأزمنة الماضية ، وكما اعتقدت - دائمًا وأبدًا - فى جلالتكم .

وطلبتم فى الرسالة المذكورة أن نأتى فيما بعد لخدمتكم قبل أن تعوزنا الحاجة . وإنما هناك نقطة أنمى إلى علم جلالتكم بها ، وهى أن أتباعكم لم يكونوا فى خدمتكم ، ولكن لحاجة أهل هذه المدينة ؛ إذ إننا لن ننفصل عن خدمتكم بالضرورة أو بغيرها ، وإننا لن نتوقف عن الإلتزام مع أصحاب الجلالة حينما تحين الظروف ، والسبب الذى يحدث لنا مع أهل هذه المدينة - الذى تعرفونه جلالتكم جيداً - هو أنهم يشكون فى القائد أبى القاسم المليح ، لقد هرب من القتل ، وقد فعلوا ذلك معه حينما كانوا أقوياء ، ولم يكونوا فى حاجة لشىء . إننا لم نهرب فى ذلك اليوم وإنما بحسن إرادتكم التى ندركها لدى جلالتكم . وفى هذه المدينة يوجد قوم آخرون لا يرضون عن سيدهم ، وكانوا يريدون الانقلاب على سيدهم فى وقت الانقسامات ، ولكن مبرراتهم فشلت ، وكان من الضرورى عليهم أن يلينوا ويتسامحوا .

إن السلامة من كل هذا هو احتفاظنا بالسر ، بشأن كل إجراءات التفاوض ، وبشأن كل الأمور ، حتى يتم تنفيذ رغبة جلالتكم . إن ما تقولونه يا أصحاب الجلالة : أن كل ما كان قد كتبه ويكتبه خادمكم فرناندو دى ثافرا إلى أتباعنا : القائد أبى القاسم المليح ، وبعد ذلك إلى الوزير : يوسف بن قماشة ، وفيما كتب لأبى القاسم ، فقد اطلعت على كل شىء ، ولقد أمرتهما بأن يكتبا الرد إلى خادمكم ، وكذلك كل ما كتبه أتباعى إلى سكرتيركم ، والآن فإنهما يكتبان إليه ، ويكتبان إلى جلالتكم ، بأمر منى ، وبرغبة منى .

أرجو من أصحاب الجلالة أن يعتقدوا فى كل ما يكتب من طرفى .

ولكم تحيات مشرفة وثناء ورحمة من الله تعم على جلالتكم .

تاريخ » .

رسالة الوزير وأبى القاسم المليح لأصحاب الجلالة :

« لصاحب الأعالى وسيد الدولة سيدنا الملك دون فرناندو ، وصاحبة الدولة سيدتنا الملكة دونيا إيزابيل - عظمهما الله

من اللذين يعملان فى خدمتهما ، وتنفيذ أوامرهما فى كل الأوقات ، ويقبلان أياديهما الملكية : الوزير يوسف بن قماشة ، وكاتب هذه الرسالة ، خادمكم - بدون شك - أبو القاسم المليح ، وليساعدهما الله لإسداء الخدمات لأصحاب الجلالة بهذا الحمد .

وننمى إلى علم أصحاب الجلالة كيف تلقينا رسالتهما الموقرة والمشرفة ، وكيف عمت سعادتنا بها ، فقمنا بتقبيلها ، ووضعناها فوق رؤسنا ، وهكذا حينما يرى الخادم والتابع رسالة سيده وتوقيعه ، فإنه يطيعها ويضعها فوق رأسه ؛ لكى يفعل كل ما يأمره بها .

وكذلك وصلت رسالة أصحاب الجلالة الموقرة والمشرفة لسيدنا ، وأعربت عن سعادته بها . إننا نفعل الكثير فى خدمة أصحاب الجلالة ، ولكم الإجابة . يسير سيدنا بخطى عظيمة فى الأمور الطيبة ، ويقوم بتجنب الأمور السيئة والمعرقلة وإلغائها ، ويقوم بالالتزام بتلك الأمور بمساعدتكم ، ومن أجل صالح أصحاب الجلالة .

إن ما طلبتموه من أتباعكم بأن يأتوا فيما بعد لخدمته ، وإنهاء الأمر بشأن الأمور المصدق والمتفق عليها لأصحاب الجلالة ، نفيد بأن هذه الأمور تسير على مايرام ، ولا ينسى أتباعكم ذلك ، كما أنهم يتذكرون الخدمات الماضية .

إن أصحاب الجلالة على علم بكل ما مضى ، وهم بلا شك يسعدون بكل ذلك ، وإننا ننمى إلى علمهما - عظمهما الله - أن نوايانا هى تقديم الخدمات الكاملة لهم ، وتحقيق آمالهما ورغباتهما ، وإننا نكتب بذلك إلى سكرتيركما وأخينا إيرناندو دى ثافرا ، والاطمئنان الذى ينبغى أن تعتقدا فيه ، والأمان الذى يجب أن تستشعراه ، وينبغى أن يكون . إن أتباعكم يقبلون أياديكما الملكية . تاريخ ١٦ الجارى » .

رسالة الفقيه البقني

« سيدى الموقر ،

يشرفكم الله ويحفظكم .

كاتب هذه الرسالة يثنى كثيراً عليكم ، ويقبل الأيدى الكريمة لأصحاب الجلالة ، عظمهم الله ،

وأنمى إلى علمكم بأننى تلقيت رسالتكم الكريمة ، وفهمت ما بها .

وأنمى إلى علم أصحاب الجلالة بأن سيدى الملك - وأنا مثله قد قرر على كل حال التفاوض والتحادث مع أصحاب الجلالة . ويبدو لى أن ما يفيد أصحاب الجلالة هو أن يترفقوا كثيراً ، وأن يحسنوا الأمر ويضفوا عليه حلاوة وطلاوة ، وكذلك يفعلون مع أهل المدينة ؛ لأن المدن الكبيرة لا تأخذ الأمور إلا بالطرق الحميدة والمعاملة اللينة .

وهكذا فإنه ينبغى على سيدى الملك أن يتكلم مع الناس ؛ لكى يخففوا من موقفهم ، وليقنعهم . وإننى فى ذلك الأمر سأفعل الكثير ، وسأقوم بتليين وإقناع كل من أستطيع لخدمة أصحاب الجلالة ، وعليكم أن تصدقوا ذلك .

ويبدو لى أمر طيب ، هو : أن تكتب سيدتنا الملكة إلى الملكة أم الملك ، وإلى زوجه لإقناعها ؛ إذ إن الناس الطيبين ، والذين يتمتعون برجاحة العقل ، يدركون ويفهمون كل الأمور ، أما المجانين فإنهم فى حاجة إلى من يقنعهم .

وأنا بكم أقوم بهذا الموضوع لإقناع العرب المسلمين والمسيحيين على السواء ، حتى ينتهى التفاوض بين السادة الملوك . وأقول هذا الأمر حتى لا يكون هناك أى ضرر .

إن القائم بهذه الرسالة إنسان خير وأمين ، فلا تتحدثوا مع أحد حول هذا الموضوع ؛ إذ إننى صديق لكم ، وعدو للهروب من الأشياء ، وصدقونى إننى سأقوم بأمور أصحاب الجلالة ، هنا فى غرناطة ، والبشرات » .

رسالة الفقيه البقني إلى إيرناندو دي ثافرا :

« إلى السيد القائد الشريف

كرمه الله فى حياته وأقبل أيدى مليكيه أصحاب الجلالة عظمهما الله ،

أنمى إلى علمكم بأننى تلقيت رسالتكم الموقرة ، وفهمت ما جاء بها . إن ما تقولونه عن الأمور المطولة التى أعرف أنها حقيقية[١] وكذلك الأشياء الظاهرة ، ولكننى أقول أنه مازال هناك من الوقت الذى سيكون لمدة شهرين على الأقل ، وأنه فى خلال هذا الوقت سيتم تخفيف حدة التوتر لدى الناس ، وأن الملك سيفعل مع الناس كل ما يريده ، وأن الطريق المعتاد ، الذى هو « شلير » لن يحسب فى تلك المدة ، وسيتكلم الناس ، وما يطلبه الناس هو الأمان بشأن ممتلكاتهم ، وأعراضهم وحقوقهم ، وأن يسود القانون ، وما جاوز ذلك فهو محاولة لتطويل المدة .

إن على الملك أن يتكلم بشأن ما هو ضرورى ، ولكنه يريد أن يطيل الوقت ، وما يبدو لى مناسبًا ، هو : أن تكتب سيادتكم إلى أبى القاسم المليح فحسب ، حتى يستطيع أن يضغط عليه فى الرسالة التى توجه إليكم مع الفقيه دون ختمها ، ومن ثم يكون التأكيد على الحديث، وهذا هو عين الصواب . ولا يكون عندكم ضيق أو غيرة إذا انقطعت حبال الاتصال ، فإنهم سيأتون إليكم وبين أيديكم ، وإننى لمندهش لذلك . ومن جانبى التحيات لفضلكم وبركة من الله » .

---

(١) يلى ذلك كلمة لا أعرف قراءتها (الباحثة) .

رسالة الفقيه البقنى إلى إيرناندو دى ثافرا

« الحمد لله .

السيد الفاضل . حفظكم الله ،

وتحيات من كاتب هذه الرسالة ، ساعده الله .

أنمى إلى علمكم أن تابعًا من طرفكم ، عن طريق وادى آش ، كتب لى وطلب منى معروفًا، وتعرفت عليه ، وأجبته بأن هذا الأمر عسير ، محاولاً إخفاء السر عنه ، ذلك أنه لو كشف السر سيكون الضرر كبيراً للجميع .

أعلم أنه عن طريق الرسائل لن يتم إنهاء شىء ، لذا يجب أن يحضر شخص ما مباشرة ، وحضور هذا الشخص يحقق الخير والشرف لسيدنا

تحيات لكم .

يوم الثامن عشر من الشهر » .

رسالة أبى القاسم المليح إلى إيرناندو دي ثافرا :

« الأخ والصديق الحقيقى ، والمفضل ،

أنهى إلى علمكم بأنى تلقيت رسالتكم ، وكذلك رسالة الوزير من أصحاب الجلالة - عظمهما الله - وكذلك نقلت الرسالة التى أعطاها لى أصحاب الجلالة لسيدى الملك ، الذى رأى كل ذلك ، وكذلك الوزير ، واندهش سيدى الملك كثيراً من أصحاب الجلالة ، لما كتبوه حول النهاية لتكون يوم جمعة ، وأصيب سيدى بالضيق بتقديم هذه الخدمة ، حتى أننى واسيته، وذكرته بكل الحفاوة الطيبة التى لقيها عند أصحاب الجلالة ، وجعلته يعتقد فى حالة الحب وحسن النوايا التى يتمتع بها أصحاب الجلالة ، وقلت له إن المدة يمكن أن تكون ثلاثة أشهر ، وطلب منى الكتابة لأصحاب الجلالة - كما ترون - وأمرنى كذلك بكتابة كل الأشياء التى يطلبها عامة أهل غرناطة ، وأشياء أخرى - كما سترون يا أصحاب الجلالة .

إننى أطالبكم أن تأخذو منى هذه الكلمات - وما تريدونه ، وما تسمعونه منى - بقلوبكم، بوصفى أخ لكم ، يرجو أن تجعلوا أصحاب الجلالة يدركون ، وأن تكتبوا لى بذلك عهداً موقعًا بأيديكم بالالتزام بتنفيذه . وإن لم يكن هكذا فلا تقولوا شيئًا بعد ذلك ؛ إذ لم يكن هناك لكم صديق .

لقد قلت لسيدى الملك أن يكتب الأشياء التى يطلبها ، وكل ما كنا قد طلبناه مع أهل المدينة المذكورة ، وقال لى : اتركه حتى المرة القادمة .

وفيما يتعلق بقولكم : إنكم مندهشون من الشكوى التى أشكوها منكم بشأن النهاية الحقيقية ، وأنكم تردون على هذا بذلك المكتوب ، وأنكم لم تردوا إلا بطلب الإسراع بالذهاب، فقد أصبت بالخجل تجاهكم ، ولم أعد أريد العودة لمطالبتكم بتأكدكم من الرد حول النهاية ، وإننى ملتزم نتيجة للحب الذى أكنه لكم بتنفيذ كلمتى ، ولكنكم الآن تحذروننى بأن أكون حاداً ، وأن احتفظ بكل النقاط .

أما ما تقولونه بأنه لم يكلفنى المجىء أو العودة ، فلا ينبغى أن تقولوا هذا لأننى أبذل المجهود الكثير ، كما أننى لا أدخل فى هذه المسألة إلا بمفهوم الشرف ، والاعتراف بالجميل والمعروف ، والشهرة . إننى لم أكن أريد إنهاء هذه المسألة ؛ لأننا نريد التأكيد على أهميتها ، ولو أن ذهابى لإنهاء المشكلة لا يعنى أننى أقدم خدمة لأصحاب الجلالة ، فكيف أكون بين الناس لو اكتشف ذهابى .

ومن ثم فليس صحيحًا ما تقولون من أن هذا لن يكلفنى شيئًا ؛ لأن الأصدقاء لايجب عليهم إلا أن يفكروا فى مصلحة وخير الواحد منهم ، وبهذا تظل الصداقة بيننا بالوراثة . إرسال كتابى هذا و ...[١] جعلنى أبذل مجهوداً لإنهاء المسألة لهذه المدينة ؛ إذ إن كتابى[٢] ... الموجود فى حوزتى بعد هذا .

وتحيات على أفضالكم » .

(١) لم أتمكن من قراءة الكلمة الثانية (الباحثة) .

(٢) لم أتمكن من قراءة الكلمة التالية (الباحثة) .

رسالة ملك غرناطة لأصحاب الجلالة :

« إلى عظيم الدولة سيدى الملك دون فرناندو وسيدتى الملكة دونيا إيزابيل ، ملكى قشتالة وأرغون وأطراف أخرى عديدة .

تحيات موقرة إلى أصحاب الجلالة من العبد إلخ ... إلخ ...

أنمى إلى علمكم بأنى تلقيت رسالتكم الكريمة مع خادمى وسكرتيرى القائد أبى القاسم المليح ، كما ذكر لى بعض الأمور التى طلبها من جانبى ، ومن جانب أهل منزلى ، ومن جانب الوزير ، ومن جانب القائد المذكور . وقال لى كيف استقبلتموه بحسن الاستقبال حبًا فى شخصى ، وأن أصحاب الجلالة وعدوننى بكل ما أطلبه من جانبى تجاههم ، وأن أصحاب الجلالة ردوا عليه بالخير فى كل شىء ، حسبما بدا لى من دولتكم الملكية ، وحسبما آمل من أصحاب الجلالة .

وقال لى : إنه طلب أثناء الحديث مع أصحاب الجلالة بعض الأمور التى لم يكن قد طلبها ، وأنهم كانوا فى انتظار طلب الرحيل لأهل غرناطة ؛ إذ سأله أصحاب الجلالة عن المدة ، ورد عليكم بأن تكون شهر مايو ، وأن أصحاب الجلالة قد أصابهم الضيق ، ولم يبدوا رغبتهم فى سماع حديثه ، وكان ذلك مدعاة للخجل لأصحاب الجلالة ؛ إذ كان الليل ينحسر والنهار على وشك الظهور ، إلا أنه عاود الحديث مع أصحاب الجلالة ، وعاود تخفيض المدة ثلاثة شهور ، وكان هذا خدمة لأصحاب الجلالة ، وإننى لم أكن قد أعطيته إذننا بتخفيض المدة ، ولكنه أبلغنى بمضمون ذلك ، وأرسلت وزيرى لأصحاب الجلالة بكتاب عن كل ما يطلبه أهل غرناطة، والأمور الأخرى التى يجب أن تدرج مع طلبات أهل غرناطة ، كما سترون ذلك يا أصحاب الجلالة .

ويعلم الله أننى أريد أن أتقدم إليكم بالخدمة اليوم قبل الغد . وأقسم أمام الله القادر بأن الموقف هو كما أقول ، ولكن لا يمكننى الشهادة على أشياء وأمور مشكوك فى أمرها ، وإننى لم أرد أن أقول ما يمكننى تنفيذه والالتزام به ، وأن المدة - التى يجب أن تكون - التى التزم بتنفيذها - صدقًا بلا شك ودون عذر - ستكون فى اليوم الأول من شهر مارس ، وهو قريب من شهر أبريل . وليس من الضرورى الإطالة فى المكاتبات أو المحادثات ، فإننى صادق فيما

أقول أمام أصحاب الجلالة ، من أننى سأكون ملتزمًا بتسليم أصحاب الجلالة قصرى الحمراء ، وسأحمل أهل غرناطة على خدمتكم ، وأننى سأقدم لكم يدى ، ولا يمكننى أن أفعل أكثر من ذلك .

وسيظل الموقف حتى يأمر الله ، وإذا أردتم أن تقبلوا منى هذا الذى فى إمكانى ، فإننى على استعداد - كما سبق أن ذكرت لكم - بمساعدة وعون من الله ، أن أتكلم مع أهل غرناطة فيما بعد ، وسوف أرسل الوزراء إلى ضواحى البشرات ، وسأنتهى من ذلك قبل المدة ، وبهذا تظهر لكم خدمتى ، وصداقتى فى خدمة أصحاب الجلالة .

وتحيات موقرة ورحمة من الله وبركة تحل على أصحاب الجلالة .

التاريخ يوم الأحد » .

رسالة ابن قماشة والمليح لأصحاب الجلالة :

« لعظيم الدولة ودولة سادتنا الملوك ، حفظهما الله فى حياتهم علما وشرفهم .

يقبل أيدى أصحاب الجلالة : الوزير يوسف بن قماشة ، وأبو القاسم المليح ، ساعدهما الله.

ننهى إلى علمكم بأننا تلقينا رسالتكم الموقرة ، وأننا نطيعها ، ونضعها فوق رءوسنا . إن أصحاب الجلالة يطلبون منا أن نكتب إليهم بالطريقة التى يكتبون بها إلى سيدنا الملك ، أى أن نقر بأن تكون المدة يوم الجمعة . وبالنظر إلى ذلك رأينا أنه من المستحيل أن يكون ذلك يوم الجمعة ، ولا يقبل أى عقل الإسراع فى ذلك .

إننا نقسم بشريعتنا لأصحاب الجلالة بأننا سنعمل الممكن بشأن المدة ، وأننا من اليوم الذى طلبتموه منا فإننا لا نأكل ولا نشرب ، وإنما نفكر كيف يمكننا تنفيذ ذلك ، حتى يحقق أصحاب الجلالة مآربهم .

إن مليكنا يكتب إلى أصحاب الجلالة بكل الأمور التى يطلبها أهل غرناطة ، وكذلك بشأن المدة التى يجب أن تكون . ونتوسل أمام أصحاب الجلالة أن يتقبلوا ذلك من الملك ، وأن يتفضلوا بذلك ، وأننا سنكون سعداء برضاء الله ، إذ أننا سنعمل لتنفيذ ذلك قبل الموعد المحدد .

عظم الله أصحاب الجلالة ، وحفظ حياتهما .

ونقبل أقدام أصحاب الجلالة .

تاريخ يوم الأحد » .

فصول فى مطالب وشروط أهل غرناطة :

نقل لفصول مطالب وشروط أهل غرناطة ، والبيازين ، وضواحيها ، وكل الأماكن الأخرى التى انضمت إليها من البشرات ، وأماكن أخرى ، والتى تُطلب من ملك غرناطة حتى يطلبها من ملك وملكة سادتنا عظمهما الله

« الحمد لله . هذه هى فصول المطالب التى يرد ذكرها ، ويتقرر شأنها مع أصحاب الجلالة، ومولاى . وهى المطالب الواردة فى هذا الكتاب .

وحينما يرى أصحاب الجلالة هذه الفصول ، ويمنحونها ، ويأمرون بالعمل بها ، وليلتزم بها السيد الملك ، والالتزام بتسليم الحمراء ، وكل القوات دون أى عذر إلى أصحاب الجلالة ، وكذلك الالتزام بخدمة أصحاب الجلالة لمدينة غرناطة والبيازين وكل الضواحى وكذلك كل الأماكن الأخرى بالبشرات والأماكن الأخرى ، واستقبال أصحاب الجلالة لأهلها الذين يدخلون فى خدمته من خارج غرناطة ، بعد ثلاثين يومًا من المدة التى ينبغى خلالها تسليم مدينة غرناطة ، وأن أصحاب الجلالة ومولاى يلتزمون بذلك ، وأن يلتزم أصحاب الجلالة بمنحهم مدة اليوم الأخير من شهر أبريل بدلاً من اليوم الأخير من شهر مارس . وإننا على ثقة من أن أصحاب الجلالة يلتزمون بهذه المدة دون شك ، وكذلك التزام السيد الملك بتسليم الحمراء بكل قواتها ، وأن يحمل أهل مدينة غرناطة والبيازين وضواحيها ، وكل الذين يدخلون مع أهل غرناطة ، خلال ثلاثين يومًا بعد هذه المدة ، وهى اليوم الأخير من شهر مارس ، وأن من يريد ألا يدخل فى إطار هذه المدة فليفعل أصحاب الجلالة ما يجب أن يخدمهم .

أمر آخر ، إن على أصحاب الجلالة فى اليوم الذى يستلمون فيه الحمراء إصدار الأمر بإطلاق سراح السيد الأمير الموجودة فى « موكلين » وأن يطلق سراحه ، ويتحرر من سلطانهم، وأن يسلموه إلى والده الملك فى نفس اليوم ، وكذلك إطلاق سراح كل الذين كانوا رهائن ، وأتباعهم من الذكور والإناث دون عذر ، ودون تأخير .

أمر آخر ، إن ملك غرناطة ، وكل أهل المدينة ، والقضاة والفقهاء والوزراء والقادة والفرسان ، وكل عامة الناس : من الفتيان والكبار ، ومن الذكور والإناث ، بغرناطة ، والبيازين ، وضواحيها ، وكل الأماكن الأخرى الذين يريدون الدخول مع أهل غرناطة ، من الأماكن التى تكون خارجها فى البشرات ، والأماكن الأخرى ، بأن يكونوا أتباعًا ورعايا

لأصحاب الجلالة ، وأن ينظر إليهم بعين المراعاة بشرط أن يكرموا ويعاملوا معاملة حسنة فى شخصهم وممتلكاتهم ، وأن يترك كل ميراثهم وديارهم داخل غرناطة لكل الذين هم داخل غرناطة وخارجها ، وكل مالهم فى أماكن أخرى من مواريث لا يمكن انتزاعها أو المساس بها أو تبديلها ، ليس الآن أو بعد ذلك من الآن حتى الأبد ، ودون أن يصابوا بأى ضرر أو خوف ، وأن يعم العدل ، ولا يؤخذ منهم أى شىء إلا بقيمته ، وفضلاً عن ذلك ، يتم تكريمهم والعناية بهم من جانب أصحاب الجلالة ، وكذلك من جانب كل كبار البلاد وأتباعهم ، وأن ينظر إليهم مثلما ينظر إلى رعاياهم وأتباعهم ، الآن ، وبعد ذلك من الآن وحتى الأبد .

أمر آخر ، أن يلتزم أصحاب الجلالة والمنحدرون من صلبهم بأن يتركوهم يعيشون وفقًا لشريعتهم ، وفى حرماتهم ومساجدهم وقضاتهم وكل مؤذنيهم بمآذنهم ، وأن يسمح لهم بالآذان عبر المآذن ، كما اعتادوا قبل ذلك ، وكما هى العادة .

أمر آخر ، أن تترك لهم كل الجمعيات الدينية ، وكل ما يتعلق بها ، مثلما اعتادوا ، ومحاكمتهم بالخروج عن السنة من خلال مجلس قضاتهم وعلمائهم وأصحاب الفتوى ، كما اعتادوا ، وأن يصدر أصحاب الجلالة الأمر ومن يخلفهم بأن يحافظوا على عاداتهم مثلما اعتادوا .

أمر آخر ، أن يلتزم أصحاب الجلالة ومن يخلفهم ، بألا تنزع ، ولا يوافقوا على انتزاع أسلحة ولا فرسان ، ولا يؤخذ شىء يكون ملكًا لأهل غرناطة ، والبيازين وضواحيها ، وكل أهل البشرات والأطراف الأخرى ، ممن يدخلون فى طاعتهم مع غرناطة ، من الآن أو بعد الآن إلى الأبد .

أمر آخر ، أن كل ما يتعلق بأهل غرناطة وضواحيها ، والبيازين وكل الأماكن المذكورة التى تدخل فى هذه الاتفاقية من البشرات ، وكذا الأطراف الأخرى ، يتركه أصحاب الجلالة ومن يخلفهم ، من حيث حرية الحركة والانتقال إلى أطراف أخرى لممتلكاتهم وسادتهم ، وأن كل من يريد المرور والحركة إلى طرف آخر يمكن لهم أن يبيعوا ما يخصهم ، وأن على أصحاب الجلالة ومن يخلفهم أن يتركوهم يبيعون ما لهم ، وأنه بإمكانهم الذهاب بما يملكونه ، ويمكنهم الذهاب للسكنى فى أى مكان يرغبونه ، ولا يمكن لأصحاب الجلالة ولا من يخلفهم الدفاع عن أى شخص لا يبيع ما يملكه ، وأن الذين يمكنهم البيع إلى من يريدون البيع له لهم الحق ، وفى

أى وقت يريدونه وإلى الأبد . وإذا أراد أصحاب الجلالة شراء ميراث أو ملك من أحد ، فإن عليهم أن يدفعوا قيمته ، مثلما يفعل أى شخص آخر .

أمر آخر ، إن كل الذين يريدون المرور على أصحاب الجلالة ومن ينحدر من صلبهم أن يتركوهم يمرون آمنين ، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثًا ، بممتلكاتهم ، وبضائعهم وكنوزهم وجواهرهم وبأرديتهم ، وإن يأمر أصحاب الجلالة بمرورهم عبر البوابات ، معززين ومكرمين ، ولا يحولون دون خروجهم إلى الموانىء المعروفة التى يخرج منها التجار ببضائعهم .

أمر آخر ، أن يأمر أصحاب الجلالة أتباعهم بتسهيل مرور عشر سفن كبيرة من موانىء المنكب ومتريل ، وذلك لنقل الذين يريدون الذهاب ، وأن تكون هذه السفن جاهزة فى الأول من شهر أبريل .

أمر آخر ، أن أصحاب الجلالة ومن يخلفهم ملزمون بتركهم يمرون هنا وهناك ، وحمل ما ذكر صراحة دون دفع رسوم لكل ما يمرون به ، خلال خمس سنوات ، اعتباراً من تاريخ الاتفاقية ، وأنه خلال هذه السنوات الخمس لا يدفعون أى شىء ، وأنه بمرور هذه السنوات الخمس يقومون بدفع ما كانوا معتادين عليه أيام العرب (١).

وإذا كان هناك أى شخص لديه ميراث فى ذلك المكان ، أو ضياع فى أماكن أخرى من البشرات ، وأطراف أخرى يريد نقلها هناك ، ولا يستطيع بيعها فى وقت زمن المغادرة ، عليه أن يعقد تفويضًا من أصحاب الجلالة ، حتى يمكنه إصدار التوكيل ، لنواب أو وكلاء يحلون محله ، يمكنهم تحصيل الإيجارات أو العائد من هذه الممتلكات ، ويمكنهم بيعها ، وأن هذا النائب أو الوكيل عليه أن يرسل ما يحصله من عائد أو إيجار أو ما قيمته بالبيع إلى صاحب الشىء ، أيًا كان موقعه ، ودون أى تأخير .

أمر آخر ، ألا يصدر أصحاب الجلالة ، أو من ينحدر من صلبهم ، أمراً بوضع شارات على العرب والمسلمين ، الآن ولا فى أى وقت على الإطلاق .

أمر آخر ، على أصحاب الجلالة السماح لأهل غرناطة والبيازين وضواحيها بالإعفاء من الرسوم لمدة خمس سنوات ، وأن تلغى كل الرسوم الملزمين بسدادها على ممتلكاتهم ، وأنه بانتهاء مدة السنوات الخمس عليهم بسداد الرسوم ، والموروثات الأميرية لا يسدد عنها رسوم، سوى تلك المتعلقة بالممتلكات الأخرى ، وأن السداد لايكون خلال تلك السنوات الخمس

المذكورة ، باستثناء رسوم الخبز والذرة ، والماشية فى وقت العشر ، الذى يكون فى شهور أبريل ومايو [٢].

أمر آخر ، على أصحاب الجلالة ومن ينحدر من صلبهم إصدار الأمر بإطلاق سراح الأسرى من سكان غرناطة والبيازين ، وإصدار الأمر بوضع نواب ووكلاء للنظر فى أمرهم ، وأن يطلق سراحهم ، وأن يتعهد أصحاب الجلالة بذلك فى مدة سنة ، وأن كل الأسرى الموجودين طرفهم بوصفهم رهائن على أصحاب الجلالة إحضارهم وقت التسليم ، وكذلك بالنسبة لكل الأسرى المسيحيين أن يحضروا رهائنهم وقت التسليم ، وأن يؤكد أصحاب الجلالة ذلك لأسرى الأندلس وقت تسليم الحمراء ؛ إذ سيكون ذلك جميلاً ومعروفًا لأهل غرناطة ؛ الذين يحملون حسن النوايا الطيبة لخدمة أصحاب الجلالة [٣].

على أصحاب الجلالة ومن ينحدر من صلبهم إصدار الأمر بألا يتم الاستيلاء على أية دابة، وألا يعملوا فى خدمة صغيرة أو كبيرة إلا من يريد أن يعمل بيوميته ، وبمحض إرادته ، ودون الضغط عليهم ، وألا يجبر العامل على العمل إلا بما يرغبه .

أمر آخر . يلتزم أصحاب الجلالة ومن ينحدر من صلبهم بألا يدخل أى مسيحى أى مسجد من مساجد المسلمين ، وعلى أصحاب الجلالة إصدار الأمر بعقاب من يخالف ذلك ، وألا يلزم أصحاب الجلالة وأتباعهم المسلمين بعقد الولائم أو تقديم اللحوم والطيور لأى مسيحى ، بل تقدم هذه الأشياء فى الخان ، كما كانت العادة أيام العرب المسلمين ، وألا يدخل مسيحى دار أى مسلم دون إذن منه ، وإذا دخل على العدالة أن تنتقم منه وتعاقبه ، وإذا دخل مسيحى فى دار عربى ، وقتله العربى أو جرحه ، لا يفرض أصحاب الجلالة عقابًا على العربى لفعلته هذه [٤].

أمر آخر ، يجب الحفاظ على شرف وكرامة القضاء ، والعلماء والفقهاء ، والقواد ، وفرسان غرناطة ، ومن يدخل معهم ، وذلك فى عاداتهم وتقاليدهم ، وأن يسمع كلامهم ، وأن كل المميزات التى كانت مخولة إليهم وكانوا معتادين عليها يجب أن تظل كما كانت فى عهد مليكهم .

أمر آخر ، إذا وقع خلاف بين عربى مسلم وعربية مسلمة ، على أصحاب الجلالة إصدار الأمر بألا يفصل فى هذا الخلاف إلا قاضيهم العربى المسلم ، ومجلس شورتهم ، وكذلك إذا وقع خلاف بين مسلم ومسيحى يكون القاضى من المسلمين [٥].

أمر آخر ، إذا وقع خلاف حول الميراث بالنسبة للمسلمين ، وكان لأصحاب الجلالة جزء فيه كما كانت العادة ، لا يحكم فى هذا إلا قاضى المسلمين ، وليأخذ كل صاحب حق حقه .

أمر آخر ، أن كل المميزات التى تمنح للمساجد وكل دور الإحسان التى يراها القاضى والفقهاء ، كذلك كل ما يخص الغلمان يظل كل هذا كما هو مثلما كان فى عهد المسلمين ، ويكون كل ذلك وفقًا لرأى قاضيهم .

يلتزم أصحاب الجلالة ومن ينحدر من صلبهم للأبد بألا يحاكموا مسلمًا على ذنب اقترفه آخر ، ولا يسد الأب عن الإبن ، ولا الإبن عن الأب ، ولا الأخ عن الأخ ، ولا ابن العم عن ابن العم ، وإنما من يرتكب الذنب عليه أن يتحمل عواقبه .

أمر آخر ، أن كل الأسرى المسلمين الذين هربوا ودخلوا فى أطراف غرناطة وقراها ، أو فى أى مكان من البشرات ، يندرجوا تحت شروط هذه الاتفاقية ، وأن يكون هذا الأسير حراً فى شخصه ، ولا يحق أى شىء ، ولا يطبق عليه أى حكم بل يكون حراً آمنًا (٦).

أمر آخر ، أى شىء يبيعه للمسيحى أو يقوم بنقله هنا أو هناك ، لا يطالب بإعادته ، أو إعطاء شيئًا بدلاً منه (٧).

وأن من يريد العودة ، فى إمكانهم عمل ذلك خلال فترة الخمس سنوات المذكورة ، وأن يستفيدوا من شروط اتفاقية غرناطة (٨).

أمر آخر ، لا يلتزم أصحاب الجلالة ، ومن ينحدر من صلبهم ، على الإطلاق ، برد كل ما أخذه الملك فى عهد دولته ، وكل ما أخذه أتباعه من ممتلكات وميراث ، من قليل أو كثير ، من المسلمين أو المسيحيين ، وإعلان أصحاب الجلالة بأنه ليس أى مسلم أو مسيحى الحق فى المطالبة بذلك الشىء ، وأن من يطلب ذلك الشىء يأمر أصحاب الجلالة بمعاقبته ، وليكن هذا الأمر للأبد ، ولا يطبق عليهم شريعة المسلمين أو شريعة المسيحيين (٩).

يمكن لتجار غرناطة والبيازين والبشرات والأماكن الأخرى الذين يندرجون تحت شروط الاتفاقية الرحيل فى سفن التجار العرب أو المسيحيين ، وحمل بضائعهم ، كما كانت العادة فى زمن المسلمين ، وأن يتم الحفاظ عليهم فى ذهابها وإيابها .

إن كل الذين يريدون الذهاب والسير عبر ممالك أصحاب الجلالة ببضائعهم ، بحثًا عن معيشتهم ، حيثما يريدون ، لايدفعون رسومًا أكثر من تلك الرسوم التى يدفعها المسيحيون ، وأن يأمر أصحاب الجلالة بذلك .

إن كل المسيحيين الذين أسلموا ، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثا ، لا يواجهون أى اضطهاد ، أو هتك لشرفهم ، ولا يطلب منهم العودة إلى المسيحية ، وأن من يريد أن يجبرهم على ذلك يستحق العقاب ، إلا إذا أرادوا بمحض إرادتهم العودة للمسيحية ، وفى حضور المسلمين والمسيحيين .

وإن من له أبناء من نساء تحولن إلى الإسلام ، ويرون بمحض إرادتهن العودة للمسيحية ، ينبغى أن يظل الأبناء فى حضانة الأب ، ولا يطلب منهم أى مسيحى بأن يعود الأبناء كباراً كانوا أم صغاراً للمسيحية ، إلا بمحض إرادتهم الآن ، وليس بعد الآن وإلى الأبد .

إن أى مسلمة متزوجة أو على وشك الزواج ، بأى طريقة ، وتريد أن تعود للمسيحية ، لا يمكن لها ذلك إلا بعد الحصول على رأى العدالة ، وإن كان الذى ورثته عن أبيها أو عن أشخاص آخرين سواء أكانت ملابس أم أشياء أخرى ، يأمر أصحاب الجلالة بعودة هذه الأشياء لأصحابها ، وإن من يخفى شيئًا تعاقبه العدالة بإعادتها .

أمر آخر ، يأمر أصحاب الجلالة بأن يتركوا لهم أسلحتهم وفرسانهم ، مثلما كان فى زمن مليكهم .

أمر آخر ، لايحق لأى مسيحى الكلام مع المسلمين فيما أخذه المسلمون فى زمن الحرب من المسيحيين ، من أسلحة ، وفرسان ، وأشياء أخرى ، وكذلك فيما فعله المسلمون مع المسيحيين، أو مع الذى أخذ أسيراً - فى الأشياء الزائدة عن الحد ، التى تسىء لذاتهم ، ولا أن يطلب منهم أى شىء من الأسلحة والفرسان والملابس ، ومن يفعل ذلك يعاقبه أصحاب الجلالة ، باستثناء المسلمين الذين - ليسوا من خيار الناس الحقيقيين الذين يحافظون على هذه الاتفاقية - ويقولون فى هذه الاتفاقية (يعارضونها) . ومن يفعل ذلك منهم يأمر أصحاب الجلالة بعقابه . ويقع عليهم الحد ، كما يقع على أعدائنا من أتباع الملك الزغل .

إن الذى لا يدخل معنا فى هذه الاتفاقية ، من أهل البشرات أو من مناطق أخرى ، فإنه لا يمكن استقبالهم وانخراطهم فى زمرتنا ، بانتهاء الثلاثين يومًا للموعد ، ولأصحاب الجلالة أن يفعلون معهم ما يرونه ، ولسنا مذنبين في ذلك .

إن اليهود الذين معنا يتمتعون معنا بشروط هذه الاتفاقية ، وإن الذين كانوا مسيحيين أولاً وانقلبوا إلى يهود يسمح لهم بالمرور والحركة خلال شهرين (١٠).

إن جميع أهل البشرات ، والقرى خارج غرناطة ، يتمتعون بظل شروط هذه الاتفاقية ، مثل أهل المدينة ، باستثناء الرسوم التى يدفعونها ، مثلما كان معتاداً أيام عهد ملك المسلمين .

هذه الشروط نحددها ، ونكتبها ، وعلى أصحاب الجلالة ، وسمو الأمير ، وخلفائهم ، والكاردينال ، والكونتات ، وعليه القوم ، أن يمنحونا ثقتهم ، أن يقسموا بشريعتهم بتنفيذها لنا ، وبالحفاظ على كل فصول هذه الاتفاقية ، فصلاً فصلاً والمدونة هنا ، وأن يحتفظوا بذلك إلى الأبد ، والآن وبعد الآن ، وأن يأمروا بكتابة ذلك على رق ، وأن يمهر أصحاب الجلالة هذه الاتفاقية بخاتمهما ، وأن يوقعا عليها بأيديهما ، وأن يوقع عليها الكاردينال ، والكونتات ، وعليه القوم ، دون أن يترك أى شيء دون ختم ، وهذا الختم ضرورى لإنهاء المسألة »(١١) .

(١) على الهامش يدون ما يلى : « حذار . اختلاف عامين » .

(٢) على الهامش يقرأ : « حذار . الاختلاف عامين » .

(٣) على الهامش ملحوظة تقول : « حذار . الاختلاف كان سبعة أيام » .

(٤) على الهامش ملحوظة : « حذار . لا يوجد فى الفصول الأخرى » وفى ملحوظة أخرى : « حذار . اختلاف بشأن موضوع الوفاة » .

(٥) على الهامش مدون : « حذار . اختلاف المسلمين والمسيحيين » .

(٦) على الهامش ملحوظة : « حذار . اختلاف البشرات » .

(٧) على الهامش ملحوظة : « حذار . اختلاف يقول : لا يكون فى حوزته » .

(٨) على الهامش ملحوظة : « حذار . اختلاف سنتين » .

(٩) على الهامش « ما يتعلق بالميراث » .

(١٠) على الهامش ملحوظة تقول : « حذار . فرق شهر » .

(١١) الملحوظات المدونة بكلمة « حذار . تشير إلى التحقق من الاختلافات التى تحذر فى مذكرة فصول الاتفاقية بالنسبة للفصول التى تم صياغتها ، وتظهر على هامش الوثيقة ، وأن هذه الملاحظات كانت مدونة ، دون شك ، فى عصر لاحق على أيدى أحد المثقفين ، والرد بذلك لشكل الكتابة .

رسالة إيرناندو دى ثافرا إلى أبى القاسم المليح :

« أخى »

إننى مندهش بشأن ما كتبته لى بناء على حسن تفكير الملك والملكة ، سادتنا عظمهما الله، ورغبة جلالتهما فى استقبال الملك والوزير ووضع نهاية لهذا الموقف ، وإن الأمر فى أيدى سيدى الملك ، وفى أيديكم ، كما أننى مندهش من شكوتكم منى حول المهلة ، وإننى أشهد بأننى لكم ، وليس فى ذلك شك .

إن ما أكتبه هو أن أنمى إلى علمكم النوايا الطيبة التى يكنها أصحاب الجلالة ، عظمهما الله ، نحوكم ونحو مليككم . إن الأمر المحير لأصحاب الجلالة هو عملية التسويف حول اتفاقية التسليم . إن اتفاقنا على تبادل الرأى والمشورة قائم ، ولقد سعدنا لأنكم بدأتم تدركون الموقف وتتفهمون الأمور ، وأرجو أن تعجلوا من سيرها ، وأن تتصلوا وتلحوا على السيد الملك ، والوزير ، ليتنازلا عن طلب ما هو غير ضرورى ، وبذلك تقدمون خدمة لأصحاب الجلالة للأبد . إن أصحاب الجلالة يريدون الخير للملك ، ونفس الشىء للوزير ، ولسوف تدركون ذلك حينما يصدر الأمر بتسليم الأمير أحمد ؛ إذ إنه ليس من الخير أن يستمر احتجازه .

ولكم تحياتى » .

٢٠٦

رسالة الملوك الكاثوليك إلى يوسف بن قماشة :

الملك والملكة

« القائد يوسف بن قماشة ،

اطلعنا على رسالتكم ، ونشكركم ، ونرى فيكم إرادتكم تقديم الخدمة لنا ، وهذا ما عهدناه فيكم : خدمتنا بالطريقة التى يقوم بها أبو القاسم المليح ، ونذكركم بأنكم ستتلقون منا الشكر الذى تستحقونه .

ومن جانبنا فإننا نركز على المهلة الممنوحة ، وهذا أمر ضرورى لإنجاز الأمور ، وإننا مندهشون منكم لطلبكم منا إرجاء الموعد ، وهذا أمر زائد عن الحد ، إننا نطالب الملك ونطالبكم بضرورة الالتزام ؛ تأكيداً للثقة التى نعهدها فيكم وفى مليككم ، إن فى إمكانكم التعجيل ، ونحن واثقون من ذلك ، ولا داعى للمماطلة والتسويف ، ولن يكون هناك بوجودنا هنا - بعون الله - خطر على الملك ، ولا عليكم . ويجب اتخاذ القرار ، وتقديم الخدمة التى وعدتمونا بها كثيراً ، إن مكانتكم فى المدينة معروفة ، وبمشيئة الله وبمساعدته يمكن عمل كل شىء على مايرام ، وفى إمكانكم التنفيذ .

من أجل هذا ، نرجوكم ونكلفكم بقدر معرفتنا بحسن إرادتكم ، أن تتخذوا نهاية ، وإننا ننتظر منكم ومن الملك الكثير لخدمتنا

القصر الملكى ».

رسالة الملوك الكاثوليك إلى أبى عبد الله :

« من دون فرناندو ودونيا إيزابيل ، إلخ .

إلى الشريف والمعظم بين العرب مولاى ملك غرناطة ، تحية شكر تعبر عن النوايا الطيبة.

إننا ننمى إلى علمكم أننا اطلعنا على رسالتكم ، وأيضًا علي رسائل قادتكم : ابن قماشة، وأبى القاسم المليح ، اللذين كتبا وردا على إيرناندو دى ثافرا ، سكرتيرنا .

نما إلى علمنا مدى اهتمامكم وأفضالكم علينا ، وفيما يختص بهذه المدينة فإننا نأمل أن يصلنا قرار بشأنها ، ورد بأمرها ، ولسنا نرى هناك أية مبررات لعملية إرجاء الطلب . إن الأمر لا يتعلق بطلب أشياء أخرى جديدة تطلبونها الآن . ومن ثم فإننا نؤكد استعدادنا لاستقبال من توفدونه دون الحاجة إلى البحث عن أشكال وطرق التفاوض ، ونعرب لكم من الآن عن أننا ضد عمليات التسويف والمماطلة ، فالأمر واضح للجميع ، وقادتكم عى علم بكل طلباتنا .

لقد قمنا بالرد على كل ما تطلبونه من توضيحات [١]، وسعادتنا ستكون كبيرة لو تم تحديد المهلة ، على ألا تتجاوز الثلاثين يومًا التى حددناها سلفًا ، إن تنفيذكم لذلك سيضع نهاية لكل الأمور ، وإن قائدكم أبا القاسم المليح على علم بذلك ، ولقد كتب سكرتيرنا إيرناندو دى ثافرا لقائدكم المذكور آنفًا .

إن فى إمكانكم - من الآن وحتى عشرة أيام - أن ترسلوا أحد قادتكم ليتولى الأمر فى هذا الموضوع ، وعليكم التفكير فى ذلك من الأن ، وليس لدينا أى التزام ، ولا تفكروا أو تعلموا بأننا ملزمون بشىء آخر سوى تحديد المهلة ، ولكن اتفاقنا معكم يتعلق بنا وبكم معًا.

---

(١) الجمل الأخيرة السابقة وضعت على الهامش ، كما لو كانت تصحيحًا أو تعديلاً أو حلت محل جمل أخرى مشطوبة فى النص الأصلى (الباحثة) .

رسالة الفقيه إلى إيرناندو دى ثافرا :

« سيدى ، حفظكم الله ، وأقبل أيدى أصحاب الجلالة ، أشكركم وأثنى كثيراً على أفضالكم .

إنمى إلى علمكم بأننى تلقيت رسالتكم ، وفهمت ما جاء بها ، ولا يجب على سيادتكم أن تشكرونى على الأشياء التى أقدمها لخدمتكم ، وخدمة أصحاب الجلالة ؛ لأننى أفعل كل ما فى استطاعتى ، وما فيه خير المسلمين أيضًا ، وإننى أعمل مع الناس رغبة فى تسهيل الأمور عليهم ، ولفائدة الجميع .

وأنمى إلى علمكم بأن أبا القاسم المليح ألمت به وعكة صحية ، وأنه أو الوزير عليهما إنهاء هذه العملية ، ولكن قد يكون من المجدى إذا استطاع الوزير الذهاب . وفيما يتعلق بذهابى فإننى سأقوم بذلك حينما يأذن الله ، وقد دار الحديث حول هذا الأمر ، ولكن قد أكون سعيداً وشاكراً لله حال إطلاق سراح الأمير .

ولكم تحياتى »

رسالة أبى القاسم المليح إلى إيرناندو دى ثافرا :

« صديقى المبجل والعزيز ،

أنهى إلى علمكم بأننى تلقيت رسالتكم ، وأنكم طلبتم منا الذهاب ليلة السبت ، وبما أنكم تعلمون أننى كنت مريضًا حتى ذلك التاريخ ؛ إذ أننى كنت أعانى من آلام فى البطن ، وها أنذا الآن أفضل من ذى قبل ، لقد أزيل ألم البطن ، ولم يبق سوى صداع فى الرأس ، ولكن كل شىء سينتهى بفضل الله وعونه ، وسأذهب فى حضور أصحاب الجلالة على الرغم من عدم ردهم على رسالتى ، ولكننى مع هذا سأذهب تنفيذاً لرغبتكم ولصداقتكم التى أعتز بها .

ولو كان الأمر يروق لكم ، سأصطحب معى ابن الوزير ابن قماشة ؛ لأنه إذا اصطحبته معى سيرتبط الأب ، وسيعملون معًا ، وسيكون هذا سراً بيننا .

أرجو أن تقبلوا نيابة عنى أيدى أصحاب الجلالة الملكية ، وأرجو أن يكون الطريق آمنًا لى ولابن الوزير ، وليكن ذلك ليلة السبت التى تكون يوم الجمعة ليلاً ، ولتكن الإجابة جاهزة من ليلة الخميس ويوم الجمعة ، وليقوم السيد جونثالو فرنانديث بعمل دخان عند قرية جوريانه ، وعندما نرى هذا الدخان سأتوجه بالذهاب ، وسيكون لقاؤنا فى نفس المكان الذى اجتمعنا فيه المرة السابقة .

لعلكم تعلمون أننى لن أمكث أكثر من ساعة ؛ إذ ينبغى أن أعود فى نفس ليلة السبت ، ولتشرق علىّ الشمس وأنا فى دارى ، وبخاصة إذا ذهب معى ابن الوزير ابن قماشة ، فإن ما يجب أن تفعلوه هو أن تكتبوا شروط الاتفاقية ، وأن تحفظ جانبًا الفصول التى ينبغى أن نتناولها فى تلك الساعة ، وسأعود بعد ذلك ؛ إذ لا يوجد هناك شىء آخر ؛ لأنه لو اكتشف السر سيكون هناك ضرر كبير للجميع .

إن ما يتعلق بالألفى ريال عن كل عام سيتضاعف ليصبح أربعة الآف عن كل سنة .

تحياتى للسيد جونثالو فرنانديث ، وللكاتب صامويل ، ولتشتمل الكتابة على كل العطايا وشروط تسليم المدينة مع التحيات .

تاريخ يوم الإثنين ليلاً » .

ملحق الرسالة

« السيد الموقر ،

أنمى إلى علمكم بأننى تلقيت السترتين من الجلد ، وأشكركم كثيراً ، وأريد منكم على كل حال أن تهيئوا لنا سبيل العودة فى نفس الليلة ، وأنتم بالنسبة لنا أصدقاء ، وستحافظون علينا مع أهل المدينة ، وأود أن تعدوا شروط الاتفاقية . وإننى سأمكث ساعة ننهى خلالها كل شىء ، وأرجو أن ترسلوا إلينا ما انتهيتم إليه ، وكونوا واثقين من ابن الوزير ابن قماشة ، وسيكون ذلك فى الليلة التى سنذهب ونعود فيها ، وسأحمل معى التفويض الكافى ؛ إذ سأطلب من سيدى ذلك ، وسأفعل ما أراه مناسباً حتى لا يكون هناك أى تأخير » .

رسالة إيرناندو دى ثافرا إلى أبى القاسم المليح :

« إلى الأخ ، وإلى الملك والملكة سادتنا عظمهما الله .

لقد عرضت ما كتبته لى ، وأصحاب الجلالة يعلمون - كما سبق أن كتبت لك بذلك - أنكم تقدمون الخدمات دومًا . ولقد بدا لهما عظيمًا أن تصطحبوا معكم ابن الوزير ابن قماشة، وسيأمرون بتأمين الطريق لحضوركم يوم الجمعة ليلاً ، وسيتم عمل دليل خروج عبارة عن دخان من قرية جوريانه ، كما سبق وأن ذكرت لنا ، وسنذهب فى الليل - بعون الله ورضاه- للقائكم هناك ، ولن يكون الدخان ظاهراً بالقدر الملفت للنظر .

وبشأن كا كتبتم لنا عنه بخصوص الحصول على التفويض الكافى ، عليكم بالاهتمام بهذا الأمر ، حتى يمكن الانتهاء من المسألة ، وحتى يطمئن أصحاب الجلالة لكل الأمور . وليكن التفويض مكتوبًا وواضحًا ؛ إذ بموجبه يمكن اتخاذ القرارات والانتهاء من الأمور الأخرى التى يريد عرضها أصحاب الجلالة ، وحتى تكون العطايا لكم على خير دائمًا .

إن حضوركم سيسعد أصحاب الجلالة ، ولا يساوركم أى قلق فى أن العودة ستكون فى نفس الليلة للمدينة ؛ إذ يجزم أصحاب الجلالة بذلك » .

رسالة الفقيه :

« سيدى .

اطلعت على رسالتكم ، وفهمت ما جاء بها .

أنمى إلى علمكم كيف ذهب أبو القاسم المليح ، وابن الوزير إلى هناك ، لإنهاء تلك الأمور؛ إنهما لم يقولا لى شيئًا ، ربما خوفًا ، ولكننى أحيطكم علمًا بأن الوقت مناسب للحديث فى هذا الأمر ، وأن إنهاءه سيكون فى غضون شهرين ، أو خمسين يومًا .

وفيما يتعلق بموضوع الرهائن ، عليكم أن تحسنوا التصرف فى هذا الأمر حينما تستطيعون ذلك ، وليس هناك من خوف من أى شىء ، ولا تتوقفوا فى شىء ، بل عليكم بالانتهاء منه ، وأن تقولوا لهما بأنكم ستسلمون موقعًا أو اثنين قبل إنهاء المدة المحددة ، وهذه نصيحة لوجه الله . وليكن مثلاً موقع موندخار أو أندرش أو داليه ، وبهذا التصرف سيشعر الناس بالسماحة ، وسيلين قلبهم ، وليكن هذا فى غضون عشرين يومًا ، أو أقل .

إننى سأفعل كل ما فى وسعى مع الناس ، والحديث معهم عن طريق رسول يأتى بعد ذلك ، ليبدأ الحديث مع الناس ، ويطلب الأمان أولاً ، وسنرى ما يقوله الناس حول ذلك ، وبعون الله سيكون كل شىء على مايرام ، وحين نلحظ حسن نوايا أهل المدينة ستسمحون لهم بالخروج لإلقاء البذور ، وسيكون خيراً بالنسبة لكم ولهم ، واطلبوا منهم رسالة موثقة بكل شىء ، وسأكون أنا شاهداً على ذلك ، إذا كان هذا الموقف يروق لكم ، وأن تقولوا لهما حينما يتحدثان إلى أهل المدينة أن لهم الذهاب والإياب ، وبهذا سيلين الناس .

وأتوسل إليكم ، بل وأطلب ذلك منكم - أمام أصحاب الجلالة - بأن أكون قاضيًا للبشرات ، مثلما كان مولاى الزليجى . وسأكون أول المبشرين حينما يأتى الأمير » .

رسالة ملك غرناطة إلى أصحاب الجلالة :

« إلى عظماء الدولة ، سادتي الملك والملكة ، ملكي قشتالة وليون وأرغون وممالك أخرى ، عظمهما الله وأطال حياتهما .

أنني إلى علم أصحاب الجلالة أنني تلقيت رسالتهما ، وفهمت ما جاء بها وما تحتويه ، وسعدت سعادة بالغة ، حينما علمت أن أصحاب الجلالة على ما يرام .

كما أنهي إلى علمهما أنني تلقيت كل فصول الاتفاقية الخاصة بنا ، وكذلك الفصول الخاصة بمدينة غرناطة ، وأنه بموجبهما يتبين حسن النوايا الطيبة لأصحاب الجلالة ، وأدرك ثناءهما علينا .

لقد أمرنا الوزير ابن قماشة والقائد أبا القاسم المليح بأن يكتبا إلى سكرتيركم ، وخادمكم فرناندو دى ثافرا بشأن الفصول التى نقصت فى اتفاقية مدينة غرناطة ، والأشياء الأخرى . وكذلك أمرنا بالكتابة والإعلان للسكرتير المذكور بشأن الأماكن التى أمر لنا بها أصحاب الجلالة ولأتباعنا . وبشأن بعض الفصول التى نتوسل بها لدى أصحاب الجلالة أن يشملاها عطفهما وفضلهما ، ونرجو أن يأمر أصحاب الجلالة - حينما يطلعان عليها - بمنحها وتنفيذها كما هى مكتوبة ، وأن يأمرا فرناندو دى ثافرا بأن يكتب بما يراه بلاطكما الملكى ، وأن يكون كل فصل من فصول الاتفاقية موقعًا عليه على حده ، وأن يرسل إلينا مثل بقية فصول شروط الاتفاقية التى أرسلت من قبل .

هذا ما أرجوه من أصحاب الجلالة ، وأتضرع أمام الله ان يساعدنا فى خدمتكما بشأن المدة المذكورة لشهر مارس دون عذر وبعون الله .

تحيات وبركة الله على أصحاب الجلالة ،

تاريخ يوم الجمعة » .

رسالة ابن قماشة وأبى القاسم المليح إلى أصحاب الجلالة :

« إلى عظماء الدولة ، سادتنا الملك والملكة ، عظمهما الله ،

نحن أتباعكما بكل حسن االنوايا والحب ، نحن الوزير يوسف بن قماشة وأبا القاسم المليح، نقبل الأيدى والأقدام الملكية لأصحاب الجلالة .

ننمى إلى علم أصحاب الجلالة - إلى جانب ذلك - أننا تلقينا رسالتكم المشرفة ، واستلمنا معها كل فصول الاتفاقية التى أمر أصحاب الجلالة سيدنا الملك بها وتدوينها ، كما أمرنا أيضًا بشروط الاتفاقية الخاصة بغرناطة والبيازين وضواحيها وكل الأماكن الأخرى ، التى انضمت معنا فى إثبات الاتفاقية وتدوينها ، وقد عرضناها على الملاك ، وسعدنا بها .

إننا نثنى على أصحاب الجلالة أن وجدنا لديهم حسن النوايا إزاء الملك ، ونحونا . ونحيطكم علمًا بأنه مازالت هناك بعض الاتفاقيات الخاصة بغرناطة التى لم تصل إلينا . وقد أمرنا الملك بأن نكتب إلى فرناندو دى ثافرا بها ، استجابة لأمر أصحاب الجلالة بذلك ، وأن تكتب كل الأماكن الواقعة فى البشرات وكل الخلجان الأخرى التى أمر بها أصحاب الجلالة ، وكذلك الفصول الناقصة بشأن غرناطة ، وإننا نرجو من أصحاب الجلالة أن يأمروا بتنفيذ ذلك معنا ، وألا يبقى لنا سوى أن تبدأوا فى الحديث مع الناس ، وإصدار الأمر إلى فرناندو دى ثافرا بأن يكتب ، مثلما كتب فصول شروط الاتفاقية الخاصة بسيدنا ، وبالنسبة لنا ، ...

مازالت هناك بعض الفصول ناقصة بشأن اتفاقية غرناطة والخلجان الأخرى ، وحينما نتسلم المكتوب بأمر أصحاب الجلالة سنجد الطريقة التى سنذهب بها ، وسنبحث عن الفقيه الذى يذهب معنا كما أمر أصحاب الجلالة .

إننا نقبل أيدى أصحاب الجلالة . تاريخ » .

رسالة أبى القاسم المليح إلى إيرناندو دى ثافرا*

« أخى الحقيقى والمفضل ،

وصلت الرسالة الملكية ، وكم سعدت بها أيما سعادة حينما وصلت فصول الاتفاقية ؛ إذ علمنا بموجبها حسن نوايا أصحاب الجلالة ، وإن كانت هناك بعض فصولها القليلة التى لم تصل ، والتى نرجو أن يأمر أصحاب الجلالة بتنفيذها .

لقد ظهر للملك - سيدى - أن يطلب كل أسرى مدينة غرناطة والبيازين وضواحيها وقراها ، لأنه لن يبقى لنا أمل فى أى أسير حين تدخل هذه المدينة فى خدمة أصحاب الجلالة ؛ حيث يوجد فى المدينة قضاة ، ورجال إفتاء ، وعلماء ، يقولون : إنه لم يخرج كل الأسرى من أراضى المسلمين ، وأن الله لن يغفر لهم جرائمهم البشعة بتسليم مدينة غرناطة إلى أصحاب الجلالة .

لقد رأينا الفضل العظيم لأصحاب الجلالة بشأن أهل غرناطة ، وأن هذا الفصل من شروط الاتفاقية أمر ضرورى ، ونرجو أن تعملوا على ذلك .

وبشأن الفصول الأخرى عليكم أن تذكّروا أصحاب الجلالة حتى طوال شهر مارس ، ولا تذكروا التاريخ أو المدة التى تم الاتفاق عليها ، وأيضًا الانتهاء من تسليم الحمراء وقواتها ، ودار الإحسان وأبراجها وديارها وأبوابها ، وطاعة غرناطة من صغار وكبار بأن يخرجوا لاستقبال أصحاب الجلالة مثلما اعتادوا استقبال ملوكهم ، وأن يكون كل واحد حسب مهنته حاملاً علمه ، وأن يلتزم أصحاب الجلالة بتنفيذ كل شروط الاتفاقية ، وأن ما تقولونه بشأن وجود الرهائن لا تفكروا فى أنه يمكن تنفيذ ذلك خوفًا ، وأن الأمر لا يتعدى أن يكون بعض الأشياء التى عملت مع المدجنين ، وكذلك ما يتعلق بأبراج وقوات المدينة يجب أن يترك جانبًا ؛ لأن أهلها لم يتعودوا على ذلك ، وإنما يدخل أتباع أصحاب الجلالة الحمراء وقلاعها ، والتى سنقوم بتسليمها ، وسيكون من بداخلها أولئك الرعايا المدجنين ، الذين سيتم معاملتهم معاملة حسنة ، مثل : « بويرتو كاريرو » الذى يمتلك « بالما » و « رودريجو دى أويوا » الذى يمتلك « ريكوتى » ومثل دون فرناندو الذى يحبه كثيراً المسلمون . وسيعرف جونثالو فرنانديث وأصحاب الجلالة أكثر من ذلك ؛ فحين يتم استلام الحمراء سيكون لديكم كل الأعالى ، وكذلك « الكورال » ، وبستان العريف (جنة الخليفة) ، التى يدخلها الملوك رويداً رويداً ، حيث يقيمون هناك ، فضلاً عن باب « العشار » الذى سيكون فى أيديكم ، و

«نسدى » أيضًا ، والساحة كذلك ، وستكونون سادة لكل الأراضى ، وعلى رأسها غرناطة ، ولن تكون لكم الحاجة فى الدخول أو الخروج عبر المدينة ، وإنما سيكون ذلك من الخارج ، وبهذا تدخلون غرناطة ، ولن يكون هناك أى ضرر ، وستكون قلوب الناس آمنة لتخدم أصحاب الجلالة على أفضل وجه ، وهناك سترسلون ما بقى من فصول اتفاقية غرناطة ، حتى يتم العمل بها ، وكذلك كل العطايا والشروط الخاصة بسيدى وبنا عليكم أن تنفذوها .

وعليكم كذلك أن تضعوا فى كل فصل من فصولها أن يكون أهل غرناطة وملكها وكل كبارها وأهل البيازين والمناطق الأخرى آمنين ، وبعد ذلك عليكم تأمين ممتلكاتهم وديارهم من الآن وبعد الآن وإلى الأبد ، وأن يرد هذا فى كل فصول من فصول الاتفاقية .

مرسل لكم ملحق صغير لرسالة داخل هذه الرسالة ، وعليكم أن تقرءوها ، وأن تبذلوا قصارى جهدكم بشأنها ، واعلموا أنه يوجد فى هذه المدينة علماء ، وأنا أدخل معكم بشأن إنهاء هذا الموضوع ، وأنا أطلب منكم أن تنظروا جيداً فى كل فصول الاتفاقية ، وأن تثبتوها وتوقعوا عليها بالشكل الذى لا يجد أى من العلماء شيئًا ليقوله فى هذا الموضوع ، وفى شروط الاتفاقية ، ولا تضعوا أية نقطة فى أى فصل من الفصول تدحض نقطة أخرى ، وأن توقيع عليه القوم مع أصحاب الجلالة لن يضيع سدى ، وأن كل رسائل المدن يشهد عليها الفقهاء وعليه القوم ، وأنه على الملوك وعلى الأشخاص الآخرين وعلى أهل غرناطة مراعاة ذلك ، والعمل عليه ، وهكذا أختم فى غرناطة ، وللقول عليكم بتأكيد كل الأشياء جيداً من أجل حسن السمعة لكم ولنا إلى الأبد .

ولكم التحية » .

ملحق الرسالة

« أخى ،

انطلاقًا مما تؤكده صداقتكم لنا ، فإننى أطلب من أصحاب الجلالة سوق الغلال والسمك برسومه وعوائده ، وإذا تعذّر ذلك ، يمكن الإنعام علينا بميدان صناع الأحذية ، والمكاسب الناتجة عن ذبح الماشية بسوق غرناطة ، أما الفضل الأكبر الذى يمكن أن تقدموه لنا فهو أن أنال الحظوة لدى أصحاب الجلالة ، وأن أكون واحداً من أتباعهم ، وأن تظل دار أصحاب الجلالة مفتوحة لتوسلاتى وطلباتى من أجل الجميع الذين يأتون طالبين مساعدتى لهم ، مثلما

يحـدث فى دار سـيـدى . إن مـا أريده منكم هو أن أكـون صـاحب حظوة ، وأن أنال العطايا والممتلكات . غير أننى لن آخذ إلا ما هو ضرورى بالنسبة لى .

أرجو أن يكـون هذا سراً ، وألا يعـرفـه أحد . وأرجـو أن تقولوا لأصـحاب الجلالة أن يثنوا على أتباعهم وخدامهم الذين يعرفون هذا السر ؛ إذ إن هناك قومًا من علية القوم وصغارهم لا يريدون أن تعـود المدينة لسلطانكم ، ويتفـوهون بأشـيـاء تسبب أضـراراً لنا ولكم ، وليس من الضـرورى التصـريح ، ويكفى فقط التلميح ، وأن تقولوا لأصحاب الجلالة أن يعلنوا أن الذى يتكلم مع مـسلم أثناء المناوشـات سـوف يعـاقب ؛ إذ إننى سـمـعت البـعض يقـول للفـرسـان (حراسكم) بأنهم ضائعون ومباعون ، وهذا يسبب خسائر كبيرة لنا ولكم .

لقـد رأيت « دون بدرو » قـائد المرية يطلب الحديث مع ابن الوزير ابن قـماشـة ، ويقـول له : أريد أن تقول للملك سيدك أن يسعد . وهذا كله ليس عـملاً طيبًا . ولا أقول أكثر من ذلك ، سـوى أننى خـادم لكم ولأصـحـاب الجـلالة ، وأرجـو أن تغـفـروا لى أننى أرغـب فى مـصلحـة أصـحاب الجـلالة ، بأن أكـون حاكـمًا لإدارة الجـمارك . وسـأكـون سعـيداً إذا أوكلتم لى هذه المهمة. وزوجتى ترسل إلى زوجتكم بعض النعال . ولكم تحياتى » .

« أخى ،

بما أنكم تعرفون رغبتى فى خدمة أصحاب الجلالة ، والصداقة التى أكنها لكم ، فإننى أنمى إلى علمكم بمجىء سفينتين إلى مـيناء « أدره » وأحضرت ألف فنيقة من القمح ، كما حضرت سـفـن رست فى مينـاء « بيليث » حاملة قـمح الصـدقـات ، وفـرسانًا ، ومن المؤكـد أن كل هذا يؤثر عـليكم كـثـيـراً وعلينا أيضًـا ، وإننـى معـب بأسطولكم الذى سـمح بمرورها بعـد تحـصـيل الرسوم ، فضلاً عن حماية أسطولكم للبحر .

مع تحياتى » .

شروط اتفاقية التسليم :

« هذا نقل لما يطلبه سيدى الملك من أصحاب الجلالة .

أن يأمر ويلتزم أصحاب الجلالة ، أصحاب الدولة الملكية ، سادتنا الملك والملكة ، عظمهما الله ، بكل الأشياء التى تبدو لهما فى هذا الكتاب لمولاى الملك أبى عبد الله ، بموجب هذه الاتفاقية ، وبالعطايا التى سنذكرها ، وأن يصدقا على الالتزام بكل فصول هذه الاتفاقية وشروطها وتنفيذها يوم تسليم الحمراء وغرناطة . وذلك حينما يفى مولاى الملك أبو عبد الله بوعده مع أصحاب الجلالة ، ويقوم بتسليمهما الحمراء ، ودار الإحسان وديارها وأبراجها ، وكل ما هو عال ومنخفض منها ، وأبوابها ، وكذلك حين يحمل - على احترام وخدمة أصحاب الجلالة - أهل غرناطة والبيازين وضواحيها ، وكل الذين يندرجون فى شروط هذه الاتفاقية ، ومن يستقر من الأشخاص وقلاعهم والعقارين فى غضون الخمسين يومًا بعد نهاية شهر مارس. وحين يفى سيدى الملك بالتزامه مع أصحاب الجلالة بتسليم الحمراء فى الشهر المذكور ، كما سبق وأن ذكر ، ويجعل أهل غرناطة والبيازين وضواحيها وكل من كانوا يستقرون ويدخلون فى طاعة سيدى الملك يصبحون فى طاعة أصحاب الجلالة ، ويخرجون لاستقبال أصحاب الجلالة ، وحين يسلمهم الحمراء فى شهر مارس المذكور دون عذر . وأما من لا يدخل خلال الخمسين يومًا المذكورة فى طاعتهم فلأصحاب الجلالة أن يفعلوا معهم ما يريدونه ، وأن يتخذوا كل ما يرونه بشأنهم لإلزامهم بالتنفيذ ، والأمر بمنح الرسائل النهائية .

وهذه الشروط هى :

أن يكون سيدى الملك : مولاى أبو عبد الله ، وأولاده ، وكل أهل منزله الملكى ، وكل القضاة والعلماء ورجال الافتاء والفقهاء والوزراء والقضاة والفرسان ، وكل العامة ذكوراً وإناثًا من أهل غرناطة ، والبيازين وضواحى غرناطة ، وكل الأراضى التى تدخل مع غرناطة والبشرات والعقارين ، وكل الأطراف التى يستقر فيها أهلها ، وكل ما يظهر فى هذه الاتفاقية بشأن مدينة غرناطة ، فى موقف الملتزم بالتنفيذ فى المدة المذكورة بشهر مارس المذكور ، وأن يكون مولاى الملك : أبو عبد الله ، وكل المذكورين أدناه أحراراً ، آمنين على أرواحهم وممتلكاتهم ، وأن يتركوا فى ديارهم وأعمالهم بكل ما يملكون وبكنوزهم وذهبهم وفضتهم ، ولا يتم الاستيلاء على أى شىء منهم ، من الآن ، ولا بعد الآن وإلى الأبد ، ويتم معاملتهم معاملة حسنة وكريمة وشريفة -سواء كانوا كباراً أم صغاراً ، ذكوراً أم إناثا - بوصفهم أتباعًا لأصحاب الجلالة .

أمر آخر ، أن يأمر أصحاب الجلالة بإطلاق سراح الأمير ، الموجود فى موكلين ، يوم أن يستلم أصحاب الجلالة الحمراء ، فى شهر مارس المذكور ، وأيضًا كل الرهائن الذين احتجزوا مع الأمير المذكور ، وأيضًا الأشخاص الآخرين الذين دخلوا معه كرهائن ، سواء كانوا ذكوراً أم إناثًا ، ويتم تسليمهم إلى مولاى الملك أبى عبد الله ، دون عذر أو تأخير ، أحراراً آمنين سالمين وراضين عن أصحاب الجلالة .

تعفى من كل الرسوم كل مواريث ملك غرناطة ، وما يتعلق بالسيدات الملكات ، وحكام وقادة الأراضى والبساتين والديار والأشياء الأخرى ، الآن وبعد الآن وإلى الأبد ، مادامت فى حيازتهم وحيازة مورثيهم . ولهم الحق فى بيعها فى أي وقت يريدون فيه البيع ، ومن يريد أن يفوض وكيلاً أو نائبًا عنه ، له الحق فى تحصيل الإيجارات والعائد ، وأن يقوم هذا الوكيل بإرسال ذلك إلى أصحابها أينما كانوا هنا أو هناك . وأن يأمر أصحاب الجلالة بأن هذه الأمور تكون معفاة مثلما كانت فى عهد سيدى الملك ، وأن يلتزم أصحاب الجلالة بالحفاظ على ذلك.

أمر آخر ، أن يأمر أصحاب الجلالة بمنح العطايا لمولاى الملك : أبى عبد الله ، بما يعادل ثلاثين ألف عملة قشتالية وزنًا ، وأردية بنفس العملة ، دون أن ينتقص منها شيئًا ، وأن يتسلمها فى نفس يوم استلام أصحاب الجلالة وأتباعهما الحمراء دون أى عذر .

أمر آخر ، أن يلتزم أصحاب الجلالة بصفتهما الملكية بالأماكن التى أريد ذكرها مرة أخرى فى هذا الكتاب ، وهى : أولاً مدينة برشانة وقصبتها وقواتها وأراضيها ، والأطراف الأخرى التى كانت خاضعة لسلطانهم ، وبمنافعها ورسومها على أراضيها الآهلة وغير الآهلة ، وكل ما هو عال ومنخفض منها ، ومناجمها ، بألا يدخل أحد بصفة العدل أو الأمر فيها إلا بأمر أصحاب الجلالة ، ومنحها مهلة شهر مارس المذكور إلى سيدى الملك أبى عبد الله ، أو من يريد أن يحل محله ، وأن يلتزم أصحاب الجلالة بذلك ، ويصدقون ويقسمون بشريعتهم ، بأن يسلموا المنطقة المذكورة ، وأن يكون القسم بحق الميراث لأحفادهم وأحفاد أحفادهم ، وأنه يمكن البيع أو الحفاظ عليها ، وله الحق من الآن وبعد الآن وإلى الأبد ، ولا يمكن لأحد أن ينتزع شيئًا منها .

أمر آخر ، أن كل ساحات مرشينة ، وباله ، بكل قواتها وأماكن مقاوماتها ، وكفاحها ، وكل الأماكن على ترابها ، وقواتها كما ذكر ، مثل ساحات أندرش وقصبتها وكل أراضيها ، كما ذكر ، وأيضًا منطقة أوخيخار ، كما ذكر ، وأيضًا منطقة شبليش بكل عوائدها وإيجاراتها ، كما ذكر ، وكذلك مناطق فريره وبوركيره ، كما ذكر ، وكذلك منطقة جبيل وما

يريده أيضًا سيدى الملك مع هذا منطقة برجه ودلاية لولده ، وأن هذه المناطق ستكون ميراثًا ثابتًا ، وأنه عند الخروج من الحمراء سيتم استلام هذه المناطق ، والمناطق التى لا تدخل فى هذا الخال ، وهذه الاتفاقية سيلتزم بها أصحاب الجلالة بمنحها إلى سيدى الملك فى أى وقت عندما تكون فى حوزتهم ، أما منطقة العقارين سيمنحها الملك لى ، وليوسف بن قماشة ، وسنوردها فى شروط الاتفاقية بوصفها من العطايا التى ينبغى أن يمنحنا إياها أصحاب الجلالة ، بعد الانتهاء من عطايا سيدى الملك . وأن أصحاب الجلالة ، ومن يخلفهم لا يدخلون ولا يأمرون بالدخول مع مولاى الملك فى أى شىء من هذه العطايا ، وأن يكون ذلك بحق الميراث والبيع، أو الاحتفاظ بها ، أو بالتخلص منها ، وليتوارثها الأحفاد وأحفاد الأحفاد ، بكل الحقوق والإيجارات والعوائد وكل ما يتعلق بها وبقصباتها ، ولا يدخل أحد فى هذه الأماكن إلا من كان من أهل الملك أبى عبد الله ، وأن تكون مناجمها خاصة به وبأهله ، من الآن وبعد الآن وإلى الأبد .

أمر آخر ، أن كل ممتلكات جميع الملكات الحرة ، وامرأة مولاى أبى النصر ، التى يمتلكنها فى مدينة غرناطة ، وفى أراضى قراها وبساتينها ، وعقارات وطواحين الزيت ، والحمامات ، وكل ما يكون فى حوزتهم ، يسمح أصحاب الجلالة لهن ، بالتصرف فيها بالبيع لكل ما يردنه، من الآن وبعد الآن وإلى الأبد . وإذا أراد أصحاب الجلالة الشراء ، عليهم أن يدفعوا فيها السعر الذى يدفعه الآخرون ، وإذا أردن الاحتفاظ بها يمكنهن ذلك ، وأن تكون كل هذه الممتلكات معفاة من كل الرسوم ، من الآن وبعد الآن وإلى الأبد .

أمر آخر ، أن تتمتع كل أماكن البشرات والمناطق الأخرى ، بكل ماجاء فى شروط اتفاقية غرناطة ، لكى تكون مثل أماكن غرناطة ، باستثناء الرسوم التى تدفع مثلما اعتادوا ، وألا تكون الرسوم لأهل غرناطة .

أمر آخر ، أن كل ما أخذه ملك غرناطة وقادته وفرسانه من ممتلكات وعقارات وبساتين وأشياء أخرى ، سواء كان بطريق العدل أم بغيره ، من المسلمين أو المسيحيين ، فى أيام السلم، أو فى أيام الحرب ، يأمر أصحاب الجلالة ومن يخلفهم بعدم مطالبة أى شخص بأى شىء ، ولا بحق السنة من الآن ، ولا فى أى وقت .

أمر آخر ، أن كل ممتلكات ملك وادى آش وقادته وفراسنه وكل ما أخذه منهم مولاى أبو عبد الله ، من أراض وبساتين وديار ، وأصبحت حاليًا فى حيازة الملك المذكور ، وفى حيازة قادته وأتباعه ، لا يمكن لأى شخص أن يكون له الحق فى إعادتها لهم ، ولكن تظل كما هى

اليوم . وإذا كانت هناك رسائل عطايا من أصحاب الجلالة ، يجيبهم أصحاب الجلالة . ومن يأتى لطلب هذه الممتلكات يتم عقابه من الآن وفى أى وقت .

أمر آخر ، أن يمنح أصحاب الجلالة ومن يخلفهم موافقتهم ومصداقيتهم بمرور سيدى الملك هنا وهناك ، وفى أى وقت يريد ، هو وأولاده ، وقادته ، وزوجته وكل أهل منزله ، وكل فرسانه ، وكل الذين يريدون أن يمروا هناك ، وأن يقسم أصحاب الجلالة بشرفهم الملكى ، وكذلك كبار رجال بلاطهم الملكى ، أنه فى أي وقت إذا أرادوا المرور هنا وهناك مع الأشخاص المذكورين ذكوراً وإناثًا فى أى وقت ، من الآن وبعد الآن ، بأن يأمروا بإعداد سفينتين تجاريتين كبيرتين من جنوه وتجهيزهما فى الوقت الذى يريدون المرور فيه ، وأن يطلب ذلك من أصحاب الجلالة بضمان الحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم وأرديتهم وبضائعهم وأشياء أخرى ، ولا يلتزم هؤلاء بسداد أو منح رسوم لهذه السفن ، ولا لعمليات الشحن ، ولا أى رسوم عن الرسو ، ولا عند الإبحار ، وأن يتم إعفاؤهم من كل الرسوم ، ورسوم الشحن الذى يحملوه للملك المذكور ، ولكل الأشخاص المذكورين ، وكل هذا يكون من خلال الميناء الذى يريده ملك غرناطة ، أو من موانىء الشرق أو الغرب أو من مدينة تونس أو وهران أو من موانىء فاس أو من أى مكان يريدون أن يبحروا منه ، سواء كان بشخصه أم كل المذكورين ، وأن يعهد بالحفاظ عليهم وتأمينهم فى أي مكان يريدونه كما ذكر ، وكذلك فى أى وقت يريده ملك غرناطة ، أو أى أحد من قادته ، بأن يرسل أحد خدامه ببضائعه أو بدونها إلى هناك ، أو إلى تونس ؛ لكى يبحث مع أصحاب الجلالة إصدار الأمر بأن يتم إعفاؤهم من كل رسوم الذهاب والإياب من الآن، وفى كل وقت .

أمر آخر ، أن يأمر أصحاب الجلالة بإصدار جوازات المرور لدواب الملك والوزير وكاتب هذه الاتفاقية والقادة الآخرين الذين خرجوا معه ، مثل : بنى سراج ، وغيرهم ، الذين يخرجون بالدواب بالبضائع أو بدونها فى كل مملكة أصحاب الجلالة معفاة من كل الرسوم فى الموانىء ، وفى كل الأماكن الأخرى ، ولا يطلب منهم أى شىء آخر ، ولا يحجز عليها ، وتعامل مثل دواب أصحاب السعادة وأتباعهم .

أمر آخر ، أنه بخروج مولاى الملك أبو عبد الله من مدينة غرناطة ، يكون له الحق فى السكن والإقامة حيثما أراد فى تلك الأراضى المذكورة ، وكل الذين يريدون الخروج معه ، ومع قواده من القادة والعلماء والقضاة والفرسان ، وأن يحملوا معهم أسلحتهم فى أيديهم ، مثلما هم عليه اليوم ، دون أن يؤخذ شىء من أسلحتهم أو طلقات البارود أو أى أشياء أخرى ، كما

لا توضع شارات على ملابسهم من أهل غرناطة ، أو من أى أطراف أخرى تندرج تحت شروط هذه الاتفاقية .

أمر آخر ، أن يأمر أصحاب الجلالة بمنح الترخيص لمولاى الملك أبى عبد الله حتى يمكنه بيع الأماكن المميزة والمخصصة له ، إلى من يريد ، وفى أى وقت يريد ، وكذلك الوزير وكاتب هذه الاتفاقية لهم الحق فى بيع الأماكن إلى من يريدون ، وإذا أراد أصحاب الجلالة الشراء منهم أو من أى واحد منهم فعليهم أن يقدموا السعر العادل ، ويلتزم أصحاب الجلالة بذلك ، من الآن وبعد الآن .

أمر آخر ، لا يطلب ولا يضغط أصحاب الجلالة على مولاى الملك : أبى عبد الله ، ولا على قادته وأتباعه بالذهاب مع أصحاب الجلالة إلى أى حرب أو نزاع مع المسلمين أو مع المسيحيين إلا إذا كان ذلك بمحض إرادتهم ، وليرسلوا من يريدون .

أمر آخر ، أن أى أسير مسلم أو مسلمة يهرب من الأسر ويدخل فى أراضى الامتياز سواء كانت آهلة أم غير آهلة يصبح حراً ، ويفعل ما يشاء ، ويضاف هذا الفصل إلى فصول اتفاقية غرناطة والأماكن الأخرى التى تندرج تحت سلطانها وفقًا لشروط الاتفاقية ، وأن هذا الفصل من الفصول التى لم ترد إجابة بشأنه ، وعلى أصحاب الجلالة استصدار الأمر بمنح هذا الامتياز لأهل غرناطة .

أمر آخر ، هناك فصلان لم يدرجا بالفصول التى أرسلناها لأصحاب الجلالة ، والتى نذكرها الآن ، ويجب أن توضع ضمن شروط اتفاقية تسليم غرناطة ، واتفاقية الملك ، وأيضًا الفصول الأخرى التى تتعلق بشئون غرناطة توضع ضمن فصول شروط الملك ، والفصل الآخر الذى ينص على أن كل أسرى غرناطة والبيازين وضواحيها والقرى المذكورة بأراضى غرناطة ، يأمر بشأنهم أصحاب الجلالة بإطلاق سراحهم سواء كانوا ذكوراً أم إناثًا ، وهم الذين يرد ذكرهم فى المذكرة الثابتة للقادة والعلماء الذين يأمر أصحاب الجلالة بالإفراج عنهم ، دون أى حق أو أى شىء آخر ، وأن يسعد أصحاب الجلالة سادتهم ، وأن يدفع التعويض من عائدات جمارك غرناطة ، ويكون هذا تعبيراً عن حسن النوايا لخدمة أصحاب الجلالة .

أمر آخر ، الإعفاء من الرسوم لأهل غرناطة والبيازين وضواحيها وأراضيها وبساتينها بإخراج عشر الخبز والذرة لمدة خمس سنوات ، مثلما كتب بذلك أصحاب الجلالة مع شيوخ البيازين ، ولا يحق العودة إلى الوراء بما أمروا به ، ووضعوا توقيعهم عليه .

أمر آخر ، السماح بالانتقال والمرور لكل الذين يريدون المرور لمدة خمس سنوات ، والإعفاء من الرسوم .

أمر آخر ، أن كل الذين يريدون المرور هناك بعد فترة السماح يتركهم أصحاب الجلالة يمرون في أى وقت يريدونه ، وأن يؤخذ منهم ضعف القيمة القشتالية عن كل رأس سواء كان كبيراً أم صغيراً ، وأن يدفعوا ما كانوا عليه معتادين .

أمر آخر ، لا تدفع رسوم عن الأراضى الأميرية من البساتين ، المجاورة للعقارات العامة ، أكثر مما كان يدفع عادة عليها ، ولا تدفع الرسوم ؛ إذ إنها مجاورة وقريبة من المدينة ، ولا يحق لأى شخص أن يلحق بها أضراراً ؛ إذ كان القادة والفرسان يعتادون على ذلك بخصم أجورهم من الرسوم ، ولهذا كانوا يكلفونهم أكثر مما كانوا يستحقون .

أمر آخر ، أن تكون المدة للأماكن التى تدخل ضمن مدة أهل غرناطة ستين يومًا بعد انقضاء الفترة ، وأن من يدخل بعد ذلك يحق لأصحاب الجلالة أن يفعلوا معه ما يريدون .

أمر آخر ، أن من كان له نزاع مع مسلم أو مسلمة ، مسيحى أو مسيحية ، يحكم بينهم قاضى المسلمين وفقًا للسنة المتبعة .

أمر آخر ، ينقص فصول الاتفاقية توقيع الأساقفة والكونتات والعلماء الذين يشهدون على أصحاب الجلالة بالالتزام ، والقسم بالحفاظ على كل ما هو مذكور سلفًا ، وأن يوضع ختم الامتياز ، ويلتزم أصحاب الجلالة بوضع الأختام على الرسائل عندما يتم الانتهاء من التفاوض فى شهر مارس ، دون أن يتكلف ذلك شيئًا .

ترفق مع هذه الاتفاقية العطايا بالنسبة لى ، وبالنسبة للوزير ابن قماشة ، ولأبنائنا الذين يكتبون ، كما يبدو لكم ، وأن ترسلوا رسالة منفصلة لنا توردون فيها كل الفصول الثابتة ، وهذا أملى فى صداقتكم ، ومطالبنا ما يلى :

أولاً : عشرون ألف قشتالى وزنًا من العملة المصكوكة باسم أصحاب الجلالة ، يتم تسليم عشرة آلاف إلى الوزير ابن قماشة ، وعشرة آلاف لى ، أو إلى من نريده ، وذلك يوم استلام أصحاب الجلالة للحمراء ، ولا ينقص شيء من ذلك ، كما ذكرت .

أمر آخر ، أن كل المناطق الآهلة وغير الآهلة والعليا والسفلى ، وكل مناجم الملح ، والأشياء الأخرى والموجودة فى الملاحات المذكورة ، وقراها فى اسكاثار ، وأجرون ، وبيره ، وبوكار ، وكوبوليه ، وقاسم ونهرها ، وولمه ، وتيجارجال ، وقرية دلر ، وقرية البوردادور ، وبوفانتيس ،

وقرية سورفيان ، وقرية ديستانبيسا ، وخارخيليس ، والمجشر ، يوقع عليها أصحاب الجلالة والقسم بحق الميراث ، بأنه يمكننا بيعها ، أو الاحتفاظ بها ، أو التصرف فيها ، وأن يرثها أحفادنا وأحفاد أحفادنا : لكل تلك المناطق الآهلة ، والمراعى ، وكل عشيراتها ، وعوائدها ورسومها ، وكل الذين يريدون تعميرها من المسلمين .

أمر آخر ، يلتزم أصحاب الجلالة بألا يدخل معنا أى أحد كل منطقة العقارين ، وألانجرون - بقواتها ، ورسومها ، وممتلكاتها ، وعشيراتها ، ومناجمها - ولا فى مجالس قضاتها ، من الأن ، وفى كل وقت .

أمر آخر ، فى مقاطعة دلاية ترعى الماشية الخاصة بالمسلمين فى وقت الشتاء .

أمر آخر ، القسم بأن تكون ملاحات مقاطعة دلاية - مثلها مثل الآتى ذكره ، وأيضًا أراضى قرية أوتور وديارها وبساتينها وكل طواحينها ، والأراضى الأميرية - ميراثًا لابنى محمد ، وكذلك لابن الوزير ، وكل قرية بُلانة ، وأن تكون ميراثًا أيضًا كل تركة محمد بن الحاج ، فى منطقة العقارين ، وفى فريره ، وبوركيره ، وفى غرناطة بأراضيها وبساتينها وديارها وحقول الزيتون تكون لابنى أحمد ، لتكون ميراثًا له ، وكذلك ما تركه أبو القاسم وابن المليح فى غرناطة وفى العقارين وفريره وبوركيره لابن الوزير ، محمد ، ليكون ميراثًا له، وكذلك قرية جوشار لابن عمى الجوينى ، لتكون ميراثًا له .

أمر آخر ، أن كل عقارات وممتلكات ابن الحاج وابن الزير الموجودة اليوم فى حوزتى ، أن يمنح أصحاب الجلالة رسالة بالعطايا ، ويدفع مقابل ذلك بشىء آخر ، ولا يحذف شىء من الآن، ولا فى أى وقت .

أمر آخر ، أن يمنحنا أصحاب الجلالة مصداقيتهم ، ويقسموا لنا بشريعتهم ، وأن يلتزم السيد الأمير بذلك معنا ، من الآن وبعد الآن وإلى الأبد بألا يخذلنا ، وأن نحظى بالشرف فى كل ممتلكاتنا التى نحصل عليها فى دار أصحاب الجلالة ، وفى دار الكونتات ، وعليه القوم ، وأن يمنح التفويض المناسب بذلك ، وهذا ما نأمله من أصحاب الجلالة ، وكذلك بالنسبة لكل الذين خرجوا معنا من الفرسان بأن يتم إعفاؤهم من الرسوم ، كما لو كانت ديارنا وممتلكاتنا المعفاة فى غرناطة إلى الأبد .

أمر آخر ، أن يصدر أصحاب الجلالة أمرهم لى ، وللوزير ، ولكل أتباعنا ، وكل الأشخاص ذكوراً وإناثًا الذين يريدون المرور معنا هناك ، وأنه عندما نريد المرور قبل سيدى الملك أو بعد

الآن وفى أى وقت أن يأذنوا بمنحنا سفينة كبيرة من سفن جنوة التجارية ، فى أى وقت نطلبه، وأن يتم إعفاؤنا بالطريقة التى تتم مع سيدى الملك .

أمر آخر ، أطلب من جلالتكم أربعة دواب سليمة البنية ، وبغلتين تكون كل واحدة منها عالية وعريضة .

أمر آخر ، أن كل هذه الفصول يتحدد أمرها بتنفيذها من جانبنا ، وأننا سنقوم بتسليم قصر الحمراء فى شهر مارس فى اليوم الأول منه ، أو فى اليوم الأخير الذى يكون بين اليوم الأول من شهر أبريل ، وأن يعلن لنا أصحاب السعادة ، والسيد الأمير ، وكل علماؤهم مصداقيتهم ، ويقسمون بشريعتهم بأنهم سينفذون كل هذه الأمور الخاصة بالأماكن والعطايا وكل ما جاء فى هذه الفصول ، وكل ما كتبناه فى تدوين مولاى الملك أبى عبد الله ، وكذلك التدوين الخاص بغرناطة ، والأمر بكتابة ذلك ، ووضع خاتم الامتياز من الرصاص ، والموقع من أصحاب الجلالة ، والسيد الأمير ، والكاردينال ، وغيرهم ، فضلاً عن ذلك ، فإننا لن ندفع شيئًا مقابل الختم ، ولا مقابل الرسالة ، وليشرفكم الله ويمكنكم من تنفيذ ذلك بكل الثبات ، وأنا شاهد على ذلك ، وأريد أن تتذكروا المسكين يوسف دى مورا ، الذى هو خادم أصحاب الجلالة ، والذى يقسم بأنه خدم كثيراً ، ولتكن له ، ولإبراهيم دى مورا بلش بن عبد الله ، أو قرية ضيفون » .

رسالة الفقيه إلى إيرناندو دى ثافرا

« السيد كاتب هذه الرسالة يقبل أيدى أصحاب الجلالة ، ويثنى عليهما كثيراً .

لقد تلقيت رسالتكم وفهمت ما جاء بها ، وأثنى كثيراً على فضلكم ، وقد غمرتنى السعادة بما ذكرتموه لنا ، بأن كل الأمور ستكون على مايرام بفضل أصحاب الجلالة ، وهذا يرجع إلى أولئك الملوك مثل أصحاب الجلالة .

إن غرناطة مدينة كبيرة ، ومن الضرورى أن يكون هناك من يرقق قلب أهلها ، ولذلك علينا أن نعمل بكل جهودنا ، وإننى لا انتظر ثناءكم علينا بشأن الأعمال والخدمات التى نقوم بها ، وأن كل الأصدقاء حاضرون فى كل وقت ، كما أننى أخدم أيضًا سيدى الملك ، حبًا فيه وحبًا فى خدمة أصحاب الجلالة ، وفى كل الأمور التى تفيد فى خدمتهم فإننى أقوم بكل إمكاناتى، وأقدم كل أفضالى .

إننى آمل من أصحاب الجلالة ، ومن سعادتكم مساعدتكم ، وقولكم بأن أصحاب الجلالة كانوا يريدون أن أتوجه - أنا الفقيه - مع أبى القاسم المليح ، وكانت هذه هى رغبتى أيضًا ، وإذا أراد أصحاب الجلالة - عظمهما الله - أن أذهب لرؤيتهم سأذهب حينما يريدون ذلك بعون الله .

إن المليح له الثناء ؛ إذ إن صداقته مع سيده والفقهاء وعامة الناس تفيد فى هذه المسألة ، وفى هذا الشأن يجب الضغط عليه كثيراً ؛ إذ إن أصدقاءه تخلوا عنه ، وأن هذه الأمور لا يمكن عملها بدون أصدقاء ، وقبل أن تنتهى المهلة سيتم إنهاء هذه المسألة بعون الله ، وليكن ذلك في حسبانكم ، وعليكم بالتمسك به حتى يلتزم بهذه العملية ، ويقوم بإنهائها .

وأرجو أن تعلموا أننى فى خدمة أصحاب الجلالة ، وأننى أقوم بتهيئة الأمور ، وأن على أصحاب الجلالة إنهاء موضوع الرهائن ، وليعلم أصحاب الجلالة أن كل المملكة ملك له ، حينما يتم تسليم الحمراء والبشرات ، وسيخرج الملك من المدينة ، وقادته والناس الشريرة ، ولن يبقى فى المدينة من يسبب ضرراً ، ولن يكون هناك خوف ، وسيكون كل شيء علي مايرام، وعندما التقى بكم سنتحدث حديثًا مطولاً فى هذا .

ولكم التحيات » .

ملحق رسالة الفقيه :

« سيدى الذى يشرفه الله ، كاتب هذه السطور يثنى على فضلكم الكثير ، ويتقدم بالشكر لله لأنكم بخير ، وبذلك غمرتنى السعادة أنه بعون الله تنفذ رغبتكم حيث تم الدخول فى المسألة لإنهائها دون تسويف أو مماطلة فى أى شىء ، وأنه عند الانتهاء أنمى إلى علمكم سعادتى ، وأنه سيتم عمل الأشياء الأخرى لوضع النهاية التى ترونها ضرورية ، وأرجو إعلامى بها » .

مذكرة بالأشياء التى طلبها ملك غرناطة وقادته عند تسليم غرناطة :

« الأشياء التى يطلبها ملك غرناطة ، وقادته : يوسف بن قماشة ، وأبو القاسم المليح هى التالية :

أولاً : عليهم أن يمنحوا الملك المذكور ٣٠٠٠٠ قشتالى ، ولابن قماشة ١٠٠٠٠ قشتالى ، ولأبى القاسم المليح ١٠٠٠٠ قشتالى ، ليكون إجمالى المبلغ ٥٠٠٠٠ قشتالى .

فضلاً عن ذلك ، يطلبون كل القلاع التى تقع فى نطاق الملك المذكور ، والقواد المذكورين .

ويطلبون كل أسرى غرناطة ، وأسرى أراضيها ، ويأمر أصحاب الجلالة بأن يدفعوا لسادة هؤلاء الأسرى ما يدفعونه لأسرى تلك المدينة ، أو ما كان ينبغى أن يدفعوه ؛ لأن المسلمين لن يدخلوا فى أى حساب وإنما استلام أسراهم . وأن يوم تسليم الحمراء سيلتزم أصحاب الجلالة بالإفراج عن مائة أسير ، وباقى الأسرى الموجودين في الأندلس يجب تسليمهم فى غضون ستة شهور .

وفيما يتعلق بالرهائن الذين يطلبون أصحاب الجلالة فإن ما يمكن أن يتم هو أن الوزير ابن قماشة سيحمل معه حتى أصحاب الجلالة يوم تسليم الحمراء خمسمائة شخص كرهائن لمدة ثلاثة أيام ، فى حين يتسلم أصحاب الجلالة الحمراء ويضعون بها وسائل الإعاشة التى هم فى حاجة إليها ، وأن الرهائن الذين يطلبهم أصحاب الجلالة لفترة زمنية أطول سيكونون ملزمين بالعمل ، وتنفيذ كل ما فى وسعهم ، ويقسمون على ذلك بالقسم الأكبر ، وإذا استطاعوا أن ينهوا ذلك جيداً لن يكونوا ملزمين بذلك .

وفى اليوم الذى ينبغى فيه تسليم الحمراء لأصحاب الجلالة يلتزم أصحاب الجلالة فى ذلك اليوم بتسليم الأمير والرهائن الذين معه ، وأيضًا عليهم تسليم مبلغ الثلاثين ألف قشتالى ، والعشرة آلاف لابن قماشة ، والعشرة آلاف الأخرى لأبى القاسم المليح ، ليكون إجمالى المبلغ خمسين ألف قشتالى ، وذلك فى نفس اليوم ، وحينما ينفذ أصحاب الجلالة ذلك ، وكل هذه العطايا ، وكل هذه الأشياء المكتوبة فى شروط الاتفاقية ، سيلتزمون بتسليم الحمراء ، بقواتها وأبوابها كما هى عليه الآن فى حيازة الملك » .

مذكرة بكل ما يطلبه القائد أبو القاسم المليح من طرف ملك غرناطة ويجب إرفاقها مع المذكرة الأخرى التى قدمت قبل هذه الأخيرة [١]:

أولاً : تأمين لكل عامة أهل البيازين وفضلاً عن ذلك الأمان لبعض الأشخاص فى البيازين، وهم كما يلى :

تأمين للفقيه محمد بن سعيد ولأبنائه وأقاربه وخدمه .

تأمين آخر للفقيه محمد الشروت .

تأمين آخر للشيخ على المطرونى .

تأمين آخر للمقدم محمد الشيلارين .

تأمين آخر للمقدم قاسم بن الريان .

تأمين آخر للمقدم حامد التويتى .

تأمين آخر للمقدم يوسف سوحه .

تأمين آخر للمقدم محمد .

تأمين آخر لـ ... (خال) .

تأمين آخر إلى عبد الله عبد المققلى الذى أرفقه .

لمدينة غرناطة :

تأمين آخر للفقيه الماحوقى ولأبنائه وأقاربه .

تأمين آخر للفقيه محمد بن عبد البر .

تأمين آخر للفقيه أبو الفرج البسطى .

تأمين آخر للفقيه أحمد البقنى .

تأمين آخر للفقيه محمد البسطى .

تأمين آخر للفقيه فرج بن قماشة .

تأمين آخر للفقيه الأحدم

تأمين آخر للفقيه الفحار .

تأمين آخر للفقيه الشريلى .

تأمين آخر للفقيه عاصم القراف .

تأمين آخر للفقيه إبراهيم بن كتابه .

تأمين آخر للفقيه الجيار .

تأمين آخر للفقيه يوسف بن خالد .

القادة ورجال البلاط :

تأمين للقائد ابن عبد البر وأبنائه وأقاربه وخدمه .

تأمين آخر لأخيه حامد بن عبد البر .

تأمين آخر للقائد يوسف البر الأعرج

تأمين آخر لابن القائد مفراخ .

تأمين آخر لحامد بن سليمه .

تأمين آخر للقائد برهان البلنسى .

تأمين آخر لابن عامر .

تأمين آخر لمولاى أبو زين ولأخيه أبو زينين .

تأمين آخر للقائد منصور الجيان .

تأمين آخر للقائد عبد الله الأحديامى .

تأمين آخر للحاج الرمامى .

تأمين آخر لمحمد السبيلى .

تأمين آخر لابن القصيص .

تأمين آخر لحامد الكوميفى .

تأمين آخر لإبراهيم دى روبليدو ، مع بعض العطايا التى يراها أصحاب الجلالة .

تأمين آخر ليوسف دى مورا .

تأمين آخر لإبراهيم دى مورا .

تأمين آخر لفاطمة زوج القائد محمد عسر الله ولأبنائها وأقاربها وخدمها .

تأمين آخر للقائد محمد الصافى .

تأمين آخر للأشيرين وأخوته وأقاربه .

تأمين آخر للقائد محمد الحمى .

تأمين آخر لمولاى المتوكى .

تأمين آخر للقائد محمد .

تأمين آخر ... (خال) .

إن ما يطلبه ملك غرناطة هو ألا يجرؤ أى ضيف أن يدخل بيت أى مسلم من الذين يتدرجون تحت بند التأمين لأهل غرناطة ومنطقتها ، دون أن يسمح له بالإقامة فى ديارهم ، باستثناء الذين يقيمون فى الخانات كما هى العادة .

كما لا يدخل مسيحى أو مسلم فى بيت أى مسلم آخر دون إذن من صاحب البيت ، ومن يفعل عكس ذلك يعاقب . كما يحضر المسلمون أسلحتهم ، كما لا يأمروهم بوضع شارات ، وأن يحترم شرفهم من أجل الملك .

إن ما يطلبه سيدى الملك من أصحاب الجلالة هو أنه عندما يريد المرور هناك سواء كان بشخصه أو قادته أو أتباعه وخدمه ، يمكنهم المرور بكل ما يخصهم وبكل أسلحتهم ، وأن يمنحوا إذنًا لمرور خمسين بغلة ودواب أخرى ؛ إذ إنه بخروجهم سيراً يكونون فى حاجة لامتطائها ، دون انتظار لدواب غريبة عنهم .

كما يريدون أيضًا التأمين لليهود الذين يظلون فى ضاحيتهم فى بيوتهم ... مع التأمين للمدينة ؛ لأن الـ .... سيستفيد أصحاب الجلالة من .... يهود .

كما أقبل أيدى أصحاب الجلالة و ... أنمى إلى علمكم أن ... سيدى الملك فى الوقت المناسب أعطانى رسالة امتياز لقريتين : واحدة تسمى أوفتور ، والأخرى تسمى أسكوثار ، وهى تقع أعلى الحامة تجاه السلسلة الجبلية . والعمل لدى أصحاب الجلالة إصدار الأمر بتوقيعها ، ومنحى رسالة العطايا ، ولتكن أوفتور لابنى محمد ، وأسكوثار لابنى أحمد ، وهذا سيكون معروفًا وجميلاً ، سيدى الأمير دون خوان »[1] .

---

(١) الكلمات الناقصة فى الفقرات الأخيرة من الوثيقة غير مقروءة لتهتك الأوراق (الباحثة) .

مذكرة بالأشياء التى تم إثباتها والموافقة عليها ، بناء على أمر السادة الملوك الكاثوليك ، مع مولاى أبى عبد الله ملك غرناطة ، فضلاً عن الأشياء التى تم إثباتها والموافقة عليها بموجب كتابة شروط الاتفاقية ، عند تسليم مدينة غرناطة المذكورة . مؤرخ فى مخيم دى لا بيجا بغرناطة فى عام ١٤٩٠م :

يقول النص :

الأشياء التى بناء على أمر أصحاب السمو العالى والقادر والمعظم الأمراء الملك والملكة سادتنا تم إثباتها والموافقة عليها مع القائد أبو القاسم المليح(١) باسم مولاى أبى عبد الله ملك غرناطة ، وبناء على التفويض الذى أعلنوه(٢) والموقع باسمه ومختوم بخاتمه ، فضلاً عن الأشياء الأخرى التى تم إثباتها والموافقة عليها بموجب كتابة شروط هذه الاتفاقية لمدينة غرناطة ، هى التالية :

أولاً : تم الإثبات والموافقة على التسليم من ملك غرناطة المذكور ، والقواد ، والفقهاء ، والقضاة ، ورجال الفتوى ، وكبار السن ، والرجال الطيبين ، وأهل العامة ، كباراً ، وصغاراً ، بمدينة غرناطة المذكورة ، والبيازين وضواحيها ، وأن يسلموا إلى أصحاب الجلالة ، أو بناء على أمرهم ، سلمياً وبالوفاق الحقيقى والواقعى ، خلال الخمسة والستين يوماً الأولى التالية ، التى يتم حسابها بدءاً من اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر هذا ، وهو يوم تدوين هذه الكتابة ، وشروط الاتفاقية ، الخاصة : بقلاع الحمراء ، ودار الإحسان ، والبوابات ، والأبراج ، والقوات الأخرى ، للمدينة المذكورة ، وأراضيها ، والقوات الأخرى التى ينبغى أن يمتلكها ، ويدخلها أصحاب الجلالة بموجب الاتفاقية ، وأن يستولى أصحاب الجلالة على نقبائها ، وأهلها ؛ ليكونوا خاضعين لإرادتهم الملكية الكاملة ، فى كل ما هو عال ، ومنخفض .

كما تم الاتفاق على أن يقدم هؤلاء لأصحاب الجلالة بموجب هذه الاتفاقية(٤) الطاعة بالوفاء والإخلاص ، وأن يفعلوا كل ما يقوم به الرعايا الطيبون ، الذين يجب عليهم أن يكونوا ملزمين به ، أمام ملكهم وملكتهم والسادة الأشخاص الطبيعيين . وأن يعطوا – من أجل تأمين التسليم المذكور – ويسلموا قلعة مندوجر لأصحاب الجلالة ، أو بناء على أمرهم ، بدءاً من اليوم المذكور لهذه الكتابة ، وأن يحضروا وزيرها ؛ حتى يقدم فروض الطاعة لأصحاب الجلالة .

وهناك أمر آخر ، أن يحضروا بقية وزراء البشرات الذين يمكنهم تقديم فروض الطاعة والولاء إلى أصحاب الجلالة ، في خلال خمسة وعشرين يومًا ، بدءًا من ذلك اليوم المذكور من تاريخ تدوين الاتفاقية .

وعليهم أن يقدموا لأصحاب الجلالة خلال المدة المذكورة ويسلموا(٥) القادة المذكورين ، والأشخاص المذكورين أعلاه ، الذين كانوا مع مولاى الملك أبي عبد الله ، إلى أصحاب الجلالة، وذلك بيوم سابق على تسليم الحمراء ، التي ستكون تحت سيطرة أصحاب الجلالة وحكمهم ، ويكون عددهم خمسمائة شخص ، مع الوزير ابن قماشة ، من أبناء وإخوة كبار رجال المدينة المذكورة ، والبيازين وضواحيها ؛ لكي يكونوا بمثابة رهائن ، في حوزة أصحاب الجلالة ، لمدة عشرة أيام ، يتم أثناءها استعادة قلاع الحمراء ودار الإحسان وتدعيمها وتقويتها وتموينها .

وعلى أصحاب الجلالة ، بانتهاء هذه المدة ، أن يسلموا هؤلاء الرهائن المذكورين بكامل حريتهم إلى ملك غرناطة ، وإلى المدينة المذكورة ، والبيازين وضواحيها ، وأن يأمر أصحاب الجلالة بحسن معاملة هؤلاء الأشخاص خلال المدة التي يمضونها في حوزتهم ، وأن يأمروا بمنحهم كل الأشياء التي يكونوا في حاجة إليها ؛ حفاظًا على سلامتهم وصحتهم .

كما تم الاتفاق على أن يأخذ أصحاب الجلالة والسيد الأمير دون خوان - ابنه - ومن ينحدر من صلبهم ، بمجرد تنفيذ الأشياء المذكورة أعلاه ، بكل واحدة منها يرد ذكره ، وأن يستقبلوا الملك المذكور ، مولاى أبا عبد الله ، والقادة ، والقضاة ، والفقهاء ، والعلماء ، ورجال الفتوى ، والوزراء ، والفرسان ، وحاملي الدروع ، وعامة الناس ، كبارًا وصغارًا ، ذكورًا وإناثًا ، والمجاورين لمدينة غرناطة المذكورة ، والبيازين وضواحيها ، وقراها ، وأماكنها ، وأراضيها ، وكذلك البشرات ، والأراضي الأخرى التي اندرجت تحت هذه الاتفاقية ، تحت أي حالة ، وأي شرط وظرف ، وأن رعاياها ، ومواطنيها ، وأهلها ، وأشخاصها الطبيعيين ، سيكونوا في حماية السيادة الملكية وكنفها . وسيتركونهم ، أو يأمرونهم بأن يتحركوا في ديارهم ، وممتلكاتهم ، وعقاراتهم المنقولة ، والثابتة ، من الآن ، وفي كل وقت حتى الأبد ، دون أن يعانوا من أي ضرر ، أو خسارة ، ودون أن يكون ذلك ضد العدالة ، ودون أن يؤخذ(٦) أي شيء منهم ، خاص بهم ، وسيعاملهم أصحاب الجلالة ، ومن يتعلق بهم ، معاملة حسنة ، بوصفهم رعايا ، ومواطنين لهم .

يتم الاتفاق والإثبات بأن يأمر أصحاب الجلالة - يوم يتسلمون الحمراء ، والحيسان ، والقوات الأخرى ، والأبواب ، حسبما ذكر - بأن يتم تسليم الملك المذكور مولاى أبى عبد الله، بكل صراحة ، الأمير ابنه - الذى يكون فى حوزة أصحاب الجلالة فى موكلين (موضع إقليم)- وأنه فى اليوم المذكور ، ستمنح له الحرية الكاملة ولكل الرهائن المسلمين الآخرين ، الموجودين مع الأمير المذكور ، والذين دخلوا تحت سيطرة أصحاب الجلالة ، وكذلك الأشخاص من جواريهم وعبيدهم ، الذين دخلوا معهم ، والذين لم يعودوا إلى المسيحية .

يتم الإثبات والاتفاق أنه - بتنفيذ الملك المذكور مولاى أبى عبد الله للأشياء المذكورة آنفًا حسبما ترد هنا - على أصحاب الجلالة تقديم العطايا له بحق الميراث إلى الأبد . سواء بالنسبة له ، أو لكل أولاده ، وأحفاده ، وأحفاد أحفاده ، وورارثيه ، وخلفائهم فى القرى ، وأماكن مناطق برجه ، ودلايه ومرشينة ، وباله ، ولوتشار ، وأندرش ، وشبيلس ، وأوخيخار ، وأورخيبه ، وجبيل ، وفريره ، وبوركيره ، وكل الرسوم والفوائد بأى طريقة ، وذلك لكل ما يختص بأصحاب الجلالة ، فى تلك المناطق ، والقرى ، والأماكن ، وكل القلاع ، والأبراج ، والقوات الموجودة فى تلك القرى ، والأماكن ، وأى أشياء أخرى ، تختص بأصحاب الجلالة فى تلك المناطق المذكورة ، الآهلة وغير الآهلة ، وكل العقارات فى تلك المناطق المذكورة ، والأماكن بتلك المناطق المذكورة ، تختص بأصحاب الجلالة ، ليكون كل شىء لهم ولأبنائهم المذكورين ، وأحفادهم وأحفاد أحفادهم ، وورارثيهم ، وخلفائهم ، بحق الميراث للأبد حتى يمكن الاستفادة .

وأن يستفيدوا من كل هذه العوائد المذكورة ، والنسب العشرية ، والرسوم ، والممتلكات ، والخاصة بالعدل فى تلك القرى المذكورة ، والأماكن بوصفه سيداً لكل شىء ، وراعيًا ، ومواطنًا لأصحاب الجلالة ، من الآن وكل الوقت حتى الأبد ، دون أن ينتزع أحد منه شيئًا ، باستثناء ما يوافق عليه الملك المذكور - مولاى أبو عبد الله - أو يمكنه بيعه ، أو الاحتفاظ به، أو التصرف ، أو عدم التصرف فى هذا الشىء ، وكل شىء يريد ، وأن يعرض هذا أولاً على أصحاب الجلالة ، إذا كان لهم رغبة فى ابتياعه ، وليكون هذا اتفاقًا ، وإذا لم يرغب أصحاب الجلالة فى الشراء تركوه ومن معه من أتباع لبيعه . وأن أصحاب الجلالة يمكنهم العمل واقتناء قلعة أدره ، وأى قلاع أخرى ، وأبراج أخرى واقعة على شاطىء البحر أينما يريدون . وإذا أراد أصحاب الجلالة إقامة قلعة أدره المذكورة بجوار المياه ، وفى باب أدره فإنه فى تلك الحالة ستظل قلعة أدره الأخرى خاصة بالملك المذكور - مولاى أبو عبد الله - بعد

إعادة إصلاحها وترميمها وتدعيمها إلى جانب القلعة التى يريد أصحاب الجلالة إقامتها على شاطىء المياه ، ولتكون هذه القلعة خاصة بأصحاب الجلالة . وأنه أثناء إقامة القلعة وبنائها وتدعيمها سيتملك أصحاب الجلالة القلعة الأخرى لحين الانتهاء (٧). وإذا أراد أصحاب الجلالة أى شىء من القلاع والأبراج المذكورة ، وإقامة شىء منها على ضفة البحر ، سيكون لهم الحق فى ذلك . وأن يتم إعفاء الملك المذكور - مولاى أبى عبد الله - من دفع أى رسوم أو إيجارات عن تلك المناطق المذكورة ، والأراضى (٨).

يتم الإثبات والاتفاق على أن أصحاب الجلالة يقدمون للملك المذكور(٩) - مولاى أبى عبد الله - ثلاثين ألف قشتالى ذهبًا ، والذى يعادل خمسمائة وخمسين ألف مرابطى ، على أن يتم دفعها بعد أن يتم تسليمنا الحمراء (١٠)، والقوات الأخرى بمدينة غرناطة ، وأن يتم التسليم بنهاية المدة السابق ذكرها .

يتم الإثبات والاتفاق أنه على أصحاب الجلالة أن يقدموا العطايا إلى الملكات ، الأم (١١) والشقيقات والملكة الزوجة وزوجة مولاى أبى النصر ، وذلك لكل البساتين والأراضى والطواحين والممتلكات ، التى كن يمتلكنها فى مدينة غرناطة المذكورة ، وفى البشرات ، ليكون كل ذلك ملكًا لهن ، ولورثتهن ، وخلفائهن ، بحق الميراث حتى الأبد ، وأنه يمكنهن البيع أو النقل والتصرف فيها بالشكل ، وبالطريقة الى يقوم بها الملك المذكور ، بشأن الممتلكات المذكورة .

يتم الإثبات والاتفاق على أن كل الممتلكات الخاصة بالملك المذكور ، وبالملكات المذكورات، وبالزوجة المذكورة لمولاى أبى النصر المذكور ، تكون خالية ومعفاة من كافة الرسوم التى تكون(١٢) لهم من الآن وإلى الأبد (١٣).

يتم الإثبات والاتفاق أنه من الآن وبعد ذلك ، بعد توقيع الاتفاقية ، بأن أيًا من القرى والمناطق المذكورة التى أعطيت ومنحت لأصحاب الجلالة ، قبل مدة التسليم للحمراء ، سيأمر أصحاب الجلالة بإعادتها ، ويحل محلهم الملك المذكور - مولاى أبو عبد الله - على أن يراعيها الملك المذكور جيداً .

يتم الإثبات والاتفاق بألا يأمر أصحاب الجلالة ، ومن ينحدر من صلبهم ، مطلقًا ، وإلى الأبد بأن يعيدوا إلى ملك غرناطة المذكور ، ولأتباعه وخدمه ما أخذوه فى عهده ، سواء من المسلمين أو المسيحيين ، وكذلك الممتلكات الموروثة التى كان قد حصل عليها أصحاب الجلالة،

وبأن يأمروا بإعادتها بناء على شروط الاتفاقية ، وإذا كانت بعض هذه الممتلكات مع بعض الأشخاص على أصحاب الجلالة أن يدفعوا ما يختص بها ، ويأمر أصحاب الجلالة بأنهم لا يتمتعون بسلطان على أى مسيحى أو مسلم ، بهذا الشأن كبيراً أم صغيراً ، وأن من يخالف ذلك على أصحاب الجلالة الأمر بعقابه ، وألا يطبق عليه قانون المسيحيين ، ولا قانون المسلمين .

أن يتم الإثبات والاتفاق على أنه إذا رغب الملك المذكور - مولاى أبو عبد الله ، والملكات المذكورات ، والملكة زوجة مولاى أبو النصر ، وأبناؤهم ، وأحفادهم ، ومن ينحدر من صلبهم ، وقادتهم ، وخدمهم ، وزوجاتهم ، وأهل ديارهم ، وخدمهم ، وفرسانهم ، ووصيفات نسائهن ، وأشخاص آخرون صغاراً وكباراً بديارهم - المرور هناك ، يأمر أصحاب الجلالة ، من الآن ، وبعد الآن وإلى الأبد بتهيئة ذلك فى أى وقت ، ومرور كل هؤلاء الأشخاص ذكوراً وإناثًا على سفن من جنوه [١٤]، وذلك حينما يرغبون فى المرور ، وتقدم لهم السفينتين مع إعفائهم من الرسوم ، ومصروفات الانتقال لحمل ذويهم وكل ممتلكاتهم وأرديتهم وبضائعهم وذهبهم وفضتهم وجواهرهم وماشيتهم وأسلحتهم ، وألا يحملوا طلقات البارود ، لا الكبيرة ولا الصغيرة ، وأنه عند الإبحار والرسو يأمر أصحاب الجلالة بعدم تحصيل رسوم أو مصروفات ، وأن يتعهد أصحاب الجلالة بتأمينهم والحفاظ عليهم وحسن معاملتهم ، فى الخروج من موانىء الشرق[١٥] أو الغرب من الأسكندرية أو من مدينة تونس أو وهران أو من موانىء فاس حيث يريدون الإبحار .

أن يتم الإثبات والاتفاق أنه أثناء المدة التى يمرون فيها لا يمكن للملك المذكور ، ولا لأبنائه ولا لأحفاده ولا لأحفاد أحفاده ، ومن ينحدر من صلبهم ، ولا للملكات المذكورات ، ولا لزوجة مولاى أبى النصر ، ولا للقادة المذكورين ، ولا لخدمهم ولأتباعهم ، أن يقوموا ببيع ممتلكاتهم التى يمكن أن يتركوها ، وإنما لهم أن يتركوها لوكلائهم ونوابهم ، وإنما يحصلون عوائدها ويتسلمونها فقط .

يتم الإثبات والاتفاق أنه إذا أراد الملك المذكور - مولاى أبو عبد الله - إرسال أى من أتباعه وقادته إلى هناك ببضائع وأشياء أخرى من إيجاراته ، يمكنه أن يفعل ذلك بكل حرية دون أن يطلب منه شيئًا فى الذهاب والإياب .

يتم الإثبات والاتفاق على أن الملك المذكور يمكنه أن يرسل أى جزء من ممتلكاته بدوابها إلى أصحاب الجلالة مقابل السماح بخروج مؤنتهم والحفاظ عليهم دون دفع رسوم دخول أو خروج

من البوابات أو ما يحضرونه لهذا الغرض فى المدن المذكورة والقرى والأماكن ولا يتحملوا أية رسوم .

يتم الإثبات والانفاق أنه بخروج الملك المذكور مولاى أبى عبد الله من مدينة غرناطة المذكورة ، يمكنه أن يقيم حيثما أراد فى تلك الأراضى التى تفضل بمنحها إليه أصحاب الجلالة، وأن يخرج مع خدمه وقادته وعلمائه وقاضته وفرسانه وعادة أهله الذين يريدون الخروج معه ، ويحملون معهم فرسانهم وماشيتهم وأسلحتهم فى أيديهم ، كما يريدون ، وأيضًا يصطحبون زوجاتهم وخدمهم صغاراً وكباراً ، ولا يؤخذ(١٦) منهم أى شىء من كل ذلك ، باستثناء طلقات البارود ، التى يجب أن تبقى طرف أصحاب الجلالة من الآن وفى كل وقت حتى الأبد ، ولا يحق لهم ولا لمن ينحدر من صلبهم أن يضعوا شارات على ملابسهم ، ولا بأى طريقة أخرى ، ولهم الحق فى التمتع بكل الأشياء الواردة فى شروط الاتفاقية بمدينة غرناطة المذكورة .

يتم الإثبات والاتفاق على أن كل ما ذكر يأمر به أصحاب الجلالة ، ويمنحون الملك المذكور - مولاى أبا عبد الله - والملكات المذكورات وزوجة مولاى أبى النصر يوم تسليم أصحاب الجلالة الحمراء والقوات حسبما اتفق ، رسائل الامتيازات والعطايا موقعة ومختومة بخاتم من الرصاص على أوراق من الحرير ، ومؤكدة من الأمير دون خوان - ابنهم - ومن كاردينال أسبانيا الموقر ومن أصحاب الأوامر ومن الأساقفة والأحبار والكبار ومن الماركيزات والكونتات ومن أصحاب التوثيق والكبار ، وذلك على الأشياء الواردة هنا جميعها لتكون سارية ومعمولاً بها من الآن وفى أى وقت وإلى الأبد ، وبالطريقة التى وردت بها ، وهكذا يكون بالنسبة للملك المذكور والملكات المذكورات وأى منهم يأمر أصحاب الجلالة بمنح حجية المحررات الرسمية الخاصة بالامتيازات والعطايا لكل واحد منهم ولكل من ينتمى إليهم .

وللختام ، أنا المذكور سيدى أبو القاسم المليح وباسم الملك المذكور مولاى أبى عبد الله وبفضله أتقدم بالوعد بهذا التفويض ، والتأكيد باسم الملك المذكور مولاى أبى عبد الله بالحفاظ والالتزم حقيقة بهذه الحجية من المحررات الرسمية ، التى تحتوى على كل شىء ، وأن كل شىء منها أو جزء منها يلتزم بتنفيذه من الآن وفى كل وقت ، وأنه لن يكون هناك اعتراض على ذلك أو على جزء من ذلك ، لأى سبب أو شكل أو لون وأقسم على ذلك عنه وباسمه وبشريعتى وبحسن النوايا دون إضمار سوء أو خداع ، وأن يكون بكل الرضا حول ما

جاء في مضمون هذه الحجية ، وأن الملك والملكة ، سادتنا ، لم يجبرا على شيء ورد بها ، ويوجب ذلك أصدر هذه الحجية من المحررات الرسمية موقعة باسمى ، ويكل الثبات أرجو السكرتير الموقع أدناه أن يؤشر بتوقيعه ، وأيضًا كل الحاضرين بصفتهم شهوداً على ذلك ، أنا أبو القاسم المليح . مؤرخه وصدرت فى مخيم دى لابيجا بغرناطة ، يوم الخامس والعشرين من نوفمبر ، سنة ألف وأربعمائة وواحد وتسعون .

الهوامش :

(١) كلمة القائد تحل محل كلمة أخري مشطوبة كانت : القادة . ربما تم صياغة هذه الوثيقة أولاً بغرض إصدارها من أبى القاسم المليح ، ورفيقه ابن قماشة ، ولهذا يلاحظ وجود فراغ أبيض ، ربما كان به اسم شخص آخر ، وبعد ذلك توضع فى ضمير الجمع " أعلنوا " دون تصحيح مثلما حدث مع كلمة « القادة » الباحثة .

(٢) فى الوثائق غير المنشورة : أعلنه .

(٣) فى الوثائق غير المنشورة : يدخلون .

(٤) فى الوثائق غير المنشورة : بموجب تلك .

(٥) غير واردة فى الوثائق غير المنشورة .

(٦) فى الوثائق غير المنشورة : لن يؤخذ .

(٧) فى وثيقة سيمانكس وفى نسخة بعض الفصول الخاصة برسالة الامتيازات لأبى عبد الله ، أمر إيرناندو دى ثافرا بإخراجها فى ٩ أكتوبر سنة ١٤٩١ ، وأنها محفوظة فى أرشيف السكريتر المذكور ، المصدر المذكور ، حيث يظهر ذكر هذه الجملة الأخيرة التى تقول : " وأى شىء آخر برسوم ومصروفات دخلت فى عمل القلاع والأبراج ، إلخ .

(٨) فى النسخة المذكورة بعاليه التى أمر بإخراجها إيرناندو دى ثافرا يضاف ما يلى : إذا كان هناك أشياء أخرى من العطايا السابق ذكرها فقد تفضل بها أصحاب الجلالة على أشخاص آخرين على عطايا أخرى لا تساوى قيمة ، وأن أصحاب الجلالة أبطلوا أى عطايا أخرى لأى أشخاص إلا ما يقدمونه للملك أبى عبد الله ، التى تكون ذات قيمة من الآن وحتى الأبد ، وبالطريقة التى تشير بها الاتفاقية دون معارضة من أحد (ورد هذا أيضًا فى وثيقة سيمانكس) .

(٩) فى وثيقة سيمانكس توجد كلمة : حضرتكم .

(١٠) فى وثيقة سيمانكس تكون هذه الجملة مع ضمير الغائب وتقول « الذين هم أصحاب الجلالة يأمرون بالدفع بعد تسلم الحمراء ، والقوات الأخرى بمدينة غرناطة ، والتى يجب تسليمها فى المدة المذكورة آنفًا » .

(١١) فى وثيقة سيمانكس والنسخة المذكورة : أمه .

(١٢) فى وثيقة سيمانكس : كانت .

(١٣) فى وثيقة سيمانكس يضاف الفصل التالى : يتم الإثبات والاتفاق بأن يعطوا للملك المذكور وللملكات المذكورة الممتلكات التى لهم فى متريل وكذلك إعطاء الحاج الممتلكات التى له فى متريل المذكورة حتى تقييمها والحفاظ عليها من الآن وحتى الأبد وفقًا للعطايا المذكورة سلفًا .

(١٤) فى وثيقة سيمانكس : من الجنويين .

(١٥) فى وثيقة سيمانكس : البحر .

(١٦) فى وثيقة سيمانكس : لا يأخذوا منهم .

نص جديد لرسالة الامتيازات للملكات المسلمات :

بسم الله القادر الأب والإبن والروح القدس الذين هم ثلاثة أشخاص وجوهر إلهى يعيش ويحكم للأبد دون نهاية ، ولسعيدة الحظ العذراء القديسة العظيمة ماريا - أمه - التى هى لنا سيدتنا ، وأنها المدافعة عن جميع أعمالنا وتشرفنا ، وإننا خدامها وخدام الرسول السيد سنتياجو ، ومرآة أسبانيا والأب المرشد[1] لملوك قشتاله وليون ولكل القديسين والقديسات بالبلاط السماوى ، نريد أن يعرفوا بموجب رسالتنا للامتيازات والتى ينسخها الكاتب العمومى من الآن وبعد الآن لدون فرناندو ودونيا أيزابيل بفضل الله ، ملوك قشتاله وليون وأرجون وصقلية وطليطلة وبلنسية وجليقية ومايورقة وأشبيلية والجزيرة وجبل طارق ، وكونت وكونتيسة برشلونه ، سادة بيشكايا ومولينه ودوق أثينا والوطن الجديد ، وكونتات روسيلون وسردينا ، وماركيزات أوريستون وجوسيانو ، رأينا بعض الفصول التى بأمرنا نثبتها ، ونوافق عليها بناء على شروط اتفاقية الملك مولاى أبى عبد الله .

يتم الإثبات والاتفاق بأنه على أصحاب الجلالة العمل وأن يعملوا أيضًا على تقديم العطايا للملكات - أمه وأخواته - وإلى الملكة زوجته ، وزوجة مولاى أبى النصر ، لكل البساتين والأراضى والطواحين والحمامات والمتلكات التى لهن الحق فى الآجال المذكورة بمدينة غرناطة المذكورة ، وفى البشرات ، ليكون كل شىء لهن ولورثتهن وخلفائهن بحق الميراث للأبد ، وأنه يمكنهن البيع والنقل والتصرف بالشكل والطريقة التى يرونها للمتلكات الأخرى[2] للملك المذكور.

يتم الإثبات والاتفاق على أن كل المتلكات المذكورة الخاصة بالملك المذكور ، وبالملكات المذكورات ، وزوجة الملك أبى النصر المذكور ، تكون معفاة من كافة الرسوم التى كانت حتى تاريخ اليوم بدءًا من الآن وإلى الأبد .

يتم الإثبات والاتفاق أن تبقى للملك المذكور وللملكات المذكورات المتلكات التى لديهم فى مترتيل ، وتظل للحاج الروميمى المتلكات التى له فى قرية مترتيل المذكورة ؛ من أجل أن يتم الحفاظ عليها من الآن وإلى الأبد مثلها مثل بقية العطايا السابق ذكرها .

يتم الاثبات والاتفاق أن كلاً من الملك المذكور مولاى أبى عبد الله والملكات المذكورات ، وزوجة الملك أبى النصر وخدمه وزوجاته وأحفاده وأحفاد أحفاده ، ومن ينحدر من صلبهم وقادته وخدمه وزوجاته وأهل داره وخدمهم وفرسانهم ووصيفات نسائهم والأشخاص الآخرين

كباراً أم صغاراً من أهل داره عندما(٣) يريدون المرور هناك فإن أصحاب الجلالة يصدرون الأمر لهم بالانتقال من الآن وبعد الآن وفي أي وقت إلى الأبد حتى يمكن مرورهم ، وكذلك الأشخاص المذكورين ذكوراً وإناثًا عبر سفينتين من جنوه ، وذلك في الوقت الذي يرغبونه . ويتم ذلك بإصدار وأن تصدر(٤) الأوامر لهاتين السفينتين بأن تكون معفاة من الرسوم ومصروفات الشحن حتى يمكن نقل هؤلاء الأشخاص وكل ممتلكاتهم وملابسهم وبضائعهم وذهبهم وفضتهم وجواهرهم وماشيتهم وأسلحتهم(٥) على ألا يحملوا طلقات البارود لا الكبيرة ولا الصغيرة ، وأنه للرسو وللإبحار ودون البقاء(٦) لن يجعلهم أصحاب الجلالة يتحملون الرسوم والمصروفات المذكورة ، ولا أي شيء آخر وسيأمرون(٧) لهم بأن يكونوا آمنين ، وتحسن معاملتهم ويحافظ عليهم في أي ميناء من موانيء الأتراك(٨) بالشرق والغرب وبالأسكندرية أو بمدينة تونس أو وهران أو من الموانيء المختلفة(٩) حيثما يريدون أن يبحروا .

يتم الإثبات والاتفاق أنه إذا انقضى الوقت ، ولم يتمكن الملك المذكور وأبناؤه المذكورون وأحفاده وأحفاد أحفاده ومن ينحدر من صلبهم ، والملكات المذكورات ، وزوجة مولاي أبي النصر المذكور ، وقادته المذكورين وخدمه وأتباعه من بيع بعض من ممتلكاتهم المذكورة التي يمكنهم تركها أو يتركونها لوكلاء ونواب وأنه عن طريقهم يمكنهم الحصول على إيجاراتها وما(١٠) يحصلونه يحملونه معهم بكل حرية إلى الأطراف حيث كانوا دون أي حظر .

يتم الإثبات والاتفاق أنه من كل ما ذكر يأمر أصحاب الجلالة بمنح وأن يمنحوا الملك المذكور – مولاي أبا عبد الله – والملكات المذكورات وزوجة مولاي أبي النصر المذكور ، وذلك يوم أن يتم استلام أصحاب الجلالة للحمراء ، وللحصون – حسبما ذكر في رسائل الامتياز الموقعة والموثقة والمختومة بخاتم الرصاص ، وتأكيد السيد الأمير المذكور دون خوان – ابنهم – وكاردينال أسبانيا الموقر ، وقادة الفرق الكنسية ، والأشراف والأساقفة والقساوسة والكبار والدوقات والماركيزات والكونتات ومن يتقدمون وكتبه العدل الكبار ، كل الأشياء االواردة هنا ، لكي تكون مؤكدة وثابتة وسارية المفعول من الآن وفي كل وقت حتى الأبد ، وبالطريقة والشكل التي يرد بها ، وأيضًا يأمر أصحاب الجلالة بمنح الملك المذكور ، وكذلك الملكات المذكورات ، وأيًا منهم ، كتابة الامتيازات لكل واحد منهم ، بشأن ما يخصه من هذه الأشياء.

ولأن الملكة – ستي فاطمة – والدة الملك المذكور – مولاي أبي عبد الله – توسلت إلينا وطلبت منا بالفضل أن نؤكد لها ونبرهن لها على الشروط المذكورة ، والتي تتعلق بالملكة

المذكورة ، وسبق أن ذكرناها[11] فإن الملك دون فرناندو والملكة دونيا إيزابيل يريدان تنفيذ ما تم الاتفاق عليه بأمرنا .

وبشأن هذه الرسالة المذكورة الخاصة بالامتيازات ، والتي يؤشر عليها الكاتب العمومي كما ذكر ، فإننا نثني عليها ، ونوافق على الفصول المذكورة ، وبالطريقة التي وردت بها لتكون سارية المفعول وثابتة من الآن وفي كل وقت حتى الأبد في كل شيء وبالشكل وبالطريقة التي وردت بها ، وأنه بشأن رسالة الامتيازات نأمر الأمير دون خوان - ابننا الغالي والمحبوب للغاية - والأمراء الدوقة والمركيزات والكونتات وأشرف ملوكنا وقادة الفرق الكنسية الأولية والحكام ونواب الحكام وقادة القلاع والنقاط الحصينة والسهلة[12] والقائمين على مجلسنا وأعضاء الاستماع بجلستنا والعمد والوزراء العاملين في بلاطنا الملكي وفي الشئون الخارجية وكل المدن والقرى والأماكن التابعة لملوكنا وأصحاب السيادة وكل القواد العموميين وغيرهم من قادتنا وأهلنا من رجال سلاح البحر والأرض وأي من الأشخاص من رعايانا وأهل بلدنا تحت أي حالة أو ظرف بأن يحفظوا ويعملوا على الحفاظ على كل ما جاء في هذه الفصول المذكورة والمدرجة هنا ، ولكل شرط من الشروط ، وأنه لا يحق لأي أحد أن يخترق هذه الشروط أو يتجاوزها ، وإننا ندافع عنها بكل الثبات ، ونحافظ عليها دون أن يتجرأ أحد على معارضتها ، وأن الجميع يقدرونها ، ويقدرون ما نقول به ونلتزم به[13] وأن من يعارض ذلك سنتخذ ضده كل سبل وإجراءات العقاب سواء المدنية أو الجنائية ، وأن من يتجاوز شرطًا أو فصلاً أو اتفاقًا وضعه الملك والملكة سيعاقب ، وأن من يحافظ على أي شرط أو اتفاق ورد هنا نقسم بشرف كلمتنا الملكية بأننا سنحافظ عليه ، وعلى كل ما ورد هنا ولكل شيء أو جزء من هذا الشيء من الآن وفي كل وقت وإلى الأبد . وإننا لن نذهب ولن نرتضي الذهاب أو المجيء أو التجاوز عن أي شيء ، وإننا نأمر بهذه الاتفاقية[14].

وإن رسالتنا الخاصة بالامتيازات المكتوبة على رق من الجلد نوقع عليها باسمنا ، ونختمها بخاتمنا المصنوع من الرصاص ، ونضعه على أشرطة من الحرير ذي الألوان[15] حيث تصدر الرسالة في قلعة يحصب بغرناطة يوم الخامس عشر[16] من شهر ديسمبر من تاريخ ميلاد سيدنا المسيح ، سنة ألف وأربعمائة واثنين وتسعين[17] .

أنا الملك   أنا الملكة

أنا فرناندو دي ثافرا سكرتير الملك والملكة - سادتنا - قمت بكتابة ذلك[18] بناء على أمرهما[19] .

الهوامش :

(١) فى مصدر بدراثا : الحافظ .

(٢) فى مصدر بدراثا : المذكورة .

(٣) فى مصدر بدراثا : عندما أن .

(٤) فى مصدرنا بدراثا : لم يرد ذكر : وأن تصدر .

(٥) فى مصدر بدراثا لم ترد : وأسلحتهم .

(٦) فى مصدر بدراثا لم ترد : دون البقاء .

(٧) فى مصدر بدراثا : يأمرون بحمل .

(٨) فى النص تظهر « الأتراك » مشطوبة .

(٩) فى النص تظهر « المختلفة » مشطوبة .

(١٠) فى مصدر بدراثا : وأن ما .

(١١) فى مصدر بدراثا : السادة المذكورون .

(١٢) فى مصدر بدراثا : الواضحة .

(١٣) لم يرد فى مصدر بدراثا : ونعطى الالتزام .

(١٤) فى مصدر بدراثا : هذه المذكورة .

(١٥) فى مصدر بدراثا : بألوان .

(١٦) فى مصدر بدراثا : يوم الثلاثين .

(١٧) تاريخ عام ١٤٩١ الذى يقرأ فى رسالة الامتياز هذه بتاريخ ١٤٩١ الذى يورده بدراثا ، اعتقد أنه خطأ مماثل للخطأ الذى أشير إليه بعد ذلك بشأن رسالة شروط اتفاقية التسليم العامة لأهل غرناطة والممنوحة من صاحب السعادة السيد ماركيز دى كورفيرا بشأن هذه المدينة . إن التصديق الشعبى والرسمى لشروط اتفاقية التسليم كان على أيدى الملوك الكاثوليك خلال شهر ديسمبر سنة ١٤٩١ . وفى الشهر المذكور من عام ١٤٩٢ لم يكن أصحاب الجلالة فى غرناطة ولا فى قلعة يحصب . والتفسير الأفضل بشأن هذا الاختلاف أو بمعنى الخطأ بشأن السنة يفترض علينا دراسة النصوص والأحداث التى وقعت فى ذلك الوقت ، وسيجدها القارىء فى شروط الاتفاقية العامة ، التى ترد بعد ذلك حسب النص الوارد من أرشيف السادة ماركيزات دى كورفيرا .

(١٨) فى مصدر بدراثا : أؤشر عليها بناء على امرهيا .

(١٩) تلى تأكيدات الملوك والأمير دون خوان والأمراء والأشراف والكبار إلخ . التى أحذفها بهدف الاختصار لأنه ينبغى الإعادة فى شروط الاتفاقية العامة مع تعديلات غير ذات أهمية .

رسالة أبى القاسم المليح وابن قماشة إلى أصحاب الجلالة :

« إلى عظيم الدولة ورفيعها وسيدها سادتنا الملك والملكة ، عظمهما الله

خدام أصحاب الجلالة أبو القاسم المليح ويوسف بن قماشة يقبلان الأيدى الملكية لأصحاب الجلالة ، وننمى إلى علمهم أن الملك - سيدنا - يأمرنا بأن نكتب هذه الرسالة إلى أصحاب الجلالة ، وننمى إلى علمكم بأن هذه الرسالة رسالته ، كما ننمى إلى علمكم أن ملكنا أرسل اليوم الثلاثاء لكل أهل المدينة وطلب منهم الحديث وعرف أهل البيازين وأهل العشار[1] وبعض أهل المدينة واستثناء القصبة وأهلها وأهل باب البيره وأنه أثناء الكلام مع الناس سمعنا أصواتًا فى القصبة وفى باب البيره وانتفض أهل البيازين وأهل العشار ، وقالوا للملك سيدى بأنه لن يكون هناك خوف قبل أن ينبغى عليهم أن يموتوا ووصل هذا الأمر الجديد إلى القصبة للانتفاضة ، وقاموا بوضع الحواجز فى الشوارع وقرروا النزاع وأرسل لهم سيدنا الملك بقوله لهم : لماذا كان يفعلون ذلك ؟ وقال بأن هذا كان بسبب الرهائن ، وأنه ينبغى على الملك أن يكون معنا فى القصبة لأنهم قالوا لنا أنه يذهب من هنا ، وبعد ذلك يأخذون ديارنا ، وعليكم أن تقولوا لهم ما فعله سيدنا الملك مع أصحاب الجلالة ، ولا ينبغى معارضة ذلك ، وقال الملك الذى يريد أن يشير النزاع هنا مع من يريد أو كان لديه شىء يطلبه ، وإذا بدا لهم شىء ليس على مايرام عليهم أن يتكلموا عن مصلحتهم وأن يعطوا تفويضًا لشيوخهم ، ويأتون إلى ويقولون لى عن الأشياء التى مازالت باقية لهم دون طلبها ، وسأرسل أنا إلى السادة الملوك راجيًا إياهم بهذا الشأن ، وربما يقبلون توسلاتى ، ولكن إذا كان لهم الرغبة فى أن أخرج من هنا ، وأتركهم فى المدينة ، فإننى سأقرر نشوب النزاع مع أى شخص يريد أن يتشاجر معى ، وإن الله يعظم الدولة الملكية لأصحاب الجلالة ، وأنه إذا كان من حسن الطالع قد تم وعدهم بشىء مما طلبوه فحسنًا فعلوه ، وإذا لم يوافق أصحاب الجلالة على ذلك فإن أهل البلاد سيدافعون ، وأنه إذا نقص شىء من الطعام فإنهم سيرسلون لإبلاغ أصحاب الجلالة، الذين سيرسلون إلينا بدورهم ما هو رأيهم ، ونرجو من أصحاب الجلالة أن يرسلوا أحمد الأسير ؛ إذ إننا سنبلغ أصحاب الجلالة بما يحدث فى الغد الأربعاء وأن هذه العملية لن نتركها حتى تتحقق إرادة أصحاب الجلالة - بعون الله - وأن الفقيه عمل فى خدمة أصحاب الجلالة ، وأن الألفى دوبله التى يرسلها أصحاب الجلالة مع أحمد لازمة لنا لحاجتنا إليها ، وأن هذا الذى حدث ننمى به إلى علم أصحاب الجلالة ، وإننا نعلم جيداً أن هذه المطالبة

بالرهائن تجعلنا نفعل ذلك ، ونبلغ أصحاب الجلالة بذلك ، وأنهم ليسوا هم الذين أصدروا أصواتًا ، وإنما هم المغبرون والأغبياء الذين لايريدون ذلك ، ولكن يبدو لنا أن كل الذى يطلبونه يجب الوعد به لأصحاب الجلالة ، حتى يمكن سد الفراغ الذى نخشاه ، وحتى لا يتدخل آخرون فى الأمر ، وإننا ننمى إلى علم أصحاب الجلالة ما يظهر ، وما يبدو ، وتحياتنا وتحيات سيدى الذى يقبل أيدى أصحاب الجلالة ، وإننا فى انتظار الرد عاجلاً » .

رسالة أصحاب الجلالة لأبى القاسم المليح وابن قماشة (رداً على الرسالة السابقة):

« القادة أبو القاسم المليح ويوسف بن قماشة ، اطلعنا عى رسالتكم وأنه عندما وصل أحمد كان قد جاء العديد من هذه المدينة الذين قالوا لنا كل ما حدث فى ثورة وتمرد القصبة ، وما قام به وفعله الملك وانتما ، وحسنًا ما فعلتموه بالحديث ، وما أمرتم به كل الناس فى الحمراء، وبما أن كل الأمور أصبحت على مايرام نظراً لما قمتم به حيث يشعر الناس بالسعادة ، وإننا ندين لخدمات الملك وخدماتكم على ما فعلتموه ، وحسنًا فإننا على يقين من أن ما فعلتموه وتفعلونه هو فى خدمتنا ، وهذا يشمل كل شىء ، وإن ذلك مدعاة لرضاكم على ما ساعدتمونا به ، وأيضًا ما أمكنكم أن تسعدوا به البعض الذين لم يكونوا سعداء ، وإننا نرسل لكم الألف دوبله التى تعهدنا بها إليكم حينما تنتهيا من كل ذلك ، وإننا على عهدنا بإرسال أحمد والشكر لله لأن الموضوع فى أفضل صوره الآن ، وعليكما بإعطاء الأمر إرضاء لله بأن يكون كل شىء وفقًا لما تم إثباته والاتفاق عليه من أجل خير ومصلحة كل أهل البلاد عامة ، وبصفة خاصة فإنه بوجودنا هنا وبعون الله سيتأكد كل شىء ، وأى شىء يمكن أن يطرأ ، وعما تقولونه بأن الفقيه ثروت قد قدم لنا خدماته فإننا نعرف ذلك ، ويسعدنا أن نثنى عليه بالعطايا ، مثلما طلبتما منا ، وخدمة منا عند تسليم أحمد سننمى إلى علمكما بكل الأشياء».

مرفق رسالة إيرناندو دى ثافرا إلى أبى القاسم المليح :

« أخى . سيحمل أحمد لكم الألف دوبلة بهذه الطريقة [١].... وبعد ذلك فى ساعة إبلاغى كيف تسلمتم المبلغ أتمنى لكم يا أخى أن تكون أسعد إنسان فى العالم ، وحينما تعرفون أنكم حسنًا فعلتم ، وكما تعلمون فإن كل شىء يكون هادئًا وتكون المدينة راضية عليكم ، يا أخى كما كنت أنتظر . وبعد ذلك يا أخى عليكم أن تنموا إلى علم أصحاب الجلالة بنتيجة وخاتمة العمل ؛ إذ إن سعادتهما تكون برؤية رسالتكم » .

---

(١) يلى ذلك توزيع للمبلغ المذكور ، يتعلق بنوع العملة التى يرسل بها الألف دوبله (الباحثة) .

شروط اتفاقية قادة الفقار

على الغلاف يقرأ :

« وثيقة موقعة من جونثالو مارتينيس فى عام ١٤٩١ ، شروط الاتفاقية التى أمر بها فى عام ١٤٩١ السادة الملوك الكاثوليك ، وتوقيعنا مع محمد الفتى ويوسف مقاتل ، قادة الفقار حول تسليم القرية المذكورة » .

يقول النص :

« هذا نقل جيد وأمين مستخرج من إثبات ومن شروط الاتفاقية التى أمر بتدوينها الملك والملكة ، سادتنا ، مع محمد الفتى ويوسف مقاتل ، قادة أبراج الفقار ، والمكتوبة على ورق وموقعة بالأسماء الملكية والمختومة بالخاتم الملكى وفقًا لما يلى :

الملك والملكة

الأشياء التى نأمر بإثباتها مع محمد الفتى ويوسف مقاتل ، قادة أبراج الفقار ، باسمهما وباسم الوزراء والقضاة والفقهاء والشيوخ والرجال الطيبين كباراً وصغاراً ذكوراً وإناثًا بقرية الفقار هى ما يلى :

أولاً ، إننا نستقبلهم باعتبارهم رعايا ومواطنين لنا ومن أهل البلاد ، ونأمر بتركهم فى ديارهم وممتلكاتهم ، وأيضًا نترك لهم شريعتهم ، ويتم تسيير أمورهم القضائية وفقًا لمجلس قضاتهم ، وبالأمر لهم ، ونأمر بكل الأشياء التى تمنح للرعايا المطيعين لنا ، وإننا لن نوافق ولن نفسح المجال من جانبنا ولا من جانب أهلنا بألا يلحق بهم الضرر أو الخسارة ، ولن يجبر أحد على فعل شيء ضد إرادته ، ولن يؤخذ منه شيء لا يكون مع العدالة ، إذ إنهم قبل ذلك كانوا منا ومن أهلنا ، وأن يتم معاملتهم معاملة حسنة بصفتهم رعايا وأتباعًا لنا ، وإننا نستقبلهم فى كنفنا وتحت حمايتنا دفاعًا عنهم بصفتنا الملكية .

يتم الإثبات والاتفاق أنه إذا أراد أى واحد منهم أن ينتقل هنا وهناك فله الحرية والتأمين والأمان الكامل فى الانتقال ، وأن الامتياز الذى يتمتع به أهل غرناطة يتمتعون هم به ، وأن كل الأشياء والشروط التى وردت لمدينة غرناطة المذكورة تتعلق بهم .

يتم الإثبات والاتفاق أنه يمكنهم السير عبر ممالكنا ، والجهات الخاضعة لنا ، والتعاقد على ممتلكاتهم وبضائعهم ، وأن لهم الحق في الإعاشة والإقامة والسكنى في أي هذه الممالك والجهات المذكورة الخاصة لنا ، ولهم حق التصرف في ممتلكاتهم في أي وقت ، بصفتهم رعايا وأتباعًا لنا .

يتم الإثبات والاتفاق بألا يدفعوا رسومًا أكثر من التي يدفعها المسيحيون في موانئ ممالكنا .

يتم الإثبات والاتفاق بالأمر بالإعفاء ، وإعفائهم من كل القضايا والجرائم وحالات القتل التي قاموا بها وارتكبوها ضد مؤسساتنا وضد أي من الأشخاص وبأية طريقة .

يتم الإثبات والاتفاق بأن نأمر بإعفائهم ، وأن نعفيهم من كل الرسوم لمدة السنوات الثلاث الأولى التالية ، التي تبدأ من تاريخ هذا التدوين ، وذلك لعشرين منزلاً بالمدينة المذكورة ، منها عشرة من الجزء العلوي ، وعشرة من الجزء السفلي ، التي يرد ذكرها .

يتم الإثبات والاتفاق بالتفضل منا بأن يقوموا ببذر مائة وخمسين ذراعًا من الأراضي في ضاحية اربناليس ، وعشرين ذراعًا أخرى التي كان يملكها أولئك القادة بالمدينة المذكورة ، وطاحونة الزيت التي كانوا يمتلكونها في المدينة المذكورة ، دون أن يتصرفوا في الأراضي المذكورة ، أو تلك الطاحونة .

يتم الإثبات والاتفاق بأننا نأمر بتحرير المسلمة التي كانت في حيازة الماركيز دون دييجو لوبيث باتشيكو ، والمسلم الذي كان في حيازة دون فرانسيسكو دي باثان ، ومسلم آخر في حيازتهم في القلعة ، وآخر في حيازة عمدة كالديرون .

يتم الإثبات والاتفاق أن يكون قاضي أبو موسى وعلي مقاتل وزراءنا في مدينة الفقار المذكورة ، وأن يتمتعا بكافة الحريات والامتيازات المذكورة حتى هنا .

إن كل ما ذكر نلتزم به ونؤكده ، وإننا نحافظ على كل الرعايا ، وأهل البلاد التابعين لنا بكل شرف وحسن معاملة ، وأن يسلموا لنا غداً الجمعة طوال اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر أبراج المدينة المذكورة ، وكذلك الأسرى والأسيرات المسيحيين والمسيحيات ، الذين يقعون في حوزتهم ، وإننا نأمر بالحفاظ عليهم ، وكذلك على كل الأشياء من الآن وفي كل وقت وإلى الأبد ، وكل ما يرد هنا وكل الأشياء الأخرى المتفق عليها في شروط اتفاقية مدينة

غـرناطة ، التى تتـعـلق بأراضـى هذه المدينة ، وإننا نأمـر الأمـيـر دون خـوان - ابنتا الغـالى والمحبوب للغـاية وقائدنا العـام - وأيًا من قوادنا وأيًا من رعـايانا وأهل البلاد الأصليين تحت أى ظرف وشرط بأن يكونوا محـافظين عليكم ، وأن يحافظوا على شروط الاتفاقية بالطريقة التى ترد هنا ، وألا يتم انتهاك لهذه الاتفاقية ، ويجب الدفاع عنها ، ويوافق عليها ، ويثبتها الملك والملكة - اللذين همـا السـادة الطبيـعين والشـرعـيين - ويصدر ذلك فى قلعـة يحـصب بغـرناطة ، يوم الثانى والعـشرين من شهر ديـسمبر سنة ألف وأربعـمائة وواحد وتسعـون ، أنا الملك وأنا الملكة ، يأمر الملك والملكة فرناندو دى ثافرا .

مؤرخ ومستخرج هذا النسخ ومثبت بشروط الاتفاقية الأصلية لأصحاب الجلالة ، فى مدينة غرناطة المذكورة ، فى العشرين من شهر فبراير سنة ألف وأربعمائة وثلاثة وتسعون».

جونثالو مارتينيس(١)

---

(١) يلى ذلك ذكر عدة شهود من الذين رأوا الأصـل (الباحثة) .



(٧)
رحيل أبى عبد الله مع أسرته وكبار أتباعه من الأندلس

(بقلم : مانويل جاسبار رميرو)

بدأت أسطورة حرب الاسترداد لمملكة غرناطة الإسلامية تسد بعض الثغرات الخاصة بالحقيقة التاريخية البالغة الدقة وفقًا لما يرد فى تضمين هذه المقالة و باعتبار أن هذه الحرب تعد واحدة من الأحداث البارزة فى تاريخ العصور الوسطى .

وعند معالجة الموضوع المتعلق بدخول الملوك الكاثوليك إلى غرناطة - فى مقالة سابقة - أشرت إلى الخروج الفورى لأبى عبد الله مع أسرته وكبار أتباعه تجاه منطقة البشرات والتى تم الاعتراف بها بناء على معاهدة تسليم المدينة . ولقد وصل بى التفكير بالقبول بخروج أبى عبد الله بدون عائلته خارج غرناطة لتقديم واجب التكريم لأصحاب الجلالة يوم دخول القوات المسيحية إلى الحمراء لأقول أنه كان من المؤكد أنه بمجرد الانتهاء من حفل المجاملة والطاعة كان عليه العودة على الفور إلى داره، قصر القصبة بالبيازين، وأن يواصل معيشته فيه لفسحة من الوقت ، ربما لبضعة شهور حتى يأمره الملوك الكاثوليك، وفقًا لسياستهم وما يتفق معها، بالانسحاب نهائيًا إلى مواقعه فى البشرات ومن هناك يذهب أبو عبد الله محددًا إقامته فى لواخار دى أندراكس، دون أن يدون التاريخ اللحظة الحاسمة التى ترك فيها قصره بالمدينة .

ومما لا يقبل مجالاً للشك هو أن الملوك الكاثوليك لم يسعدوا بانسحاب أبى عبد الله إلى منطقة البشرات وإنما كانوا يرغبون بشدة بأن يغادر شبه الجزيرة الأيبيرية وأن يذهب إلى ما

وراء البحار . وفى واقع الأمر أن الملوك الكاثوليك ، بحصافتهم وحكمتهم الدبلوماسية ، وصلوا إلى تنفيذ بنود اتفاقية تسليم غرناطة وأراضيها بالشكل الذى يسمح للملك أبى عبد الله وأفراد عائلته وأتباعه ، الكبار والصغار بالذهاب إلى ما وراء البحار - إذا رغبوا فى ذلك - إلى الإسكندرية أو تونس أو وهران أو فاس ، وأنه فى إمكانهم بيع ممتلكاتهم التى فى حوزتهم وأن تكون الأولوية لأصحاب الجلالة فى الشراء وأنهم فى هذه الحالة سوف يرسلون له قيمتها فى أى وقت يشاء ، وأن تجهز له السفن ووسائل النقل دون تحميله أى رسوم نقل أو شحن حتى يمكنه نقل الأشخاص وكل ما يخصه من ملابس وبضائع وذهب وفضة وجواهر وحيوانات وأسلحة على ألا تكون أسلحة تعمل بالبارود ، سواء كانت صغيرة أو كبيرة ، بالإضافة إلى أن أصحاب الجلالة أصدروا أوامرهم بألا يتم تحصيل أى رسوم تتعلق بالإبحار أو الإنزال أو تحت أى مسمى آخر وأن يتم ذهابهم فى أمان وكرم وعزة وحماية وأن يتم حسن معاملتهم فى أى ميناء من الأماكن المشار إليها والتى يفضلون أن تنزل بها السفينة التى تقلهم (١).

ومن المؤسف أن بدرو مارتير دى أنجليريا الذى استطاع أن يعرف جانبًا عن قرب وأن يعيش جانبًا آخر من الأحداث الرئيسية لحرب استرداد غرناطة ، أنه اقتصر على الإشارة الموجزة لرحيل أبى عبد الله ، من بين الأخبار الأخرى التى تشكل محتوى واحدة من أهم وأمتع الرسائل :" فى رسالة أخرى ، يقول ، عرفت بنفسى كيف تم إبعاده من المملكة ، ملك غرناطة الشاب أبو عبد الله فى الوقت السابق . الآن فى قلعة أندراكس جاء إلى الأراضى التى كانت قد مُنِحت له من أسيادى الملوك الكاثوليك فى الجبال المجاورة التى يطلق عليها جبال نيفادا . لقد تم هذا ضد رغبته ، أو بمعنى أفضل . أشعروه بالخجل ، بالنسبة لأولئك الذين يشعرون بالفضول الكبير تجاه الأشياء الأخرى ؛ وبالنسبة لى فهذا كافٍ (معرفته) . ترك إسبانيا وانتقل إلى إفريقيا لكونها سكن الملوك الضعفاء ، ذلك الملك الذى كان كبيراً ومخيفًا لكل المواطنين الإسبان . وبهذه الطريقة تم إلغاء أى شبهة خيانة أولئك الذين يعيشون بعيداً عن القانون ، إذ أنه نادراً ما أن يهتم بشغب وتمرد الشعب الذى تنقصه القيادات التى بموجبها يأمل أن يكون محكومًا "(٢) .

فى هذه الجمل المتعقلة والحصيفة والهامة التى أوردها بدرو مارتير ، والتى يكتبها على وجه التحديد من برشلونه حيث يعمل ملحقًا فى حاشية الملوك الكاثوليك ، يكشف لنا بوضوح

كيف تدخل فى سياسة الملوك الكاثوليك مراعاة الرحيل المباشر والفورى - كما أشرت سلفًا - لأبى عبد الله إلى ما وراء البحار حيث يرون أن المناسب للغاية هو تجنب التمرد أو نشوب صراع جديد فى المملكة يؤدى إلى سفك الدماء وبذل التضحيات على كل المستويات .

ولقد ظهر هذا الاتجاه السياسى للملوك الكاثوليك فى إشارات المؤرخ هيرناندو دل بولجار عندما يعرض شروط استسلام غرناطة بقوله : " من بين الشروط الخاصة باتفاقية التسليم المذكورة ، التى تمت ، حدث أن الشاب مكث فى البشرات ليكون سيداً عليها فى حياته وأن يحصل على دخل يقدر بألف مسكوكة كل عام ؛ ولأن هذا كان يشكل خطراً للتمرد لما يلى ذلك ، عندما جرح الملك فى برشلونه ، أرسل الملك الشاب بعض الفرسان المسلمين من أتباعه وكذلك البقنى ، الرجل الرئيسى الذى سُمىَّ بعد ذلك بالسيد فرانسيسكو انريكيث وتعاقد الملوك الكاثوليك مع هؤلاء الذين باع لهم الشاب كل ما كان يمتلكه فى مملكة غرناطة وأعطوه مبلغ ألف قشتالى الذى بموجبه ينتقل الملك الشاب إلى ما وراء البحار ... " (٣).

وإلى جانب الثوابت السابقة ، يكفى قراءة الجزء المعروف من المراسلات التى تتعلق بحكم غرناطة خلال تلك الفترة التى استمرت بين الملوك الكاثوليك وسكرتيره هيرناندو دى ثافرا حتى يتم التأكد ، بما لا يدع مجالاً للشك ، من أن الهدف السياسى الذى اتبعه الملوك الكاثوليك هو الاهتمام بمغادرة أبى عبد الله شبه الجزيرة الأيبيرية فى أقصر وقت ممكن وحتى يحل السلام فى مملكة غرناطة وأن تتجانس سياسيًا ودينيًا .

ولكن يجب أن نتساءل الآن : هل وصل الملوك الكاثوليك إلى إجبار أبى عبد الله على الرحيل إلى ما وراء البحار بوسائل قمعية صراحة أو بطرق فنية للإقناع أو بالإيعاز ؟ أو باستخدام نفس الأساليب التى اتبعها بدرو مارتير ؛ بمعنى هل نزح أبو عبد الله إلى ماوراء البحار ضد إرادته أم وجد أن هذا مناسب له ؟ وبدراسة البيانات المعروفة حول هذه النقطة ودون الحكم المسبق ، يجب التفكير - كما أرى - فى أن أبى عبد الله وأقطابه المقربين ، وبعد تسليم مدينة غرناطة والتنازل جانبًا للشعور الدينى لكل مسلم طيب بعدم البقاء فى بلد تكون خاضعة لملوك لا يدينون بعقيدة الإسلام ، وبالنظر فى نفس الوقت إلى أن عديداً من كبار المسلمين كانوا يستعدون للنزوح والهجرة ، وأن الذين مكثوا فى غرناطة معارضة بما كانوا يعتقدون وكانوا يخشون الملوك الكاثوليك بدأوا يظهرون تضاؤل ولائهم وتعاطفهم ، حسبما يؤكد هيرناندو دى ثافرا (٤). وكما سنرى فيما بعد ، قرروا الذهاب إلى ما وراء البحار

ليكون لهم المستقر فى فاس أو فى تونس حيث يُنتظر أن يلقوا الترحيب الأفضل . ومن ثم بدأت المناوشات والمداعبات مع أبى عبد الله وأتباعه انطلاقًا من رغبته فى القبول بما جاء فى فصول اتفاقية التسليم التى عرضتها ولم تذهب هذه المحاولات سدى وخاصة حول مقترحاته لتسليم مدينة غرناطة . ولكن باهتمام وبرغبة الملوك الكاثوليك بشأن بيع ممتلكاته والتأكيد على الوفاء بصدق بشأن تنفيذ كل الامتيازات التى يعرضونها عليه حال رحيله وتنفيذ كل متطلباته ، فإن الملوك الكاثوليك أخفوا رغبتهم وقرارهم بإظهار مقاومة جادة تعضد خططهم فى حال الضرورة.

والمؤكد أنه بعد الوقت القصير من استسلام مدينة غرناطة تحت سلاح الملوك الكاثوليك ، ظهرت على السطح مفاوضات جديدة مطولة وثقيلة قام بها نفس الأشخاص الذين تدخلوا فى عملية الاستسلام للمدينة وقد تم إدارة هذه المفاوضات الجديدة بنفس الحكمة والدهاء .

وكان هيرناندو دى ثافرا طرفًا من سادته الملوك الكاثوليك ، كما حدث فى تسليم غرناطة، حيث كان هو محور المفاوضات الأخيرة وكان عليه أن يجتاز الصعوبات التى تواجه هذه المفاوضات عندما يقول : " ... لقد غادر أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك غرناطة فى ساعة مبكرة بعد استلامها وتركونى هناك وبعد ذلك فهمت وأدركت بكل الدهاء الذى أتمكن منه بمرور الملك المسلم إلى ماوراء البحار والاتفاق معه بأن أقدم له مبلغًا كبيراً من المال وجانبًا كبيراً من البغال وأشياء أخرى كان قد تركها الملوك الكاثوليك لديه وأنه تم سداد أجرة السفن التى أبحرت لأول مرة بصحبة جونثالو فرنانديث " (٥).

ومضت سبعة شهور على استلام غرناطة وشهرين على غياب الملوك الكاثوليك عنها ، عندما أخبرت أصحاب الجلالة بعودة المليح ، سكرتير أبى عبد الله المخلص ، برسالة وجهها أبو عبد الله من فاس إلى الملك يطلب منه رغبته فى العودة للإقامة فى العاصمة ويشير هيرناندو دى ثافرا إلى أن خادم أبى عبد الله حمل رسائل من الملك بهذه المدينة إلى أبى عبد الله " يشهد فيها أنه سوف يستقبله بكل الرضا والسعادة مثل شخصه تمامًا " ، والشىء الذى يمكن التحقق منه ، أبو عبد الله وأتباعه ، أنهم أعربوا عن حبورهم بهذه الرسالة الجديدة. ولكن على الرغم من ذلك يعتقد هيرناندو دى ثافرا إلى أنه يوجد بعض الذين يؤيدون الذهاب إلى تونس بدلاً من فاس ، وإن كان لم يؤكد ذلك بصفة قطعية حيث أن السيد خوان دى جرانادا الذى كان فى إمكانه إعلامه بشكل دقيق حول هذا الموضوع لأن والده ابن قماشه الذى كان يحدثه صراحة عن كل شىء كان قد توجه إلى البشرات لحضور حفل زواج أخته (٦).

ومن المعتقد أن رسالة أبى عبد الله التى يشير إليها هيرناندو دى ثافرا هى نفسها التى نسخها المقرى فى كتابه تاريخ الأدب لإسبانيا العربية [٧]، باعتبارها رسالة اختطها الكاتب، الشاعر الأصيل صاحب الأسلوب اللامع والفصيح أبو الدلاله محمد ، ابن عبد الله العربى . والرسالة هى مقالة مطولة مكتوبة فى جزء منها شعراً والجزء الثانى نثراً مسجوعًا والتى أمر بكتابتها ، حسب رواية المقرى ، السلطان المخلوع أبو عبد الله المتوجه إلى سلطان فاس ، الشيخ الوطاسى وعنوانها " الحديقة التى تنثر عبقها بسرور فى الروح ، فى شفاعة قرب للسيد ، الأمير ، سلطان فاس " .

وفى هذه الرسالة يتأسف أبو عبد الله فى نبرة حزينة وشكوى وتذمر من المصير الحزين الذى جناه من حظه العاثر ، ومع ذلك فإنه قد ناضل ضد هذا المصير الذى أصابه بالإحباط واليأس. ومن بين أقوال الحمد لله والشكر لله والثناء على رسوله مرات عديدة يطلب ويتوسل لدى سلطان فاس أن يمنحه كرمه وترحيبه المنتظر به ومن جانب ملوك بنى مرين ، حيث ينسب حظه العاثر من جراء الغدر والخيانة إلى أنه أصبح هو الضحية وكذلك عمه الزغل ، وأنه يعترف بأنه يستحق ذلك كعقاب فُرِضَ عليه بسبب أخطائه وذنوبه وأنه يتوسل بمرارة إلى الله برحمته ليغفر له .

ومن هذه المقالة المؤلفة شعراً ونثراً ، لن أقوم بذكرها نظراً لطولها ، وإنما سوف اختار بعضًا منها ؛ والتى يمكن أن تؤكد وتوضح بعض الإثباتات التى أوردتها آنفًا :

" سيد الملوك ، الملوك العرب والأغراب ، حماك الله وأسبغ رعايته لمن هم فى كنفك ، وأنت الحامى من كرب الزمان نتوسل بحمايتك ... " .

وتبين هذه المقطوعات المطولة ثناء المؤلف على صفات النبل والكرم والسخاء التى يتمتع بها سلطان فاس وأسلافه ملوك بنى مرين ، وفى جزء النثر المسجوع يتوسل تكراراً ومراراً ويتأسف ويطلب العفو والرحمة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى ويطلب الصفح من سلطان فاس بين تعبيرات الرجاء والأمل والألم والندم والتى وردت فى أبيات الجزء الشعرى من الرسالة المذكورة .

وعلى الرغم من الرغبات التى يكشف عنها أبو عبد الله فى رسالته من حيث ذهابه للإقامة فى فاس عندما يغادر شبه الجزيرة الأيبيرية ، يبدو أنه لم يكن قد وصل إلى حل على أرض الواقع يسمح له بالذهاب إلى المدينة المذكورة فاس أو يفضل الذهاب إلى تونس . ويقول

هيرناندو دى ثافرا فى رسالة صادرة فى شهر سبتمبر ١٤٩٢ ، أنه كان قد أخبر سادته بشأن نوايا أبى عبد الله الذى يفضل رحيله إلى طريق فاس على طريقه إلى تونس ، وأنه لم يُعرف على وجه اليقين ما هو الرد الذى جاء بشأن المحطة الأخيرة له فى أى من هاتين المدينتين (٨).

والشىء الواضح والأكثر يقينًا آنذاك هو أن أبا عبد الله كان يضمر ، فى داخله ، مثله مثل أتباعه ، الهدف فى الذهاب إلى ما وراء البحار ، حيث أنه فى نفس هذه الرسالة المؤرخة فى سبتمبر ، التى أشرت إليها منذ قليل ، يعلن هيرناندو دى ثافرا أصحاب الجلالة أن أبا عبد الله وأمه وزوجته وأخواته كانوا يبيعون بقدر استطاعتهم كل ممتلكاتهم ومتعلقاتهم وأن البعض كان يشتريها منهم ، دون الأخذ فى الاعتبار أن هذه الأشياء كانت محجوزة لأصحاب الجلالة وفقًا للشروط العامة الواردة فى اتفاقية تسليم غرناطة .

ومن بين الممتلكات التى باعتها الملكات المسلمات تظهر الأماكن العامرة الهامة مثل بياس وهويتور سانتيبيان ، والتى كان على الملوك الكاثوليك حظرها ومصادرتها والمطالبة بها وبكل الأشياء المذكورة والمعروضة للبيع (٩).

وليس من المعروف التلميحات المضللة والخداعة ، التى لم تكن ذات صفة قمعية ، التى استخدمها الملوك الكاثوليك من خلال وساطة سكرتيرهم هيرناندو دى ثافرا ، بهدف إخماد الهمة لدى أبى عبد الله وأتباعه المقربين ، حيث كان العزم والإصرار من جانب أصحاب الجلالة بأن يترك أبو عبد الله وأتباعه شبه الجزيرة . ومن الرسائل التى حررها سكرتير الملوك الكاثوليك يجب أن نفكر فى أن كل عمل قام به كان يهدف إلى منح العطايا والهبات ، مثلما حدث فى تسليم غرناطة ، إلى المقربين من أبى عبد الله وخاصة المليح والبقنى والوزير ابن قماشة والشروط والقيسى لكى يدفعوا أميرهم أبو عبد الله إلى الرحيل الفورى إلى ما وراء البحار ومغادرة الأندلس وأنه إذا نفذ ذلك سوف ينعم بالعطايا والأفضال التى يقدمها له الملوك الكاثوليك بالإضافة إلى فوائد أخرى جديدة . ومن جانبهم فقد وافق أتباع أبى عبد الله على ذلك وأنهم ، على الأقل ، بمحاولة بذل الجهد لتذليل أى صعوبات حتى يتمكنوا من تحقيق رغبات أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك والإثبات فى نفس الوقت أنهم على ولائهم وطاعة أميرهم أبى عبد الله .

ومن ثم نرى تبادل الرسائل بين أبى عبد الله وأتباعه من ناحية وبين الملوك الكاثوليك وسكرتيرهم هيرناندو دى ثافرا من ناحية أخرى . ففى الثانى من أكتوبر من نفس العام

(١٤٩٢) أبلغ هذا الأخير الملوك الكاثوليك أن أتباع الأمير عبد الله كتبوا له ونصحوه بأنه من الملائم كثيراً أن يرسل إليهم وإلى أبى عبد الله بالطريقة التى يراها وأن يبدى لهم شكره على الخدمات التى يقدمونها إليه وإلى الملوك الكاثوليك (١٠).

ومن المسلم به أن الملوك الكاثوليك كانت لديهم الرغبة الصادقة قبل رحيل أبى عبد الله وأتباعه أن يقدموا له ما تم الاتفاق عليه حسب شروط تسليم غرناطة وكذلك تقديم المساعدة له بتدبير فرقة مسلحة ووسائل انتقاله إلى أفريقيا حتى يتمكن من أن يفرض سيادته على ولاية أو قطعة أرض بإفريقيا . ولقد أدرك أبو عبد الله وأتباعه ذلك ضمنًا من خلال الرسائل المتبادلة بين أصحاب الجلالة وهيرناندو دى ثافرا وبين الفقهاء والأمراء المتواجدين فى بعض المناطق بساحل المغرب الذين وعدوا بتسليم الإمبراطورية إلى أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك(١١).

وربما كانت هناك هذه الفرقة المسلحة ، التى ورد ذكرها مع التحفظ والغموض فى الرسائل المذكورة ، تهدف إلى مملكة فاس . ومن المؤكد أنه فى الرسالة المذكورة بتاريخ ٩ ديسمبر من العام المذكور (١٤٩٢) أشار هيرناندو دى ثافرا على سادته إلى صفقة فاس حيث وعد أنه سوف يتحدث مع خادم أبى عبد الله الذى يُدعىٰ القيسى وكذلك مع المليح ، وإن كان قد ساوره الشك فى أن يقبل أبو عبد الله ذلك ، حيث سبق أن أفاد بأنه كان قد وجه قبل ذلك رسالتين إلى الملك العربى حول هذا الموضوع وأن المليح كان قد حاول أيضًا حول هذا الشأن وأنه كان موضع للسخرية حيث رد المليح على هيرناندو دى ثافرا أن سيده كان يقول ؟ " أنه تنازل عن مملكته لكى يعيش فى سلام وأنهم لن يذهبوا إلى مملكة أخرى عليها نزاع وجدال وتكون أقل أمانًا بسبب البربرية العربية " .

ولنفس الهدف كانت هناك محاولات لإغواء بعض الأمراء فى فاس ، الذين كانوا قد انتقلوا إلى مملكة غرناطة وقت عملية الاسترداد ، حيث يشير هيرناندو دى ثافرا فى إحدى الرسائل أنه كان فى البشرات للقاء المليح بناءً على توجيهات سادته أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك وأنه حاول إغوائه ، انطلاقًا من حالة عدم الثقة التى يشعر بها " إننى أعمل بالطريقة التى يجب أن تكون وبالقدر المناسب خدمة لأصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك " .

وفى واقع الأمر ، وحسبما يتضح من قراءة رسائل هيرناندو دى ثافرا ، يمكن التأكيد على أنه قبل نهاية عام ١٤٩٢ كان قد تم القبول والموافقة على المبدأ من جانب الطرفين وأن الاتفاق

على رحيل أبى عبد الله ، وبمعنى أدق مغادرة أتباعه ، تم نقله إلى أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك بأن ينصرف أبو عبد الله وأتباعه من شبه الجزيرة الأيبيرية إذا تم التصديق على الكتابة بالعدل الخاصة بالوعود المتبادلة والمتفق عليها بينهم ، بناءً على الرسائل التى تم تبادلها وخاصة ما يتعلق بالمحادثات التى عقدت بهذا الشأن بين هيرناندو دى ثافرا والمليح وابن قماشة وأحد المقربين من أبى عبد الله .

ويبدو واضحًا أن الملوك االكاثوليك كانت لديهم الرغبة الصريحة ، أو أن المسلمين كان لديهم مطلب فى تأجيل التصديق على الاتفاقية وبالتالى تأجيل رحيل أبى عبد الله حتى يعود أصحاب الجلالة إلى غرناطة . وأن هذا الأمر كان ممكنًا حيث قال هيرناندو دى ثافرا فى رسالة مؤرخة فى ٨ ديسمبر ١٤٩٢ أنه أبلغ سادته أصحاب الجلالة أن رحيل أبى عبد الله وأتباعه لن يتأخر سوى الفترة التى يستغرقها مجيئهم إلى غرناطة وأنه كان يرغب فى أن يتم ذلك فى أســـرع وقت ممكن(١٢). وفى تلك الأثناء كان أبو عبد الله بحظه العاثر يجوب مع أتباعه وخدامه حقول " دالياس وبرجه " للصيد حسبما أخبر هيرناندو دى ثافرا سادته فى رسالته فى اليوم التالى على الرسالة السابقة بأن أبا عبد الله سيمكث طوال ذلك الشهر(١٣).

ولكن من المعلوم جيداً أنه فى يوم ٧ ديسمبر ١٤٩٢ ، أصيب الملك فرناندو بجرح خطير فى برشلونه على أيدى شخص يعتقد أنه مجنون ، ومن ثم فإن المفاوضات حول استعادة روسيليون وسردينيا لم يتم التقرير فيها بالسرعة والاهتمام اللازمين وعليه أيضًا تم تأجيل وصول أصحاب الجلالة بالعودة إلى غرناطة آنذاك .

ورأى أبو عبد الله أن ذلك كان ضد ما كان يأمله وأن أصحاب الجلالة لن يكون فى مقدورهم المجيء إلى غرناطة ، وأراد أن يتوجه إلى برشلونه للقائهم وجهًا لوجه وأن ينهى معهم الكتابة بالعدل الخاصة برحيله إلى ما وراء البحار ومغادرة الأندلس . وقد أبلغ هيرناندو دى ثافرا أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك بنية وهدف الملك العربى المسلم أبو عبد الله فى الذهاب فى منتصف شهر يناير من العام التالى ١٤٩٣ ، وقد أثبت ذلك فى ٢٧ من نفس الشهر بأنه سوف يعاود إبلاغهم بأن أبا عبد الله قرر القيام بهذه الرحلة خلال شهر فبراير التالى وأنه يتوجه بنفس النية والإرادة التى عرفوها عنه فى رسائله السابقة (١٤). ولكـن الملوك الكاثوليك اعترضوا على رغبة أبى عبد الله بالذهاب إلى برشلونه بأن حرضوا هيرناندو دى ثافرا على أن يجعل الملك العربى يتخلى عن هذه الفكرة وذلك فى الرسالة التى كتبوها له

بتاريخ ٢٦ من نفس شهر فبراير يقولون له ، بالإضافة إلى أشياء أخرى ، أنه بالنسبة لمجىء أبى عبد الله وللموضوع الذى يرغب فى الحديث إليهم بشأن مغادرته الأندلس ، فإنهم يشكرونه كثيراً على ما فعل وأن كل شىء فى أحسن صورة ، وأنه نظراً لبعض الأمور لايرون أن مجىء أبى عبد الله مناسب لهم فى ذلك الوقت ، لأن هذا يعنى تأخير رحيله فى الذهاب والإياب من وإلى برشلونه ، وأنهم يعتقدون أنه من الأفضل أن يتم التفاوض فى غرناطة بدلاً من برشلونه . ولهذه الاعتبارات أبلغوا هيرناندو دى ثافرا بضرورة التصرف حتى يمكن وقف مجىء أبى عبد الله إلى برشلونه وأن الأمر يجب أن ينفذ بخصوص مغادرته الأندلس والكتابة إليهم بما يريد وما يجب عليه أن يفعله وأن يستشير كذلك الأسقف ويتشاور مع كونت تنديبا ومع الحاكم كاليرون (١٥).

وفى الوقت الذى أصر فيه الملوك الكاثوليك على رفض ذهاب أبى عبد الله إلى برشلونة عقدوا لقاءً مع الوزير ابن قماشة (١٦). وبعد هذا اللقاء بعشرين يومًا أى فى ١٧ مارس من نفس العام عقدوا معه اتفاقية مكتوبة بشأن رحيل سيده أبى عبد الله وعائلته وكبار أتباعه وخدامه (١٧).

والمثبت فى هذه الاتفاقية ، فى المقام الأول ، أن يرسل أبو عبد الله سكرتيره وخادمه ابن قماشة بطلب الإذن من أصحاب الجلالة بالذهاب للمعيشة فيما وراء البحار ، فى أراضى المسلمين ، وأن يقترح عليه ، كنتيجة لذلك ، شراء الأقاليم والقطاعات التابعة لأندراكس ، ولوتشار التى كان لها عائد ودخل يقدر حسب تأكيده هو بمبلغ ٤٧٠٠٠ مثقال (المثقال وزنه نصف درهم آنذاك) ، وكذلك أقاليم برجه ومارتشينا التى كان عائدها ٥٠٠٠٠ مثقال وإقليم أو خيخار الذى كان عائده ٢٢٠٠٠ مثقال وإقليم خوبيليس الذى كان عائده ٣٠٠٠٠ مثقال ، وليكون إجمالى الدخل العائد لهذه الأقاليم ١٤٩٠٠٠ مثقال ودون أن يدرج فى هذا الدخل الرسوم على الميراث وأحكام القضاء ولا على ضريبة الخبز التى كانت تؤخذ على كل أرض محروثة ولا على أعداد الدجاج الذى كان يوجد فى بعض المناطق ولا على الأفران ولا على أنوال الحرير ولا يتضمن الرسوم الخاصة بالأشياء الأخرى التى كانت بالمملكة الغرناطية .

وكل هذه الأقاليم وموارد بيت المال المشار إليها وكل الأشياء الأخرى التى تختص به أو التى يمكن أن يمتلكها يقدمها أبو عبد الله إلى أصحاب الجلالة بمبلغ ٢١٠٠٠ قشتالى (عملة ذهبية إسبانية قديمة) من الذهب الخالص والوزن الصحيح .

ومن جانب الملوك الكاثوليك وبعد الإعلان صراحة أن أفضل رغبة لهم هى أن يواصل أبو عبد الله حياته ومعيشته فى ممالكهم وأن يتحصل على الأقاليم المشار إليها بكل مداخيلها الأخرى والتى تفضلوا عليه بها ، يقدمون الوعد باحترام رغبته وإرادته بالذهاب إلى خارج الأندلس والإعراب له أنهم كم يكونوا سعداء بأن يقدموا له كل ما يعادل تلك الممتلكات التى يتركها بمبلغ ٢١٠٠٠ قشتالى إذا كانت هذه الممتلكات التى يتم التوقيع عليها تحقق العائد والدخل الفعلى ودون حساب الأشياء الأخرى الكثيرة وهو ١٤٩٠٠٠ مثقال نقداً سنويًا والذى حدده أبو عبد الله ، وأنه إذا كان العائد أقل سيتم إجراء خصم المبلغ المعادل من مبلغ ٢١٠٠٠ قشتالى الذى كانوا يقدمونه له .

وسيتم تقديم المال إلى أبى عبد الله قبل رحيله بثمانية أيام . وعلاوة على ذلك سيبقى لأبى عبد الله ثلثا الدخل الإجمالى االوارد من الأقاليم التابعة له فى السنة التى يتخذ فيها هذا الإجراء والثلث الباقى سيكون من نصيب أصحاب الجلالة .

وفى حالة رحيل أبى عبد الله من شبه الجزيرة الأيبيرية قبل استلامه الكامل لثلثى الدخل عن ذلك العام يجب على أصحاب الجلالة أن يدفعوا له ما تبقى له إذا ترك لهم تفويضًا كافيًا لتحصيل الإيراد .

كما أعلن أيضًا أنه إذا غادر أبو عبد الله الأندلس فى نهاية شهر أكتوبر القادم من ذلك العام وإذا تحقق ذلك سيقوم أصحاب الجلالة بالدفع له من حسابهم ما يعادل ثلثى الدخل المشار إليه وأنهم سوف يحصلون ذلك الدخل لحسابهم فيما بعد .

وعلى الفور وعد أبو عبد الله وشهد أمام أصحاب الجلالة بأنه لن يبقى فى هذه الممالك الإسبانية حتى نهاية شهر أكتوبر المذكور .

وقد التزم أصحاب الجلالة بأنهم سوف يتعهدون بالنسبة لأبى عبد الله والملكات المسلمات واخته ولكل أتباعه وخدامه ، بأن يمكنوهم من نقل حاجياتهم ومتعلقاتهم فى سفينتين كبيرتين بدون أى رسوم على نحو ما سبق الاتفاق عليه فى تسليم غرناطة وأنهم لن يدفعوا أية رسوم على أى شىء يخرجونه معهم من المملكة وأى أشياء أخرى وردت الإشارة إليها فى اتفاقية التسليم المذكورة .

كما أن أصحاب الجلالة مستعدون لتقديم هاتين السفينتين الكبيرتين خلال الثلاثة شهور التالية للوقت الذى يحتاجه أبو عبد الله لمغادرته الأندلس . كما يمكن أن يستفيد من هذا

الامتياز أقارب يوسف دى مورا الذين كانوا يقطنون طليطلة آنذاك للانتقال على هذه السفن إلى ما وراء البحار أى خارج شبه الجزيرة الأيبيرية .

وإذا قرر أبو عبد الله التوجه إلى تونس لتكون مقراً لإقامته وأنه لهذا الغرض يحتاج نقل وشحن بعض القمح إلى ساحل المغرب فإن السفن المذكورة ستقوم بنقل القمح حتى مملكة تونس بالكميات التى يمكن تحميل السفن بها بشرط ألا يستغرق تحميلها أكثر من ثمانية أيام .

كما يتعهد أصحاب الجلالة بتقديم التسهيلات والسماح لأبى عبد الله بالقيام ببعض الأعمال ، دون أن يكلفهم ذلك نقوداً ، التى هو فى حاجة إليها انطلاقًا من منظور حسن النوايا .

وبالنسبة للملكات المسلمات فقد تم النص فى نفس الكتابة بالعدل أنه إذا أراد أصحاب الجلالة الاحتفاظ بالعقارات والأراضى والدخل الناتج عنها وحسب إثبات أحقيتهن فيها وفقًا لسندات الملكية لمدة تجاوز الخمس عشرة سنة أو امتلاكهن لها خلال هذه المدة ، سيتم تعويضهن عنها بالقيمة التى تعادلها مع خصم الربع ، مع الأخذ فى الاعتبار قيمتها حسب السعر الذى كن قد تقدمن به عند شرائهن هذه الممتلكات قبل ذلك . وفى حالة عدم رغبة أصحاب الجلالة فى الشراء يسمح للملكات المسلمات بالبيع لأشخاص آخرين حسبما يرتضين بذلك . كما يقبل أصحاب الجلالة بنفس الشروط شراء الممتلكات والعقارات والأراضى من الوزير ابن قماشة وتلك الأراضى التى كانت فى دالياس بنصف إيراد الملح الذى كان يعادل ٩٢٥٠ مثقال ، وكذلك نصف إيراد الكارين بعائد ١٥٠٠٠ مثقال ونصف "ملاحه" بنصف الملح المستخرج الذى كان له عائد ١٢٥٠٠ مثقال ، وكذلك نصف إيراد كيمبى وحقول دالياس وأن كل ذلك يقدم إلى أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك وفقًا لسندات الملكية بمبلغ ٤٥٠٠ قشتالى من الذهب الخالص وثلثى الدخل عن العام الجارى . وفى حالة اكتشاف أن الممتلكات والأراضى المعلن عنها لاتقدم الدخل المثبت من جانب ابن قماشة سيتم خصم المبلغ المعادل من إجمالى ٤٥٠٠ قشتالى المعروض عليه .

كما يتضح أيضًا أن ابن قماشة ، حسبما يريد ، كان يرغب أن يعطى الابن خوان دى جرانادا مقاطعة دالياس بنصف إنتاجها من الملح أو ما يعادله من مال ، ولحسن الحظ أن أصحاب الجلالة لم يقدموا نقوداً لابن قماشة عن تلك الأراضى وإنما لابنه السيد خوان .

وفيما يتعلق بالمليح يتعهد أصحاب الجلالة بأن يقدموا له مقابل الممتلكات والأراضى التى يتملكها فى غرناطة ومملكتها مبلغ ٤٥٠٠ قشتالى مثلما يمتلك ويبيع ابن قماشة ، وأنه إذا

كان يمتلك أكثر منه سيتم سداد مازاد على ذلك . ولكن هذا يجب إدراكه فى حالة ما إذا قبل المليح أو أن يكون ذلك بموجب كتابة بالعدل ؛ وفى حالة ما إذا ثبت عكس ذلك سيكون فى استطاعة أصحاب الجلالة أن يعقدوا اتفاقًا منفصلاً .

كما قدم أصحاب الجلالة إلى أبى القاسم بن سراج مقابل الحصول على ممتلكاته وأراضيه فى فيريرا وبوكيرا ، التى كانت تنتج ١٢٠٠٠ مثقال ، دخل العام الجارى ، وأنه فى حالة مغادرته الأندلس قبل أن يتسلم الثلث الأخير من الإيراد سيقوم أصحاب الجلالة بالسداد له ويحصلون هذا الثلث بعد ذلك لحسابهم . ونفس الشىء الذى يحدث مع أبى القاسم بن سراج يتم مع البولودى الذى كان يتحصل على عائد يقدر بـ ٦٠٠٠ مثقال .

كما وعد أصحاب الجلالة فى نفس الكتابة بالعدل بأنهم سوف يتفضلون بمبلغ ٣٠٠ مسكوكة ذهبية قشتالية إلى يوسف دى مورا مقابل التزام المسلمين فى منطقة البشرات للاتفاقيات السابقة وألا يسببوا أى أحداث جديدة عند مرور أصحاب الجلالة .

ومن الواضح فى الكتابات بالعدل أن أصحاب الجلالة لديهم الرغبة بشأن تنفيذ ما جاء فى كتابة بالعدل أو بأخرى على أن تكون هذه الكتابة موقعة من الملك أبى عبد الله أو من هو مفوض باسمه وأن يقسم بذلك فى حضور الشخص أو الأشخاص الذين يحددهم أصحاب الجلالة . .

وينهى ابن قماشة اتفاقه بالتعهد بأن سيده أبا عبد الله سيوقع على الكتابة بالعدل وأنه سيدلى بالقسم بأنه فوضه بالإنابة عنه ، وأنه هو نفسه سوف يُحضر هذه الكتابة بالعدل موقعة ومصدق عليها من سيده وأنه سوف يقدمها إلى أصحاب االجلالة الملوك الكاثوليك أو إلى من يرسلونه خلال الشهرين ونصف الشهر التاليين على تاريخها ، وأنه إذا حدث العكس سيكون خاضعًا لغرامة ٥٠٠٠ مسكوكة ذهبية يدفعها لأصحاب الجلالة .

ويقتصر هذا ، فى جوهره ، على ما اتفق عليه الملوك الكاثوليك والوزير ابن قماشة بشأن رحيل أبى عبد الله وعائلته وكبار أتباعه وخدامه من الأندلس . ومن الشائع أن نقرأ فى أخبار المؤرخين المحدثين أن الاتفاقية المذكورة تم إبرامها بواسطة ابن قماشه بدون معرفة أو إذن سيده الملك أبا عبد الله . ويقوم هؤلاء المؤرخون بالنقل والتعليق مع المبالغة فيما ذكره المؤرخ مارمول كارباخال بالقول أن بيع ممتلكات الملك المسلم (حتى يغادر الأندلس) قام بها ابن قماشه ، الذى كان مفروضًا منه ، حيث كان أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك فى أراجون ، وتلقى المال

المقابل لذلك حيث نقله على الدواب ومن ثم إلى لواخار دى اندراكس حيث كان يقيم سيده أبو عبد الله ، ووضع المال أمامه وقال له : " سيدى ، ممتلكاتكم أحضرها لك مُباعة، وأنكم ترون هنا السعر الخاص بها " . ويضيف المؤرخون بناء على عقيدة بعض الموريسكيين الأوائل أن أبا عبد الله قد عانى كثيراً عندما رأى ممتلكاته وسلطاته تُباع وأنه لو كان بيده لقتل وزيره ابن قماشه إذ لم يبعدونه من أمامه . ويقول مؤلف محدث واصفًا أبا عبد الله بأن هذا الأخير أصابته الدهشة والغضب تجاه وزيره الخائن ولو كان الأمر بيده لتناول سيفًا وغرسه فى صدره(١٨) .

ومن المعروف أن أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك لم يكونوا فى أراغون وأن ابن قماشه لم يتلق أى نقود فى برشلونه ولم يستطع أن يحمل أى كميات من القمح ولم يقدم هذه الكميات أو المال عند عودته إلى سيده أبى عبد الله .

وليس من المستبعد أن يكون غضب ودهشة أبى عبد الله تجاه سلوك وزيره سببًا فى أن يحاول قتله ، وليس هناك مبرر أن يواصل أبو عبد الله ، حال التحقق من هذا الحدث ، منح ثقته لابن قماشه الذى أصبح يتدخل فى عمليات التصفية النهائية لمداخيل وعائد الممتلكات المباعة .

ومن وجهة نظرى ، فقد توجه ابن قماشه إلى برشلونه بموافقة وإذن وعلم أبى عبد الله للاتفاق مع أصحاب الجلالة حول رحيل سيده من الأندلس ، ولكنه لم يكن محظوظًا فى مهمته حسبما كان يرغب سيده وغيره من الأقطاب والأعيان . وفى تلك الأثناء ، انتهز أبو عبد الله الظروف ولم يقدم تفويضًا كافيًا ومكتوبًا لابن قماشة لإنهاء العقد بصفة قطعية ، ورأى أبو عبد الله ، مرة أخرى ، ضرورة منح صلاحيات كاملة لخادم آخر له أكثر ذكاء هو المليح .

والأمر المؤكد أن المليح المذكور آنفًا كان قد صدق فى غرناطة بتاريخ ١٥ أبريل من نفس العام على شروط اتفاقية التسليم التى قام بها ابن قماشة فى برشلونه ، وإن كان قد أعلن بداية أن ابن قماشه لم يكن لديه تفويض كافى من سيده لإنهاء تلك الاتفاقية ، وأن سيده كان فى استطاعته رفض هذه الاتفاقية ، ومع ذلك فقد أعلن أبو عبد الله رغبته فى أنه عليه أن يكون فى خدمة أصحاب الجلالة حيث أن قراره هو الرحيل من الأندلس والذهاب إلى أراضى المسلمين وأنه لايريد أن يعارض ذلك ، وأن المليح بموجب التفويض الذى منحه له سيده أبو عبد الله أصبح مخولاً بكل الثبات والقوة وحسن النوايا بأن يلتزم أصحاب الجلالة بالشروط التى تضاف إلى الاتفاقية :

- بالنسبة للسفينتين الكبيرتين اللتين ستقدمان لسيده حتى يتمكن من مغادرة الأندلس وفقًا للاتفاقية االمذكورة ، تكون إحداهما سفينة إنييجو دى أرتيتا والأخرى تكون حمولتها أكثر من ألف طن وأن تكون مؤمنة من جانب ولاية جنوه وبضمان لونخا دى إشبيليه ، وفرانسيسكو بينيلو ، وكاتب العدل المعين . وإلى جانب السفينتين الكبيرتين ، ووفقًا لشروط الاتفاقية ، يجب على أصحاب الجلالة أن يضعوا تحت طلب أبى عبد الله وابن قماشه سفينتين شراعيتين على أن يتم تسليحهما تسليحًا جيداً للدفاع عن السفينتين الأخرين اللتين تُقلان الملك أبا عبد الله وعائلته . وكل هذه السفن ستكون جاهزة فى الميناء الذى يتم الاتفاق على الإبحار منه قبل عشرين يومًا من رحيلها .

- يجب على الملوك الكاثوليك أن يرسلوا مع المهاجرين بعض الأشخاص من أصحاب السلطة والاحترام والثقة لمرافقتهم وذلك زيادة فى الأمن ولكى يقدموا فيما بعد شهادة وأخباراً عن كيفية تم إبحارهم حسب رغبتهم .

- وفقًا للاتفاقية التى تمت بواسطة ابن قماشة ، يجب على أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك أن يقدموا المال مقابل أقاليم دالياس وأورخيبا وفيريرا وبوكيره والبولودى ، ولن يتم تسليم المال الخاص بالممتلكات التى مازالت فى حيازة أتباعه لأنها ليست ملكًا لهم وإنما سيتم دفع المال إلى أبى عبد الله باعتباره المالك الحقيقى لهذه الأقاليم والممتلكات .

- سيتسلم أبو عبد الله وأتباعه المال الناتج عن بيع الممتلكات المذكورة ، قبل شهر من رحيلهم من الأندلس والذى سيكون فى منتصف أغسطس كما كان يُعتقد ، وليس قبل الرحيل بثمانية أيام حسب ما كان قد اتفق عليه مع ابن قماشه .

سيتم الالتزام مع أبى عبد الله وأقاربه وخدامه بما تم الاتفاق عليه فى اتفاقية تسليم غرناطة بشأن الأسلحة والمعدات الحربية التى يمكن أن يحملها معه فى وقت الإبحار ، ولن يتم سداد رسوم تحت أى مسمى لأى من الأشياء التى يحملونها معهم ولن يتم فحصها أو مراجعتها أو شرائها .

- يأمر أصحاب الجلالة جونثالو فرنانديث ، قائد إلورا ، بأن يدفع إلى أبى عبد الله والمليح وابن قماشه وإبراهيم القيسى كل ما يثبته قاضى غرناطة من ديون عليه . وأن المبلغ الذى يتم تحديده سيتم سداده قبل رحيلهم من الأندلس بشهر وهو نفس الوقت الذى أمر فيه أصحاب الجلالة بسداد مستحقاتهم عن ممتلكاتهم . ولهذا الغرض يأمر أصحاب الجلالة المذكور جونثالو فرنانديث أن يتحقق ويعطى الأمر بالسداد فى المدة المذكورة .

– يرسل أصحاب الجلالة شخصًا بعد ذلك يتحقق من قيمة الأراضى والأشياء الأخرى التى يمتلكها أبو عبد الله والمليح وابن قماشه وآخرون والتى يجب على أصحاب الجلالة سداد قيمتها وما يجب على هؤلاء أن يتسلموه من مقابل .

– يتفضل أصحاب الجلالة على إبراهيم القيسى وعلى أقاربه الذين كانوا يتكونون من اثنتى عشرة عائلة تسكن طليطلة ، حتى يتمكنوا من المرور والحضور إلى الميناء لمغادرة البلاد وإعفائهم من سداد أية رسوم عن أشخاص وعائلاتهم وحاجياتهم ومتعلقاتهم مثلما تم مع أقارب يوسف دى مورا .

– تنقل السفن أبا عبد الله وكل أقاربه وأتباعه وخدامه إلى مملكة تونس أو إلى مملكة فاس أو إلى ميناء الإسكندرية أو أى من الموانىء التى يفضلها الملك أبو عبد الله ، وفقًا لما تم الاتفاق عليه فى اتفاقية تسليم غرناطة ، وأن يكونوا مستعدين للإبحار من ميناء عدره .

– كذلك يتم تقديم كافة الخدمات المنصوص عليها فى اتفاقية تسليم المدينة .

– يدفع أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك إلى الملكات المسلمات ما يعادل قيمة البساتين التى تحمل أسماء : جناين التوابين وغيرها ، كذلك قيمة الممتلكات والأراضى وأسواق الغلال والحمامات والطواحين والضياع والمزارع والديار التى يمتلكنها ، وأن أصحاب الجلالة يأخذونها بأسرع وقت وهى البساتين الموجودة فى جيناجوف ، وجناين سيدى مخلص ، وجناين سيدى حامد، وجناين سيدى على وجناين قصر شنيل ، وجناين القاضى ، وجناين الفقاز .

– إذا رغب الفقيه محمد البقنى ومنصور الجينى الذهاب مع أبى عبد الله ، يكون على أصحاب الجلالة أن يدفعوا لهما وفقًا للنظام والطريقة التى تمت مع أبى عبد الله وفى نفس الوقت السداد نقداً ، ذهبًا أو فضة ، بما يعادل قيمة القنطار الذى يمتلكانه مع مراعاة أن القيمة تكون حسب الدخل عن العام السابق ١٤٩٢ .

– وفقًا للاتفاق الذى تم بين ابن قماشة وأصحاب الجلالة ، إذا كان المليح لديه من الممتلكات أكثر مما أشير إليه فى اتفاقية التسليم يتم السداد له مقابل هذه الزيادة . ويتم الاتفاق على مازاد عن الممتلكات التى أعلنها ابن قماشة بسداد الثالث و٣٠٠٠ ريال خاصة بمداخيل صناعة الأحذية بغرناطة ، بالإضافة إلى مداخيل أوتورا وكل ما كان يبيعه ينقل إلى أصحاب الجلالة الذين يدفعون له مقابله وما زاد عليه . وبالنسبة لبقية كل ما كان يمتلكه من

ديار ومزارع عنب وبساتين وطواحين وأشياء أخرى يقوم أصحاب الجلالة بتفويضه بالبيع بأفضل سعر إلى من يرغب حيث أن هذه الممتلكات لم تكن ضرورية لأصحاب الجلالة .

– يتقرر أخيراً التزام أصحاب الجلالة من جانبهم بكل ما جاء فى هذه الكتابة بالعدل وأن يلتزم ويقسم على ذلك أبو عبد الله أيضًا حيث يقدم كتابة أخرى بالعدل مماثلة مصدق عليها وموقعة بإسمه .

– تحمل هذه الكتابة بالعدل توقيعات أبو القاسم المليح ومحمد البقنى وإبراهيم القيسى والأستاذ أندريس كالديرون ، المأمور القضائى لغرناطة ، وهيرناندو دى ثافرا ، ويظهر تفويض كاتب عدل المنطقة والموثق العمومى دييجو جارثيا الريكو .

هذا وكان الملوك الكاثوليك قد وافقوا على الاتفاقية الخاصة برحيل أبى عبد الله وأتباعه ، وتم التصديق عليها فى ١٥ يونيه ١٤٩٣ بالتوقيع عليها بإسمهم ومفوضهم فرناندو الباريث.

وبتاريخ ٨ يوليه من نفس العام وافق عليها وأكدها أبو عبد الله بصورة مماثلة وصدق عليها وختمها فى مدينة اندراكس وأضاف بقبضة يده سطوراً باللغة العربية يصدق بها ويؤكد على وعوده التى يلتزم بها حسبما جاء فى محتويات الكتابة بالعدل [١٩].

ويقول هيرناندو دى ثافرا فى الرسالة التى وجهها إلى سادته الملوك الكاثوليك والتى تحمل تاريخ نفس شهر يوليه أن الملك أبا عبد الله لم يكن نشطًا فى إرسال الكتابة بالعدل بشأن إنهاء اتفاقية التسليم من جانبه وأن كل يوم تأخير وكل ساعة ينتظرها بشأن التسليم تمر عليه كما لو كانت ألف سنة . ويعلن هيرناندو دى ثافرا فى نفس الرسالة أنه إذا تم التسليم من جانب أبى عبد الله وحضرت السفن التى يقدمها أصحاب الجلالة يمكن إنهاء أمرين مرة واحدة، أى رحيل أبى عبد الله والاستيلاء على المدن فى نفس الوقت حتى يمكن تجنب أى موقف عدائى [٢٠].

وفى حقيقة الأمر أن الشيء المؤسف للملوك الكاثوليك فى هذه الفترة أنهم لم يكونوا سعداء بإنهاء وجود المملكة الإسلامية فى غرناطة وحسب ؛ وإنما كانت تطلعاتهم إلى السواحل الإفريقية، وبدأت تداعبهم وتراودهم فكرة القيام ببعض الغزوات والهجمات الفورية على بعض المواقع أو الموانيء الإفريقية . والرغبة التى كانت لديهم كان يشجعهم عليها ملوك آخرون معاصرون يقومون بتدعيم سلطتهم فى مملكتهم من خلال محاولة كسب أراضٍ جديدة يسيطر

عليها أولئك الذين لا يدينون بعقيدة المسيحية . وقد ظهر التنافس لدى ملوك البرتغال حيث بدت رغبتهم فى اجتياح جزء من منطقة المغرب العربى منذ عهود سابقة فى إطار القمع والعقاب المفروض على القراصنة الأفارقة والأوربيين الذين كانوا يعيشون فساداً ويسببون الرعب والهلع على السواحل الأندلسية ، ويتجنبون فى الوقت نفسه الخطر الجسيم القادم من القوات التركية التى كانت تهدد هذا الجزء من حوض البحر المتوسط . وهذه كلها كانت أسباباً قوية حرضت وحركت فكرة الغزو والاعتداء على أى جزء بالساحل الإفريقى .

المصدر :

مجلة مركز الدراسات التاريخية لغرناطة ومملكتها ، العدد ٢ ، عام ١٩١٢ ، الجزء الثانى .

الهوامش :

(١) انظر شروط اتفاقية تسليم غرناطة فى كلمتى الافتتاحية عام ١٩١٠ - ١٩١١ .

(٢) ترجمة لاتينية لنص الرسالة

(٣) كلمة " الشاب " هى تسمية للتمييز بين أبى عبد الله وعمه ومنافسه بنفس الاسم ، الملقب بالملك الشيخ .

(٤) المؤلفون الإسبان ، الجزء السادس من الأخبار ، ص ٥١٦ .

(٥) وثيقة غير منشورة ، الوثيقة الخامسة - الجزء الثانى ص ٩٣ وما بعدها .

(٦) مذكرات خدمة السكرتير هيرناندو دى ثافرا للملوك الكاثوليك ، بعد أن تم الاستيلاء على غرناطة، وثيقة السجل المشار إليه والذى هو فى حيازة معلمى وصديقى السيد خوان اورتادو دى أميجاثا ، وثائق السجل، أوراق ، صندوق رقم ٦ .

(٧) وثيقة غير منشورة ، الجزء الحادى عشر ، ص ٤٨٨ . رسالة هيرناندو دى ثافرا إلى أصحاب الجلالة فى ٢٢ أغسطس ، بدون تدوين تاريخ السنة وإن كان يوافق عام ١٤٩٢ بدون شك .

(٨) مختارات حول التاريخ والأدب لعرب إسبانيا ، الجزء الثانى ص ٨٥ وما يليها .

Analectes sur L'Histoire et la Litterature des Arabes d'Espagne, t. II. pag. 85 y sigtes .

(٩) انظر رسالة هيرناندو دى ثافرا إلى أصحاب الجلالة بتاريخ ١١ ديسمبر بدون ذكر السنة ، وإن كانت توافق عام ١٤٩٢ بدون شك ، وثيقة غير منشورة ، الجزء ١١ ، ص ٥٠٥ .

(١٠) وثيقة غير منشورة ، الجزء ١١ ، ص ٤٩٣ .

(١١) وثيقة غير منشورة ، الجزء ١١ ، ل ل .

(١٢) وثيقة غير منشورة ، الجزء ١١ ، ص ٤٩٨ .

(١٣) وثيقة غير منشورة ، الجزء ١١ ، ص ٥٠٣ .

(١٤) وثيقة غير منشورة ، الجزء ١١ ، ص ٥١٠ .

(١٥) وثيقة غير منشورة ، الجزء ١١ ، ص ٥١٦ .

(١٦) وثيقة غير منشورة ، الجزء ١١ ، ص ٥١٤ .

(١٧) وثيقة غير منشورة ، الجزء ٨ ، ص ٤٣٩ وما يليها .

(١٨) انظر : مارمول كارباخال : تمرد وعقاب الموريسكيين ، ص ١٠٩ - ١١٠ ، مدريد ، ١٧٩٧ ؛ لافوينتى الكانترا (ميجيل) ، تاريخ غرناطة ، الجزء الرابع ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(١٩) انظر ، مجلة الدراسات التاريخية لغرناطة ، الجزء الأول ، ص ٧٣ .

(٢٠) وثيقة غير منشورة ، الجزء الثانى ، ص ٧١ .

(٨)
حـول الكتـابـات عـلى قبرى اثنين من رجـال بنى سراج ولوحة غرناطية أخرى مجهولة الهوية

(بقلم : إميليو جارثيا جوميث)

قـام صـديقى المبـجل الأسـتـاذ ليـڤى بروڤنسـال بنشر الكتـابات التى كـانت على قـبـور الغـرناطيين ، لاثنين من رجال سـراج بنى ، وذلك فـى كتـابه الذى نشره تحت عـنوان « كتـابات عربية بأسبانيا » (طبعة ليد - باريس ١٩٣١) والتى أقوم بطرح بعض الآراء بشأنها .

الكتـابة الأولى تحت رقم ١٧٥ (ص ١٦٣ - ١٦٤) بالكتـاب المذكـور : سبع قطع من الرخام تختص بالنصف الأسفل من لوحة من الحجر مستطيلة الشكل ، وهى تابعة لمجموعة مـقـتـنيـات جونجرا بـغـرناطة ، ويحـتـفظ بهـا اليـوم من مـتحف الآثار الوطنى (تحت رقم ٦٦١ بقائمة الجرد) فى إطار من الخشب مقاس ٠,٣٧ × ٠,٤٢م (لوحة ١) . وهى عبارة عن لوحة من الحـجـر عليـهـا كـتـابة لواحد من أهل بنى سراج ، توفى عـام ٧٦٦هـ . ويقدم السيـد ليـڤى بروڤنسـال نقل تلك القطع وترجمـتـهـا - وإن لم تكن الترجـمـة دقـيـقـة نظراً لحالة تلك اللوحة المتهـالكة - وينتـهى إلى القـول : « إنه من العـسـير أن نلقى بأى جزء مـن تلك القطع الخاصة بالكتـابة على القبـر ، التى هى بلا شك خير شـاهد على مـا بقى لنا من معلومات ، قد تكون مهمـة ، بشأن الحاشية العسكرية لسلطان غرناطة ، فى ذلك العصر » .

وهنا نورد التاريخ والنص الكامل لتلك اللوحة الحجرية .

لقد حصل معهد دون خوان ببلنسيه منذ عـامين على مجلد صغير يثير الفضول حول القرن الثامن عشر ، يستنتج منه ما يلى :

إن لوحة الحجر ، على الرغم من أنها واردة ، كما سنرى فيما بعد ، من مقبرة من ضواحى غرناطة (وفى هذه المدينة يقول ليفى بروفنسال بوجودها) ، كانت فى أوائل القرن الثامن عشر فى حيازة السيد دون بدرو دى ألبا اى بينيدا ، بقلعة يحصب ، الذى يقول أنه : « فى زمن سابق كانت اللوحة فى لاموتا (قلعة يحصب) فى بيوت أجدادى من الأم ، بين دروع السيوف التى كانت توجد بها » .

ورغبة فى قول السيد دون بدرو ألبا معرفة محتواها ، فقد أجرى اتصالات « حتى استطاع أن ينقلها بقدر الإمكان ، كما يقول الكتاب بذلك ، حيث أرسل الرسم إلى وهران ، إلى كولونيل فرقة الميدان دون خوان دى بيالبا اى انجولو ، حتى يقوم بترجمتها « السكرتير العربى مترجم سيدنا الملك الذى يحتفظ به » . وأنجز الكولونيل بيالبا المهمة ، وفى رسالته بتاريخ ١٤ مايو ١٧٣٥م أعاد إلى دون بدرو دى ألبا الرسم مع ترجمة المترجم العربى التى تقول ما يلى : « بسم الله العظيم المعظم ، وتحية لسيدنا محمد ولكل من يتبعوه . هذا قبر القائد العظيم المستشار القادر المجاهد الأسعد الأمضى الأكمل الحقيقى ، العادل فى كل شىء ، القيم الكريم ، ورحمته فى كل ما هو رحمة هو عظمة ، ابن المعظم ، الذى يخشى الله ، والجسور فى كل شىء ، والعذب فى كلامه ، وصاحب الدم النبيل لكل وطنه ، والمحترم بين الجميع : أبو عبد الله بن سراج . رحم الله روحه حيث يرقد[1] تحت جبال الأرض ، ولينام فى جلاله ، وأن تكون ذكراه خالدة بين الناس . ليهنأ تحت جبال الأرض ، ويحمله الله إليه . كان القائد فى القلعة أو فى القصبة . التقى الورع فى العام الثالث من حكمه فى عام ٧٦٦ فى أعلى المقام والحكومة . تغمده الله بالرحمة والراحة الأبدية حيث يرقد فى هذا القبر ، وإن من يزوره سينال من الله حياة أبدية ، وحبًا يتمنى له ، ويطلب مغفرة الله له ؛ إذ انقضت حياته مثلما تنتهى حياة الجميع ، وإن الله وحده هو الباقى ، وإنه هو السيد . وتحية على سيدنا محمد وعلى كل أتباعه » .

والترجمة ليست نموذجًا للدقة المتناهية ، ولكن صاحب قلعة يحصب أصبح راضيًا على الأقل « إذ إن ما ترجم لا ينفى ذلك » . ويضيف : « إن السلطة التى دعته ، هى من رجل يتمثل فى القائد العام لوهران ، الذى وثق به للخروج بالطاعة ، التى قدمها العرب لسيدنا الملك والسيد فيليبى ، وأنه لو كان هناك شك فى المترجم لما ذهب العرب إلى ذلك ، وأن جلالة

الملك جعله هنا سكرتيراً » . وكما أن العربى لم يفهم من حيث كان القائد ابن سراج من رنده ، أن جثمانه تم نقله إلى غرناطة ، فإن صاحب لوحة الحجر استدل على أن القائد كان من قلعة يحصب . وينتقل بعد ذلك إلى الشخصية غير الحقيقية : أبى القاسم طريف بن طارق ، ترجمة ميجيل دى لونا ، وخلطه بين التأريخ المسيحى والهجرى ؛ إذ يصل إلى النتيجة ، بالقول : « تم وضع حجر القبر بعد ٣١ عاما من تأسيس قلعة يحصب » يصبح ملك دويلة لابن سراج ، كما جاء ذلك فى أحد المشاهد فى إحدى الروايات التى ألفها لوبى دى بيجا . ولكننا نقول إنه على الرغم من هذه الأخطاء الساذجة ، فإن شخصية دون بدرو دى ألبا أصبحت أكثر طرافة بوصفها رمزاً لحب الاستطلاع المدهش للقرن الثامن عشر .

والسؤال : متى خرجت لوحة الحجر الخاصة بالقبر من قلعة يحصب ، وتم تكسيرها بطريقة همجية . والجواب مجهول . والشيء المؤكد هو أن اللوحة عادت إلى غرناطة ، مكانها الأول ، كاملة أو على هيئة قطع ، وأن هذه القطع انتقلت من مقتنيات جونجرا بمتحف الآثار الوطنى . وفيما يتعلق بأوراق دون بدرو دى ألبا ، فقد ذكرنا أنه تم الحصول عليها مؤخراً بوسطة معهد دون خوان بيلنسيه .

وبدراسة هذه القطع يمكن التحقق مما إذا كانت ترجمة المترجم العربى بوهران سيئة للغاية ، وإن كان على العكس ، فإن الرسم أو النقل الذى قام به خطاط أندلسى يتسم بالدقة المتناهية. وشكراً له .

أما اللوحة الثانية ، فهى التى يدرسها السيد ليڤى بروڤنسال فى مجموعته ، تحت رقم ١٨٠ (ص ١٦٨ - ١٦٩) ويقوم بنسخها فى اللوحة رقم ٤٤أ . وتختص بالقائد أبى جعفر أحمد بن عبد الله بن سراج (المتوفى بسقوطه من أعلى الحصان فى ٢ شوال ٨٠٦ هـ الموافق ١٤ من أبريل سنة ١٤٠٤م) ، ويرد فى مجموعة مقتنيات دون ماريانو الونسو بغرناطة . وليس عندي ما أضيفه إلى النسخ ، والترجمة التى قام بها ليڤى بروڤنسال ، ولكن بفضل إحدى الوثائق المحفوظة فى مكتبة دون فرنسيسكو كوديرا ، والمدرجة فى مكتبة دون ميجيل آسين (صندوق رقم ١٠) ، يمكن أن أقدم الأبعاد ، وتخطيط تاريخ هذه اللوحة ، وهى أمور لا يمكن أن أدقق فيها مثلما فعل صديقى الفرنسى ، بوصفها صوراً فقط أبلغه بها السيد مانويل جوميث مورينو .

فى ١٥ مارس ١٨٩٨ كان السيد أنطونيو الماجرو كارديناس ، أستاذ اللغة العربية بجامعة غرناطة ، متوجهًا فى أمر رسمى إلى سكرتير المجمع الملكى للتاريخ ، لكى يرسل إليه «صورة لوحة عربية تم اكتشافها حديثًا فى ضاحية غرناطة بالقرب من " سانتافى " ، ومعها مقالة مع الترجمة للكتابة الموجودة على اللوحة وظروف اكتشافها ، حتى يتمكن المجمع الملكى للتاريخ من نشرها فى نشرته ؛ إذ إن البحث جدير بذلك » .

كل ما أشير إليه محفوظ . النسخ والترجمة التى قام بها الماجرو بها أخطاء عديدة ، وفقدت كل فاعليتها . وليس هذا فى أجزاء من المقال ، أو التقرير الذى استخرج منه الموضوعات الهامة :

منذ عام[٢] تقريبًا ، تم فتح الملف بشأن التحقق من هذا الأمر فى " سانتافى " ، وليس ببعيد عن " الليسانه "، حيث وجد الفلاحون شيئًا شد انتباههم للغاية . كان عبارة عن لوحة كبيرة من الرخام الأبيض ، ولظروف وجودها حول حفرة مغطاة بالحجارة ، كانت مؤشراً شبه مؤكد لاكتشاف هام . وكان لجشع هؤلاء العمال وفضولهم الذى أثارته تلك الظروف ، لم يتم التوصل لشىء يرضى فضولهم ؛ إذ كانوا يأملون فى إيجاد شىء آخر .، ومع ذلك وجدوا فقط بعض أطراف الأسلحة وحراب وسهام . وبمواصلة عمليات الحفر وجدوا ، إلى جانب ذلك ، بعض الأشياء من الخزف فى داخل الحفرة التى كانت تغطيها الحجارة ، ووجدوا بعض العظام التى تحولت إلى ذرات تراب . وبرفع تلك اللوحة ظهرت بعض العلامات الى لم تشبع حب استطلاعهم أكثر من ضيقهم ؛ إذ لم يجدوا ما كانوا يحلمون به ، ولحالة الإحباط التى شعروا بها ، بعد عمل لم يحقق كسبًا ، تركوا اللوحة تسقط على الأرض فانقسمت إلي قطعتين .

كا هذا حدث فى أواخر عام ١٨٩٦ ، تم إخطار صاحب المزرعة بذلك ، الذى كان سكرتيراً لصالة المحكمة بغرناطة ، دون ماريانو الونسو قلعة أيوب ؛ فأعلن استعداده لنقل اللوحة إلى المدينة ، وقام صاحب التقرير بدراسة متأنية للوحة ، حيث استدل على أنها نقش أو كتابة لمقبرة عرضها ٤٧سم ، وطولها ٨٧سم ..

والصعب فى هذا الأمر هو التحقق من وجود هذه اللوحة فى وسط المزارع ، وفى مكان غير مأهول بالسكان . وربما فى عصور ماضية كانت هناك قلعة تهدمت فى هذه الأيام ، واثارها ممثلة فى تلك القطع المتناثرة من الخزف والأسلحة والأشياء الأخرى التى وجدت فى هذا المكان. ولكن هذا من الصعب التحقق منه والتدقيق فيه .

وأوصى المجمع الملكي للتاريخ في جلسته بتاريخ ١٨ مارس ١٨٩٨ بدراسة تقرير الماجرو كاردیناس لكل من السادة دون إدواردو سافدرا ودون فرانسيسكو كوديرا . ولم يثق أى منهما فيما ذكره الماجرو (وهذا لا يعنى القول أن ذلك لا يستحق جدارة كبيرة ، وهذا الأمر لا يفعلانه ، ومن جهة أخرى لا يغفله قراءة هذه المجلة)[٣] وقد توجها إلى دون مانويل جوميث مورينو ، على الفور في غرناطة الذى كتب إلى سافدرا فى ١٨ أبريل ١٩٠٤ بأن يرسل إليه الصور الأخرى للوحة والرسم الذى قام به :

« أتيحت لى الفرصة فى أن أرى نسخة من صورة السيد الماجرو ، التى لا أثق فى صحتها. لقد حصل على صورة الأصل ولكنه أعاد طلاءها تمامًا ، مما أدى إلى فقدان صفتها ، وحذف وألغى بعضًا منها ، وإنه من النسخة التى ربما حصل على صورة فوتوغرافية لها ، وهذه الصورة هى التى أرسلها إلى المجمع الملكى للتاريخ » .

ولقد عرض دون إدواردو سافدرا هذه الوثيقة ، التى يحتفظ بها ، على دون فرانسيسكو كوديرا بخطاب يثير الفضول الشديد فى ٢٣ أبريل ١٩٠٤ . وقام كوديرا بعادته الفاحصة بدراسة اللوحة ، ولكن لم يصل إلى إعلان هذه الدراسة ، ربما للدراسات السابقة عن الموضوع أو ربما لسبب آخر غير معروف .

وبعد ذلك تفضل دون مانويل جوميث مورينو بتزويد السيد ليفى بروفنسال بصور جديدة استفاد منها فى مجموعة مقتنياته .

وسأقوم الآن بالحديث عن لوحة ثالثة لكتابة على مقبرة غرناطية غير معروفة بالمرة ، وغير معروف مكانها . ويحتفظ فقط بقطاع منها محفور على الصلب ربما تعود إلى القرن الثامن عشر ومقاسها ٠,٢٨٩ × ٠,١٥٤ م .

وإلى الأستاذ دون مانويل جوميث مورينو ، الذى أدين له بوصول هذا القطاع من اللوحة ، والذى ورثه عن أبيه إلى جانب عديد من اللوحات الغرناطية ؛ إذ أدين له أيضًا ببعض الإشارات حول أصلها . وفى البداية كان الاعتقاد بأن اللوحة كان لها علاقة بعمليات الحفريات المشهورة التى تم القيام بها فى منتصف القرن الثامن عشر (١٧٥٤-١٧٥٩) فى قصبة غرناطة . وبمعرفة هذه الحفريات تم التيقن من القليل منها ، والكثير كان زائفًا (مثال ذلك الأعمال التى تم اكتشافها فى تورى توربينا (١٥٨٨) والكتب التى نشرت عن

السكرومونتى (١٥٩٥) والتى أفسحت المجال أمام تلك الاكتشافات الزائفة [٤]. ومن المعروف أن فلوريس والمشتركين معه كانوا يسعون بنشر أخبار عن اكتشافاتهم الحقيقية والمزيفة، وأنهم قاموا بنقش لوحات للأشياء . وباكتشاف تلك الخدع والحيل تم إيقاف هذا الأمر قضائيًا ، وأنه تم تدمير تلك الأشياء نهائيًا نهائيًا حتى لا تكون مدعاة لتزييف التاريخ ، وباستثناء بعض النسخ النادرة مثل واحدة وصلت إلى أيدى السيد جوميث مورينو . والآن ، فإن هذه اللوحات لم تصل إلى رقم ٨٣ الذى يكون طرفنا . ونتساءل هل تشكل هذه اللوحة جزءًا من نماذج الكتابة العربية التى كان يفكر فلوريس فى نشرها . الأمر غير معروف ، ولكن - بلا شك - فى هذه البيئة والعصر حيث يجب البحث عن أصل الرسم والنقوش .

وفى الواقع ، فإن لوحة الكتابة على القبر أصلية ، وهى لا تتعلق بمحارب مثل اللوحات المدروسة سلفًا ، وإنما تتعلق بقديس كبير (هل هو من الشرق أم من أفريقيا) يدعى أبو محمد الحاج حسن بن صالح بن على ، والمكنى باسم حبحبى البعدان [٥]، المتوفى فى ٢٥ شوال ٨٣٣هـ - الموافق ١٧ يوليو ١٤٣٠م . كان ملازمًا أو نائبًا (خليفة) لسيدى أحمد الرفاعى المتصوف المشرقى المشهور ومؤسس طريقة الرفاعية ومذهبها (المتوفى ٢٢ جمادى الأولي ٥٧٨ هـ - الموافق ٢٣ سبتمبر ١١٨٣م)[٦] وأنه جاء إلى أسبانيا للقيام بالحرب المقدسة وبلا شك أيضًا - وهذا خبر يثير الفضول - للقيام بنشر الدعوة لطريقته .

والرسم يظهر بوضوح مثله مثل الرسم الموجود على اللوحة الأولى لكتابة على القبر الذى نشغل أنفسنا به فى هذه التعليقات .

وحول سلسلة من لوحات القبور الغرناطية الرائعة ، التى لا تعتبر طويلة لإعجابنا به وجب استطلاعنا (حوالى عشرين نسخة ، وإن كانت كلها ليست كاملة وأن البعض منها معروف من خلال نصوصها) ، حيث تضم فى اللوحات التى درسناها ، ومن حيث أشكالها ومواصفاتها ، انظر الكتاب المذكور للأستاذ ليفى بروفنسال رقم ١٥٩ - ١٨٥ ، صفحات ١٤٣ - ٢٧٨ واللوحات أرقام ٣٧ و ٤٤ .

ولسوء الحظ ، فإنه ليس بإمكانى أن أقدم أى بيان إضافى عن السيرة الحياتية لهؤلاء الأشخاص التى تتعلق بهم تلك اللوحات المدروسة . وعن الشيخ حسن بن صالح ربما توجد أخبار فى مؤلفات المتصوف ، وفى مجموعات السير الذاتية للمتصوفة ، وإننى فى هذه الفترة لم أفكر فيها ، وليست فى متناول يدى الآن . وفيما يتعلق برجال بنى سراج ، فقد لاحظ

ليفى بروفنسال ندرة المعلومات والبيانات الموجودة حول هذه الأسرة وأصولها (٨). ولقد وصل سيبولد فى مقاله عن ابن سراج فى موسوعة الإسلام ، إلى أنه لا توجد صيغة ابن سراج ، وأن اسم ابن سراج مشتق من ابن السراج (ابن بائع الكراسى) وهى معروفة جيداً منذ أقدم عصور السيطرة الإسلامية على شبه الجزيرة . وهنا يتجاوز النقد حدوده . إن اللوحتين تؤكدان لنا وجود هذه الأسرة المشهورة ، وغير المعروفة جيداً حتى الآن فى وثائقنا التاريخية الجافة ، ولكنها مملوءة بالحياة فى التاريخ السردى الروائى والمثير للهزل ، وفى الأسطورة وفى الشعر ، وذلك انطلاقًا من هذا العاشق السعيد الولهان بالجميلة ظريفة ، مروراً بالتيار الرومانسى والمسرح ، حتى مجىء تلك الشخصية البارزة المتمثلة فى الشاعر الفرنسى شاتو بريان .

المصدر :

إميليو جارثيا جومبث : مجلة الدراسات العربية بمدريد وغرناطة ، ١٩٤٢ .

الهوامش :

(١) ترد هذه الكلمة فى الأصل « يرقد » ولكن دون بدرو دى ألبا قرأها « ها قد نزل إلى الأرض » ويصيف « يريد أن يقول : ها قد انتهى ونزل الإنسان الذى هو تراب » .

(٢) الكتاب يحمل تاريخ ٩ مارس ١٨٩٨م .

(٣) كتابات عربية على الحمراء وجنة العريف ، فى أخبار الاثار بأسبانيا الإسلامية ، المجلد الرابع ، مجلة الأندلس ، المجلد الرابع (١٩٣٦ - ١٩٣٩) صفحات ١٧٤ - ١٧٥ .

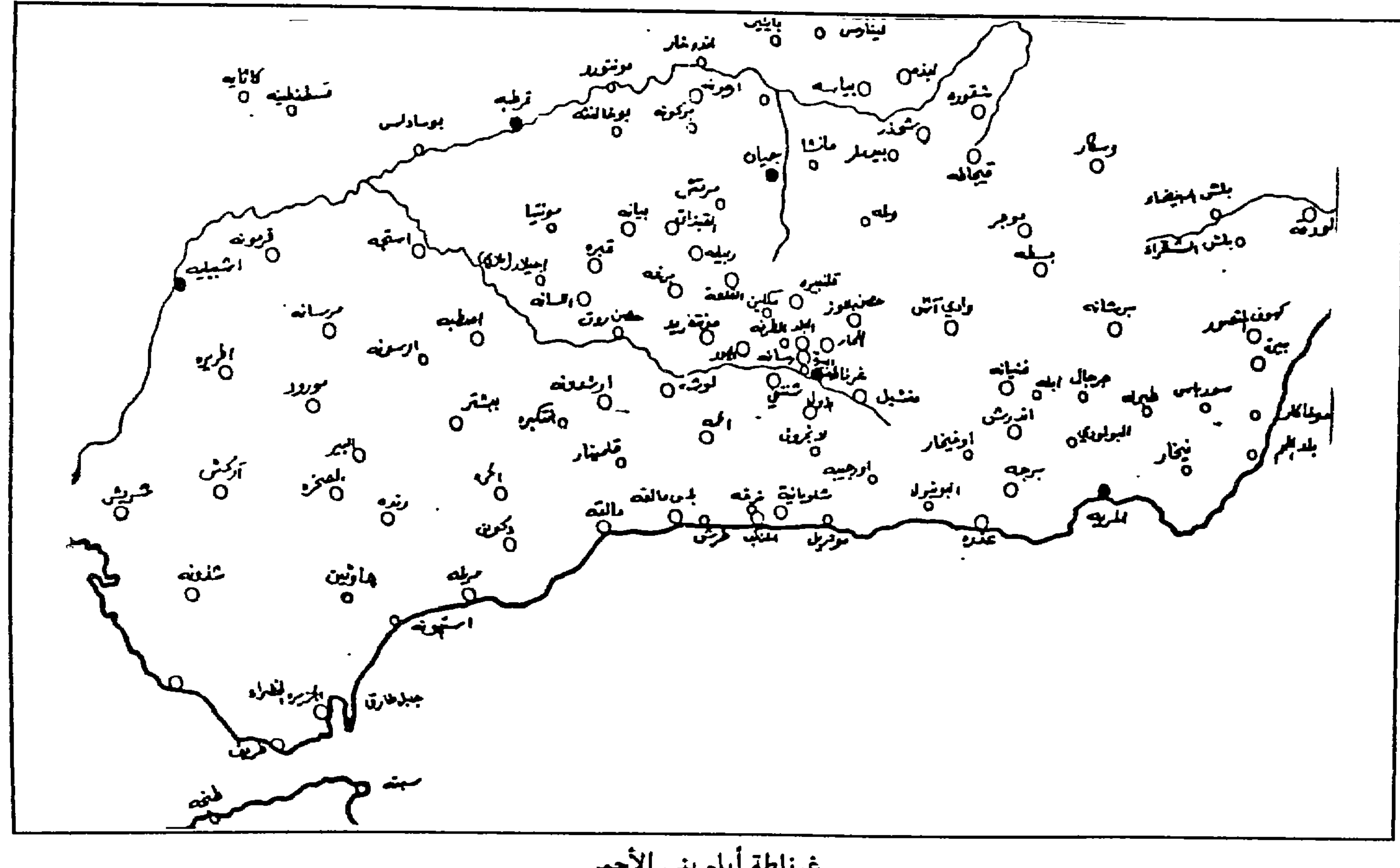
(٤) انظر ، كتاب « سبب الحكم المتبع فى مدينة غرناطة ... ضد بعض عمليات التزييف » ، مدريد - ايبار ١٧٨١ . مختصرات عن المسألة فى أوليفر وغرناطة وآثارها العربية ، ملحق ١ ، جوميث مورينو ، آثار رومانية وقوطية فى غرناطة (غرناطة ، دار النشر لاليلتاد (١٨٩٠) جودى دى الكانترا ، التاريخ النقدى للأخبار الكاذبة ص ٣١٧ وما يليها .

(٥) انظر ، إنفرا ، ص ٢٩٦ ، ملحوظة رقم ١ .

(٦) انظر ، موسوعة الإسلام ، المجلد الثالث ، صفحات ١٢٣٦ - ١٢٣٧ (مرجليوث).

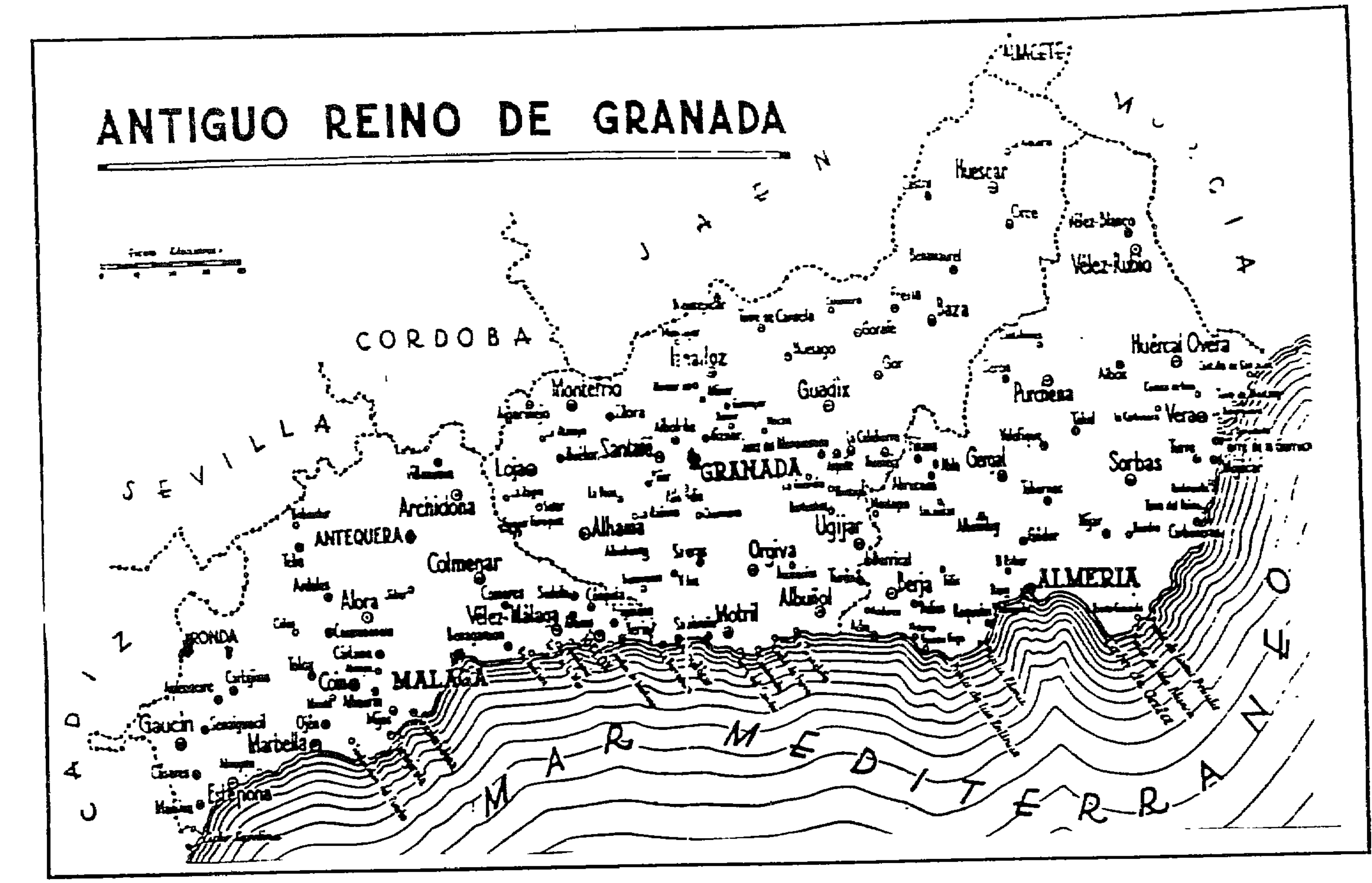
(٧) فى النسخ بالنسبة لتوزيع أسطر الرسم الذى يجب أن يكون بنفس الطريقة التى كانت عليها اللوحة .

(٨) يذكر ليفى بروفنسال الطبيب محمد بن إبراهيم بن سراج (المتوفى ٧٣٠ هـ الموافق ١٣٢٩ - ١٣٣٠م) الذى يذكره ابن الخطيب فى الإحاطة (طبعة القاهرة) والسيرة الذاتية (مخطوطة الأسكوريال ١٦١٤ ص ١٤٠ ومخطوطة المجمع الملكى للتاريخ ، الجزء الثانى ، الجزء الثالث ص ٢ ومخطوطة المكتبة الوطنية بمدريد جزء ٢٦ صفحة ٢٦٦ .



غرناطة أيام بنى الأحمر

مملكة غرناطة



المحتويات



مؤلف الكتاب

الاســـــم : أ.د. عبد الفتاح عبد الفتاح عوض

الـوظـيفة : أستاذ ورئيس قسم اللغة الإسبانية

جهة العمل : كلية الآداب - جامعة القاهرة

المؤلفات والأبحاث : باللغة العربية :

* كتاب : السخرية فى روايات بابيستير - المطبعة الفنية الحديثة - القاهرة ١٩٩٠ .
* كتاب : دراسات إسبانية - المطبعة الفنية الحديثة - القاهرة ١٩٩٠ .
* كتاب فصول فى تاريخ الأندلس (مترجم) القاهرة ١٩٩٣
* بحث : الأندلس في ديوان مانويل ماتشادو - المؤتمر الدولى للحضارة الأندلسية - جامعة القاهرة ١٩٨٨ .
* بحث : طليطلة وأشبيلية : مركزان من مراكز الإشعاع الفكرى فى عهد ألفونسو الحكيم- القاهرة ١٩٩٠ .
* بحث : فقه اللغة ودراسة أدب العصور الوسطى - القاهرة ١٩٩٠ .
* بحث : لحظة القمة فى المسرح الإسبانى والإنجليزى - القاهرة ١٩٩٠ .
* بحث : منظور الرواية المعاصرة فى أمريكا اللاتينية - القاهرة ١٩٩٢ .
* بحث : رؤية حول بناء الجملة الفعلية فى اللغتين العربية والإسبانية - مجلة الدراسات اللغوية - مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - المجلد الأول - العدد الثالث - الرياض ١٩٩٩ .
* بحث : الحرب الأهلية الإسبانية وشعراء جيل ١٨٩٨ - مؤتمر التاريخ والأدب الإسبانى فى القرن العشرين - كلية الآداب - جامعة القاهرة ٢٠٠٠ .
* ترجمة ودراسة سيميولوجية لمسرحية " زهرة من ورق " للكاتب رامون دل بايى إنكلان - القاهرة ٢٠٠١ .

باللغة الإسبانية :

* كتاب : دراسات إسبانية ، القاهرة ١٩٩٥ .

* بحث : التراكيب الأدبية فى النقد السيميولوجى - مجلة كلية الآداب - العدد ٥٢ - القاهرة ١٩٩١ .

* بحث : إشكالية ومنهج النحو التاريخى فى اللغة الإسبانية - ١٩٩١ .

* بحث : صورة العاشقة المتمردة فى روايات ماتونى - القاهرة ١٩٩٥ .

* بحث : عاطفة الحب فى ديوان الشاعر المكسيكى أمادو نيربو - القاهرة ١٩٩٢ .

* بحث : البنية والمضون فى رواية قاطع الطريق للكاتب تيرسو دى مولينا - مجلة كلية االآداب - العدد ٦٠ - القاهرة ١٩٩٣ .

* بحث : العلاقة بين روايات الشطار والفصول الفكاهية - القاهرة ١٩٩٣ .

* بحث : أوجه اللقاء بين " الزواج المخادع " و " حوار الكلاب " - القاهرج ١٩٩٣ .

* بحث : فورتوناتا وخاثينتا : رواية مدريدية - مجلة كلية الآدب - العدد ٥٩ ، القاهرة ١٩٩٣ .

* بحث : رؤية نقدية للفن القصصى للكتابة ماتوتى - القاهرة ١٩٩٤ .

* بحث : نموذج المرأة فى روايات ماتوتى - القاهرة ١٩٩٤.

* بحث : سونيتات بابى إنكلان - دراسة نقدية - مجلة كلية الآداب - العدد ٦٥ - القاهرة ١٩٩٤ .

* بحث : من " لاثاريو " إلى " إلينا " أو استحالة الموت - القاهرة ١٩٩٤ .

* بحث : الحدث والبنية والشخصية فى مسرحية " المحظية " لميجيل دى ثربانتيس - القاهرة ١٩٩٤ .

* بحث : الكوميديا الجديدة : لوبى دى بيجا ومسرح بلنسية فى القرن السابع عشر - القاهرة ١٩٩٥ .

* بحث : مسرحية " مخادع النساء الإشبيلى " أو " ضيف التمثال الحجرى " لتيرسو دى مولينا - القاهرة ١٩٩٥ .

* بحث : الطموح إلى المجد والمثالية لدى النساء فى أشعار اسبرونثيدا وبيكر - القاهرة ١٩٩٥ .

* بحث : صور وأبعاد العاشقة المتمردة فى روايات آنا ماريا ماتونى - القاهرة ١٩٩٥ .
* بحث : بناء الجملة فى اللغتين العربية والإسبانية وفقًا لعلم اللغة المعاصر - القاهرة ١٩٩٥ .
* بحث : العالمية والرومانسية فى ديوان شاعر بوليفيا ريكاردو خاييس فريرى - القاهرة ١٩٩٦ .
* بحث : الشعر واللغة الشاعرة فى قصيدة لشاعر المكسيك خايى سابينيس - القاهرة ١٩٩٦ .
* بحث : صور التفخيم والتصغير فى الأسماء المستعارة بين العربية والإسبانية - القاهرة ١٩٩٩ . (ألقى بالعربية والإسبانية فى ندوة الإسلام والثقافة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر - ديسمبر ١٩٩٩) .

المشاركة فى الندوات والمؤتمرات العلمية :

* مؤتمر الحوار الإسلامى المسيحى - قرطبة - إسبانيا ١٩٨٢ .
* المؤتمر الدولى الأول للحضارة الأندلسية - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٨٨ .
* ندوة : جالدوس والواقعية فى الرواية الإسبانية - المركز الثقافى الإسبانى بالقاهرة ١٩٩١ .
* ندوة الثقافة المكسيكية - الأسبوع الثقافى المكسيكى بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٩٢ .
* مؤتمر الأندلس الدولى : قرون من التقلبات والعطاءات - مكتبة الملك عبد العزيز العامة - الرياض ١٩٩٤ .
* ندوة علم لغة النص - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٩٩ .
* الندوة الدولية الأولى : الإسلام والثقافة الإسبانية - كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر ١٩٩٩ .
* مؤتمر التاريخ والأدب الإسبانى فى القرن العشرين - كلية الآداب - جامعة القاهرة ٢٠٠٠ .





رقم الإيداع ١٨٨٥١/ ٢٠٠٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 049 - 4

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع سوبار - باب اللوق







للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES